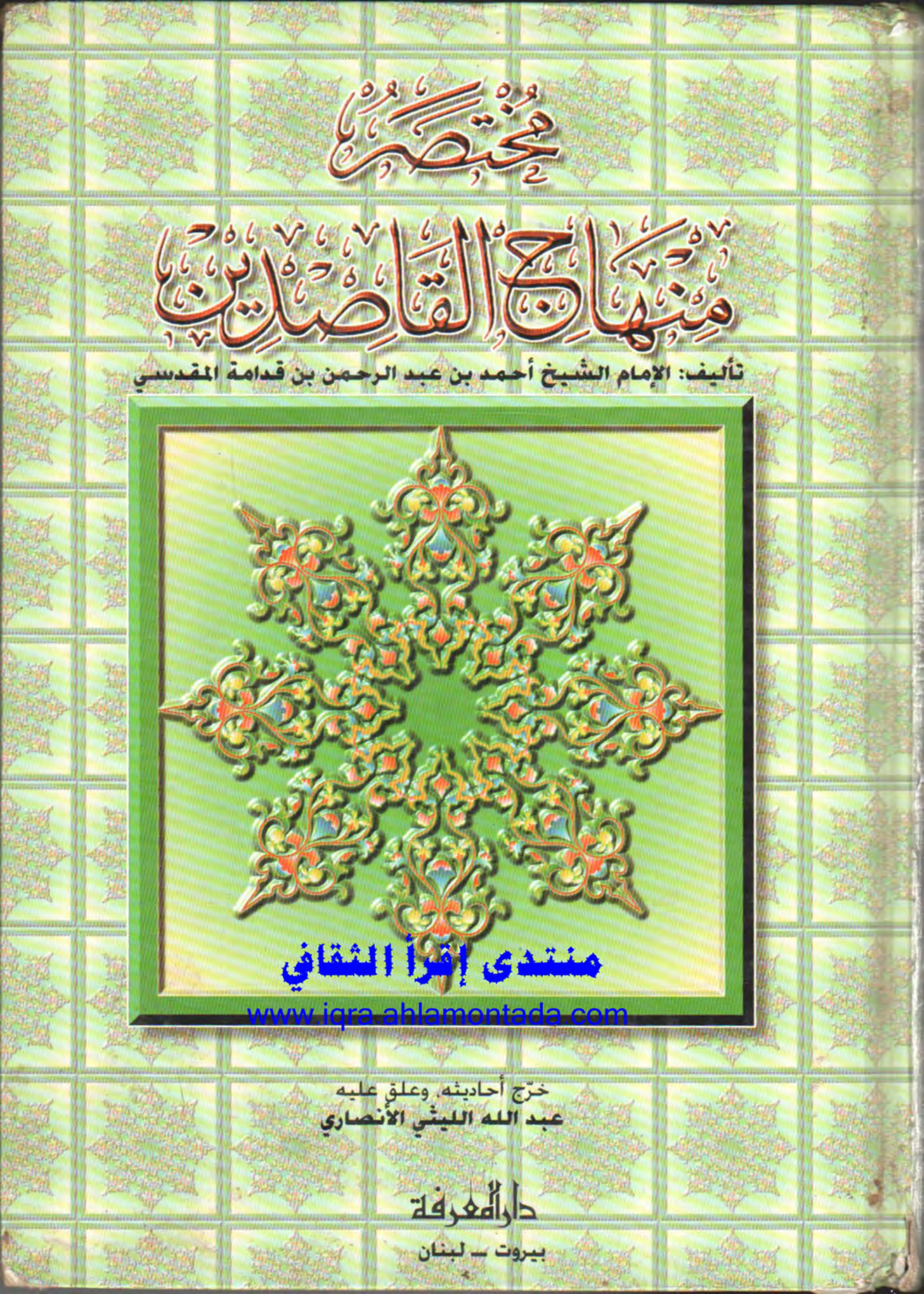

مختصر
منهاج القاصدين
تأليف: الإمام الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي
منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
خرّج أحاديثه، وعلق عليه
عبد الله الليثي الأنصاري
دار المعرفة
بيروت ـ لبنان

مختصر منهاج القاصدين

تأليف

الإمام الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي

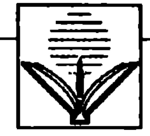
خرج أحاديثه، وعلق عليه

عبد الله الليثي الأنصاري

دار المعرفة
بيروت - لبنان

الطبعة الرابعة : 1420 هـــ 2000 م

DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing



دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع

مستديرة المطار، شارع البرجاوي، ص.ب ٧٨٧٦، هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٣٤٣٣٢، فاكس ٦٠٣٣٨٤، برقياً: معرفكار بيروت - لبنان

Airport Square, P.O.Box: 7876, Tel: 834332, 834301, Fax: 603384, Beirut · Lebanon

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده الذي جاهد لنشر تعاليم الإسلام، ومكارم الأخلاق، وعلى آله وصحبه الذين اهتدوا بهديه، ففازوا برضوان الله وثوابه.

وبعد، فقد كان لكتاب إحياء علوم الدين الذي كتبه الإمام أبو حامد الغزالي، في أواخر القرن الخامس الهجري، أثر كبير في الذب عن دين الله خصوصاً أن مؤلفه حشد فيه من الحض على حسن الأخلاق والآداب ما استوعبت ذاكرته الواسعة. كما بين فيه طائفة كبيرة من الأخلاق والآداب والعادات التي حادت عن نهج الإسلام فشرحها وحث على النهي عنها. فكان كتابه كتاب أخلاق وتربية إلى جانب أبحاث فقهية كثيرة تنفع الناس.

إلا أن الكتاب سبب ضجة كبيرة بين منتصر له وناقد. وينحصر النقد في أمرين أساسيين أولهما وأهمهما في الأحاديث الموضوعة التي أوردها الإمام الغزالي فيه والثاني في التطويل والتذمر من كبر حجمه مما دفع الإمام نفسه إلى اختصاره في مجلد واحد جمع جميع أبوابه وأشار إليها وقد قامت دار الفكر بنشر الكتاب عام ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

وكان في طليعة من انتقد الكتاب الإمام عبد الرحمن بن الجوزي (٥١٠ - ٥٩٧هـ) وكان نقده بناءاً فقد عمد إلى الكتاب فحذف منه الأحاديث الموضوعة وأثبت مكانها الأحاديث الصحيحة كما حذف القصص والحكايات التي لا فائدة منها فجاء كتابه منهاج القاصدين مختصراً منقحاً للإحياء.

ثم جاء بعده في القرن السابع الهجري الإمام أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي (٦٥١ - ٦٨٩هـ). فعمد إلى كتاب منهاج القاصدين فخلصه من المسائل الفقهية لأن موضعها كتب الفقه والكتاب اشتهر ككتاب أخلاق وتربية وأصبح أقل من عشر حجمه الأصلي ويسر قراءته للناس فكان مختصراً للمختصر.

وقد قام الفاضل الشيخ محمد أحمد دهمان بطبع هذا الكتاب بنفسه كما عهد إلى أفاضل آخرين بطبعه ونشره والنفع به إلا أنه وللأسف الشديد توقف طبع الكتاب بسبب خلافات بين الناشرين ولذلك لم تتحقق الفائدة منه.

ولذلك وحرصاً منا على توفير الكتاب للقراء الكرام عهدنا إلى الأستاذ عبدالله الليثي الأنصاري بمراجعة الكتاب فقام مشكوراً بضبط النص على نسخ قديمة مطبوعة وقام بعزو الآيات وذكرها في مواضعها كما قام بتخريج الأحاديث ومراجعتها على أمهات الكتب كما أنشأ فهرساً لأطراف الأحاديث الواردة في الكتاب وفهرساً مطولاً لجميع أبواب وفصول الكتاب كما عنينا عناية خاصة بتصحيح تجارب المطبعة ليصدر الكتاب بما يليق به من الضبط وحسن الإخراج. وآلينا على أنفسنا أن نضع هذا السفر الجليل في متناول الجميع وأن نسهل سبيل الحصول عليه.

وفقنا الله لشكر نعمه ونصرة دينه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الناشر

محرم الحرام ١٤٠٨هـ

سبتمبر أيلول ١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالم الزاهد العابد الأوحد العلامة، نجم الدين أبو العباس أحمد، بن الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد العلامة، عز الدين أبي عبدالله محمد، ابن الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد العلامة شيخ الإسلام مفتي الأنام، سيد العلماء والحكام، شمس الدين، أبي محمد عبد الرحمن، ابن الشيخ الإمام العالم العامل العارف الزاهد الورع شيخ الإسلام، أبي عمر محمد بن أحمد ابن محمد بن قدامة، المقدسي الحنبلي رضي الله عنه:

الحمد لله الذي عَمَّ برحمته جميع العباد، وخص أهل طاعته بالهداية إلى سبيل الرشاد، ووفقهم بلطفه لصالح الأعمال، ففازوا ببلوغ المراد.

أحمده حمد معترف بجزيل الإرفاد وأعوذ به من وبيل الطرد والإبعاد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أدخرُها ليوم المعاد.

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله، موضح طريق الهدى والسداد، قامع الجاحدين والملحدين من أهل الزيغ والعناد، صلى الله تعالى عليه وعلى آله الأكرمين الأجواد، صلاة تبلغه بها نهاية الأمل والمراد.

وبعد: فإنّي كنت وقفت مرة على كتاب: «منهاج القاصدين» للشيخ الإمام العالم الأوحد، جمال الدين ابن الجوزي، رحمه الله تعالى، فرأيته من أجل الكتب وأنفعها، وأكثرها فوائد، فحصل عندي بموقع، ورغبت في تحصيله ومطالعته، فلما تأملته ثانياً، وجدته فوق ما كان في نفسي، لكن رأيته كتاباً مبسوطاً، فأحببت أن أعلّق منه هذا المختصر الذي قد احتوى على أكثر مقاصده، وأجل مهماته وفوائده سوى ما ذكر في أوائله من مسائل ظاهرة تتعلق بالفروع، فإنها مشهورة في كتب الفقه المستفيضة بين الناس، إذ كان المقصود من الكتاب غير ذلك.

ولم ألتزم فيه المحافظة على ترتيبه وذكر ألفاظه بعينها، بل ذكرت بعضها بالمعنى قصداً للاختصار، وربما ذكرت فيه حديثاً أو شيئاً يسيراً من غيره إن كان مناسباً له، والله تعالى أعلم.

وأسأل الله الكريم أن ينفعنا به، ومن قرأه، أو سمعه، أو نظر فيه، وأن يجعله خالصاً لوجهه، وأن يختم لنا بخير، ويوفقنا لما يرضاه من القول والعمل والنية، وأن يسامحنا في تقصيرنا وتفريطنا، ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقه، فإنه حسبنا ونعم الوكيل[1].

قال المصنف [ابن الجوزي] رحمة الله عليه ـ بعد فراغه من هذه الخطبة:

أما بعد: فإني رأيتك أيها المريد الصادق، والعازم الجازم، قد وطنت نفسك على التخلي عن فضول الدنيا الشاغلة، وعزمت على الانقطاع إلى الآخرة، علماً منك أن مخالطة الخلق توجب التخليط، وإهمال المحاسبة للنفس أصل التفريط، وأن العمر إن لم يستدرك أدركه الفوت، وأن مراحل الأنفاس تسرع بالراكب إلى منزل الموت. فنظرت أي أنيس من الكتب تستصحبه في خلوتك، وتستنطقه في حال صمتك، فإذا أنت تؤثر كتاب «إحياء علوم الدين» وتزعم انفراده في جنسه، ونفاسته في نفسه.

فاعلم أن في كتاب «الإحياء» آفات لا يعلمها إلا العلماء. وأقلها الأحاديث الباطلة الموضوعة والموقوفة، وقد جعلها مرفوعة، وإنما نقلها كما اقتراها لا أنه افتراها، ولا ينبغي التعبد بحديث موضوع، والاغترار بلفظ مصنوع.

وكيف أرتضي لك أن تصلي صلوات الأيام ولياليها، وليس فيها كلمة قالها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) هذه الخطبة موجودة في نسخة، وفي نسخة أخرى بدلاً عنها الخطبة المدرجة هنا وهي هذه بعد البسملة:

«الحمد لله منبه الراقدين في غفلاتهم بمزعجات الإيقاظ، ومنزه التائبين من هفواتهم بملاطفات الوعاظ، ومحدث العارفين في خلواتهم بأحلى الكلمات والألفاظ، ومحذر الزاهدين بأشرف شهواتهم تأدباً حتى فرقوا عن الظاهرين اللحاظ، وقاموا إلى محاربة النفوس قيام الليث لحرب المغتاظ، وحفظوا ما استحفظوا فحفظوا وإنما الحفظ للحفاظ.

أحمده حمداً كثيراً فائت العدد دائم الألفاظ، وأصلي وأسلم على نبيه محمد الذي أعجز الفصحاء بما جاء به قسّ يوم عكاظ، وعلى آله وأصحابه أهل اليقين والتقى والاستيقاظ، صلاة أتقي بها يوم البعث حر لظى والشواظ، ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ.

قال مؤلفه عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي رحمه الله: سميت كتابي هذا: «منهاج القاصدين ومفيد الصادقين».

وأسأل الله تعالى أن ينفعنا به ومن قرأه، أو سمعه، أو نظر فيه، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يختم لنا بخير ويوفقنا لما يرضيه من القول والعمل والنية، وأن يسامحنا في تقصيرنا وتفريطنا ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا إلى أحد من خلقه، فإنه حسبنا ونعم الوكيل.

وكيف أوثر أن يطرق سمعك من كلام المتصوفة الذي جمعه وندب إلى العمل به ما لا حاصل له من الكلام في الفناء، والبقاء، والأمر بشدة الجوع، والخروج إلى السياحة في غير حاجة، والدخول في الفلاة بغير زاد، إلى غير ذلك مما قد كشفت عن عواره في كتابي المسمى بـ «تلبيس إبليس».

وسأكتب لك كتاباً يخلو عن مفاسده، ولا يخل بفوائده، أعتمد فيه من النقول الأصح والأشهر، ومن المعنى الأثبت والأجود، وأحذف ما يصلح حذفه، وأزيد ما يصلح أن يزاد.

ثم قال بعد ذلك: وإذ قد صح عزمك على العزلة لاستيفاء حق الحق من النفس، والأخذ على يدها، فليكن وكيلك عليها العلم، وكن باحثاً عن دقائق هواها لعلك تسلم، واحذر سبيل أحد رجلين:

عالم عرف الجدال في الفقه واقتنع برئاسته، أو نال القضاء فسعى في حفظ منزلته، أو زخرف الوعظ فضيق أعين شبكته.

أو زاهد يتقلب برأيه الفاسد في جهالته، ويتقرب بتقبيل يده واعتقاد بركته، ويعمل بهواه دون شرع الله وسنته.

فهذان عادلان عن منهاج الصواب، مقتنعان بقشور الأعمال عن خالص اللباب، خادعان للمبتدئين بلامع السراب، وطريقهما بمعزل عن سنن السلف الصالح الذي هو جادة الاستقامة وطريق السلامة.

وسأدرج لك في هذا الكتاب إن شاء الله من أخبارهم ما يدل على آثارهم.

وكتابنا هذا يحتاج إليه المُنْتهي، كما يفتقر إليه المُبْتدي، لأن فيه أسرار العبادات، والتحذير من آفات المعاملات. وقد جعله المصنف أربعة أرباع:

الأول : ربع العبادات.

والثاني : ربع العادات.

والثالث: ربع المهلكات.

والرابع: ربع المنجيات.

وكل واحدة من هذه الأقسام الأربعة يشتمل على كتب، وأبواب، وفصول، فمن أقسام الربع الأول:

كتاب العلم وفضله وما يتعلق به

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] قال ابن عباس رضي الله عنهما: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وفي «الصحيحين» من حديث معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْراً يُفَقِّهه في الدِّين»[١].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: ذكر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلان: أحدهما: عابد، والآخر: عالم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فَضْلُ العَالِمِ عَلى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلى أَدْنَاكُم»، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله وملائكته، وأهل السَّمواتِ والأرض، حَتَّى النَّملَة في جُحرها، وحتى الحُوت لَيُصلُّونَ عَلى مُعَلِّمي النَّاسِ الخَير» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح[٢].

وفي حديث آخر: «فَضْلُ العَالِمِ علَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[٣].

---

(١) البخاري (١/٢٧)، مسلم (٣/٩٠، ٦/٥٤).

(٢) الترمذي (٢٦٨٥) وقال: هذا حديث غريب، ورواه الدارمي (١/٨٨) مرسلا عن مكحول.

تنبيه: لم يقع عند الترمذي قوله «حديث حسن صحيح».

(٣) ابن ماجة (٢٢٣) وابن حبان (٨٠ - موارد).

وعن صفوان بن عسال رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب» رواه الإمام أحمد، وابن ماجه[1].

قال الخطابي: في معنى وضعها أجنحتها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه بسط الأجنحة.

الثاني: أنه بمعنى التواضع تعظيماً لطالب العلم.

الثالث: أن المراد به النزول عند مجالس العلم وترك الطيران.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة» رواه مسلم[2].

وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَن جَاءَهُ المَوت وَهُو يَطْلُبُ العِلم لِيُحيِيَ بِهِ الإسلام، كَانَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الأنبياءِ في الجنَّة دَرَجَة واحِدَة»[3]، وفيه أخبار كثيرة.

وكان بعض الحكماء يقول: ليت شعري، أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدركِ العلم.

ومن فضائل التعليم ما أخرجاه في «الصحيحين» عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي رضي الله عنه: «لأَنْ يَهدِيَ الله بِكَ رَجُلاً واحِداً خَيرٌ لَكَ مِنْ أن يَكون لَكَ حُمُر النَّعَم»[4].

وقال ابن عباس: «إن الذي يعلم الناس الخير تستغفر له كل دابة حتى الحوت في البحر»[5]. وروي نحو ذلك في حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) أحمد (٤/٢٣٩)، ابن ماجه (٢٢٦)، ابن حبان (٢٧٩)، الدارمي (١/١١٠)، الدارقطني (١/١٩٧).

(٢) مسلم (٨/٧١)، الترمذي (٢٩٤٥)، أبو داود (٣٦٤٣)، ابن ماجه (٢٢٥).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط ـ كما في مجمع الزوائد (١/١٢٣) وقال: فيه محمد بن الجعد وهو متروك، والدارمي (١/١٠٠) عن الحسن مرسلاً.

(٤) البخاري (٥/٢٣)، مسلم (٧/١٢٢).

(٥) ابن عديّ في الكامل (٢/٦١٢) وفي إسناده الحارث بن شبل ضعيف الحديث، وله شاهد رواه البزار (١٣٣، ١٣٥ ـ كشف الأستار) وفيه محمد بن عبد الملك كذاب.

فإن قيل: ما وجه استغفار الحوت للمعلم؟.

فالجواب: أن نفع العلم يعم كل شيء حتى الحوت، فإن العلماء عرفوا بالعلم ما يحل ويحرم، وأوصوا بالإحسان إلى كل شيء حتى إلى المذبوح والحوت، فألهم الله تعالى الكل الاستغفار لهم جزاءً لحسن صنيعهم.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن مَثَل ما بعثني الله به من الهُدى والعِلم، كَمَثل غَيْثٍ أصَابَ أرضاً، فكانت منها طائفة طيِّبة قَبلت الماء، فأنبتت الكَلأ والعُشْبَ الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قِيعان لا تُمسك ماء ولا تُنبتُ كَلأً، فذلك مَثَل من فَقه في دين الله ونفعه الله بما بَعَثني به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يَقْبَل هُدَى الله الذي أُرسلت بِه» أخرجاه في «الصحيحين»[1].

فانظر رحمك الله إلى هذا الحديث ما أوقعه على الخلق، فإن الفقهاء أولي الفهم، كمثل البقاع التي قبلت الماء فأنبتت الكلأ، لأنهم علموا وفهموا، وفرّعوا وعلّموا. وغاية الناقلين من المحدثين الذين لم يرزقوا الفقه والفهم، أنهم كمثل الأجادب التي حفظت الماء فانتفع بما عندهم، وأما الذين سمعوا ولم يتعلموا ولم يحفظوا، فهم العوام الجهلة.

وقال الحسن رحمه الله: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم.

وقال معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه: تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة.

وقال كعب رحمه الله: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أن تعلم يا موسى الخير وعلمه للناس، فإني منور لمعلم الخير ومتعلمه قبورهم حتى لا يستوحشوا بمكانهم.

فصل [طلب العلم فريضة]

قد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله

(١) البخاري (١/ ٣٠)، مسلم (٧/ ١٦٣).

وسلم أنه قال: «طَلَبُ العِلمِ فَرِيضَة عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»[1]، رواه أحمد في «العلل».

قال المصنف رحمه الله تعالى: اختلف الناس في ذلك.

فقال الفقهاء: هو علم الفقه، إذ به يعرف الحلال والحرام.

وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها.

وقالت الصوفية: هو علم الإخلاص وآفات النفوس.

وقال المتكلمون: هو علم الكلام. إلى غير ذلك من الأقوال التي ليس فيها قول مرضي، والصحيح أنه علم معاملة العبد لربه.

والمعاملة التي كلفها على ثلاثة أقسام:

اعتقاد، وفعل، وترك.

فإذا بلغ الصبي، فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناها وإن لم يحصل ذلك بالنظر والدليل، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم اكتفى من أجلاف العرب بالتصديق من غير تعلم دليل، فذلك فرض الوقت، ثم يجب عليه النظر والاستدلال.

فإذا جاء وقت الصلاة وجب عليه تعلم الطهارة والصلاة، فإذا عاش إلى رمضان وجب عليه تعلم الصوم، فإن كان له مال وحال عليه الحول وجب عليه تعلم الزكاة، وإن جاء وقت الحج وهو مستطيع وجب عليه تعلم المناسك.

وأما التروك: فهو بحسب ما يتجدد من الأحوال، إذ لا يجب على الأعمى تعلم ما يحرم النظر إليه، ولا على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، فإن كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر ولبس الحرير، وجب عليه أن يعرف تحريم ذلك.

وأما الاعتقادات: فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة، وجب عليه تعلم ما يصل به إلى إزالة الشك. وإن كان في بلد قد كثرت فيه البدع، وجب عليه أن يتلقن الحق، كما لو كان تاجراً في بلد شاع فيه الربا، وجب عليه أن يتعلم الحذر منه.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤). وهو حديث حسن كما قال الحافظ المزي

وينبغي أن يتعلم الإيمان بالبعث والجنة والنار.

فبان بما ذكرنا أن المراد بطلب العلم الذي هو فرض عين: ما يتعين وجوبه على الشخص.

فأما فرض الكفاية: فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان على الصحة، والحساب، فإنه ضروري في قسمة المواريث والوصايا وغيرها.

فهذه العلوم لو خلا البلد عمن يقوم بها حَرِجَ أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الباقين.

ولا يتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفاية، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفاية، كالفلاحة والحياكة، بل الحجامة فإنه لو خلا البلد عن حجام لأسرع الهلاك إليهم، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله.

وأما التعميق في دقائق الحساب، ودقائق الطب وغير ذلك، فهذا يعد فضلة، لأنه يستغنى عنه.

وقد يكون بعض العلوم مباحاً، كالعلم بالأشعار التي لا سخفَ فيها، وتواريخ الأخبار.

وقد يكون بعضها مذموماً، كعلم السحر، والطلسمات، والتلبيسات.

فأما العلوم الشرعية فكلها محمودة، وتنقسم إلى أصول، وفروع، ومقدمات ومتممات.

فالأصول: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وإجماع الأمة، وآثار الصحابة.

والفروع: ما فهم من هذه الأصول من معان تنبهت لها العقول حتى فهم من اللفظ الملفوظ وغيره، كما فهم من قوله: «لا يَقْضِي القَاضِي وَهُوَ غَضْبَان»[1] أنه لا يقضي جائعاً.

والمقدمات: هي التي تجري مجرى الآلات، كعلم النحو واللغة، فإنهما آلة

(١) النسائي (٨/٢٣٧)، ابن ماجه (٢٣١٦)، البيهقي (١٠/١٠٥).

لعلم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

والمتممات: كعلم القراءات، ومخارج الحروف، وكالعلم بأسماء رجال الحديث وعدالتهم وأحوالهم، فهذه هي العلوم الشرعية، وكلها محمودة.

فصل [في علم المعاملة]

فأما علم المعاملة وهو علم أحوال القلب، كالخوف، والرجاء، والرضى، والصدق، والإخلاص وغير ذلك، فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء، وبتحقيقه اشتهرت أذكارهم، كسفيان [الثوري]، وأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد.

وإنما انحطت رتبة المسمين بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات، لتشاغلهم بصور العلم من غير أخذ على النفس أن تبلغ إلى حقائقه وتعمل بخفاياه.

وأنت تجد الفقيه يتكلم في الظهار، واللعان، والسبق، والرمي، ويفرع التفريعات التي تمضي الدهور فيها ولا يحتاج إلى مسألة منها، ولا يتكلم في الإخلاص، ولا يحذر من الرياء، وهذا عليه فرض عين، لأن في إهماله هلاكه، والأول فرض كفاية. ولو أنه سئل عن علة ترك المناقشة للنفس في الإخلاص والرياء لم يكن له جواب. ولو سئل عن علة تشاغله بمسائل اللعان والرمي، لقال: هذا فرض كفاية، ولقد صدق، ولكن خفي عليه أن الحساب فرض كفاية أيضاً، فهلا تشاغل به، وإنما تبهرج عليه النفس، لأن مقصودها من الرياء والسمعة يحصل بالمناظرة، لا بالحساب.

واعلم: أنه قد بدلت ألفاظ وحرفت، ونقلت إلى معان لم يردها السلف الصالح.

فمن ذلك: الفقه، فإنهم تصرفوا فيه بالتخصيص، فخصوه بمعرفة الفروع وعللها، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول منطلقاً على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب.

ولذلك قال الحسن [البصري] رحمه الله: إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لهم.

فكان إطلاقهم اسم الفقه على علم الآخرة أكثر، لأنه لم يكن متناولاً للفتاوى، ولكن كان متناولاً لذلك بطريق العموم والشمول، فثار من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد لعلم الفتاوى الظاهرة، والإعراض عن علم المعاملة للآخرة.

اللفظ الثاني: العلم. فقد كان ذلك يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته، أي نعمه وأفعاله في عباده، فخصوه وسموا به في الغالب المناظر في مسائل الفقه وإن كان جاهلاً بالتفسير والأخبار.

اللفظ الثالث: التوحيد. وقد كان ذلك إشارة إلى أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تَقَطعُ الالتفات إلى الأسباب والوسائط، فيثمر ذلك التوكل والرضى وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام في الأصول، وذلك من المنكرات عند السلف[2].

اللفظ الرابع: التذكير والذكر. قال الله تعالى: ﴿ وذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إِذَا مَرَرْتُم برياضِ الجَنَّة فارتَعُوا قالوا: ومَا رِيَاضُ الجَنَّةِ؟ قَالَ: مَجَالِسُ الذِّكرِ»[1] فنقلوا ذلك إلى القصص وما يحتوي عليه اليوم مجلس القاص من الشطح والطامات.

ومن تشاغل في وعظه بذكر قصص الأولين، فليعلم أن أكثر ما يحكى في ذلك لا يثبت، كما ينقلون أن يوسف عليه السلام حل تكته، وأنه رأى يعقوب عاضاً على يده، وأن داود جهز أوريا حتى قتل، فمثل هذا يضر سماعه.

وأما الشطح والطامات: فمن أشد ما يؤذي العوام، لأنها تشتمل على ذكر المحبة والوصال وألم الفراق، وعامة الحاضرين أجلاف، بواطنهم محشوة بالشهوات وحب الصور، فلا يحرك ذلك من قلوبهم إلا ما هو مستكن في نفوسهم، فيشتعل فيها نار الشهوة، فيصيحون، وكل ذلك فساد.

وربما احتوى الشطح على الدعاوى العريضة في محبة الله تعالى، وفي هذا ضرر عظيم. وقد ترك جماعة من الفلاحين فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوى.

اللفظ الخامس: الحكمة. والحكمة: العلم والعمل به.

---

(١) الترمذي (٣٥١٠)، أحمد (٣/١٥٠).

(٢) حيث إن المنتشر عند السلف كان كلام المبتدعة لا كلام أهل الحق.

قال ابن قتيبة رحمه الله: لا يكون الرجل حكيماً حتى يجمع العلم والعمل. وقد صار هذا الاسم يطلق في هذا الزمان على الطبيب والمنجم.

فصل [في العلوم المحمودة]

واعلم أن العلوم المحمودة تنقسم إلى قسمين:

الأول: محمود إلى أقصى غاياته، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل. وهو العلم بالله تعالى، وبصفاته، وأفعاله، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته، والتوصل به إلى سعادة الآخرة، وهو البحر الذي لا يُدرك غوره وإنما يحوم المحومون على سواحله وأطرافهِ بقدر ما تيسَّر لهم.

القسم الثاني: العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص، وهي التي ذكرناها من فروض الكفايات، فإن في كل منها افتقاراً واقتصاراً واستقصاءً.

فكن أحد رجلين: إما مشغولاً بنفسك، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ من نفسك.

وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك، واشتغل بإصلاح باطنك وتطهيره من الصفات الذميمة، كالحرص، والحسد، والرياء، والعجب، قبل إصلاح ظاهرك، وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى في ربع المهلكات.

فإن لم تتفرغ من ذلك فلا تشتغل بفروض الكفايات، فإن في الخلق كثيراً يقومون بذلك، فإن مهلك نفسه في طلب صلاح غيره سفيه، ومثله مثل من دخلت العقارب تحت ثيابه وهو يذب الذباب عن غيره.

فإن تفرغت من نفسك وتطهيرها، وما أبعد ذلك، فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدرج في ذلك.

فابتدأ بكتاب الله عزّ وجلّ، ثم بسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم بعلوم القرآن: من التفسير، ومن ناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، إلى غير ذلك.

وكذلك في السنة، ثم اشتغل بالفروع، وأصول الفقه وهكذا بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت.

ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلباً للاستقصاء، فإن العلم كثير،

والعمر قصير، وهذه العلوم آلات يراد بها غيرها، وكل شيء يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب.

فصل [في عالم لم ينفعه علمه]

واعلم: أن المناظرة الموضوعة لقصد المغالبة والمباهاة منبع الأخلاق المذمومة، ولا يسلم صاحبها من كبر، لاحتقار المقصرين عنه، وعجب بنفسه لارتفاعه على كثير من نظرائه، ولا يسلم من الرياء، لأن جمهور مقصود المناظر اليوم علم الناس بغلبته، وإطلاق ألسنتهم بشكره ومدحه، فهو يذهب عمره في العلوم التي تعين على المناظرة مما لا ينفع في الآخرة، كحسن اللفظ، وحفظ النوادر.

وقد روي في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أَشَدّ النَّاسِ عَذَاباً يَومَ القِيَامَةِ عَالمٌ لَمْ يَنفَعه عِلْمُه»[1].

باب في آداب المعلم والمتعلم وآفات العلم وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة

أما المتعلم فينبغي له تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات. إذ العلم عبادة القلب.

وينبغي له قطع العلائق الشاغلة، فإن الفكرة متى توزعت قصرت عن إدراك الحقائق.

وقد كان السلف يؤثرون العلم على كل شيء، فروي عن الإمام أحمد رحمه الله أنه لم يتزوج إلا بعد الأربعين.

وأهديت إلى أبي بكر الأنباري جارية، فلما دخلت عليه تفكر في استخراج مسألة فعزبت عنه، فقال: أخرجوها إلى النخاس، فقالت: هل من ذنب؟ قال: لا، إلا أن قلبي اشتغل بك، وما قدر مثلك أن يمنعني علمي.

وعلى المتعلم أن يلقي زمامه إلى المعلم إلقاء المريض زمامه إلى الطبيب، فيتواضع له، ويبالغ في خدمته.

---

(١) الطبراني في الصغير (١/١٨٣)، وابن عدي في الكامل (ص ١٨٠٧) والبيهقي في شعب الإيمان. وفيه عثمان البري وهو متروك الحديث كما قال النسائي والدارقطني.

وقد كان ابن عباس رضي الله عنه يأخذ بركاب زيد بن ثابت رضي الله عنه ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء.

ومتى تكبر المتعلم أن يستفيد من غير موصوف بالتقدم فهو جاهل، لأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها، وليدع رأيه لرأي معلمه فإن خطأ المعلم أنفع للمتعلم من صواب نفسه.

قال علي رضي الله عنه: إن من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة، وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشير عنده بيدك، ولا تغمزن بعينك، ولا تكثر عليه السؤال، ولا تعينه في الجواب، ولا تلحَّ عليه إذا كَسِلَ، ولا تراجعه إذا امتنع، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سراً، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا تطلبن عَثَرتهُ، وإن زل قبلت معذرته، ولا تقولن له: سمعت فلاناً يقول كذا، ولا أن فلاناً يقول خلافك. ولا تصفن عنده عالماً، ولا تعرض من طول صحبته، ولا ترفع نفسك عن خدمته، وإذا عرضت له حاجة سبقت القوم إليها، فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء.

وينبغي أن يحترز الخائض في العلم في مبدإ الأمر من الإصغاء إلى اختلاف الناس، فإن ذلك يحير عقله ويفتر ذهنه.

وينبغي له أن يأخذ من كل شيء أحسنه. لأن العمر لا يتسع لجميع العلوم، ثم يصرف جمام قوته إلى أشرف العلوم، وهو العلم المتعلق بالآخرة، الذي به يكتسب اليقين الذي حصله أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حتى شهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «مَا سَبَقَكم أَبُو بَكرٍ بِكَثْرةِ صَوْمٍ وَلاَ صَلاَةٍ، وَلَكن بِشَيءٍ وَقَرَ فِي صَدْرِهِ»[1] فهذه وظائف المتعلم.

وأما المعلم فعليه وظائف أيضاً:

من ذلك الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، ولا يطلب على إفاضة العلم أجراً، ولا يقصد به جزاءً ولا شكراً، بل يعلم لوجه الله تعالى، ولا يرى لنفسه منة على المتعلمين، بل يرى الفضل لهم إذ هيأوا قلوبهم للتقرب إلى

---

(١) أورده الإمام تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية في الباب الذي عقده للأحاديث التي لم يجد لها إسناداً (٦/٢٨٨).

والمعروف أنه من كلام الحافظ العراقي كما في تخريجه للإحياء.

الله تعالى بزراعة العلم فيها، فهم كالذي يعير الأرض لمن يزرع فيها.

فلا ينبغي أن يطلب المعلم الأجر إلا من الله تعالى. وقد كان السلف يمتنعون من قبول هدية المتعلم.

ومنها أن لا يَدَّخِرَ من نصح المتعلم شيئاً، وأن يزجره عن سوء الأخلاق بطريق التعريض مهما أمكن، لا على وجه التوبيخ، فإن التوبيخ يهتك حجاب الهيبة.

ومنها: أن ينظر في فهم المتعلم ومقدار عقله، فلا يلقي إليه ما لا يدركه فهمه ولا يحيط به عقله.

فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أُمِرتُ أنْ أُخَاطِبَ النَّاس عَلَى قَدْرِ عُقُولِهم»[1].

وقال علي رضي الله عنه: إن ههنا علماً لو أصبت له حملته.

وقال الشافعي رحمه الله:

أأنثر دراً بين سارحة النعم ... أأنظم منثوراً لراعية الغنم

ومن منح الجهال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

ومنها: أن يكون المعلم عاملاً بعلمه. ولا يكذب قوله فعله. قال الله تعالى: ﴿ أتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أنفُسَكُم وَأنتُم تَتْلُونَ الكِتَابَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال علي رضي الله عنه: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك.

فصل [في آفات العلم وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة]

علماء السوء: هم الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا، والتوصل إلى المنزلة عند أهلها.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه

(١) لا أصل له مرفوعاً، ولكن جاء في صحيح البخاري ١/ ١٩٩ ـ تعليقاً في العلم باب من خصّ بالعلم قوماً دون قوم كراهة ألّا يفهموه من قول عليّ رضي الله عنه: «حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذّب الله ورسوله».

قال: «مَنْ تَعَلَّم عِلْماً مِمَّا يُبْتَغى بِهِ وَجْه اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لاَ يَتَعَلَّمه إلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً من الدُّنيا، لَمْ يَجِد عَرَقَ الجَنَّة يَوْمَ القِيَامَة»[1] يعني ريحها.

وفي حديث آخر أنه قال: «مَن تَعَلَّمَ العلم ليُبَاهي به العُلَماء، أو يُمَاري بِهِ السُّفَهاء، أو يَصرف بِهِ وجوه النَّاسِ إليه، فَهُوَ فِي النَّارِ»[2] رواه الترمذي. وفي ذلك أحاديث كثيرة.

وقال بعض السلف: أشد الناس ندامة عند الموت عالم مفرط.

واعلم: أن المأخوذ على العالم أن يقوم بالأوامر والنواهي، وليس عليه أن يكون زاهداً ولا معرضاً عن المباحات، إلا أنه ينبغي له أن يتقلل من الدنيا مهما استطاع، لأنه ليس كل جسم يقبل التعلل، فإن الناس يتفاوتون.

وروي أن سفيان الثوري رحمه الله كان حسن المطعم. وكان يقول: إن الدابة إذا لم يحسن إليها في العلف لم تعمل.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يصبر من خشونة العيش على أمر عظيم. الطباع تتفاوت.

ومن صفات علماء الآخرة أن يعلموا أن الدنيا حقيرة، وأن الآخرة شريفة. وأنهما كالضرتين، فهم يؤثرون الآخرة، ولا تخالف أفعالهم أقوالهم، ويكون ميلهم إلى العلم النافع في الآخرة، ويجتنبون العلوم التي يقل نفعها إيثاراً لما يعظم نفعه، كما روي عن شقيق البلخي رحمه الله أنه قال لحاتم: قد صحبتني مدة، فماذا تعلمت؟ قال: ثمانية مسائل:

أما الأولى: فإني نظرت إلى الخلق، فإذا كل شخص له محبوب، فإذا وصل إلى القبر فارقه محبوبه، فجعلت محبوبي حسناتي لتكون في القبر معي.

وأما الثانية: فإني نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠] فأجهدتها في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى.

وأما الثالثة: فإني رأيت كل من معه شيء له قيمة عنده يحفظه، ثم نظرت في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦] فكلما

(١) أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وأحمد (٣٣٨/٢)، وابن حبان (٨٩).
(٢) الترمذي (٢٦٥٤).

وقع معي شيء له قيمة، وجهته إليه ليبقى لي عنده.

وأما الرابعة: فإني رأيت الناس يرجعون إلى المال والحسب والشرف، وليست بشيء، فنظرت في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم﴾ [الحجرات: ١٣] فعملت في التقوى لأكون عنده كريماً.

وأما الخامسة: فإني رأيت الناس يتحاسدون، فنظرت في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم معِيشَتَهُم ﴾ [الزخرف: ٣٢] فتركت الحسد.

والسادسة: رأيتهم يتعادون، فنظرت في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُم عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً ﴾ [فاطر: ٦] فتركت عداوتهم واتخذت الشيطان وحده عدواً.

والسابعة: رأيتهم يذلون أنفسهم في طلب الرزق، فنظرت في قوله تعالى: ﴿ وَمَا من دَابَّةٍ في الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] فاشتغلت بما له عليّ وتركت مالي عنده.

والثامنة: رأيتهم متوكلين على تجارتهم وصنائعهم وصحة أبدانهم، فتوكلت على الله تعالى.

* * *

ومن صفات علماء الآخرة: أن يكونوا منقبضين عن السلاطين، محترزين من مخالطتهم.

قال حذيفة رضي الله عنه: إياكم ومواقف الفتن. قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه.

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء، فاحذروا منه فإنه لص.

وقال بعض السلف: إنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه.

ومن صفات علماء الآخرة: أن لا يتسرعوا إلى الفتوى، وأن لا يفتوا إلا بما يتيقنون صحته.

وقد كان السلف يتدافعون الفتوى حتى ترجع إلى الأول.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله: أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما أحد يسأل عن حديث أو فتوى إلا ود أن أخاه كفاه ذلك. ثم قد آل الأمر إلى إقدام أقوام يدّعون العلم اليوم، يقدمون على الجواب في مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لجمع أهل بدر واستشارهم.

ومن صفاتهم: أن يكون أكثر بحثهم في علم الأعمال عما يفسدها ويكدر القلوب ويهيج الوساوس، فإن صور الأعمال قريبة سهلة، وإنما التعب في تصفيتها.

وأصل الدين: التوقي من الشر، ولا يصح أن يتوقى حتى يعرف.

ومن صفاتهم: البحث عن أسرار الأعمال الشرعية، والملاحظة لحكمها. فإن عجز عن الإطلاع على العلة كفاه التسليم للشرع.

ومن صفاتهم: اتباع الصحابة وخيار التابعين، وتوقي كل محدث.

كتاب الطهارة وأسرارها والصلاة وما يتعلق بها

اعلم : أن الطهارة لها أربع مراتب:

الأولى : تطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس والفضلات.

والثانية: تطهير الجوارح من الذنوب والآثام.

والثالثة: تطهير القلب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

والرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهذا هو الغاية القصوى، فمن قويت بصيرته سمت إلى هذا المطلوب، ومن عميت بصيرته لم يفهم من مراتب الطهارة إلا المرتبة الأولى، فتراه يضيع أكثر زمانه الشريف في المبالغة في الاستنجاء وغسل الثياب، ظناً منه بحكم الوسوسة وقلة العلم أن الطهارة المطلوبة هي هذه فقط، وجهلاً بسير المتقدمين الذين كانوا يستغرقون الزمان في تطهير القلوب ويتساهلون في أمر الظاهر، كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه توضأ من جرة نصرانية، وكانوا لا يكادون يغسلون أيديهم من الزهم ويصلون على الأرض، ويمشون حفاة، ويقتصرون في الاستجمار على الأحجار.

وقد انتهى الأمر إلى قوم يسمون الرعونة نظافة، فترى أكثر زمانهم يمضي في تزيين الظواهر، وبواطنهم خراب محشوة بخبائث الكبر، والعجب، والجهل، والرياء، والنفاق. ولو رأوا مقتصراً في الاستجمار على الحجر، أو حافياً يمشي على الأرض، أو من يصلي عليها من غير حائل، أو متوضأ من آنية عجوز، لأنكروا عليه أشد الإنكار، ولقبوه بالقذر، واستنكفوا من مؤاكلته.

فانظر كيف جعلوا البذاذة التي هي من الإيمان قذارة، والرعونة نظافة، وصيروا المنكر معروفاً، والمعروف منكراً. لكن من قصد بهذه الطهارة النظافة ولم يسرف في الماء، ولم يعتقد أن استعمال الماء الكثير أصل الدين، فليس ذلك بمنكر، بل هو فعل حسن. وليرجع في معرفة الأنجاس والأحداث إلى كتب الفقه، فإن المقصود من هذا الكتاب الآداب.

وأما إزالة الفضلات فهي نوعان:

[النوع الأول]: أوساخ تزال، كالذي يجتمع في الرأس من الوسخ والدرن، فيستحب تنظيفه بالغسل والترجيل والتدهين لإزالة الشعث، وكذلك ما يجتمع في الأذن والأنف من الوسخ يستحب إزالته.

ويستحب التسوك والمضمضة لإزالة ما على الأسنان واللسان من القلح، وكذلك وسخ البراجم والدرن الذي يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق، وذلك يزيله الغسل.

ولا بأس بدخول الحمام، فإنه أبلغ في الإزالة، وقد دخله جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لكن على داخله صيانة عورته من نظر الغير إليها ولمسه إياها. وينبغي للداخل إليه أن يتذكر بحرارته حر النار، فإن فكرة المؤمن لا تزال تجول في كل شيء من أمور الدنيا فيذكر به أمور الآخرة، لأن الغالب على المؤمن أمر الآخرة، وكل إناء ينضح بما فيه. ألا ترى أنه لو دخل إلى دار ـ معمورة ـ بزاز، ونجار، وبناء، وحائك، رأيت البزاز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمتها، والحائك ينظر إلى نسج الثياب، والنجار ينظر إلى سقف الدار، والبناء ينظر إلى الحائط، فكذلك المؤمن إن رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور، وإن رأى نعيماً تذكر نعيم الجنة، وإن رأى عذاباً ذكر النار.

ويكره دخول الحمام قريباً من الغروب وبين العشاءين، فإنه وقت انتشار الشياطين.

النوع الثاني من إزالة الفضلات: أجزاء تحذف، مثل قص الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وقص الأظافر. ويكره نتف الشيب، ويستحب خضابه.

وباقي مراتب الطهارة يأتي في ربع المهلكات والمنجيات إن شاء الله تعالى.

فصل [في فضائل الصلاة]

وأما الصلاة فإنها عماد الدين وغرة الطاعات. وقد ورد في فضائل الصلاة أخبار كثيرة مشهورة، ومن أحسن آدابها الخشوع.

وقد روي عن عثمان [بن عفان] رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَا مِن امرىء تَحْضره صَلَاة مَكْتُوبة، فَيُحسِن وُضوءَها وخُشُوعَها ورُكُوعَهَا

إلا كَانَت كَفَّارة لِما قَبْلَهَا مِنَ الذّنوبِ مَا لَمْ يَأْتِ كَبِيرة، وَذَلِكَ الدَّهرُ كُلُّه»[1].

وله في حديث أيضاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَنْ صَلَّى رَكْعَتَينِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَه مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ»[2].

وكان [عبدالله] ابن الزبير رضي الله عنهما إذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع، وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلا جذع حائط، وصلى يوماً في الحجر فجاء حجر قذافة فذهب ببعض ثوبه فما انفتل.

وقال ميمون بن مهران: ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتاً في صلاة قط، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدتها، وإنه لفي المسجد يصلي فما التفت، وكان أهل بيته إذا دخل المنزل سكتوا، فإذا قام إلى الصلاة تكلموا وضحكوا.

وكان علي بن الحسن رضي الله عنهما إذا توضأ اصفر لونه، فقيل له: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فقال: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟

واعلم: أن للصلاة أركاناً وواجبات وسنناً، وروحها النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب، فإن الصلاة تشتمل على أذكار ومناجاة وأفعال، ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة، لأن النطق إذا لم يعرب عما في الضمير كان بمنزلة الهذيان، وكذلك لا يحصل المقصود من الأفعال، لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة، ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم، ولم يكن القلب حاضراً، لم يحصل المقصود، فإن الفعل متى خرج عن مقصوده بقي صورة لا اعتبار بها، قال الله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دمَاؤُهَا وَلَكن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧] والمقصود أن الواصل إلى الله سبحانه وتعالى هو الوصف الذي استولى على القلب حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة، فلا بد من حضور القلب في الصلاة، ولكن سامح الشارع في غفلة تطرأ، لأن حضور القلب في أولها ينسحب حكمه على باقيها.

والمعاني التي تتم بها حياة الصلاة كثيرة.

المعنى الأول: حضور القلب كما ذكرنا، ومعناه أن يفرغ القلب من غير ما هو ملابس له، وسبب ذلك الهمة، فإنه متى أهمك أمر حضر قلبك ضرورة، فلا

---

(١) مسلم (١٤٢/١) واللفظ له، والبخاري (٥١/١) دون قوله: الدهر.

(٢) البخاري (٥١/١)، ومسلم (١٤١/١).

علاج لإحضاره إلا صرف الهمة إلى الصلاة، وانصراف الهمة يقوى ويضعف بحسب قوة الإيمان بالآخرة واحتقار الدنيا، فمتى رأيت قلبك لا يحضر في الصلاة، فاعلم أن سببه ضعف الإيمان، فاجتهد في تقويته.

والمعني الثاني: التفهم لمعنى الكلام فإنه أمر وراء حضور القلب، لأنه ربما كان القلب حاضراً مع اللفظ دون المعنى، فينبغي صرف الذهن إلى إدراك المعنى بدفع الخواطر الشاغلة وقطع موادها، فإن المواد إذا لم تنقطع لم تنصرف الخواطر عنها.

والمواد، إما ظاهرة، وهي ما يشغل السمع والبصر، وإما باطنة وهي أشد كمن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا، فإنه لا ينحصر فكره في فن واحد، ولم يغنه غض البصر، لأن ما وقع في القلب كاف في الاشتغال به.

وعلاج ذلك إن كان من المواد الظاهرة، بقطع ما يشغل السمع والبصر، وهو القرب من القبلة، والنظر إلى موضع سجوده، والاحتراز في الصلاة من المواضع المنقوشة، وأن لا يترك عنده ما يشغل حسه، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما صلى في انبجانية لها أعلام نزعها وقال: «إنَّها أَلهتِني آنِفاً عَنْ صَلَاتي»[1].

وإن كان من المواد الباطنة، فطريق علاجه أن يرد النفس قهراً إلى ما يقرأ في الصلاة ويشغلها به عن غيره، ويستعد لذلك قبل الدخول في الصلاة، بأن يقضي أشغاله، ويجتهد في تفريغ قلبه، ويجدد على نفسه ذكر الآخرة وخطر القيام بين يدي الله عزّ وجلّ وهول المطلع، فإن لم تسكن الأفكار بذلك، فليعلم أنه إنما يتفكر فيما أهمه واشتهاه، فليترك تلك الشهوات وليقطع تلك العلائق.

واعلم: أن العلة متى تمكنت لا ينفعها إلا الدواء القوي، والعلة إذا قويت جاذبت المصلي وجاذبها إلى أن تنقضي الصلاة في المجاذبة، ومثل ذلك كمثل رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره، وكانت أصوات العصافير تشوش عليه وفي يده خشبة يطيرها بها، فما يستقر فكره حتى تعود العصافير فيشتغل بها، فقيل له: هذا شيء لا ينقطع، فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة، فكذلك شجرة الشهوة إذا علت وتفرقت أغصانها انجذبت إليها الأفكار كانجذاب العصافير إلى الأشجار والذباب إلى الأقذار، فذهب العمر النفيس في دفع ما لا يندفع، وسبب هذه الشهوة التي توجب هذه الأفكار حب الدنيا.

---

(١) البخاري (١/١٠٤)، مسلم (٢/٧٨).

قيل لعامر بن عبد قيس رحمه الله: هل تحدثك نفسك بشيء من أمور الدنيا في الصلاة؟ فقال: لأن تختلف الأسنة فيَّ أحب إليَّ من أن أجد هذا.

واعلم: أن قطع حب الدنيا من القلب أمر صعب، وزواله بالكلية عزيز، فليقع الاجتهاد في الممكن منه، والله الموفق المعين.

المعنى الثالث: التعظيم لله والهيبة، وذلك يتولد من شيئين: معرفة جلال الله تعالى وعظمته، ومعرفة حقارة النفس وأنها مستعبدة، فيتولد من المعرفتين: الاستكانة، والخشوع.

ومن ذلك الرجاء: فإنه زائد على الخوف، فكم من معظم ملكاً يهابه لخوف سطوته كما يرجو بره.

والمصلي ينبغي أن يكون راجياً بصلاته الثواب، كما يخاف من تقصيره العقاب.

وينبغي للمصلي أن يحضر قلبه عند كل شيء من الصلاة، فإذا سمع نداء المؤذن فليمثل النداء للقيامة ويشمر للإجابة، ولينظر ماذا يجيب، وبأي بدن يحضر. وإذا ستر عورته فليعلم أن المراد من ذلك تغطية فضائح بدنه عن الخلق، فليذكر عورات باطنه وفضائح سره التي لا يطلع عليها إلا الخالق، وليس لها عنه ساتر، وأنها يكفرها الندم، والحياء، والخوف.

وإذا استقبل القبلة فقد صرف وجهه عن الجهات إلى جهة بيت الله تعالى، فصرف قلبه إلى الله تعالى أولى من ذلك، فكما أنه لا يتوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها، كذلك القلب لا ينصرف إلى الله تعالى إلا بالإنصراف عما سواه.

إذا كبرت أيها المصلي، فلا يكذبن قلبك لسانك، لأنه إذا كان في قلبك شيء أكبر من الله تعالى فقد كذبت، فاحذر أن يكون الهوى عندك أكبر بدليل إيثارك موافقته على طاعة الله تعالى.

فإذا استعذت، فاعلم أن الاستعاذة هي لجأ إلى الله سبحانه، فإذا لم تلجأ بقلبك كان كلامك لغواً، وتفهم معنى ما تتلو، وأحضر التفهم بقلبك عند قولك: ﴿ الحَمْدُ للّٰهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾، واستحضر لطفه عند قولك: ﴿ الرَّحْمٰن الرَّحيم ﴾، وعظمته عند قولك: ﴿ مَالك يَوْم الدِّين ﴾، وكذلك في جميع ما تتلو.

وقد روينا عن زرارة بن أبي أوفى رضي الله عنه أنه قرأ في صلاته: ﴿ فَإِذَا

نقرَ في النّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨] فخرَّ ميتاً، وما ذاك إلا لأنه صور تلك الحال فاثرت عنده التلف.

واستشعر في ركوعك التواضع، وفي سجودك زيادة الذل، لأنك وضعت النفس موضعها، ورددت الفرع إلى أصله بالسجود على التراب الذي خُلقت منه وتفهم معنى الأذكار بالذوق.

واعلم: أن أداء الصلاة بهذه الشروط الباطنة سبب لجلاء القلب من الصدإ، وحصول الأنوار فيه التي بها تتلمح عظمة المعبود، وتطلع على أسراره وما يعقلها إلا العالمون.

فأما من هو قائم بصورة الصلاة دون معانيها، فإنه لا يطلع على شيء من ذلك بل ينكر وجوده.

فصل [في آداب تتعلق بصلاة الجمعة ويوم الجمعة]

وهي نحو من خمسة عشر:

أحدها: أن يستعد لها من يوم الخميس وفي ليلة الجمعة، بالتنظيف، وغسل الثياب، وإعداد ما يصلح لها.

الثاني: الاغتسال في يومها، كما جاء في الأحاديث في «الصحيحين» وغيرهما. والأفضل في الاغتسال أن يكون قبيل الرواح إليها.

الثالث: التزين بتنظيف البدن، وقص الأظفار، والسواك، وغيز ذلك مما تقدم من إزالة الفضلات، ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه.

الرابع: التبكير إليها ماشياً.

وينبغي للساعي إلى الجامع أن يمشي بسكون وخشوع، وينوي الاعتكاف في المسجد إلى وقت خروجه.

الخامس: أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يفرق بين اثنين إلاَّ أن يرى فرجة فيتخطى إليها.

السادس: أن لا يمر بين يدي المصلي.

السابع: أن يطلب الصف الأول، إلاَّ أن يرى منكراً أو يسمعه فيكون له في التأخر عذراً.

الثامن: أن يقطع النفل من الصلاة والذكر عند خروج الإمام، ويشتغل بإجابة المؤذن ثم بسماع الخطبة.

التاسع: أن يصلي السنة بعد الجمعة إن شاء ركعتين، وإن شاء أربعاً، وإن شاء ستاً.

العاشر: أن يقيم في المسجد حتى يصلي العصر، وإن أقام إلى المغرب فهو أفضل.

الحادي عشر: أن يراقب الساعة الشريفة التي في يوم الجمعة بإحضار القلب وملازمة الذكر.

واختلف في هذه الساعة، ففي أفراد مسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه: «أنها ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة»[1]. وفي حديث آخر: «هي ما بين فراغ الإمام من الخطبة إلى أن تُقْضَى الصلاة»[2]. وفي حديث جابر رضي الله عنه: «أنها آخر ساعة بعد العصر»[3]. وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: «التمسوها ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس»[4].

وقال أبو بكر الأثرم رحمه الله: لا تخلو هذه الأحاديث من وجهين: إما أن يكون بعضها أصح من بعض، وإما أن تكون هذه الساعة تنتقل في الأوقات كتنقل ليلة القدر في ليالي العشر.

الثاني عشر: أن يكثر من الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا اليوم، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ في يوم الجُمُعَةِ ثَمَانِينَ مَرَّة غَفَر الله ذُنُوبَ ثَمَانِينَ سَنَة»[5].

وإن أحب زاد في الصلاة عليه الدعاء له، كقوله: «اللهم آتِ مُحَمَّداً الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ والدَّرَجَةَ الرَّفِيعة، وابْعَثْهُ المَقَامَ المَحْمودَ الذي وَعَدتَه، اللهمَّ اجزِ نَبينا عَنَّا مَا هُوَ أَهْلُهُ».

وليضف إلى الصلاة الاستغفار، فإنه مستحب في ذلك اليوم.

---

(١) مسلم (٦/٣)، أبو داود (١٠٤٩).

(٢) الترمذي (٤٩٠)، ابن ماجه (١١٣٨).

(٣) أبو داود (١٠٤٨)، النسائي (٩٩/٣ ـ ١٠٠)، والحاكم (٢٩٩/١) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) الترمذي (٤٨٩)، البغوي في شرح السنة (١٠٥١).

(٥) موضوع ـ الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٤٥٩/١٣)، وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (٧٩٦).

الثالث عشر: أن يقرأ سورة الكهف، فقد جاء في حديث من رواية عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أحدثكم بسورة ملأ عظمها ما بين السماء والأرض، ولكاتبها من الأجر مثل ذلك، ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينها وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله تعالى أي الليل شاء»؟ قالوا: بلى يا رسول الله: قال «سُورَةُ الكَهْفِ»[1].

وروي في حديث آخر: «أن من قرأها في يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقي الفتنة».

ويستحب أن يكثر من قراءة القرآن في يوم الجمعة، وأن يختم فيه أو في ليلة الجمعة إن قدر.

الرابع عشر: أن يتصدق في يوم الجمعة بما أمكن، ولتكن صدقته خارج المسجد.

ويستحب أن يصلي صلاة التسبيح في يوم الجمعة.

الخامس عشر: يستحب أن يجعل يوم الجمعة لأعمال الآخرة، ويكف عن جميع أشغال الدنيا.

فصل [في ذكر النوافل]

اعلم: أن ما عدا الفرائض من الصلاة ثلاثة أقسام:

سنن، ومستحبات، وتطوعات.

ونعني بالسنة: ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المواظبة عليه، كالرواتب عقيب الفرائض والوتر والضحى.

ونعني بالمستحب: ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه، كالصلاة عند دخول المنزل والخروج منه.

ونعني بالتطوعات: ما وراء ذلك مما لم يرد به خبر، لكن العبد يتطوع بفعله، وتسمى هذه الأقسام الثلاثة: نوافل، لأن النفل هو زيادة، وهذه زيادة على الفرائض.

واعلم: أن أفضل تطوعات البدن: الصلاة.

وأقسام النوافل وفضائلها مشهورة مذكورة في كتب الفقه وغيرها، لكن نذكر

---

(١) أورده الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص ٣١٣) وقال: موضوع.

منها صلاة التسبيح، لأنها قد تخفى صفتها على بعض الناس.

فروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال للعباس «يَا عَمَّاهُ: أَلَا أُعْطِيكَ، أَلَا أُعَلِّمكَ - وذكر الحديث إلى أن قال - : «تُصَلِّي أَربَعَ رَكعَاتٍ، تَقْرأُ فِي كُلِّ رَكْعَة بِفاتِحة الكِتَاب وسُورَة، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم قلت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر خمس عشرة مرة، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشراً، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشراً، ثم تهوي ساجداً فتقولها وأنت ساجد عشراً، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً قبل أن تقوم، فذلك خمس وسبعون، تفعل ذلك في أربع ركعات إن استطعت أن تصليها في كل يوم مرة فافعل، فإن لم تفعل، ففي كل جمعة مرة، فإن لم تفعل، ففي كل شهر مرة، فإن لم تفعل ففي كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة»[1].

فصل [في أوقات النهي عن الصلاة]

ولا يتطوع في أوقات النهي بصلاة لا سبب لها كصلاة التسبيح، لأن النهي مؤكد فيها عن الصلاة، وهذه الأشياء ضعيفة فلا تقاومه. وأما ما له سبب، كتحية المسجد، وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحوها، فعلى روايتين.

واعلم: أن النهي عن الصلاة في الأوقات الثلاثة له ثلاثة أسرار:

أحدها: ترك التشبه بعباد الشمس.

الثاني: التحذير من السجود لقرن الشيطان، فإن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان، فإذا ارتفعت فارقها، فإذا استوت قارنها، فإذا زالت الشمس فارقها، فإذا تضيفت للغروب قارنها، فإذا غربت فارقها.

الثالث: إن سالكي طريق الآخرة مواظبون على العبادات، والمواظبة على نمط واحد يورث الملل، فإذا وقع المنع زاد النشاط، لأن النفس حريصة على ما منعت منه، فمنع الإنسان من الصلاة في أوقات النهي، ولم يمنع من نوع آخر من التعبد، كالقراءة، والتسبيح لينتقل العابد من حال إلى حال، كما جعلت الصلاة متنوعة بين قيام وقعود وركوع وسجود، والله أعلم.

(١) رواه أبو داود (١٢٩٧)، وعدّه الذهبي من المناكير في الميزان (٤/٢١٣).

كتاب الزكاة وأسرارها وما يتعلق بها

الزكاة: أحد مباني الإسلام، وقد قرنها الله سبحانه وتعالى بالصلاة، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وأما أنواع الزكاة، وأقسامها، وأسباب وجوبها، فظاهر مشهور في مظانه من كتب الفقه، وإنما نذكر ها هنا بعض الشروط والآداب.

فمن الشروط أن يخرج المنصوص عليه، ولا يخرج القيمة في الصحيح، فإن من أجاز إخراج القيمة إنما تلمح سدَّ الخلة فقط، وسد الخلة ليس هو كل المقصود بل بعضه، فإن واجبات الشرع ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تعبد محض، كرمي الجمار، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر عبودية العبد بفعل ما لا يعقل له معنى، لأن ما يعقل معناه يساعد عليه الطبع ويدعو إليه، فلا يظهر خلوص العبودية به، بخلاف ما ذكرنا.

والقسم الثاني: عكس ذلك، وهو ما لا يقصد منه التعبد، بل المقصود منه حض محض، كقضاء دين الآدميين، ورد المغصوب ونحو ذلك، وكذلك لا تعتبر فيه النية ولا الفعل، بل كيفما وصل الحق إلى مستحقه حصل المقصود وسقط خطاب الشرع، فهذان قسمان لا تركيب فيهما.

وأما القسم الثالث: فهو المركب، وهو أن يقصد منه الأمران جميعاً: امتحان المكلف، وحظ العباد، فيجتمع فيه تعبد رمي الجمار، وحظ رد الحقوق، فلا ينبغي أن ينسى أدق المعنيين وهو التعبد، ولعل الأدق هو الأهم، والزكاة من هذا القبيل، فحظ الفقير مقصود في سد الخلة، وحق التعبد مقصود الشرع في اتباع التفاصيل، وبهذا الاعتبار صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج، والله أعلم.

فصل [في دقائق الآداب الباطنة في الزكاة]

اعلم: أن على مريد الآخرة في زكاته وظائف:

الأولى: أن يفهم المراد من الزكاة، وهو ثلاثة أشياء: ابتلاء مدعي محبة الله

تعالى بإخراج محبوبه، والتنزه عن صفة البخل المهلك، وشكر نعمة المال.

الوظيفة الثانية: الإسرار بإخراجها لكونه أبعد من الرياء والسمعة، وفي الإظهار إذلال للفقير أيضاً، فإن خاف أن يتهم بعدم الإخراج أعطى من لا يبالي من الفقراء بالأخذ بين الجماعة علانية، وأعطى غيره سراً.

الوظيفة الثالثة: أن لا يفسدها بالمن والأذى، وذلك أن الإنسان إذا رأى نفسه محسناً إلى الفقير، منعماً بالإعطاء، ربما حصل منه ذلك، ولو حقق النظر لرأى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله الذي هو طهرة له.

وإذا استحضر مع ذلك أن إخراجه للزكاة شكر لنعمة المال، فلا يبقى بينه وبين الفقير معاملة. ولا ينبغي أن يحتقر الفقير لفقره، لأن الفضل ليس بالمال ولا النقص بعدمه.

الوظيفة الرابعة: أن يستصغر العطية، فإن المستعظم للفعل معجب به. وقد قيل: لا يتم المعروف إلاَّ بثلاث: بتصغيره، وتعجيله، وستره.

الوظيفة الخامسة: أن ينتقي من ماله أحله وأجوده وأحبه إليه، أما الحل، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلاَّ طيباً. وأما الأجود، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وينبغي أن يلاحظ في ذلك أمرين: أحدهما: حق الله سبحانه وتعالى بالتعظيم له، فإنه أحق من اختير له، ولو أن الإنسان قدَّم إلى ضيفه طعاماً رديئاً لأوغر صدره.

والثاني: حق نفسه، فإن الذي يقدمه هو الذي يلقاه غداً في القيامة، فينبغي أن يختار الأجود لنفسه.

وأما أحبه إليه، فلقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا اشتد حبه لشيء من ماله قربه لله عز وجل. وروي: أنه نزل الجحفة وهو شاك، فقال: إني لأشتهي حيتاناً، فالتمسوا له فلم يجدوا إلاَّ حوتاً، فأخذته امرأته فصنعته ثم قربته إليه، فأتى مسكين، فقال ابن عمر رضي الله عنه: خذه، فقال له أهله: سبحان الله، قد عنيتنا ومعنا زاد نعطيه، فقال: إن عبدالله يحبه.

وروي أن سائلاً وقف بباب الربيع بن خيثم رحمة الله عليه فقال: أطعموه سكراً، فقالوا: نطعمه خبزاً أنفع له فقال: ويحكم أطعموه سكراً، فإن الربيع يحب السكر.

الوظيفة السادسة: أن يطلب لصدقته من تزكو به، وهم خصوص من عموم الأصناف الثمانية، ولهم صفات:

الأولى: التقوى، فليخص بصدقته المتقين، فإنه يرد بها هممهم إلى الله تعالى.

وقد كان عامر بن عبدالله بن الزبير يتخير العباد وهم سجود، فيأتيهم بالصرة فيها الدنانير والدراهم، فيضعها عند نعالهم بحيث يحسون بها ولا يشعرون بمكانه، فقيل له: ما يَمنعك أن ترسل بها إليهم؟ فيقول: أكره أن يتمعر وجه أحدهم إذا نظر إلى رسولي أو لقيني.

الثانية: العلم، فإن في إعطاء العالم إعانة على العلم ونشر الدين، وذلك تقوية للشريعة.

الثالثة: أن يكون ممن يرى الإنعام من الله وحده، ولا يلتفت إلى الأسباب إلاَّ بقدر ما ندب إليه من شكرها، فأما الذي عادته المدح عند العطاء، فإنه سيذم عند المنع.

الرابعة: أن يكون صائناً لفقره، ساتراً لحاجته، كاتماً للشكوى، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُم الجَاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وهؤلاء لا يحصلون في شبكة الطالب إلاَّ بعد البحث عنهم، وسؤال أهل كل محلة عمن هذه صفته.

الخامسة: أن يكون ذا عائلة، أو محبوساً لمرض أو دين، فهذا من المحصرين، والتصدق عليه إطلاق لحصره.

السادسة: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام، فإن الصدقة عليهم صدقة وصلة، وكل من جمع من هذه الخلال خلتين أو أكثر، كان إعطاؤه أفضل على قدر ما جمع.

فصل [في آداب القابض]

لا بد أن يكون آخذ الزكاة من الأصناف الثمانية، وعليه في ذلك وظائف:

الوظيفة الأولى: أن يفهم أن الله تعالى إنما أوجب صرف الزكاة إليه ليكفيه ما أهمه، ويجعل همومه هماً واحداً في طلب رضى الله عز وجل.

الوظيفة الثانية: أن يشكر المعطي ويدعو له ويثني عليه، وليكن ذلك بمقدار شكر السبب، فإن من لم يشكر الناس لم يشكر الله[1] كما ورد في الحديث.

(١) البخاري في الأدب المفرد (٢١٨)، وأبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤).

ومن تمام الشكر أن لا يحتقر العطاء وإن قل، ولا يذمه، ويغطي ما فيه من عيب. وكما أن وظيفة المعطي الاستصغار فوظيفة المعطى الاستعظام، وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عز وجل. فإن من لا يرى الواسطة واسطة، فهو جاهل، وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلاً.

الوظيفة الثالثة: أن ينظر فيما يعطاه، فإن لم يكن من حل لم يأخذه أصلاً، لأن إخراج مال الغير ليس بزكاة، وإن كان من شبهة تورع عنه، إلاّ أن يضيق عليه الأمر، فمن كان أكثر كسبه حراماً، فأخرج الزكاة ولم يعرف لما أخرجه مالك معين، كانت الفتوى فيه أن يتصدق به، فيجوز لهذا الفقير أن يأخذ قدر حاجته عند ضيق الأمر عليه وعجزه عن الصافي.

الوظيفة الرابعة: أن يتوقى مواقع الشبه في قدر ما يأخذ، فيأخذ القدر المباح له، ولا يأخذ أكثر من حاجته. فإن كان غارماً لم يزد على مقدار الدين، أو غازياً لم يأخذ إلاّ مقدار ما يحتاج إليه، وإن أخذ بالمسكنة أخذ قدر حاجته دون ما يستغني عنه، وكل ذلك موكول إلى اجتهاده، والورع ترك ما يريب.

واختلف العلماء في قدر الغنى المانع من الزكاة، والصحيح فيه أن يكون له كفاية على الدوام، إما من تجارة، أو صناعة، أو أجر عقار، أو غير ذلك، وإن كان له بعض الكفاية أخذ ما يتممها، وإن لم يكن له ذلك أخذ ما يكفيه.

وليكن ما يأخذه بقدر ما يكفي سنته ولا يزيد على ذلك، وإنما اعتبر بالسنة، لأنها إذا ذهبت جاء وقت الأخذ، وإذا أخذ الأكثر منها ضيق على الفقراء.

فصل [في صدقة التطوع وفضلها وآدابها]

أما فضائل الصدقة فهي كثيرة مشهورة:

منها: ما روى البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلاّ ماله أحب إليه، قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر»[1].

وفي «الصحيحين» من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ـ ولا يصعد إلى الله إلاّ الطيب ـ فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه

(١) البخاري (٨/١١٦)، أحمد (١/٣٨٢)، النسائي (٦/٢٣٧)، البخاري في الأدب المفرد (١٥٣)، البغوي (٤٠٥٧).

حتى تكون مثل الجبل»[1].

وفي حديث آخر: «إن الصدقة لتطفىء غضب الرب، وتقي ميتة السوء»[2]

وفي حديث آخر: «تصدقوا فإن الصدقة فكاك من النار»[3].

وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «ما يخرج أحد شيئاً من الصدقة حتى يفك عنه لحى سبعين شيطاناً»[4].

وروي أن راهباً تعبد في صومعة ستين سنة، ثم نزل يوماً ومعه رغيف، فعرضت له امرأة فتكشفت له، فوقع عليها، فأدركه الموت وهو على تلك الحال، وجاء سائل فأعطاه الرغيف ومات، فجيء بعمل ستين سنة، فوضع في كفة وخطيئته في كفة، فرجحت بعمله، حتى جيء بالرغيف فوضع مع عمله، فرجح بخطيئته[5].

وفي أفراد مسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما نقصت صدقة من مال»[6].

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما بقي منها؟» فقالت: ما بقي منها إلاّ كتفها، فقال: «بقي كلها إلاّ كتفها»[7].

وأما آدابها، فنحو ما تقدم في الزكاة.

واختلفوا: أيما أفضل للفقير، أن يأخذ من الزكاة، أو من الصدقة؟ فقال قوم: من الزكاة أفضل، وقال آخرون: من الصدقة أفضل.

وأما أفضل الصدقة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أي الصدقة أفضل؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان» أخرجاه في «الصحيحين»[8].

(١) البخاري (٢/١٣٤)، مسلم (٣/٨٥)، الترمذي (٦٦١)، النسائي (٥/٥٧)، ابن ماجه (١٨٤٢)، أحمد (٢/٢٦٨، ٣٣١، ٤١٨، ٤١٩).

(٢) الترمذي (٦٦٤)، ابن حبان (٣١٦).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات، كما في مجمع الزوائد (٣/١٠٦).

(٤) ابن خزيمة في صحيحه، والحاكم (١/٤١٧)، وأحمد (٥/١٣٠) والبزار (٩٤٣ ـ كشف الأستار).

(٥) روي مرفوعاً ـ كما عند ابن حبان (٨٢٠ ـ موارد).

(٦) مسلم (٨/٢١)، الترمذي (٢٠٢٩)، وأحمد (٢/٢٣٥، ٣٨٦).

(٧) الترمذي (٢٤٠٧٠) وقال: هذا حديث صحيح.

(٨) البخاري (٢/١٣٧)، مسلم (٣/٩٣).

كتاب الصوم وأسراره
ومهماته وما يتعلق به

اعلم: أن في الصوم خصيصة ليست في غيره، وهي إضافته إلى الله عزّ وجلّ حيث يقول سبحانه: «الصوم لي وأنا أجزي به»[1]، وكفى بهذه الإضافة شرفاً، كما شرف البيت بإضافته إليه في قوله: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ [الحج: ٢٦]. وإنما فضل الصوم لمعنيين:

أحدهما: أنه سر وعمل باطن، لا يراه الخلق ولا يدخله رياء.

الثاني: أنه قهر لعدو الله، لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب، وما دامت أرض الشهوات مخصبة، فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى، وبترك الشهوات تضيق عليهم المسالك. وفي الصوم أخبار كثيرة تدل على فضله وهي مشهورة.

فصل [في سنن الصوم]

يستحب السحور، وتأخيره، وتعجيل الفطر، وأن يفطر على التمر.

ويستحب الجود في رمضان، وفعل المعـروف، وكثرة الصدقة، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ويستحب دراسـة القرآن، والاعتكـاف في رمضان: لا سيمـا في العشر الأواخر، وزيادة الاجتهاد فيه.

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل العشر [يعني الأخير]، شد مئزره، وأحيا الليل، وأيقظ أهله[2].

وذكر العلماء في معنى شد المئزر وجهين:

(١) البخاري (٣/٣١)، (٩/١٧٥)، مسلم (٣/١٥٧ ـ ١٥٨).
(٢) البخاري (٣/١٦١)، مسلم (٣/١٧٦).

أحدهما: أنه الإعراض عن النساء.

الثاني: أنه كناية عن الجد والتشمير في العمل. قالوا: وكان سبب اجتهاده في العشر طلب ليلة القدر.

بيان أسرار الصوم وآدابه

وللصوم ثلاث مراتب: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص.

فأما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة.

وأما صوم الخصوص: فهو كف النظر، واللسان، واليد، والرجل، والسمع، والبصر، وسائر الجوارح عن الآثام.

وأما صوم خصوص الخصوص: فهو صوم القلب عن الهمم الدنيئة، والأفكار المبعدة عن الله تعالى، وكفه عما سوى الله تعالى بالكلية، وهذا الصوم له شروح تأتي في غير هذا الموضع.

فمن آداب صوم الخصوص: غض البصر، وحفظ اللسان عما يؤذي من كلام محرم أو مكروه، أو ما لا يفيد، وحراسة باقي الجوارح.

وفي الحديث من رواية البخاري، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[(١)].

ومن آدابه: أن لا يمتلىء من الطعام في الليل، بل يأكل بمقدار، فإنه ما ملأ ابن آدم وعاءً شـراً من بطن. ومتى شبع أول الليل لم ينتفع بنفسه في باقيه، وكذلك إذا شبع وقت السحر لم ينتفع بنفسه إلى قريب من الظهر، لأن كثرة الأكل تورث الكسل والفتور، ثم يفوت المقصود من الصيام بكثرة الأكل، لأن المراد منه أن يذوق طعم الجوع، ويكون تاركاً للمشتهى.

فأما صوم التطوع، فاعلم أن استحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة، وفواضل الأيـام بعضها يوجد في كل سنة، كصيام ستة أيام من شوال بعد رمضان، وكصيام يوم عرفة، ويوم عاشوراء، وعشر ذي الحجة، والمحرم.

وبعضها يتكرر في كل شهر، كأوله، وأوسطه، وآخره، فمن صام أول الشهر

(١) البخاري (٣/٣٣)، أبو داود (٢٣٦٢)، الترمذي (٧٠٧)، ابن ماجه (١٦٨٩).

وأوسطه وآخره فقد أحسن. غير أن الأفضل أن يجعل الثلاثة أيام البيض.

وبعضها يتكرر في كل أسبوع وهو يوم الإثنين، ويوم الخميس.

وأفضل صوم التطوع صوم داود عليه السلام، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وذلك يجمع الثلاثة معان:

أحدها: أن النفس تعطى يوم الفطر حظها، وتستوفي في يوم الصوم تعبدها، وفي ذلك جمع بين ما لها وما عليها، وهو العدل.

والثاني: أن يوم الأكل يوم شكر، ويوم الصوم يوم صبر، والإيمان نصفان: شكر وصبر.

والثالث: أنه أشق على النفس في المجاهدة، لأنها كلما أنست بحالة نقلت عنها. فأما صوم الدهر: ففي أفراد مسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: كيف بمن يصوم الدهر كله؟ فقال: «لا صام ولا أفطر ـ أو ـ لم يصم ولم يفطر»[1] وهذا محمول على من سرد الصوم في الأيام المنهي عن صيامها: فأما إذا أفطر يومي العيدين وأيام التشريق فلا بأس بذلك.

فقد روي عن هشام بن عروة رحمه الله أن أباه كان يسرد الصوم، وكانت عائشة رضي الله عنها تسرد.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه، سرد أبو طلحة الصوم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أربعين عاماً.

آداب صوم الخصوص:

واعلم: أن من رزق فطنة، علم المقصود بالصوم، فحمل نفسه قدر ما لا يعجزه عما هو أفضل منه.

فقد كان ابن مسعود قليل الصوم، وكان يقول: إذا صمت ضعفت عن الصلاة، وأنا أختار الصلاة على الصوم.

وكان بعضهم إذا صام ضعف عن قراءة القرآن، فكان يكثر الفطر حتى يقدر على التلاوة، وكل إنسان أعلم بحاله وما يصلحه.

---

(١) مسلم (٣/١٦٧).

كتاب الحج وأسراره وفضائله وآدابه ونحو ذلك

ينبغي لمن أراد الحج أن يبدأ بالتوبة، ورد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع، ويرد ما عنده من الودائع.

ويستصحب من المال الحلال ما يكفيه لذهابه ورجوعه من غير تقتير، على وجه يمكنه معه التوسع في الزاد، والرفق بالفقراء.

ويستصحب ما يصلحه كالسواك، والمشط، والمرآة، والمكحلة.

ويتصدق بشيء قبل خروجه، وإذا اكترى فليظهر للجمال كل ما يريد أن يحمله من قليل وكثير. وقد قال رجل لابن المبارك: احمل لي هذه الرقعة إلى فلان. فقال: حتى أستأذن الجمال.

وينبغي أن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير معيناً عليه، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن ضاق صدره صبَّره.

وليؤمِّر الرفقاء عليهم أحسنهم خلقاً، وأرفقهم بالأصحاب، وإنما احتيج إلى التأمير لأن الآراء تختلف، فلا ينتظم التدبير، وعلى الأمير الرفق بالقوم، والنظر في مصالحهم، وأن يجعل نفسه وقاية لهم.

وينبغي للمسافر تطييب الكلام، وإطعام الطعام، وإظهار محاسن الأخلاق، فإن السفر يخرج خفايا الباطن، ومن كان في السفر الذي هو مظنة الضجر حسن الخلق، كان في الحضر أحسن خلقاً.

وقد قيل: إذا أثنى على الرجل معاملوه في الحضر ورفقاؤه في السفر فلا تشكُّوا في صلاحه.

وينبغي له أن يودع رفقاءه وإخوانه المقيمين، ويلتمس أدعيتهم، ويجعل خروجه بكرة يوم الخميس، وليصل في منزله ركعتين قبل الخروج منه ويستودع أهله وماله، ويستعمل الأدعية والأذكار المأثورة عند خروجه من منزله، وفي ركوبه

ونزوله، وهي مشهورة في كثير من الكتب في مناسك الحج، وكذلك جميع المناسك من الإحرام، والطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، وغير ذلك من أعمال الحج يأتي فيها بما ذكر من الأذكار والدعوات والآداب، وكل ذلك مستوفى في كتب الفقه وغيرها، فليطلب هناك.

فصل [في الآداب الباطنة والإشارة إلى أسرار الحج]

اعلم: أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتجرد والانفراد لخدمته، وقد كان الرهبان ينفردون في الجبال طلباً للأنس بالله، فجعل الحج رهبانية لهذه الأمة.

فمن الآداب المذكورة، أن يكون خالياً في حجه من تجارة تشغل قلبه وتفرق همه، ليجتمع على طاعة الله تعالى، وأن يكون أشعث أغبر، رث الهيئة، غير مستكثر من الزينة.

وينبغي أن يتجنب ركوب المحمل إلا من عذر، كمن لا يستمسك على الزاملة فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حج على راحلة وتحته رحل رث[1].

وفي حديث جابر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله عزّ وجلّ يباهي بالحاج الملائكة فيقول: انظروا إلى عبادي، أتوني شعثاً غبراً من كل فج عميق، أشهدكم أني قد غفرت لهم»[2].

وقد شرف الله تعالى بيته وعظمه، ونصبه مقصداً لعباده، وجعل ما حوله حرماً له تفخيماً لأمره، وتعظيماً لشأنه، وجعل عرفة كالميدان على فنائه.

واعلم: أن في كل واحد من أفعال الحج تذكرة للمتذكر، وعبرة للمعتبر.

فمن ذلك: أن يتذكر بتحصيل الزاد زاد الآخرة من الأعمال، وليحذر أن تكون أعماله فاسدة من الرياء والسمعة فلا تصحبه ولا تنفعه، كالطعام الرطب الذي يفسد في أول منازل السفر، فيبقى صاحبه وقت الحاجة متحيراً، فإذا فارق وطنه ودخل البادية وشهد تلك العقبات، فليتذكر بذلك خروجه من الدنيا بالموت إلى ميقات القيامة وما بينهما من الأهوال.

---

(١) ابن ماجه (٢٨٩٠)، الترمذي في الشمائل (٢٦٤).

(٢) رواه ابن خزيمة، والبغوي (١٩٣١)، وروي من طريق آخر عند ابن حبان (١٠٠٦)، والبزار (١١٢٨ - كشف الأستار)، وأبو يعلى (٥٩١ كما في زوائده).
وقد جاء من حديث عائشة بلفظ آخر (١٠٧/٤).

ومن ذلك: أن يتذكر وقت إحرامه وتجرده من ثيابه، إذا لبس المحرم الإحرام لبس كفنه، وأنه سيلقى ربه على زي مخالف لزي أهل الدنيا، وإذا لبى فليستحضر بتلبيته إجابة الله تعالى إذ قال: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ [الحج: ٢٧]، وليرج القبول، وليخش عدم الإجابة، وكذلك إذا وصل إلى الحرم ينبغي أن يرجو الأمن من العقوبة، وأن يخشى أن لا يكون من أهل القُرب، غير أنه ينبغي أن يكون الرجاء غالباً، لأن الكرم عميم، وحق الزائر مرعي، وذمام المستجير لا يضيع.

ومن ذلك: إذا رأى البيت الحرام استحضر عظمته في قلبه، وشكر الله تعالى على تبليغه رتبة الوافدين إليه، وليستشعر عظمة الطواف به، ويعتقد عند استلام الحجر أنه مبايع لله على طاعته، ويضم إلى ذلك عزيمته على الوفاء بالبيعة، وليتذكر بالتعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم لجأ المذنب إلى سيده وقرب المحب.

وأنشد بعضهم في ذلك:

ستور بيتك نيل الأمن منك وقد ... علقتها مستجيراً أيها الباري

وما أظنك لما أن علقت بها ... خوفاً من النار تدنيني من النار

وها أنا جار بيت أنت قلت لنا ... حجوا إليه وقد أوصيت بالجار

ومن ذلك: إذا سعى بين الصفا والمروة، ينبغي أن يمثلها بكفتي الميزان، وتردده بينهما في عرصات القيامة، أو تردد العبد إلى باب دار الملك، إظهاراً لخلوص خدمته، ورجاء الملاحظة بعين رحمته، وطمعاً في قضاء حاجته.

وأما الوقوف بعرفة: فاذكر بما ترى فيه من ازدحام الخلق، وارتفاع أصواتهم واختلاف لغاتهم موقف القيامة، واجتماع الأمم في ذلك الموطن، واستشفاعهم.

فإذا رميت الجمار: فاقصد بذلك الانقياد للأمر، وإظهار الرق والعبودية، ومجرد الامتثال من غير حظ النفس.

وأما المدينة: فإذا لاحت لك فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وشرع إليها هجرته، وجعل فيها بيته، ثم مثل في نفسك مواضع أقدام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند تردده فيها، وتصور خشوعه وسكينته، فإذا قصدت زيارة القبر، فأحضر قلبك لتعظيمه، والهيبة له، ومثل صورته الكريمة في خيالك، واستحضر عظيم مرتبته في قلبك، ثم سلم عليه، واعلم أنه عالم بحضورك وتسليمك، كما ورد في الحديث.

* * *

كتاب آداب القرآن الكريم وذكر فضله

أعظم فضائل القرآن الكريم أنه كلام الله عزّ وجلّ، وقد مدحه الله تعالى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ وَهَـٰذا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبارَكٌ ﴾ [الأنعام: ٩٢] ﴿ إِنَّ هَـٰذا القُرْآنَ يَهدِي لِلَّتي هيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] ﴿ لاَ يَأْتيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِن خَلْفِهِ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وفي أفراد البخاري، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلّمه»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لله عزّ وجلّ أهلين من الناس، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»(٢) رواه النسائي.

وفي حديث آخر، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يعذب الله قلباً وعى القرآن».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْتَقِ ورَتِّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»(٣) صححه الترمذي.

وعن بريدة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإني لك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والده

---

(١) البخاري (٦/٢٣٦).

(٢) أحمد (٣/١٢٧، ١٢٨، ٢٤٢)، ابن ماجه (٢١٥).

(٣) الترمذي (٢٩١٤)، أبو داود (١٤٦٤)، أحمد (٢/١٩٢)، البغوي (١١٧٨)، ابن حبان (١٧٩٠)، الحاكم (١/٥٥٢).

حلتين لا تقوم لهما الدنيا، فيقولان: بما كسينا هذا؟ فيقال« بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال: اقرأ واصعد في درجِ الجنة وغرفها، فهو في صعود ما كان يقرأ، هذّاً كان أو ترتيلاً»[1].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفطرون، وبحزنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون.

ولا ينبغي أن يكون جافياً ولا غافلاً ولا صخاباً ولا حديداً.

وقال الفضيل رحمه الله: حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي أن يلغو مع من يلغو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلهو مع من يلهو، تعظيماً لله تعالى.

ولا ينبغي أن يكون له إلى أحد حاجة، بل ينبغي أن تكون حوائج الناس إليه.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: رأيت رب العزة في المنام، فقلت: يا رب، ما أقرب ما يتقرب به إليك المتقربون؟ فقال: بكلامي يا أحمد، فقلت: يا رب بفهم أو بغير فهم؟ فقال: بفهم وبغير فهم.

فصل [في آداب التلاوة]

ينبغي لقارىء القرآن أن يكون على وضوء، مستعملاً للأدب، مطرقاً غير متربع ولا متكىء، ولا جالس على هيئة المتكبر.

وأفضل الأحوال: أن يقرأ في الصلاة قائماً، وأن يكون في المسجد.

فأما مقدار القراءة، فقد اختلفت فيها عادات السلف، فمنهم من كان يختم كل يوم وليلة ختمة، ومنهم من كان يختم في اليوم والليلة أكثر من ذلك، ومنهم من كان يختم في ثلاث ختمة، ومنهم من كان يختم في كل أسبوع، ومنهم من كان يختم في كل شهر، اشتغالاً بالتدبر أو بنشر العلم، أو بتعليمه، أو بنوع من التعبد غير القراءة، أو بغيره من اكتساب الدنيا.

وأولى الأمر: ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمة، ولا يؤذيه في بدنه، ولا يفوته معه الترتيل والفهم.

---

(1) أحمد (٣٤٨/٥)، الدارمي (٤٥٠/٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لإن أقرأ البقرة وآل عمران، وأرتلهما وأتدبرهما أحب إليّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة، ومن وجد خلسة في وقت، فليغتنم كثرة القراءة ليفوز بكثرة الثواب، فقد كان عثمان رضي الله عنه يقرأ القرآن في ركعة يوتر بها، وكان الشافعي رحمه الله يختم في رمضان ستين ختمة.

وأما الدوام: فليكن على قدر الإمكان، كما أشرنا إليه.

واستحب بعضهم إذا ختم بالنهار أن يختم في ركعتي الفجر أو بعدهما، وإذا ختم بالليل أن يختم في ركعتي المغرب أو بعدهما ليستقبل بالختمة أول الليل وأول النهار.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من ختم القرآن فله دعوة مستجابة.

وكان أنس رضي الله عنه إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا.

فصل [في تحسين الصوت]

ويستحب تحسين القراءة، وإذا لم يكن حسن الصوت حسنه ما استطاع، فأما القراءة بالألحان، فقد كرهها السلف.

ويستحب الإسرار بالقراءة. وقد جاء في الحديث: «فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية»[1]، إلا أنه ينبغي أن يسمع نفسه.

ولا بأس بالجهر في بعض الأوقات لمقصود صحيح، إما لتجويد الحفظ، أو ليصرف عن نفسه الكسل والنوم، أو ليوقظ الوسنان.

فأما حكم القراءة في الصلاة، ومقدار ما يقرأ في صلاة الفرض، وموضع الجهر والإسرار فذلك معروف مشهور في كتب الفقه.

ومن كان عنده مصحف ينبغي له أن يقرأ فيه كل يوم آيات يسيرة لئلا يكون مهجوراً.

وينبغي لتالي القرآن العظيم أن ينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه في إيصال معاني كلامه إلى أفهامهم، وأن يعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه ويتدبر كلامه، فإن التدبر هو المقصود من القراءة، وإن لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية، فليرددها، فقد روى أبو ذر رضي الله عنه عن

---

(١) أبو داود (١٣٣٣)، الترمذي (٢٩١٩).

النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قام ليلة بآية يرددها ﴿ إن تُعَذبهُمْ فَإنهُم عبَادُكَ ﴾[1] الآية [المائدة: ١١٨] وقام تميم الداري رضي الله عنه بآية وهي قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسبَ الَّذينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أن نجْعَلَهُم كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَاتِ ﴾ [الجاثية: ٢١] وكذلك قام بها الربيع بن خيثم رحمة الله عليه ليلة.

وينبغي للتالي أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، ويتفهم ذلك، فإذا تلا قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [الأنعام: ١] فليعلم عظمته ويتلمح قدرته في كل ما يراه.

وإذا تلا: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٨] فليتفكر في نطفة متشابهة الأجزاء، كيف تنقسم إلى لحم وعظم، وعرق وعصب، وأشكال مختلفة من رأس ويد، ورجل، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة كالسمع، والبصر، والعقل، وغير ذلك، فيتأمل هذه العجائب.

وإذا تلا أحوال المكذبين فليستشعر الخوف من السطوة إن غفل عن امتثال الأمر

وليتخلى التالي من موانع الفهم، مثل أن يحيل الشيطان إليه أنه ما حقق تلاوة الحرف ولا أخرجه من مخرجه، فيكرره التالي، فيصرف همته عن فهم المعنى.

ومن ذلك أن يكون التالي مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداءه، فهو كالجرب على المرآة، يمنع من تجلي الحق، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدإ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل الجلاء للمرآة.

وينبغي لتالي القران أن يعلم أنه مقصود بخطاب القرآن ووعيده، وأن القصص لم يرد بها السمر بل العبر، فليتنبه لذلك، فحينئذ يتلو تلاوة عبد كاتبه سيده بمقصود. وليتأمل الكتاب ويعمل بمقتضاه، فإن مثل العاصي إذا قرأ القرآن وكرره، كمثل من كرر كتاب الملك وأعرض عن عمارة مملكته وما أمر به في الكتاب فهو مقتصر على دراسته، مخالف أوامره، فلو ترك الدراسة مع المخالفة كان أبعد من الاستهزاء واستحقاق المقت.

وينبغي أن يتبرأ من حوله وقوته، وأن لا يلتفت إلى نفسه بعين الرضى والتزكية، فإن من رأى نفسه بصورة التقصير، كان ذلك سبب قربه.

* * *

---

(١) أحمد (٥/١٥٦، ١٧٠)، النسائي (٢/١٧٧)، ابن ماجه (١٣٥٠).

كتاب الأذكار والدعوات وغيرها

اعلم: أنه ليس بعد تلاوة القرآن عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله سبحانه وتعالى، ورفع الحوائج بالأدعية الخالصة إليه تعالى، ويدل على فضل الذكر قوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقوله: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُون اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِم ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقوله: ﴿ والذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَات ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الله عزّ وجلّ يقول: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»[١].

وفي أفراد مسلم عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»[٢] وفي ذلك أحاديث كثيرة مذكورة في فضائل الأعمال.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما جلس قوم مجلساً فتفرقوا على غير ذكر الله عزّ وجلّ، إلا تفرقوا عن مثل جيفة الحمار، وكان ذلك المجلس عليهم حسرة يوم القيامة»[٣].

وفي حديث آخر: «لا يجلس قوم مجلساً لا يذكرون الله عزّ وجلّ ولا يصلون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة»[٤].

وأما فضيلة الدعاء: فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ليس شيء أكرم على الله عزّ وجلّ من الدعاء»[٥]

---

(١) أحمد (٢/٥٤٠)، ابن ماجه (٣٧٩٢).

(٢) مسلم (٨/٧٢)، الترمذي (٣٣٧٨).

(٣) أبو داود (٤٨٥٥) وابن السني في عمل اليوم والليلة والحاكم في المستدرك.

(٤) أحمد (٢/٤٦٣)، ابن حبان (٢٣٢٢).

(٥) الترمذي (٣٣٧٠)، ابن ماجه (٣٨٢٩)، وابن حبان (٢٣٩٧)، وأحمد (٢/٣٦٢)، والبغوي (١٣٨٨).

و «أشرف العبادة الدعاء»[1] و «من لا يسأل الله يغضب عليه»[2]. وفي حديث آخر: «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل»[3].

وللدعاء آداب: من ذلك أن يتحرى الأوقات الشريفة، كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الشهور، والجمعة من الأسبوع، والسحر من الليل.

ومن الأوقات الشريفة بين الأذان والإقامة، وعقيب الصلوات، وعند نزول الغيث، وعند القتال في سبيل الله، وعند ختم القرآن، وفي السجود، وعند الإفطار، وعند حضور القلب ووجله.

وعلى الحقيقة فإن شرف الأوقات يرجع إلى شرف الحالات، فإن وقت السحر وقت صفاء القلب وفراغه، وحالة السجود حالة الذل.

ومن آداب الدعاء أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه ثم يمسح بهما وجهه، وأن يخفض صوته حال الدعاء.

ومن آدابه أن يبدأ بذكر الله عزّ وجلّ، ثم يصلي على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولا يتكلف السجع في الدعاء.

ومن آدابه وهو الأدب الباطن ـ وهو الأصل في الإجابة ـ التوبة ورد المظالم.

فصل [في الأوراد وفضلها وتوزيع العبادات على مقادير الأوقات]

اعلم: أنه إذا حصلت المعرفة لله سبحانه والتصديق بوعده، والعلم بقصر العمر، وجب ترك التقصير في هذا العمر القصير، والنفس متى وقفت على فن واحد حصل لها ملل، فمن التلطف نقلها من فن إلى فن، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * وَمِنَ اللَّيلِ فاسْجُد لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَويلاً ﴾ [الإنسان: ٢٥ ـ ٢٦]، فهذا ونحوه مما ذكر من الآيات في ذلك يدل على أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على الدوام، وقال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهارَ خِلْفَةً لِمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَو أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان: ٦٢]، أي يخلف أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات في الآخر.

---

(١) البخاري في الأدب المفرد (٧١٣).

(٢) الترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، أحمد (٢/٤٤٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٥٨)، والحاكم (١/٤٩١)، البغوي (١٣٨٩).

(٣) الترمذي (٣٥٧١).

بيان عدد أوراد الليل والنهار وترتيبها

أوراد النهار سبعة، وأوراد الليل ستة، فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به.

الورد الأول من أوراد النهار: ما بين طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، وهو وقت شريف، وقد أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٨].

فينبغي للمريد إذا انتبه من النوم أن يذكر الله سبحانه وتعالى فيقول: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[١]. روي ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أفراد البخاري.

وفي أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا أمسى قال: «أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير، رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر»[٢].

وإذا أصبح قال ذلك أيضاً: «أصبحنا وأصبح الملك لله...» إلى آخره، ويقول: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم»[٣] ثلاث مرات، «رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبياً ورسولاً»[٤].

فإذا صلى الفجر قال وهو ثان رجله قبل أن يتكلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير»[٥] عشر مرات.

ويذكر سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك

---

(١) البخاري (٨/٨٥)، ومسلم (٨/٧٨).

(٢) مسلم (٨/٨٢)، أبو داود (٥٠٧١)، والترمذي (٣٣٩٠).

(٣) أبو داود (٥٠٨٨)، والترمذي (٣٣٨٨)، وابن ماجه (٣٨٦٩).

(٤) الترمذي (٣٣٨٩).

(٥) ابن السني في عمل اليوم والليلة (١٤١).

بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[1].

ويقول: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين»[2].

ويدعو «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عِصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحَياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»[3].

ويدعو بدعاء أبي الدرداء: «اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، عليك توكلت، وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً. اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم»[4].

فهذه الأدعية لا يستغني المريد عن حفظها.

وينبغي له قبل خروجه إلى صلاة الفجر أن يصلي السنة في منزله ثم يخرج متوجهاً إلى المسجد ويقول: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشايَ هذا، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[5].

فإذا دخل المسجد فليقل ما روى مسلم في «صحيحه» أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك»[6]، ثم يطلب الصف الأول منتظراً للجماعة داعياً بنحو ما تقدم من الأذكار والأدعية.

---

(١) البخاري (٨/١٨٨).

(٢) ابن السني (٣٣).

(٣) مسلم (٨/٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٦٨).

(٤) ابن السني (٥٦) وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (١٤٠٠).

(٥) ابن ماجه (٧٧٨)، وأحمد (٣/٢١)، وابن السني (٨٤).

(٦) مسلم (٢/١٥٥).

فإذا صلى الفجر استحب أن يمكث في مكانه إلى طلوع الشمس.

فقد روى أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من صلى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حَجة وعمرة تامة تامة تامة»[1].

وليكن وظائف وقته أربعاً: الدعاء، والذكر، والقراءة، والفكر.

وليأت بما أمكنه، وليتفكر في قطع القواطع، وشغل الشواغل عن الخير ليؤدي وظائف يومه، وليتفكر في نعم الله تعالى ليتوفر شكره.

الورد الثاني: ما بين طلوع الشمس إلى الضحى، وذلك بمضي ثلاث ساعات من النهار، إذا فرض النهار اثنتي عشرة ساعة، وهو الربع، وهذا وقت شريف، وفيه وظيفتان:

إحداهما: صلاة الضحى.

والثانية: ما يتعلق بالناس من عيادة مريض، أو تشييع جنازة، أو حضور مجلس علم، أو قضاء حاجة مسلم. وإن لم يفعل شيئاً من ذلك تشاغل بالقراءة والذكر.

الورد الثالث: من وقت الضحى إلى الزوال، والوظيفة في هذا الوقت، الأقسام الأربعة، وزيادة أمرين:

أحدهما: الاشتغال بالكسب والمعاش، وحضور السوق، فإن كان تاجراً فليتجر بصدق وأمانة، وإن كان صاحب صنعة، فليصنع بنصيحة وشفقة، ولا ينس ذكر الله تعالى في جميع أشغاله، وليقنع بالقليل.

والثاني: القيلولة، فإنها مما تعين على قيام الليل، كما يعين السحور على صيام النهار، فإن نام فليجتهد في الانتباه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة قبل دخول الوقت.

واعلم: أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، فالاعتدال أن ينام من ذلك الثلث، وهو ثمان ساعات، فمن نام أقل من ذلك لم يأمن اضطراب بدنه، ومن نام أكثر من ذلك كثر كسله، فإذا نام أكثر من ذلك في الليل فلا وجه لنومه في النهار، بل من نقص منه استوفى ما نقص في النهار.

---

(١) الترمذي (٥٨٦)، والبغوي (٧١٠).

الورد الرابع: ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر، وهو أقصر أوراد النهار وأفضلها، فينبغي له في هذا الوقت إذا أذن المؤذن أن يجيبه بمثل قوله، ثم يقوم فيصلي أربع ركعات، ويستحب أن يطيلهن، فإن أبواب السماء تفتح حينئذ، ثم يصلي الظهر وسنتها، ثم يتطوع بعدها بأربع.

الورد الخامس: ما بعد ذلك إلى العصر، فيستحب له في هذا الوقت الاشتغال بالذكر، والصلاة، وفنون الخير، ومن أفضل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة.

الورد السادس: إذا دخل وقت العصر إلى أن تصفر الشمس، وليس في هذا الوقت صلاة سوى أربع ركعات بين الأذانين، ثم فرض العصر، ثم يتشاغل بالأقسام الأربعة التي سبق ذكرها في الورد الأول، والأفضل فيه تلاوة القرآن بالتدبر والتفهم.

الورد السابع: من اصفرار الشمس إلى أن تغرب، وهو وقت شريف. قال الحسن البصري رحمه الله: كانوا أشد تعظيماً للعشي من أول النهار، فيستحب في هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة.

وبالمغرب تنتهي أوراد النهار فينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه، فقد انقضت من طريقه مرحلة. وليعلم أن العمر أيام تنقضي جملتها بانقضاء آحادها.

قال الحسن: يا ابن آدم، إنما أنت أيام، إذا مضى يومك مضى بعضك. وليتفكر هل ساوى يومه أمسه، فإن رأى أنه قد توفر على الخير في نهاره، فليشكر الله سبحانه وتعالى على التوفيق، فإن تكن الأخرى، فليتب وليعزم على تلافي ما سبق من التفريط في الليل، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وليشكر الله تعالى على صحة جسمه، وبقاء بقية من عمره يمكن فيها استدراك التقصير، وقد كان جماعة من السلف يستحبون أن لا ينقضي يوم إلا عن صدقة، ويجتهدون فيما أمكن من كل خير.

ذكر أوراد الليل

الورد الأول: إذا غربت الشمس إلى وقت العشاء، فإذا غربت صلى المغرب واشتغل بإحياء ما بين العشاءين، فقد روي عن أنس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُم عنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ

يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]. إن هذه الآية نزلت في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كانوا يصلون بين المغرب والعشاء.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من صلى بعد المغرب ست ركعات ولم يتكلم فيما بينهن بسوء، عدلن له بعبادة اثنتي عشرة سنة» رواه الترمذي[١].

الورد الثاني: من غيبوبة الشفق الأحمر إلى وقت النوم، يستحب أن يصلي بين الأذانين ما أمكنه، وليكن في قراءته: ﴿ الٓمٓ تَنْزِيلُ الكِتابِ﴾ [السجدة: ١] و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ ﴾ [تبارك: ١]. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا ينام حتى يقرأهما[٢].

وفي حديث آخر، عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة»[٣].

الورد الثالث: الوتر قبل النوم، إلا من كان عادته القيام بالليل، فإن تأخيره في حقه أفضل، قالت عائشة رضي الله عنها: من كل الليل قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من أول الليل، وأوسطه، وآخره، فانتهى وتره إلى السحر. متفق عليه[٤]، ثم ليقل بعد الوتر: «سبحان الملك القدوس»[٥] ثلاث مرات.

الورد الرابع: النوم، وإنما عددناه من الأوراد، لأنه إذا روعيت آدابه وحسن المقصود به احتسب عبادة. وقد قال معاذ رضي الله عنه: إني لأحتسب في نومتي كما أحتسب في قومتي.

فمن آداب النوم: أن ينام على طهارة، لما روت عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أراد أن ينام يتوضأ وضوءه للصلاة[٦]

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: إن الأرواح يعرج بها في

---

(١) الترمذي (٤٣٥)، وابن ماجه (١١٦٧)، والبغوي (٨٩٦)، وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (٧٧٥).
(٢) الترمذي (٣٤٠٤)، أحمد (٢/٤٥٥)، البخاري (١٢٠٧) في الأدب المفرد.
(٣) ابن السني (٦٨٥)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٥١).
(٤) البخاري (٢/٣١)، مسلم (٢/١٦٨).
(٥) النسائي (٣/٢٤٥)، أحمد (٥/١٢٣)، ابن حبان (٦٧٧)، الدارقطني (٢/١٣١).
(٦) البخاري (١/٨٠)، مسلم (١/١٧٠).

منامها إلى السماء فتؤمر بالسجود عند العرش، فما كان منها طاهراً سجد عند العرش، وما كان ليس بطاهر سجد بعيداً عن العرش.

ومن آدابه أن يتوب قبل نومه، لأنه ينبغي لمن طهر ظاهره أن يطهر باطنه، لأنه ربما مات في نومه.

ومنها: أن يزيل كل غش في قلبه لمسلم، ولا ينوي ظلمه، ولا يعزم على خطيئة إذا استيقظ.

ومنها: أن لا يبيت من له شيء يوصي به إلا ووصيته مكتوبة عنده، لأن في «الصحيحين» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»[1].

وينبغي له أيضاً أن لا يبالغ في تمهيد الفراش متنعماً بذلك، فإنه يزيد في النوم، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثني له فراشه فقال: «منعتني وطأته صلاتي الليلة»[2].

وينبغي أن لا ينام حتى يغلبه النوم، فقد كان السلف لا ينامون إلا غلبة.

ومن آدابه أن يستقبل القبلة وأن يدعو بما ورد من الأحاديث في ذلك، أن ينام على جنبه الأيمن، فمما جاء في ذلك ما روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما حدث بعده»[3].

فإذا وضع جنبه فليقل: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» أخرجاه في «الصحيحين».

وفي «الصحيحين» أيضاً، من حديث عائشة، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفخ فيهما وقرأ فيهما: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾، ثم مسح

---

(١) البخاري (٤/٢)، مسلم (٥/٧٠).

(٢) الترمذي في الشمائل (٣١٢).

(٣) البخاري (٨/٨٧)، مسلم (٨/٧٩).

بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات[1].

وفيهما من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت، فإنك إن مت في ليلتك مت على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيراً»[2].

وعن علي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له ولفاطمة: «إذا أخذتما مضاجعكما أو أويتما إلى فراشكما، فسبحا الله ثلاثاً وثلاثين، واحمداه ثلاثاً وثلاثين، وكبراه أربعاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم»[3] متفق عليه.

وحديث أبي هريرة في حفظ زكاة رمضان مشهور، وفيه أن شيطاناً قال له: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان. فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب»[4].

وفي أفراد مسلم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مُؤوي»[5].

فإذا استيقظ للتهجد، فليدع بدعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم ربنا لك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما

(١) البخاري (٦/٢٣٤)، (٨/٨٧)، مسلم (٧/١٦).
(٢) البخاري (٨/٨٤، ٨٥)، مسلم (٨/٧٧).
(٣) البخاري (٨/٨٧)، مسلم (٨/٨٤).
(٤) البخاري (٣/١٣٣)، (٤/١٤٩)، (٦/٢٣٢).
(٥) مسلم (٨/٧٩).

أسررت وما أعلنت» وفي رواية: «وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت» متفق عليه[1].

وليجتهد أن يكون آخر كلامه عند النوم ذكر الله تعالى، وأول ما يجري على لسانه عند التيقظ ذكر الله تعالى، فهاتان علامتان على الإيمان.

الورد الخامس من أوراد الليل: يدخل بمضي النصف الأول إلى أن يبقى من الليل سدسه، وذلك وقت شريف. قال أبو ذر رضي الله عنه: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أي صلاة الليل أفضل؟ فقال: «نصف الليل أو جوف الليل، وقليل فاعله»[2].

وروي أن داود عليه السلام قال: يا رب، أية ساعة أقوم لك؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره، ولكن قم في شطر الليل حتى تخلو بي وأخلو بك، وارفع إليّ حوائجك.

فإذا قام إلى التهجد، قرأ العشر آيات من آخر سورة ﴿آل عمران﴾، كما روي في «الصحيحين» أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعل ذلك[3]، وليدع بما سبق من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم عند قيامه من الليل، ثم يستفتح صلاته بركعتين خفيفتين، لما روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إذا قام أحدكم يصلي بالليل، فليبدأ بركعتين خفيفتين»[4] رواه مسلم، ثم يصلي مثنى مثنى، وأكثر ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة مع الوتر[5]، وأقلهن سبع[6].

الورد السادس من الليل: السدس الأخير وهو وقت السحر، قال الله تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وفي الحديث: إن قراءة الرجل آخر الليل محضورة[7].

---

(١) البخاري (٢/٦٠)، مسلم (٢/١٨٤).
(٢) أحمد (٥/١٧٩)، ابن حبان (٦٤٨)، وابن عدي في الكامل (٢٤٥٢).
(٣) البخاري (٦/١٥٣)، مسلم (٢/١٧٩).
(٤) مسلم (٢/١٨٤)، أبو داود (١٣٢٣).
(٥) البخاري (٢/٣٠)، مسلم (٢/١٨٣).
(٦) مسلم (٢/١٧٠)
(٧) مسلم (٢/١٧٥)، البغوي (٩٦٩).

وجاء طاووس إلى رجل وقت السحر فقالوا: هو نائم، فقال: ما كنت أرى أن أحداً ينام وقت السحر.

فإذا فرغ المريد من صلاة السحر، فليستغفر الله عزّ وجلّ. وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يفعل ذلك.

فصل [في اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال]

اعلم: أن السالك لطريق الآخرة لا يخلو من ستة أحوال: إما أن يكون عابداً، أو عالماً، أو متعلماً، أو والياً، أو محترفاً، أو مستغرقاً بمحبة الله عزّ وجلّ مشغولاً به عن غيره.

الأول: العابد: وهو المنقطع عن الأشغال كلها إلى التعبد، فهذا يستعمل ما ذكرنا من الأوراد، وقد تختلف وظائفه، فقد كانت أحوال المتعبدين من السلف مختلفة، فمنهم من كان يغلب على حاله التلاوة، حتى يختم في يوم ختمة، أو ختمتين، أو ثلاثاً، وكان فيهم من يكثر التسبيح، ومنهم من يكثر الصلاة، ومنهم من يكثر الطواف بالبيت.

فإن قيل: فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد؟

فاعلم أن قراءة القرآن في الصلاة قائماً مع التدبر يجمع الجميع، ولكن ربما عسرت المواظبة على ذلك، والأفضل يختلف باختلاف حال الشخص، ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره، فلينظر المريد ما يراه أشد تأثيراً فيه فليواظب عليه، فإذا أحس بملل انتقل عنه إلى غيره.

قال أبو سليمان الداراني: فإذا وجدت قلبك في القيام فلا تركع، وإذا وجدته في الركوع فلا ترفع.

الثاني: العالم: الذي ينتفع الناس بعلمه في فتوى، أو تدريس، أو تصنيف، أو تذكير، فترتيبه في الأوراد يخالف ترتيب العابد فإنه يحتاج إلى المطالعة في الكتب، والتصنيف والإفادة، فإن استغرق الأوقات في ذلك، فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات، وإنما نعني بالعلم المقدم على العبادة الذي يرغب في الآخرة، ويعين على سلوك طريقها، والأولى بالعالم أيضاً أن يقسم أوقاته، لأن استغراق الأوقات في العلم لا تصبر عليه النفس، فينبغي أن يخص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد على ما ذكرنا، ثم ما بعد طلوع الشمس إلى الضحى في الإفادة والتعليم، فإن لم يكن عنده من يتعلم، صرف ذلك الزمان إلى التفكير في

العلوم، فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات، ثم من ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة، لا يترك ذلك إلا في وقت أكل، أو طهارة، أو مكتوبة، أو قيلولة، ومن العصر إلى اصفرار الشمس بسماع ما يقرأ عليه من تفسير، أو حديث، أو علم نافع، ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالاستغفار والتسبيح، فيكون ورده الأول من عمل اللسان، والثاني في عمل القلب بالتفكير، والثالث في عمل العين واليد والمطالعة والنسخ، والرابع بعد العصر في عمل السمع لتتروح العين واليد، فإن المطالعة والنسخ بعد العصر ربما أضرا بالعين.

وأما الليل: فأحسن قسمة فيه قسمة الشافعي رحمه الله، فإنه كان يقسمه ثلاثة أجزاء: الثلث الأول لكتابة العلم، والثاني للصلاة، والثالث للنوم، فأما الصيف، فربما لا يحتمل ذلك، إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار.

الثالث: حال المتعلم: فإن التعلم أفضل من التشاغل بالأذكار والنوافل، وحكم المتعلم حكم العالم في ترتيب الأوراد، لكنه يشتغل بالاستفادة حين يشتغل العالم بالإفادة، وبالتعليق والنسخ حين يشتغل العالم بالتصنيف، فإن كان من العوام كان حضوره مجالس الذكر والعلم والوعظ أفضل من اشتغاله بالأوراد المتطوع بها.

الرابع: الوالي: مثل الإمام، والقاضي، أو المتولي للنظر في أمور المسلمين، فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة، لأنه عبادة يتعدى نفعها، فينبغي أن يقتصر في النهار على المكتوبات، ثم يستفرغ باقي الزمان في ذلك، ويقنع بأوراد الليل.

الخامس: المحترف: وهو محتاج إلى الكسب له أو لعياله، فليس له أن يستغرق الزمان في التعبد، بل يجتهد في الكسب مع دوام الذكر، فإذا حصل له ما يكفيه عاود الأوراد.

السادس: المستغرق بمحبة الله سبحانه: فهذا ورده بعد المكتوبات حضور القلب مع الله تعالى، وهو يحركه إلى ما يريد من ورده.

وينبغي أن يداوم على الأوراد، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أحب العمل إلى الله تعالى أدومه وإن قل»[1]. وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم عمله ديمة.

---

(١) البخاري (٨/١٢٢)، مسلم (٢/١٨٩).

باب في قيام الليل وفضله
والأسباب الميسرة لقيامه ونحو ذلك

قال الله تعالى: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربكم، ومغفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم»[1] وفي فضله أحاديث كثيرة.

وقال الحسن البصري رحمه الله: لم أجد من العبادة شيئاً أشد من الصلاة في جوف الليل، فقيل له: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره.

فصل [في الأسباب الميسرة لقيام الليل]

اعلم: أن قيام الليل صعب إلا من وفق للقيام بشروطه الميسرة له.

فمن الأسباب ظاهر، ومنها باطن.

فأما الظاهر: فأن لا يكثر الأكل، كان بعضهم يقول: يا معشر المريدين، لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فتناموا كثيراً، فتخسروا كثيراً.

ومنها: أن لا يتعب نفسه بالنهار بالأعمال الشاقة.

ومنها: أن لا يترك القيلولة بالنهار، فإنها تعين على قيام الليل.

ومنها: أن يجتنب الأوزار.

قال الثوري: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته.

وأما الميسرات الباطنة:

فمنها سلامة القلب للمسلمين، وخلوه من البدع، وإعراضه عن فضول الدنيا.

ومنها. خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل.

ومنها: أن يعرف فضل قيام الليل.

ومن أشرف البواعث على ذلك الحب لله تعالى، وقوة الإيمان بأنه إذا قام

---

(١) الترمذي (٣٥٤٩).

ناجى ربه، وأنه حاضره ومشاهده، فتحمله المناجاة على طول القيام.

قال أبو سليمان رحمه الله: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.

وفي «صحيح مسلم» عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا آتاه إياه، وذلك كل ليلة»[1].

وإحياء الليل مراتب:

أحدها: أن يحيي الليل كله، روي ذلك عن جماعة من السلف.

الثانية: أن يقوم نصف الليل، وهو مروي أيضاً عن جماعة من السلف وأحسن الطريق في هذا أن ينام الثلث الأول من الليل، والسدس الأخير منه.

المرتبة الثالثة: أن يقوم ثلث الليل، فينبغي أن ينام النصف الأول، والسدس الأخير، وهو قيام داود عليه السلام.

ففي «الصحيحين»: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»[2]، ونوم آخر الليل حسن، لأنه يذهب بآثار النعاس من الوجه بالغداة، ويقلل صفرته.

المرتبة الرابعة: أن يقوم سدس الليل أو خمسه، والأفضل من ذلك ما كان في النصف الأخير، وبعضهم يقول: أفضله السدس الأخير.

المرتبة الخامسة: أن لا يراعي التقدير، فإن مراعاة ذلك صعب.

ثم فيما يفعله طريقان:

أحدهما: أن يقوم أول الليل إلى أن يغلبه النوم فينام، فإذا انتبه قام، فإذا غلبه النوم نام، وهذا من أشد المكابدة، وهو طريق جماعة من السلف.

وفي «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه: ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مصلياً من الليل إلا رأيناه، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه[3]. وكان عمر رضي الله عنه يصلي من الليل ما شاء الله، حتى إذا كان من

---

(١) مسلم (٢/١٧٥).

(٢) البخاري (٢/٦٣)، مسلم (٣/١٦٥).

(٣) البخاري (٢/٦٥، ٣/٥٠)، البغوي (٩٣٢)، والترمذي (٧٦٩).

آخر الليل أيقظ أهله، فيقول: الصلاة الصلاة.

وقال الضحاك: أدركت أقواماً يستحيُون من الله في سواد هذا الليل من طول الضجعة.

الطريق الثاني: أن ينام أول الليل، فإذا أخذ حظه من النوم، وانتبه، قام الباقي.

قال سفيان الثوري: إنما هي أول نومة، فإذا انتبهت لم أقلها ـ يعني: لم ينم ـ.

المرتبة السادسة: أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين، فقد روينا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «صلوا من الليل، صلوا أربعاً، صلوا ركعتين»[1]. . . الحديث.

وفي «سنن أبي داود» قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا جميعاً ركعتين، كتبا ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»[2]. وكان طلحة بن مصرف يأمر أهله بقيام الليل، ويقول: صلوا ركعتين، فإن الصلاة في جوف الليل تحط الأوزار.

فهذه طرق قسمة الليل، فليتخير المريد لنفسه ما يسهل عليه، فإن صعب القيام عليه في وسط الليل، فلا ينبغي أن يخل بإحياء ما بين العشاءين وورد السحر، ليكون قائماً في الطرفين، وهذه مرتبة سابعة.

فصل [فيمن صعبت عليه الطهارة في الليل]

فأما من صعبت عليه الطهارة في الليل، وثقلت عليه الصلاة، فليجلس مستقبل القبلة، وليذكر الله تعالى، وليدع مهما قدر. فإن لم يجلس فليدع وهو مضطجع، ومن كان له ورد فغلبه النوم وفاته، فليأت به بعد صلاة الضحى. فقد ورد ذلك في الحديث[3].

وليحذر من له عادة بقيام الليل أن يتركها، ففي «الصحيحين» ان رسول الله

(١) رواه ابن نصر المروزي (ص ٤٥)، والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) أبو داود (١٣٠٩، ١٤٥١)، ابن ماجه (١٣٣٥)، ابن حبان (٦٤٥).

(٣) الحديث في مسلم (٢/١٧٢).

صلى الله عليه وآله وسلم قال لعبد الله بن عمرو: «لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل»[1].

فصل [في بيان الليالي والأيام الفاضلة]

أما الليالي المخصوصات بمزيد الفضل التي يستحب إحياؤها، فخمس عشرة ليلة ولا ينبغي للمريد أن يغفل عنهن، لأنه إذا غفل التاجر عن موسم الربح فمتى يربح؟! فمن هذه الليالي سبع في رمضان: الليلة السابعة عشرة، وهي التي كانت صبيحتها وقعة بدر، والست الباقية هن أوتار العشر [الأخير]، إذ فيهن تطلب ليلة القدر وأما الثمان الأخر: فأول ليلة من المحرم، وليلة عاشوراء، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه فإنها ليلة المعراج، وليلة النصف من شعبان، وليلة عرفة، وليلتا العيدين. وقد ورد صلوات لبعض هذه الليالي وليس فيها ما يثبت.

وأما الأيام الفاضلة فتسعة عشر يوماً: يوم عرفة، ويوم عاشوراء، ويوم سبع وعشرين من رجب، وهو أول يوم هبط فيه جبريل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويوم سبع عشرة من رمضان كان فيه وقعة بدر، ويوم النصف من شعبان، ويوم الجمعة، ويوما العيدين، والأيام المعلومات وهي عشر ذي الحجة، والأيام المعدودات وهي أيام التشريق.

ومن فواضل الأيام في الأسبوع: يوم الإثنين، والخميس، وأيام البيض. وفيها فضل كبير مذكور في فضائل الصوم.

آخر كتاب الأوراد، وهو آخر ربع العبادات، وبالله التوفيق.

(١) البخاري (٢/ ٦٨)، مسلم (٣/ ١٦٤).

باب في آداب الأكل والاجتماع عليه والضيافة ونحو ذلك

وآداب الأكل، منها ما هو قبله، ومنها ما هو مع الأكل، ومنها ما هو بعد الأكل.

فمن القسم الأول: غسل اليدين قبل الأكل، كما ورد في الحديث، لأنها لا تخلو من درن، ومن ذلك أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض، فإنه أقرب إلى فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من رفعه على المائدة، وهو أدنى إلى التواضع، ومن ذلك أن يجلس الجلسة على السفرة، فينصب رجله اليمنى، ويعتمد على اليسرى، وينوي بأكله أن يتقوى على طاعة الله تعالى ليكون مطيعاً بالأكل، ولا يقصد به التنعم فقط، وعلامة صحة هذه النية أخذ البلغة دون الشبع. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه وثلث لِنَفَسِهِ»[1].

ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد يده إلى الطعام إلا وهو جائع، وأن يرفع يده قبل الشبع، ومع فعل ذلك لم يكد يحتاج إلى طبيب، ومن ذلك أن يرضى بالموجود من الرزق، ولا يحتقر اليسير منه، وأن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده.

القسم الثاني: في الآداب حالة الأكل: وهو أن يبدأ ببسم الله في أوله، ويحمد الله تعالى في آخره.

ومن ذلك أن يأكل باليمنى ويصغر اللقمة ويجود مضغها، وأن لا يمد يده إلى

(١) الترمذي (٢٣٨٠)، ابن ماجه (٣٣٤٩)، أحمد (١٣٢/٤)، البغوي (٤٠٤٨).

أخرى حتى يبتلع الأولى، ولا يذم مأكولاً، ومن ذلك أن يأكل مما يليه، إلا أن يكون الطعام متنوعاً كالفاكهة، وليأكل بثلاث أصابع، وإذا وقعت لقمة أخذها.

ومن ذلك أن لا ينفخ في الطعام الحار، ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق واحد، ولا يجمعه في كفه، بل يضعه من فيه على ظهر كفه ثم يلقيه، وكذا كل ما له عجم وثفل، ولا يشرب الماء في أثناء الطعام، فإنه أجود في باب الطب.

ومن آداب الشرب أن يتناول الإناء بيمينه، وينظر فيه قبل الشرب، ويمص مصاً لا عبّاً، فقد روي عن علي رضي الله عنه: مصوا الماء مصاً ولا تعبوه عباً، فإن الكباد من العب.

ولا يشرب قائماً، ويتنفس في شربه ثلاثاً.

ففي «الصحيحين» أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يتنفس في الإناء ثلاثاً[1]. والمعنى يتنفس في شربه في الإناء، بأن يباعد الإناء عنه ويتنفس، لا أن يكون النفس في الإناء.

القسم الثالث: من آداب الأكل ما يستحب بعد الطعام، وهو أن يمسك قبل الشبع ويلعق أصابعه، وأن يسلت القصعة، وليحمد الله، ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»[2]، ويغسل يديه من الغمر.

فصل [فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل]

من ذلك أن لا يبتدىء في الأكل إلا إذا كان معه من يستحق التقدم لكبر سن أو زيادة فضل، إلا أن يكون هو المتبوع.

ومنها أن لا يسكتوا على الطعام، بل يتكلمون بالمعروف، ويتحدثون بحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها.

ومن ذلك أن يقصد كل منهم الإيثار لرفيقه، ولا يحوج رفيقه إلى أن يقول له: كل، بل ينبسط ولا يتصنع بالانقباض.

---

(١) البخاري (٧/١٤٦)، مسلم (٦/١١١).

(٢) مسلم (٨/٨٧)، الترمذي (١٨١٦)، أحمد (٣/١٠٠، ١١٧).

ومن ذلك أن لا ينظر إلى أصحابه حالة الأكل لئلا يستحيوا.

ومن ذلك أن لا يفعل ما يستقذره من غيره، فلا ينفض يده في القصعة، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه، وإذا أخرج شيئاً من فيه ليرمي به، صرف وجهه عن الطعام وأخذه بيساره، ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل، ولا الخل في الدسمة، فقد يكرهه غيره، ولا يغمس بقية اللقمة التي أكل منها في المرقة.

فصل [في تقديم الطعام إلى الإخوان]

ويستحب تقديم الطعام إلى الإخوان، روي ذلك عن علي رضي الله عنه قال: لأن أجمع إخواني على صاع من الطعام أحب إليّ من أن أعتق رقبة.

وكان خيثمة رحمه الله يصنع الخبيص والطعام الطيب، فيدعو إبراهيم والأعمش ويقول: كلوا، فما صنعته إلا لكم.

ويقدم ما حضر من غير تكلف، ولا يستأذنهم في التقديم، بل يقدم من غير استئذان، ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده.

ومن آداب الزائر أن لا يقترح طعاماً بعينه، وإن خيِّر بين طعامين اختار أيسرهما، إلا أن يعلم أن مضيفه يسر باقتراحه، ولا يقصر عن تحصيل ذلك، فقد نزل الشافعي رحمه الله على الزعفراني، وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان، ويسلمها إلى الجارية، فأخذ الشافعي الرقعة وألحق فيها لوناً آخر، فلما علم الزعفراني اشتد فرحه.

فصل [لا تدخل على قوم يأكلون]

ولا ينبغي لأحد إذا علم أن قوماً يأكلون أن يدخل عليهم، فإن صادفهم من غير قصد، فسألوه الأكل، نظر، فإن علم أنهم إنما سألوه حياء منه، فلا يأكل، وإن علم أنهم يحبون أكله معهم، جاز له أن يأكل.

ومن دخل دار صديقه فلم يجده وكان واثقاً به عالماً أنه إذا أكل من طعامه سر بذلك، جاز له أن يأكل.

فصل [في آداب الضيافة]

ومن آداب الضيافة، أن يقصد بدعوته الأتقياء دون الفساق، وقال بعض السلف: لا تأكل إلا طعام تقي، ولا يأكل طعامك إلا تقي.

وينبغي أن يقصد الفقراء دون الأغنياء

وينبغي أن لا يهمل أقاربه في ضيافتهم، فإن إهمالهم يوجب الإيحاش وقطيعة الرحم. وكذلك يراعي الترتيب في أصدقائه ومعارفه، ولا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر، بل استعمال السنة في إطعام الطعام واستمالة قلوب الإخوان، وإدخال السرور على قلوب المؤمنين، ولا يدعو من يعلم أنه تشق عليه الإجابة، أو إذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب.

وأما آداب الإجابة، فإن كانت دعوة عرس، فالإجابة عليها واجبة إذا دعاه المسلم في اليوم الأول، وإن كانت لغيره، فهي جائزة، ثم ينبغي أن لا يخص الغني بالإجابة دون الفقير، ولا يمتنع من الدعوة لكونه صائماً، بل يحضر، فإن كان تطوعاً وعلم أن فطره يسر أخاه المسلم فليفطر.

فأما إن كان الطعام حراماً فليمتنع من الإجابة، وكذلك إذا كان ثَمَّة فرش محرمة، أو إناء محرم، أو مزمار أو صورة، وكذلك إذا كان الداعي ظالماً أو فاسقاً أو مبتدعاً أو مفاخراً بدعوته.

وينبغي أن لا يقصد بالإجابة إلى الدعوة نفس الأكل، بل ينوي به الاقتداء بالسنة، وإكرام أخيه المؤمن، وينوي صيانة نفسه عمن يسيء به الظن، فربما قيل عنه إذا امتنع: هذا متكبر.

وينبغي أن يتواضع في مجلسه إذا حضر، ولا يتصدر، وإن عين له صاحب الدار مكاناً لم يتعده، ولا يكثر النظر إلى المكان الذي يخرج منه الطعام، فإنه دليل على الشره.

فصل [في آداب إحضار الطعام]

وأما إحضار الطعام فله خمسة آداب:

الأول: تعجيله، فذلك من إكرام الضيف.

الثاني: تقديم الفاكهة أولاً قبل غيرها، وذلك أصلح في باب الطب، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة: ٢٠، ٢١].

ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم، خصوصاً المشوي، ثم أفضل الطعام بعد اللحم الثريد، ثم الحلوى، وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد، وتكملة

الأمر صب الماء الفاتر على اليد عد الغسل.

الثالث: أن يقدم جميع الألوان الحاضرة.

الرابع: أن لا يبادر إلى رفعها بل يمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا أيديهم.

الخامس: أن يقدم من الطعام قدر الكفاية، فإن التقليل من الكفاية نقص في المروءة.

وينبغي أن يعزل لأهل البيت نصيبهم قبل تقديم الطعام، فإذا أراد الضيف الانصراف ينبغي أن يخرج معه إلى باب الدار، فإنه سنة، وذلك من إكرام الضيف ومن تمام الإكرام طلاقة الوجه، وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة.

وأما الضيف فينبغي أن يخرج طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير، فذلك من حسن الخلق والتواضع، ولا يخرج إلا برضى صاحب المنزل وإذنه، ويراعي قلبه في قدر الإقامة.

* * *

كتاب النكاح وآدابه وما يتعلق به

لا يختلف العلماء في أن النكاح مستحب، مندوب إليه، كثير الفضائل، وفيه فوائد:

منها: الولد، لأن المقصود بقاء النسل، وفيه فوائد محبة الله تعالى بالسعي لذلك، ليبقى جنس الإنسان.

وفيه طلب محبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تكثير من به مباهاته.
وفيه طلب التبرك بدعاء الولد الصالح والشفاعة بموت الولد الصغير.
ومن فوائد النكاح: التحصن من الشيطان بدفع غوائل الشهوة.
وفيه ترويح النفس، وإيناسها بمخالطة الزوجة.

ومنها: تفريغ القلب عن تدبير المنزل، والتكفل به بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني وتهيئة أسباب العيش، فإن الإنسان يتعذر عليه أكثر ذلك مع الوحدة، ولو تكفل به لضاع أكثر أوقاته، ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصالحة عون على الدين بهذه الطريقة، إذ اختلال هذه الأسباب شواغل للقلب.

ومن فوائده أيضاً: مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية، والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربية الأولاد، وكل هذه أعمال عظيمة الفضل، فإنها رعاية وولاية، وفضل الرعاية عظيم، وإنما يحترز منها من يخاف من القصور عن القيام بحقها، ومقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ.

وفي أفراد مسلم، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «دينارٌ أنفقتَه في سبيل الله، ودينارٌ أنفَقتَهُ في رقبةٍ، ودينارٌ تصدقتَ به على مسكينٍ، ودينارٌ أنفقتَه على أهلك، أفضلُها الذي أنفقته على أهلك»[1].

فصل [في آفات النكاح]

وفي النكاح آفات:

(١) مسلم (٣/٧٨).

أقواها: العجز عن طلب الحلال، فإن ذلك يصعب، فربما امتدت يد المتزوج إلى ما ليس له.

الثانية: القصور عن القيام بحقوق النساء والصبر على أخلاقهن وأذاهن، وفي ذلك خطر، لأن الرجل راعٍ وهو مسؤول عن رعيته.

الثالثة: أن يكون الأهل والولد يشغلونه عن ذكر الله عزّ وجلّ، فينقضي ليله ونهاره بالتمتع بذلك، فلا يتفرغ القلب للفكر في الآخرة والعمل لها، فهذه مجامع الآفات والفوائد، فالحكم على شخص واحد، بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقاً مصروف على الإحاطة بمجامع هذه الأمور، بل ينبغي للمريد أن يعرض نفسه على هذه الأحوال، فإن انتفت عنه الآفات واجتمعت له الفوائد، بأن كان له مال حلال وحسن خلق، وهو مع ذلك شاب يحتاج إلى تسكين الشهوة، ومنفرد يحتاج إلى تدبير المنزل، فلا شك أن النكاح أفضل، وإن انتفت هذه الفوائد واجتمعت فيه الآفات، فتركه أفضل، وهذا في حق من لم يحتج إلى النكاح، فإن احتاج إليه فإنه يلزمه.

فصل [في طيب العشرة]

ويعتبر في المرأة لطيب العشرة أمور:

أحدها: الدين، وهو الأصل، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «عليك بذات الدين»[1]، فإذا لم يكن لها دين أفسدت دين زوجها، وأزرت به. وإن سلكت سبيل الغيرة لم يزل في بلاء وتكدير عيش.

الثاني: حُسن الخُلُق، فإن سيئة الخلق ضررها أكثر من نفعها.

الثالث: حُسن الخَلْق، وهو مطلوب، إذ به يحصل التحصن، ولهذا أمر بالنظر إلى المخطوبة. وقد كان أقوام لا ينظرون في الحسن، ولا يقصدون التمتع، كما روي أن الإمام أحمد رحمه الله اختار امرأة عوراء على أختها، إلا أن هذا ينذُر، والطباع على ضده.

الرابع: خفة المهر، وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته بدرهمين.

وقال عمر رضي الله عنه: لا تغالوا في مهور النساء.

وكما تكره المغالاة في المهر من جهة المرأة، يكره السؤال عن مالها من جهة الرجل.

---

(١) البخاري (١٩/٧)، مسلم (١٧٥/٤).

قال الثوري: إذا تزوج الرجل وقال: أي شيء للمرأة؟ فاعلم أنه لص.

الخامس: البِكارة، لأن الشارع ندبَ إلى ذلك، ولأنها تحب الزوج وتألفه أكثر من الثيب، فيوجب ذلك الود، فإن الطباع مجبولة على الأنس بأول مألوف، وهو أيضاً أكمل لمودته لها، لأن الطبع ينفر من التي مسها غيره.

السادس: أن تكون ولوداً.

السابع: النسب، وهو أن تكون من بيت دين وصلاح.

الثامن: أن تكون أجنبية.

وكما ينبغي للرجل أن ينظر في المرأة، ينبغي للولي أن ينظر في دين الرجل وأخلاقه وأحواله، لأنها تصير بالنكاح مرقوقة، ومتى زوجها من فاسق أو مبتدع، فقد جنى عليها وعلى نفسه.

قال رجل للحسن: ممن أزوج ابنتي؟ قال: ممن يتقي الله، فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لن يظلمها.

فصل [في آداب المعاشرة
والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة]

أما الزوج، فعليه مراعاة الاعتدال والأدب في اثني عشر أمراً:

الأول: الوليمة فإنها مستحبة.

الثاني: حسن الخلق مع الزوجات. واحتمال الأذى منهن لقصور عقلهن.

وفي الحديث الصحيح: «اسْتَوصُوا بالنساء خيراً، فإنهنَّ خُلِقْنَ من ضلعٍ، وإن أعوجَ ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمُه كسرتَه، وإنْ تركتَه لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً»[1].

واعلم: أنه ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها، والحلم على طيشها وغضبها، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ففي «الصحيحين»، من حديث عمر رضي الله عنه أن أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم كن يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. والحديث مشهور[2].

الثالث: أن يداعبها ويمازحها، وقد سابق عليه السلام عائشة رضي الله عنها:

---

(1) البخاري (٧/٣٤)، مسلم (٤/١٧٨).

(2) البخاري (٧/٣٦)، مسلم (٤/١٩٢).

وكان يداعب نساءه صلى الله عليه وآله وسلم، وقال لجابر: «هلا بكراً تلاعبُها وتلاعبُك»[1].

الرابع: أن يكون ذلك بقدر، ولا ينبسط في الرعاية إلى أن تسقط هيبته بالكلية عند المرأة، بل ينبغي أن يقصد طريق الاقتصاد. وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه عتب على بعض عماله، فكلمته امرأة عمر رضي الله عنه فيه فقالت: يا أمير المؤمنين فيم وجدت عليه؟ قال: يا عدوة الله، وفيم أنت وهذا؟ إنما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين.

الخامس: الاعتدال في الغيرة، وهو أن لا يتغافل عن مبادىء الأمور التي يخشى غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن، وقد نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يطرق الرجل أهله ليلاً[2].

السادس: الاعتدال في النفقة والقصد دون الإسراف والتقتير، ولا ينبغي للرجل أن يستأثر عن أهله بالطعام الطيب، فإن ذلك مما يوغر الصدر.

السابع: أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يدري به كيف معاشرة الحائض، ويلقنها الاعتقاد الصحيح، ويزيل عن قلبها كل بدعة إن كانت، ويعلمها أحكام الصلاة والحيض والاستحاضة، فيعرفها أنها إذا انقطع دمها قبل المغرب بمقدار ركعة فعليها الظهر والعصر، وإذا انقطع دمها قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء، وهذا لا يكاد النساء يراعينه.

الثامن: إذا كانت له نسوة ينبغي أن يعدل بينهن، والعدل في المبيت والعطاء، لا في الحب والوطء، فإن ذلك لا يملكه، فإن سافر وأراد استصحاب إحداهن أقرع بينهن، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

التاسع: النشوز، فإذا كان النشوز من المرأة، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً، ولكنه ينبغي أن يتدرج في تأديبها بتقديم الوعظ والتخويف، فإن لم ينفع هجرها في المضجع، فولاها ظهره أو انفرد عنها بالفراش، وهجرها في الكلام فيما دون ثلاثة أيام، فإن لم ينفع ضربها ضرباً غير مبرح، وهو أن لا يدمي لها جسماً، ولا يضرب لها وجهاً.

العاشر: في آداب الجماع، يستحب البداءة بالتسمية، والانحراف عن القبلة، وأن يتغطى هو وأهله بثوب، وأن لا يكونا متجردين، وأن يبدأ بالملاعبة

(١) البخاري (٦/٧)، مسلم (١٧٦/٤).
(٢) البخاري (٥٠/٧)، مسلم (٥٥/٦).

والضم والتقبيل. ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة، ثم إذا قضى وطره فليتمهل لتقضي وطرها، فإن إنزالها ربما تأخر.

ومن الآداب: أن تأتزر الحائض بإزار من حقويها إلى ما بين الركبة إذا أراد الاستمتاع بها، ولا يجوز وطؤها في الحيض، ولا في الدبر، ومن أراد أن يجامع مرة ثانية فليغسل فرجه ويتوضأ.

ومن الآداب: أن لا يحلق شعره، ولا يقلم أظافره، ولا يخرج دماً وهو جنب، وأما العزل فهو مباح مع الكراهة.

الحادي عشر: في آداب الولادة، وهي ستة:

الأول: أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى، فإنه لا يدري في أيهما الخير.

الثاني: أن يؤذن في أذن المولود حين يولد.

الثالث: أن يسميه اسماً حسناً.

وفي أفراد مسلم: «إن أحب أسمائكم إلى الله عزّ وجلّ عبدالله وعبد الرحمن»[1] ومن كان له اسم مكروه، استحب تبديله، فقد غير النبي صلى الله عليه وآله وسلم أسماء جماعة، وقد كره من الأسماء: أفلح، ونافع، ويسار، ورباح، وبركة، لأنه يقال: أهو ثمة؟ فيقال: لا.

الرابع: العقيقة عن الذكر شاتان، وعن الأنثى شاة.

الخامس: أن يحنكه بتمرة أو حلاوة.

السادس: الختان.

الثاني عشر: مما يتعلق بالزواج الطلاق، وهو أبغض المباحات إلى الله عزّ وجلّ فيكره للرجل أن يفاجىء به المرأة من غير ذنب، ولا يجوز للمرأة أن تلجئه إلى طلاقها، فإذا أراد الطلاق فليراع فيه أربعة أشياء:

الأول: أن يطلقها في طهر لم يصبها فيه، لئلا تطول عليها العدة.

الثاني: أن يقتصر على طلقة واحدة ليستفيد بها الرجعة إن ندم.

الثالث: أن يتلطف في الأمر في الطلاق بإعطائها ما تتمتع به لينجبر الفاجع، فقد روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه طلق امرأة وبعث إليها بعشرة آلاف درهم، فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق.

---

(١) مسلم (٦/١٦٩).

الرابع: أن لا يفشي سرها، وفي الحديث الصحيح في أفراد مسلم «إنَّ مِنْ أَشَرِ الناس عند الله منزلةً يوم القيامة الرجلَ يُفضِي إلى المرأة وتفضِي إليه، ثم ينشرُ سِرَّها»[1].

وروي عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأته فقيل له: ما الذي يريبك منها؟ فقال: العاقل لا يهتك سراً، فلما طلقها قيل له: لم طلقتها؟ فقال: ما لي ولامرأة غيري. فهذا كله في بيان ما على الزوج.

القسم الثاني: من آداب المعاشرة، ما على الزوجة لزوجها.

عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لو جَاز لأحدٍ أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أَنْ تَسْجُدَ لزوجِها»[2] لعظم حقه عليها.

وفي هذا القسم أحاديث كثيرة تدل على تأكيد حق الزوج على زوجته، وحقوقه عليها كثيرة، وأهمها أمران:

أحدهما: الستر والصيانة.

الثاني: القناعة، وعلى هذا كان النساء في السلف، كان الرجل إذا خرج من منزله يقول له أهله: إياك وكسب الحرام، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار.

ومن الواجب عليها: أن لا تفرط في ماله، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره، وإن كان بغير رضاه، كان له الأجر وعليها الوزر.

وينبغي لوالديها تأديبها قبل نقلها إلى الزوج لتعرف آداب العشرة، وينبغي للمرأة أن تكون قاعدة في بيتها، لازمة لمغزلها، قليلة الكلام لجيرانها، كثيرة الانقباض في حال غيبة زوجها، تحفظه غائباً وحاضراً، وتطلب مسرته في جميع الأحوال، ولا تخونه في نفسها ولا في ماله، ولا توطىء فراشه من يكره، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، ولتكن همتها صلاح شأنها وتدبير بيتها، قائمة بخدمة الدار في كل ما أمكنها، ولتكن مقدمة لحق زوجها على حق نفسها وحق جميع أقربائها. آخر كتاب النكاح.

* * *

(١) مسلم (٤/١٥٧).

(٢) ابن ماجه (١٨٥٣)، أحمد (٤/٣٨١، ٥/٢٢٧)، وابن حبان (١٢٩٠)، والبيهقي (٧/٢٩٢)، والبغوي (٢٣٢٩).

كتاب آداب الكسب والمعاش
وفضله وصحة المعاملة وما يتعلق بذلك

اعلم: أن الله سبحانه وتعالى بلطيف حكمته جعل الدنيا دار تسبب واكتساب، تارة للمعاش، وتارة للمعاد، ونحن نورد آداب التجارات، والصناعات، وضرورة الاكتساب وأسبابها ونشرحها.

فصل [في فضل الكسب والحث عليه]

قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعَاشاً ﴾ [النبأ: ١١]، فذكره في معرض الامتنان، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُم فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠] فجعلها نعمة، وطلب الشكر عليها، وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ علَيْكُمْ جُنَاحٌ أن تَبْتَغُوا فَضْلاً من رَبِّكُم ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «طلب الحلال جهاد»[1] و«إن الله ليحب العبد المحترف»[2] وفي أفراد البخاري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما أكلَ أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكلَ من عملِ يده، وإن نبي اللّهِ داود كانَ يأكلُ من عمل يده»[3].

وفي حديث آخر: «أن زكريا عليه السلام كان نجاراً»[4].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان آدم عليه السلام حراثاً، ونوح نجاراً، وإدريس خياطاً، وإبراهيم ولوط زرّاعين، وصالح تاجراً، وداود زرّاداً، وموسى وشعيب ومحمد صلوات الله تعالى عليهم وسلم رعاةً.

وأما الآثار فروي أن لقمان الحكيم قال لابنه: يا بني استعن بالكسب الحلال، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقة في دينه، وضعف في

(١) القضاعي في مسند الشهاب وأبو نعيم في الحلية. وأورده ابن عدي (٢٢٦٧).
(٢) ابن عديّ في الكامل (ص ٣٦٩).
(٣) البخاري (٣/٧٤).
(٤) مسلم (٧ / ١٠٣).

عقله، وذهاب مروءته، وأعظم من هذه الخصال استخفاف الناس به.

وقيل لأحمد بن حنبل: ما تقول في رجل جلس في بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ رِزْقِي تَحتَ ظِلِّ رُمْحي»[1]، وقال حين ذكر الطير: «تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[2].

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخلهم، والقدوة بهم.

وقال أبو سليمان الداراني: ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يتعب لك، ولكن ابدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبّد، فإن قيل: قال أبو الدرداء: زاولت التجارة والعبادة فلم يجتمعا، فاخترت العبادة؟ فالجواب: أنا لا نقول: إن التجارة لا تراد لذاتها، بل للاستغناء عن الناس، وإغناء العائلة، وإفاضة الفضل على الإخوان، فأما إن كان المقصود نفس المال وجمعه، والتفاخر ونحو ذلك، فهو مذموم، وليكن العقد الذي به الاكتساب جامعاً لأمور أربعة: الصحة، والعدل، والإحسان، والشفقة على الدين.

الأمر الأول: في الصحة، فإن كان العقد بيعاً، فله ثلاثة أركان: العاقد والمعقود عليه، واللفظ.

الركن الأول: أما العاقد، فينبغي للتاجر أن لا يعامل المجنون، لأنه غير مكلف، فلا يصح بيعه، ولا يعامل العبد إلا أن يعلم أنه مأذون له، وكذلك الصبي لا يعامل إلا أن يكون قد أذن له الأب أو الوصي، فيصير بمنزلة العبد المأذون له، وعند الشافعي لا تصح عقود الصبي، ومعاملة الأعمى عندنا صحيحة، يصح بيعه وشراؤه، وعند الشافعي لا تصح.

وأما الظلمة ومن أكثر ماله حرام، فلا ينبغي أن يعامل إلا في شيء يعرف أن عينه حلال.

الركن الثاني: المعقود عليه، وهو المال المقصود نقله، ولا يجوز بيع الكلب، لأنه نجس العين. فأما البغل والحمار فيجوز بيعهما، سواء قلنا: إنهما طاهران أو نجسان، ولا يجوز بيع الحشرات، ولا بيع العود والمزمار، والصور

(١) أحمد (٢/٥٠، ٩٢)، وعلّقه البخاري (٤/٤٩).

(٢) الترمذي (٢٣٤٤)، أحمد (١/٣٠)، وابن حبان (٥٠٤٨)، والحاكم (٤/٣١٨) وصححه ووافقه الذهبي.

المصنوعة من الطين ونحوه، ولا يجوز بيع ما لا يقدر على تسليمه حساً ولا شرعاً، أما الحس فكالطير في الهواء، والعبد الآبق ونحوهما، وأما الشرع فكالمرهون، وبيع الأم دون الولد الصغير، أو الولد دون الأم، فهذا ممنوع تسليمه شرعاً.

الركن الثالث: اللفظ، وهو الإيجاب والقبول، فإن تقدم القبول للإيجاب لم يصح في إحدى الروايتين، ويصح في الأخرى، سواء كان بلفظ الماضي أو بلفظ الطلب، فإن تبايعا بالمعاطاة، فظاهر كلام أحمد صحة البيع.

وقال القاضي أبو يعلى: لا يصح ذلك إلا في الأشياء اليسيرة، وهذا أصلح الأقوال، أعني أن تكون المعاطاة في الأشياء المحقرة دون النفيسة، لجريان العادات بذلك، وينبغي من طريق الورع أن لا يترك الإيجاب والقبول ليخرج عن شبهة الخلاف، وقد شدد الله تعالى في أمر الربا، فينبغي أن يحذر من الوقوع فيه، وهو قسمان[2]: ربا الفضل، وربا النسيئة، فينبغي أن يعرف ذلك وما يجري فيه الربا، ويحتاج أيضاً أن يعرف شروط السلم، والإجارة والمضاربة، والشركة، فإن المكاسب لا تنفك عن هذه العقود المذكورة.

فصل [في العدل واجتناب الظلم في المعاملة]

الأمر الثاني: وهو العدل، واجتناب الظلم في المعاملة، ونعني بالظلم ما يتضرر به الغير، وهو ينقسم إلى ما يعم ضرره وما يخص.

الأول: الاحتكار، وهو منهي عنه لما فيه من غلاء السعر وتضييق الأقوات على الناس.

وصفته: أن يستكثر من ابتياع الغلات في الغلاء، ويتربص بها زيادة الأسعار، فأما إذا دخلت له غلة من ضيعته وحبسها، فليس محتكراً، وكذلك إذا كان الشراء في حال الاتساع والرخص على صفة لا يضيق على الناس، وفي الجملة تكره التجارة في القوت، لأنه قوام الآدمي.

القسم الثاني: ما يخص ضرره، نحو أن يثني على السلعة بما ليس فيها، أو يكتم بعض عيوبها فيضر بذلك المشتري. وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ غَشَّنا ليس منا»[1].

(١) مسلم (١/٦٩)، أحمد (٢/٢٤٢، ٤١٧)، أبو داود (٣٤٥٢)، الترمذي (١٣١٥)، ابن ماجه (٢٢٢٤).

(٢) بل ثلاثة، والثالث هو ربا القرض.

واعلم: أن الغش حرام في البيوع، وفي الصناعات، وقد سئل الإمام أحمد عن رفو الثوب حتى لا يبين، **فقال**: لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه.

وينبغي للتاجر أن يحقق الوزن، ولا يتخلص في هذا حتى يرجح إذا أعطى، وينقص إذا أخذ، ومتى خلط العلاف الطعام تراباً ثم كاله فهو مطفف، وكذلك القصاب إذا خلط عظماً لم تجر العادة بمثله.

وقد نهي عن النجش، وهو أن يزيد في السلعة من لا يريد شراءها ليَغُرَّ المشتري، ونهي عن التصرية.

فصل [في الإحسان بالمعاملة]

الأمر الثالث: في الإحسان بالمعاملة، وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان، فمن الإحسان المسامحة في البيع، وأن لا يغبنه في الربح بما لا يتغابن في العادة، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه، لأن البيع للربح، ولكن يراعى فيه التقريب، فإن بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد لشدة رغبته وحاجته، فينبغي أن يمتنع البائع من قبول ذلك، فإن ذلك من الإحسان.

ومن ذلك أنه إذا أراد استيفاء الثمن أو الدين، فيحسن تارة بالمسامحة وتارة بحط البعض، وتارة بالإنظار، وتارة بالتساهل، وتارة في جودة النقد.

ومن الإحسان: أن يقيل من يستقيله، فإنه لا يستقيل إلا متضرر بالبيع، والأحاديث تشهد بفضل هذه الأمور المذكورة، وما لصاحبها من الأجر والثواب.

فصل [في شفقة التاجر على دينه]

الأمر الرابع: في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته، لا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده، بل يراعي دينه، وإنما تتم شفقته على دينه بمراعاة ستة أشياء:

الأول: حسن النية في التجارة، فلينو بها الاستعفاف عن السؤال، وكف الطمع عن الناس، والقيام بكفاية العيال، ليكون بذلك من جملة المجاهدين، ولينو النصح للمسلمين.

الثاني: أن يقصد القيام في صناعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات، فإن الصناعة والتجارة لو تركت بطل المعاش، إلا أن من الصناعة ما هو مهم، ومنها ما يستغنى عنه لكونه متعلقاً بالزينة أو طلب التنعم، فليشتغل بصناعة مهمة، ليكون في قيامه بها كافياً عن المسلمين مهماً، وليتجنب صناعة الصياغة، والنقش، وتشييد

البنيان بالجص، وجميع ما يزخرف به، فإنه مكروه.

ومن المعاصي: خياطة الخياط القباء الديباج للرجل، ويكره أن يكون جزاراً، لأنه يوجب قساوة القلب، أو حجاماً، أو كناساً لما فيه مباشرة النجاسة، وفي معناه الدباغ.

ولا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، والعبادات، وفروض الكفايات.

الثالث: أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، وسوق الآخرة المساجد، فينبغي أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته، فيواظب على الأوراد، وقد كان صالحو السلف من التجار يجعلون أول النهار وآخره للآخرة، ووسطه للتجارة، وإذا سمع أذان الظهر والعصر، فينبغي أن يترك المعاش اشتغالاً بأداء الفرض.

الرابع: أن يلازم ذكر الله تعالى في السوق، ويشتغل بالتسبيح والتهليل.

الخامس: أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة، فلا يكون أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها.

السادس: أن لا يقتصر على اجتناب الحرام، بل يتوقى مواقع الشبه ومواضع الريب، ولا يقف مع الفتاوى، بل يستفتي قلبه ما يحز في القلب.

بيان الحلال والحرام

اعلم: أن طلب الحلال فرض على كل مسلم، وقد ادعى كثير من الجهال عدم الحلال، وقالوا: لم يبق منه إلا الماء الفرات، والحشيش النبات، وما عدا ذلك فقد أفسدته المعاملات الفاسدة، فلما وقع لهم هذا، وعلموا أنه لا بد لهم من الأقوات توسعوا في الشبهة والحرام، وهذا من الجهل، وقلة العلم، فإن في «الصحيحين» من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الحلال بَيِّنٌ، والحرام بَيِّنٌ، وبينهما أمور مشتبهات»[1].

ولما كانت هذه الدعوى من هؤلاء الجهال بدعة قد عم ضررها، واستطار في الدين شررها، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة.

ونحن نوضح ذلك في أقسام:

القسم الأول: في فضيلة طلب الحلال، وذم الحرام، ودرجات الحلال

---

(١) البخاري (١/ ٢٠)، مسلم (٥/ ٥٠).

والحرام. قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ [المؤمنون: ٥١]، والطيبات: الحلال، فأمر بذلك قبل العمل، وقال في ذم الحرام: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالبَاطِلِ ﴾ [البقرة: ١٨٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أيها الناس إنَّ اللَّهَ طيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّباً»، وذكر الحديث إلى قوله: «ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»[1] رواه مسلم. وروي في ذلك غير حديث.

وروي أن سعداً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تستجاب دعوته، فقال له: «أَطِبْ طعمتَك تُسْتَجَبْ دعوتك»[2].

وقد كان السلف ينظرون في الحلال ويدققون فيه، فأكل أبو بكر الصديق رضي الله عنه شيئاً من شبهةٍ ثم قاءه.

فصل [في درجات الحلال والحرام]

اعلم: أن الحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيب من بعض، والحرام كله خبيث، ولكن بعضه أخبث من بعض، كما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة، ولكنه يقول: هذا حار في الدرجة الأولى، وهذا في الدرجة الثانية، وهذا في الثالثة، وهذا في الرابعة. مثال ذلك في الحرام المأخوذ بعقد فاسد، حرام ولكنه ليس في درجة المغصوب على سبيل القهر، بل المغصوب أغلظ، إذ فيه إيذاء الغير، وترك طريق الشرع في الاكتساب، وليس في العقود الفاسدة إلا ترك طريق التعبد فقط، وكذلك المأخوذ ظلماً من فقير أو صالح أو يتيم، أخبث وأغلظ من المأخوذ من قوي أو غني أو فاسق.

فصل [في درجات الورع]

والورع له درجات أربع:

---

(١) مسلم (٣/٨٥).

(٢) مجمع الزوائد (١٠/٢٩١) وقال رواه الطبراني في الصغير وفيه من لم أعرفهم.

الدرجة الأولى: وهي درجة العدول عن كل ما تقتضي الفتوى تحريمه. وهذا لا يحتاج إلى أمثلة.

الدرجة الثانية: الورع عن كل شبهة لا يجب اجتنابها، ولكن يستحب، كما يأتي في قسم الشبهات. ومن هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «دع ما يريبك إلا ما لا يريبك».

الدرجة الثالثة: الورع عن بعض الحلال مخافة الوقوع في الحرام.

الدرجة الرابعة: الورع عن كل ما ليس لله تعالى، وهو ورع الصديقين، مثال ذلك ما روي عن يحيى بن يحيى النيسابوري رحمة الله عليه أنه شرب دواءً، فقالت له امرأته: لو مشيت في الدار قليلاً حتى يعمل الدواء، فقال: هذه مشية لا أعرفها، وأنا أحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة. فهذا رجل لم تحضره نية في هذه المشية تتعلق في الدين، فلم يقدم عليها، فهذا من دقائق الورع.

والتحقيق فيه أن الورع له أول وغاية، وبينهما درجات في الاحتياط، فكلما كان الإنسان أشد تشديداً، كان أسرع جوازاً على الصراط، وأخف ظهراً، وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت دركات النار في حق الظلمة بحسب درجات الحرام، فإن شئت فزد في الاحتياط، وإن شئت فترخص، فلنفسك تحتاط وعليها تترخص.

القسم الثاني: في مراتب الشبهات وتمييزها عن الحلال والحرام، وحديث النعمان بن بشير رضي الله عنه نص في هذه الأقسام الثلاثة، وهي الحلال والحرام وما بينهما، والمشكل فيها هو المتوسط الذي لا يعرفه كثير من الناس، وهو الشبهة.

ونحن نكشف الغطاء عنها فنقول: الحلال المطلق الذي لا يتعلق بذاته صفة توجب تحريماً لعينه، ولا يتعلق بأسبابه ما يطرق إليه تحريماً أو كراهية.

مثال ذلك الماء الذي يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملك أحد.
الحرام المحض: ما فيه صفة محرمة، كالشدة في الخمر، والنجاسة في البول، أو حصل بسبب منهي عنه، كالمتحصل بالظلم والربا، فهذان الطرفان ظاهران، ويلتحق بهما ما تحقق أمره، ولكن يحتمل تغيره، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب ظاهر يدل عليه، فإن صيد البر والبحر حلال، إلا أنه من صاد ظبية أو سمكة، فإنه يحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم أفلتت، وهذا الاحتمال لا يتطرق إلى ماء المطر المختطف من الهواء، فمساكنة ذلك الاحتمال في الصيد ورع الموسوسين، لأنه

وهم مجرد لا دلالة عليه، فلو دل عليه دليل، مثل أن يجد في الظبية جرحاً لا يقدر عليه، إلا بعد الضبط، كالكي، ويحتمل أن يكون غيره، فهذا موضع الورع.

وحد الشبهة ما تعارض فيه اعتقادان صدرا عن شيئين مقتضيين لاعتقادين.

ومثالات الشبهة كثيرة، والمهم منها مثالان:

المثال الأول: الشك في السبب المحلل أو المحرم، وينقسم إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: أن يكون الحل معلوماً من قبل، ثم يقع الشك في المحلل فهذه شبهة يجب اجتنابها، ويحرم الإقدام عليها، مثاله أن يرى صيداً فيجرحه فيقع في الماء فيصادفه ميتاً، ولا يدري هل مات بالغرق أو بالجرح؟ فهذا حرام، لأن الأصل التحريم.

النوع الثاني: أن يعرف الحل ويشك في المحرم، فيكون الأصل الحل، والحكم له، كما لو طار طائر، فقال رجل: إن كان هذا غراباً فامرأته طالق، وقال آخر: وإن لم يكن غراباً، فامرأته طالق، ثم التبس الأمر، فإنا لا نقضي بالتحريم في واحد منهما، ولكن الورع اجتنابهما وتطليقهما.

النوع الثالث: أن يكون الأصل التحريم، ولكن طرأ ما يوجب التحليل بظن غالب فهو مشكوك فيه، والغالب حله، مثاله أن يرمي إلى صيد فيغيب عنه، ثم يدركه ميتاً وليس عليه أثر سوى سهمه، فهذا الظاهر فيه الحل، لأن الاحتمال إذا لم يستند إلى دليل التحق بالوسوسة، فأما إن ظهر عليه أثر صدمة أو جراحة أخرى التحق بالنوع الأول.

النوع الرابع: أن يكون الحل معلوماً، ولكن يغلب على الظن طريان المحرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعاً، مثاله أن يؤدي اجتهاده إلى نجاسة أحد الإناءين بالاعتماد على علامة معينة توجب عليه الظن، فتوجب تحريم شربه، كما أوجب منع الوضوء به.

المثال الثاني: أن يختلط الحرام بالحلال، ويشتبه الأمر فيه. وذلك على أضرب:

أحدها: إذا اختلطت ميتة بمذكاة، أو بعشرة من المذكيات، ونحو ذلك من العدد المحصور، ومثله أن تشتبه أخته بأجنبيات، فهذه شبهة يجب اجتنابها.

الثاني: أن يختلط حرام محصور بحلال غير محصور، كما لو اشتبهت أخته

أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد، بل له أن ينكح من شاء منهن، لأن في تحريمهن حرجاً كبيراً، وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً، لم يلزمه ترك الشراء والأكل، لأن في ذلك حرجاً، وقد علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه أن في الناس من يرابي، وما تركوا الدراهم بالكلية، وأن مجناً سرق في زمانه، وما تركوا شراء مجن، فاجتناب هذا من ورع الوسوسة.

الثالث: أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر، كحكم الأموال في زماننا هذا، فلا يحرم بهذا الاختلاط تناول شيء بعينه، إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام، نحو أن يأخذه من يد سلطان ظالم، فإن لم يكن له علامة، فتركه ورع، ولا يحرم ذلك، لأنه قد علم في زمان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء بعده أن أثمان الخمور ودراهم الربا وغلول الغَنيمة اختلطت بالأموال، وقد أدركت الصحابة نهب المدينة وتصرف الظلمة ولم يمنعوا من الشراء بالسوق، ولولا صحة ذلك لانسد باب جميع التصرفات فإن الفسق يغلب على الناس، لكن الأصل في الأموال الحل، وإذا تعارض أصل وغالب، ولا أمارة على الغالب، حكم بالأصل، كما قلنا في طين الشوارع وأواني المشركين، فقد توضأ عمر رضي الله عنه من جرة نصرانية، مع أن مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير ولا يحترزون من نجاسة، وكانت الصحابة تلبس الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة.

ومن تأمل أحوال الدباغين والصباغين، علم غلبة النجاسة عليهم، فيدل ذلك على أنهم لم يكونوا يحترزون إلا من نجاسة مشاهدة، أو يكون عليها علامة، فأما الظن الذي يستفاد من رد الوهم إلى مجاري الأحوال، فلم يعتبروه، فإن قيل: قد كانوا يتوسعون في أمور الطهارة، ويحترزون من شبهات الحرام، فما الفرق؟

قلنا: إن أردت أنهم كانوا يصلون مع النجاسة فباطل، وإن أردت أنهم احترزوا من كل نجاسة وجب اجتنابها فصحيح، وأما تورعهم عن الشبه، فكان بطريق كف النفس عما ليس به بأس مخافة ما به بأس، والنفس تميل إلى الأموال كيف كانت بخلاف الأنجاس، وقد كانوا يمتنعون مما يشغل قلوبهم من الحلال، والله أعلم.

القسم الثالث: من الكتاب: في الحلال والحرام والبحث، والسؤال، والهجوم، والإهمال ومظانها.

اعلم: أنه لو قدم لك الطعام أو أهديت لك هدية، أو أردت أن تشتري شيئاً من شخص فليس لك أن تقول: هذا مما لا أتحقق حله، فأريد أن أفتش عنه وليس لك أن تترك البحث مطنقاً، بل السؤال واجب مرة، وحرام مرة، ومندوب مرة، ومكروه مرة.

والقول الشافي فيه: أن مظنة السؤال الريبة، وهي تحصل إما من أمر يتعلق بالمال أو بصاحب المال، أما ما يتعلق بصاحب المال، فنحو أن يكون مجهولاً، وهو الذي ليس عليه قرينة تدل على ظلمه، كزي الأجناد، ولا على صلاحه، كثياب أهل العلم والزهد، فها هنا لا يجب السؤال ولا يجوز، لأن فيه هتك المسلم وإيذاءه، ولا يقال لهذا: إنه مشكوك فيه، لأن المشكوك فيه هو الذي تحصل فيه الريبة بدلالة، مثل أن يكون على خلقة الأتراك، وأهل البوادي المعروفين بالظلم، وقطع الطريق، فهذا يجوز معاملته، لأن اليد تدل على الملك، وهذه الدلالات ضعاف، إلا أن الترك من الورع.

أما ما يتعلق بالمال، فنحو أن يختلط الحرام بالحلال، كما إذا طرح في السوق أحمال من طعام مغصوب فاشتراها أهل السوق، فإنه لا يجب على من يشتري في تلك البلدة من السوق أن يسأل عما يشتريه، إلا أن يظهر أن أكثر ما في أيديهم حرام، فعند ذلك يجب السؤال، فإن لم يكن الأكثر حراماً كان التفتيش ورعاً غير واجب.

وكذلك نقول في رجل له مال حلال خالطه حرام، مثل أن يكون تاجراً يعامل معاملات صحيحة ويرابي، فهذا إن كان الأكثر من ماله حراماً، لم تجز قبول ضيافته ولا هديته إلا بعد التفتيش، فإن ظهر أن المأخوذ من وجه حلال جاز، وإلا ترك، وإن كان الحرام أقل، فالمأخوذ شبهة، والورع تركه.

واعلم: أن السؤال إنما يقع لأجل الريبة، فلا ينقطع إلا من حيث تنقطع الريبة المفضية له، بأن لا يكون المسؤول متهماً، فإن كان متهماً وعلمت أن له غرضاً في حضورك أو قبول هديته، فلا ثقة بقوله، وينبغي أن يسأل غيره.

القسم الرابع: في باب الحلال والحرام، وكيفية خروج التائب عن المظالم المالية.

اعلم: أن من تاب وفي يده مال مختلط، فعليه تمييز الحرام وإخراجه، فإن كان معلوم العين، فأمره سهل، وإن كان ملتبساً مختلطاً، فإن كان من ذوات

الأمثال، كالحبوب والنقود والأدهان، وكان معلوم القدر، ميز ذلك القدر، فإن أشكل فله طريقان:

أحدهما: الأخذ بغالب الظن.

والثاني: الأخذ باليقين، وهو الورع.

فإذا أخرج المال الحرام، فإن كان له مالك معين، وجب صرفه إليه أو إلى وارثه، وإن كان لذلك المال زيادة ومنفعة، جمع ذلك كله وصرفه إليه، وإن يئس من معرفة المالك ولم يدر أمات عن وارث أم لا؟ فليتصدق به، وإن كان ذلك من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين، صرف ذلك إلى القناطر والمساجد ومصالح طريق مكة وما ينتفع به كل من يمر من المسلمين.

مسألة: إذا كان في يده مال حلال وشبهة، فليخص نفسه بالحلال، وليقدم قوته وكسوته على أجرة الحجام والزيت وإسجار التنور، وأصل هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم في كسب الحجام: «اعلفه نَاضِحك»[1].

ولو كان في يد أبويه حرام، فليمتنع من مؤاكلتهما، فإن كان شبهة داراهما، فإن لم يقبلا تناول اليسير.

وقد روي أن أم بشر الحافي ناولته تمرة فأكلها، ثم صعد الغرفة فقاءها.

القسم الخامس: في إدرار السلاطين وصلاتهم، وما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة، ونحو ذلك.

اعلم: أن من أخذ مالاً من السلطان فلا بد أن ينظر في مدخل ذلك إلى السلطان من أين هو، وفي صفته التي يستحق بها الأخذ، وفي المقدار الذي يأخذه، هل يستحقه؟

وقد تورع جماعة عن ذلك، وكان فيهم من يأخذه فيتصدق به.

وأما في هذا الزمان، فالاحتراز عنه أولى، لأنه قد علم طريق الأخذ، ثم لا ينال إلا بالذل والسؤال والسكوت على الإنكار.

وقد كان بعض السلف لا يأخذ، ويعلل بأن باقي المستحقين لم يأخذوا، وهذا ليس بشيء، لأنه يأخذ حقه ويبقى أولئك في مقام مظلوم، وليس المال مشتركاً.

---

(١) الترمذي (١٢٧٧)، أبو داود (٣٤٢٢)، وابن ماجه (٢١٦٦)، وأحمد (٥/٤٣٦).

فصل [في أحوال من يخالط الأمراء والعمال والظلمة]

اعلم: أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: أن تدخل عليهم وهي شرها.

فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَنْ أَتَى أبوابَ السلاطين افتُتِنَ»[1] «وما ازداد عبدٌ من السلطانِ قرباً إلا ازداد من الله بُعْداً»[2].

وقال حذيفة: إياكم ومواقف الفتن، فقيل: وما مواقف الفتن؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه.

وقال بعض الأمراء لبعض الزهاد: ألا تأتينا؟ فقال: أخاف إن أدنيتني فتنتني، وإن أقصيتني حرمتني، وليس في يدك ما أريده، ولا في يدي ما أخافك عليه، وإنما أتاك من أتاك ليستغني بك عمن سواك، وقد استغنيت عنك بمن أغناك عني.

فهذه الآثار تبين كراهية مخالطة السلاطين.

وأيضاً فإن الداخل على السلطان معرض لأن يعصي الله عزّ وجلّ، إما بفعله أو قوله أو سكوته.

أما الفعل: فإن الدخول عليهم في غالب الأحوال يكون إلى أماكن مغصوبة، ولو فرض أنه في موضع غير مغصوب، ففي الغالب يكون ما تحته أو ما يظله من خيمة أو نحوها من ماله الحرام، والانتفاع بذلك حرام، ولو فرض ذلك حلالاً، فربما يقع في غيره من المحذورات، إما أن يسجد له، أو يتمثل له قائماً، ويخدمه، ويتواضع له بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه.

والتواضع للظالم معصية، بل من تواضع لغني لأجل غناه لا لمعنى آخر يقتضي التواضع، ذهب ثلثا دينه، فكيف إذا تواضع للظالم؟!.

وتقبيل اليد له معصية، إلا أن يكون عند خوف، أو لإمام عادل، أو عالم يستحق ذلك، فأما غير ما ذكرنا، فلا يباح في حقهم إلا مجرد السلام.

وأما القول: فهو أن يدعو للظالم، أو يثني عليه، أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله، أو بتحريك رأسه، أو باستبشار في وجهه، أو يظهر له الحب

---

(١) أحمد (٢/ ٣٧١)، أبو داود (٢٨٦٠).

(٢) الترمذي (٢٢٥٦)، النسائي (٧/ ١٩٥).

والموالاة والاشتياق إلى لقائه، والحرص على طول بقائه، فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام.

وقد جاء في الأثر: «من دعا لظالم بطول البقاء، فقد أحب أن يعصى الله».

ولا يجوز دعاؤه له إلا أن يقول: أصلحك الله، أو وفقك الله، أو نحو ذلك.

وأما السكوت: فهو أن يرى في مجالسهم من الفرش الحرير، وأواني الفضة، والملبوس المحرم على غلمانهم من الحرير، ونحو ذلك، فيسكت. وكل من رأى شيئاً من ذلك وسكت فهو شريك فيه، وكذا إذا سمع من كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وإيذاء، فإن السكوت عن ذلك كله حرام، لأنه يجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن قلت: إنه يخاف على نفسه، فهو معذور في السكوت.

قلنا: صدقت، إلا أنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بعذر، لأنه لو لم يدخل ويشاهد، لم يجب عليه الأمر والنهي، وكل من علم بفساد في مكان، وعلم أنه إذا حضر لم يقدر على إزالته، لم يجز له أن يحضر.

فصل [في الدخول على الأمراء الظلمة بعذر]

فإن سلم مما ذكرنا، وهيهات، لم يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه، لما يرى من توسعهم في التنعم، فيزدري نعمة الله عليه، ثم يقتدي به غيره في الدخول، ويكون مكثراً لسواد الظلمة.

وروي أن سعيد بن المسيب دعي إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك، فقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار، فقالوا: ادخل من هذا الباب واخرج من الآخر، قال: لا والله لا يقتدي بي أحد من الناس، فجلد مائة وألبس المسوح.

فعلى ما بينا لا يجوز الدخول على الأمراء الظلمة إلا بعذرين:

أحدهما: إلزام من جهتهم يخاف من الخلاف فيه الأذى.

والثاني: أن يدخل ليرفع ظلماً عن مسلم، فيجوز بشرط أن لا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولاً، فهذا حكم الدخول.

الحال الثاني: أن يدخل عليه السلطان زائراً، فجواب السلام لا بد منه.

وأما القيام والإكرام، فلا يحرم مقابلة له على إكرامه، فإنه بإكرام العلم والدين مستحق للحمد، كما أنه بالظلم مستحق للذم. فإن دخل عليه وحده، وقد رأى أن يقوم إعزازاً للدين فهو أولى، وإن كان دخوله عليه في جمع، فمراعاة حشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا أولى وأمثل، ولا بأس بالقيام على هذه النية.

وإن علم أن ذلك لا يورث فساداً في الرعية ولا يناله أذى من غضبه، فترك الإكرام بالقيام أولى، ثم يجب عليه أن ينصحه، ويعرفه تحريم ما يفعله مما لا يدري أنه محرم.

فأما إعلامه بتحريم الظلم وشرب الخمر، فلا فائدة فيه، بل عليه أن يخوفه من ركوب المعاصي مهما ظن أن التخويف يؤثر في قلبه، وعليه أن يرشده إلى المصالح. ومتى عرف طريقاً للشرع يحصل به غرض الظالم عرفه إياه.

الحال الثالث: أن يعتزل عنهم فلا يراهم ولا يرونه، والسلامة في ذلك، ثم ينبغي أن يعتقد بغضهم على ظلمهم، فلا يحب لقاءهم، ولا يثني عليهم، ولا يستخبر عن أحوالهم، ولا يقترب إلى المتصلين بهم، ولا يتأسف على ما يفوته بسبب مفارقتهم، كما قال بعضهم: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد، إما يوم مضى فلا يجدون لذته، وأنا وإياهم في غد على وجل، وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون في اليوم؟!.

مسألة: إذا بعث إليك سلطان مالاً لتفرقه على الفقراء، وكان له مالك معين، لم يحل أخذه، وإن لم يكن له، كان حكمه أن يتصدق به كما سبق بيانه، ويتولى تفرقته على الفقراء.

ومن العلماء من امتنع من أخذه، وإذا كان أكثر أموالهم الحرام، حرمت معاملتهم وما بنته الظلمة من القناطر والمساجد والسقايات، ينبغي أن ينظر فيه، فإن كانت تلك الأعيان التي بنيت بها لمالك معين، لم يجز العبور عليها إلا للضرورة، وإن لم يعرف مالكها جاز العبور عليها، والورع الامتناع، والله أعلم.

* * *

كتاب آداب الصحبة والإخوة
ومعاشرة الخلق ونحو ذلك

اعلم: أن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرق سوء الخلق، لأن حسن الخلق يوجب التحابب والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض والتدابر، ولا يخفى ما في حسن الخلق من الفضل، والأحاديث دالة على ذلك.

فقد روي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما من شيءٍ أثقل في ميزان المؤمن يومَ القيامة من خُلُقٍ حَسَن» رواه الترمذي وصححه[1].

وفي حديث آخر: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة مساويكم أخلاقاً»[2].

وسئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال. «تقوى الله وحُسْنُ الخُلُق»[3].

وأما المحبة في الله تعالى، ففي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم الله في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه» فذكر منهم: «ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه»[4].

وفي حديث آخر يقول الله عزّ وجلّ: «حقت محبتي للمتحابين فيّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ، وحقت محبتي للمتزاورين فيّ»[5].

---

(١) الترمذي (٢٠٠٢)، أحمد (٦/٤٥١)، البخاري في الأدب المفرد (٤٦٤).

(٢) أحمد (٤/١٩٣، ١٩٤)، ابن حبان (١٩١٧)، والبغوي (٣٣٩٥).

(٣) الترمذي (٢٠٠٤)، ابن ماجه (٤٢٤٦)، أحمد (٢/٢٩١، ٣٩٣، ٤٤٢)، والبغوي (٣٤٩٧، ٣٤٩٨).

(٤) البخاري (١/١٦٨، ٢/١٣٨)، ومسلم (٣/٩٣).

(٥) مالك في الموطأ (٥٩٢)، ابن حبان (٢٥١٠)، الحاكم (٤/١٦٨) وصححه ووافقه الذهبي.

وفي حديث آخر: «أوثق عرى الإيمان، أن تحب في الله وتبغض في الله»[٢]، والأحاديث في ذلك كثيرة.

واعلم: أن من يحب في الله يبغض في الله، فإنك إذا أحببت إنساناً لكونه مطيعاً لله، فإذا عصى الله أبغضته في الله، لأن من أحب لسبب أبغض لوجود ضده، ومن اجتمعت فيه خصال محمودة ومكروهة، فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه.

فينبغي أن تحب المسلم لإسلامه، وتبغضه لمعصيته، فتكون معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال، فأما ما يجري منه مجرى الهفوة التي يعلم أنه نادم عليها، فالأولى حينئذ الإغماض والستر، فإذا أصر على المعصية، فلا بد من إظهار أثر البغض بالإعراض عنه والتباعد، وتغليظ القول له على حسب غلظ المعصية وخفتها.

واعلم: أن المخالف لأمر الله تعالى على أقسام:

أحدها: أن يكون كافراً، فإن كان حربياً فهو مستحق للقتل والإرقاق، وليس بعد هذين إهانة، وإن كان ذمياً فلا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه، والتحقير له بالاضطرار له إلى أضيق الطريق، وترك البداءة بالسلام. فإن سلم قيل له: وعليك.

والأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومؤاكلته، ومن المكروه الاسترسال إليه والانبساط كما يفعل بالأصدقاء.

القسم الثاني: المبتدع، فإن كان ممن يدعو إلى بدعة، وكانت البدعة بحيث يكفر بها، فأمره أشد من الذمي، لأنه لا يقر بجزية ولا يسامح بعقد ذمة، وإن كان ممن لا يكفر بها، فأمره بينه وبين الله تعالى أخف من أمر الكافر لا محالة، ولكن الأمر في الإنكار عليه أشد منه على الكافر، لأن شر الكافر غير متعد، لأنه لا يلتفت إلى قوله، بخلاف المبتدع الذي يدعو إلى بدعته لأنه يزعم أن ما يدعو إليه حق، فيكون سبباً لغواية الخلق، فشره متعد، فإظهار بغضه والانقطاع عنه ومعاداته وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أشد.

فأما المبتدع العامي الذي لا يقدر أن يدعو ولا يخاف الاقتداء به، فأمره أهون، والأولى أن يتلطف به في النصح، فإن قلوب العوام سريعة التقلب، فإن لم ينفع النصح وكان في الإعراض عنه تقبيح لبدعته في عينه، تأكد استحباب الإعراض عنه، وإن علم أن ذلك لا يؤثر لجمود طبعه ورسوخ اعتقاده في قلبه،

(١) البغوي (٣٤٦٨).

فالإعراض عنه أولى، لأن البدعة إذا لم يبالغ في تقبيحها شاعت بين الخلق وعم فسادها.

القسم الثالث: العاصي بفعله لا باعتقاده، فإن كانت بحيث يتأذى بها غيره، كالظلم والغضب وشهادة الزور والغيبة والنميمة ونحو ذلك، فالأولى الإعراض عنه وترك مخالطته والانقباض عن معاملته، وكذلك الحكم فيمن يدعو إلى الفساد، كالذي يجمع بين الرجال والنساء ويهيىء أسباب الشرب لأهل الفساد، فهذا ينبغي إهانته ومقاطعته والإعراض عنه.

فأما الذي يفسق في نفسه بشرب خمر أو زنا أو سرقة أو ترك واجب، فالأمر فيه أخف، ولكنه في وقت مباشرته إن صودف، وجب منعه بما يمتنع به، فإن كان النصح يرده وكان أنفع له، نصح وإلا أغلظ له.

فصل [في بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته]

روينا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «المَرْءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم مَنْ يُخالِل»[1].

واعلم: أنه لا يصلح للصحبة كل أحد، ولا بد أن يتميز المصحوب بصفات وخصال يرغب بسببها في صحبته، وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة، وهي إما دنيوية كالانتفاع بالمال والجاه، أو بمجرد الاستئناس بالمشاهدة والمحاورة، وليس ذلك غرضنا، وإما دينية، وتجتمع فيها أغراض مختلفة، منها الاستفادة بالعلم والعمل، ومنها الاستفادة من الجاه تحصيناً عن إيذاء من يكدر القلب ويصد عن العبادة، ومنها الاستفادة من المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت، ومنها الاستعانة في المهمات، فتكون عدة في المصائب وقوة في الأحوال، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة، كما قال بعض السلف: استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة. فهذه فوائد تستدعي كل فائدة شروطاً لا تحصل إلا بها.

وفي الجملة، فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال:

أن يكون عاقلاً حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا.

أما العقل، فهو رأس المال، ولا خير في صحبة الأحمق، لأنه يريد أن

(١) أبو داود (٤٨٣٣)، الترمذي (٢٣٧٨)، [illegible] مد (٢/٣٠٣، ٣٣٤).

ينفعك فيضرك، ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه، إما بنفسه، وإما أن يكون بحيث إذا أفهم فهم.

وأما حسن الخلق، فلا بد منه، إذ ربٌ عاقل يغلبه غضب أو شهوة فيطيع هواه فلا خير في صحبته.

وأما الفاسق، فإنه لا يخاف الله، ومن لا يخاف الله تعالى لا تؤمن غائلته ولا يوثق به.

وأما المبتدع فيخاف من صحبته بسراية بدعته.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يقليك منه، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى.

قال يحيى بن معاذ: بئس الصديق تحتاج أن تقول له: اذكرني في دعائك، وأن تعيش معه بالمداراة، أو تحتاج أن تعتذر إليه.

ودخل جماعة على الحسن وهو نائم، فجعل بعضهم يأكل من فاكهة في البيت، فقال: رحمك الله، هذا والله فعل الإخوان.

وقال أبو جعفر لأصحابه: أيدخل أحدكم يده في كم أخيه فيأخذ منه ما يريد؟ قالوا: لا، قال: فلستم بإخوان كما تزعمون.

ويروى أن فتحاً الموصلي جاء إلى صديق له يقال له: عيسى التمار، فلم يجده في المنزل، فقال للخادمة: أخرجي لي كيس أخي، فأخرجته، فأخذ منه درهمين، وجاء عيسى إلى منزله فأخبرته الجارية بذلك، فقال: إن كنت صادقة، فأنت حرة، فنظر فإذا هي قد صدقت، فعتقت.

فصل [في بيان ما على الإنسان لأخيه من الحقوق]

الحق الأول: قضاء الحاجات والقيام بها، وذلك درجات: أدناها: القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة، لكن مع البشاشة والاستبشار.

وأوسطها: القيام بالحوائج من غير سؤال.

وأعلاها: تقديم حوائجه على حوائج النفس.

وقد كان بعض السلف يتفقد عيال أخيه بعد موته أربعين سنة فيقضي حوائجهم.

الحق الثاني: على اللسان بالسكوت تارة، وبالنطق أخرى.

أما السكوت، فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في حضوره وغيبته، وعن الرد عليه ومماراته ومناقشته، وعن السؤال عما يكره ظهوره من أحواله. ولا يسأله إذا لقيه: إلى أين؟ فربما لا يريد إعلامه بذلك، وأن يكتم سره ولو بعد القطيعة، ولا يقدح في أحبابه وأهله، ولا يبلغه قدح غيره فيه.

الحق الثالث: وينبغي أن يسكت عن كل ما يكرهه، إلا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف أو نهي عن منكر ولم يجد رخصة في السكوت، فإن مواجهته بذلك إحسان إليه في المعنى.

واعلم: أنك إن طلبت منزهاً عن كل عيب لم تجد، ومن غلبت محاسنه على مساويه فهو الغاية.

وقال ابن المبارك: المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب الزلات.

وقال الفضيل: الفتوة: الصفح عن زلات الإخوان.

وينبغي أن تترك إساءة الظن بأخيك، وأن تحمل فعله على الحسن مهما أمكن، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إياكم والظنَ فإن الظنَ أكذبُ الحديثِ»[1].

واعلم: أن سوء الظن يدعو إلى التجسس المنهي عنه، وأن ستر العيوب والتغافل عنها سيمة أهل الدين.

واعلم: أنه لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به، ولا شك أنك تنتظر من أخيك أن يستر عورتك، وأن يسكت عن مساويك، فلو ظهر لك منه ضد ذلك اشتد عليك فكيف تنتظر منه ما لا تعزم عليه له؟

ومتى التمست من الإنصاف ما لا تسمح به دخلت في قول الله تعالى:

---

(١) البخاري (٨/٢٣)، مسلم (٨/١٠

﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [سورة المطففين: ٢ - ٣]. ومنشأ التقصير في ستر العورة والمغري بكشفها الحقد والحسد.

واعلم: أن من أشد الأسباب لإثارة الحقد والحسد بين الإخوان المماراة، ولا يبعث عليها إلا إظهار التميز بزيادة الفضل والعقل واحتقار المردود عليه، ومن مارى أخاه، فقد نسبه إلى الجهل والحمق، أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه، وكل ذلك استحقار، وهو يوغر الصدر ويوجب المعاداة، وهو ضد الأخوة.

الحق الرابع: على اللسان بالنطق، فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكروه، تقتضي النطق بالمحبوب، بل هو أخص بالأخوة، لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور، وإنما يراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص منهم، لأن السكوت معناه كف الأذى، فعليه أن يتودد إليه بلسانه، ويتفقده في أحواله، ويسأل عما عرض له، ويظهر شغل قلبه بسببه، ويبدي السرور بما يسر به.

وفي الصحيح من رواية الترمذي: «إذا أحبَّ أحدُكُم أخاه فليعلِمْه»[١].

ومن ذلك أن يدعوه بأحب أسمائه إليه، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

ثلاث يصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليك.

ومن ذلك أن يثني عليه بما يعرفه من محاسن أحواله عند من يؤثر الثناء عنده، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وأفعاله، حتى في خلقه وعقله وهيئته وخطه وتصنيفه وجميع ما يفرح به من غير إفراط ولا كذب.

وكذلك ينبغي أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح به، فإن إخفاء ذلك محض الحسد.

ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقك، وأن تذب عنه في غيبته إذا قصد بسوء، فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة.

وفي الحديث الصحيح: «المسلم أخو المسلم لا يظلِمُه ولا يُسْلِمُه»[٢]، ومتى

---

(١) الترمذي (٢٣٩٣)، أبو داود (٥١٢٤)، البخاري في الأدب المفرد (٥٤٢).

(٢) لبخاري (٣/١٦٨)، (مسلم ٨/١٨).

اهمل الذب عن عرضه يكون قد أسلمه، ولك في ذلك معياران:

أحدهما: أن تقدر أن الذي قيل فيه، قد قيل فيك وهو حاضر، فتقول ما تحب أن يقوله.

الثاني: أن تقدر أنه حاضر وراء جدار يتسمع عليك، فما تحرك في قلبك من نصرته في حضوره ينبغي أن يتحرك في غيبته. ومن لم يكن مخلصاً في إخائه فهو منافق.

ومن ذلك التعليم والنصيحة، فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال، وإذا كنت غنياً بالعلم فواسه وأرشده.

وينبغي أن يكون نصحك إياه سراً، والفرق بين التوبيخ والنصيحة الإعلان والإسرار، كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء، فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى فيه إصلاح أخيك بالإغضاء، فأنت مدار، وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن.

ومن ذلك: العفو عن الزلات، فإن كانت زلته في دينه فتلطف في نصحه مهما أمكن، ولا تترك زجره ووعظه، فإن أبى فالمصارمة.

الحق الخامس: الدعاء للأخ في حياته وبعد موته بكل ما تدعو به لنفسك.

وفي أفراد مسلم مَن حديث أبي الدرداء، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغَيْبِ مُسْتَجابة، عِنْدَ رأسِه ملكٌ موكَّل كُلَّمَا دَعَا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمينَ، ولك بمثلٍ»[1].

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يدعو لخلق كثير من إخوانه يسميهم بأسمائهم. وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يدعو في السحر لستة نفر.

وأما الدعاء بعد الموت، فقال عمرو بن حريث: إذا دعا العبد لأخيه الميت، أتى بها ملك قبره، فقال: يا صاحب القبر الغريب، هذه هدية من أخ عليك شفيق.

الحق السادس: الوفاء والإخلاص، ومعنى الوفاء: الثبات على الحب إلى الموت، وبعد موت الأخ مع أولاده وأصدقائه، وقد أكرم النبي صلى الله عليهُ وآله

---

(١) مسلم (٨/٨٦)، ابن ماجه (٢٨٩٥)، أحمد (٥/١٩٥).

وسلم عجوزاً وقال: «إنها كانت تَغْشَانا في أيام خدِيجَة، وإن حُسْن العهد من الإيمان»[1].

ومن الوفاء أن لا يتغير على أخيه في التواضع وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه.

واعلم: أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الدين، فقد كان الشافعي رحمه الله آخى محمد بن عبد الحكم، وكان يقربه ويقبل عليه، فلما احْتُضر قيل له: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومىء إليه فقال: إلى أبي يعقوب البويطي، فانكسر لها محمد، ومع أن محمداً كان قد حمل مذهبه، لكن البويطي كان أقرب إلى الزهد والورع، فنصح الشافعي رحمه الله المسلمين وترك المداهنة، فانقلب ابن الحكم عن مذهبه، وصار من أصحاب مالك.

ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه، ولا يصادق عدو صديقه.

الحق السابع: التخفيف وترك التكلف [والتكليف]، وذلك أن لا يكلف أخاه ما يشق عليه، بل يُرَوِّحُ سرَّه عن مهماته وحاجاته، ولا يستمد من جاهه ولا ماله، ولا يكلفه التفقد لأحواله والقيام بحقوقه والتواضع له، بل يكون قصده بمحبته الله وحده، والتبرك بدعائه، والاستئناس بلقائه، والاستعانة على دينه، والتقرب إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه، وتمام التخفيف طي بساط الاحتشام حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي فيه من نفسه.

قال جعفر بن محمد: أثقل إخواني عليَّ من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي.

وقال بعض الحكماء: من سقطت كلفته دامت ألفته، ومن تمام هذا الأمر أن ترى الفضل لإخوانك عليك، لا لنفسك عليهم، فتنزل نفسك معهم منزلة الخادم.

---

(1) الحاكم (١/١٥ ـ ١٦).

فصل [جملة من آداب المعاشرة للخلق]

ولنذكر في آخر هذا الباب جملة من آداب المعاشرة للخلق:

فمن حسن المعاشرة أن تتوقر من غير كبْر، وتتواضع في غير ذلة، وأن تلقى الصديق والعدو بوجه الرضى من غير ذل لهم ولا خوف منهم، وتتحفظ في مجالسك من تشبيك أصابعك، وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك، والتثاؤب.

واصغ إلى محدثك، ولا تسأله الإعادة، ولا تحدَّث بإعجابك بولدك وجاريتك، ولا تتصنع تصنُّع المرأة في التزيين، ولا تتبذل تبذل العبد.

وخوف أهلك في غير عنف، ولن لهم من غير ضعف.

ولا تهازل أمتك وعبدك، فيسقط وقارك، ولا تكثر الالتفات إلى ورائك.

ولا تجالس السلطان، فإن فعلت فاحذر الذنوب والغيبة، وصن سره، واحذر المداعبة عنده، وتحفظ من الجشاء بحضرته والتخلل، وإن قربك فكن منه على حذر، وإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبي، وكلمه بما يشتهيه، ولا تدخل بينه وبين أهله وحشمه.

وإياك وصديق العافية.

ولا تجعل مالك أكرم من عرضك.

وإذا دخلت مجلساً فاجلس فيما هو أقرب للتواضع.

ولا تجلس على الطريق، فإذا جلست فغض البصر، وانصر المظلوم، وأرشد الضالّ.

ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك، ولكن عن يسارك تحت قدمك اليسرى.

واحذر مجالسة العوام، فإن فعلت فعليك بالتغافل عما يجري من سوء أخلاقهم وترك الخوض في حديثهم.

واحذر كثرة المزاح فإن اللبيب يحقد عليك في المزاح، والسفيه يجترىء عليك.

* * *

باب في حقوق المسلم والرحم والجوار والملك ونحو ذلك

فمن حقوق المسلم: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمّته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبر قسمه، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك. وجميع هذا منقول في الآثار.

ومنها: أن لا تؤذي أحداً من المسلمين بقول ولا فعل، وأن تتواضع للمسلمين، فلا تتكبر عليهم، ولا تسمع بلاغات الناس بعضهم في بعض، ولا تبلغ بعضهم ما تسمع من بعض.

ومنها: أن لا تزيد في الهجرة على ثلاثة أيام لمن تعرفه، للحدث المشهور في ذلك.

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يحل لمؤمن أن يَهْجُرَ مؤمناً فوق ثلاثة أيام، فإذا مَرَّتْ به ثلاثةُ أيام فلقيه فليسلم عليه، فإن رَدَّ عليه السلام، فقد اشتركا في الأجر، وإن لم يرد عليه فقد برىء المسلِّم من الهجرة»[1].

واعلم: أن هذه الهجرة إنما هي فيما يتعلق بالدنيا، أما حق الدين، فإن هجران أهل البدع والأهواء والمعاصي ينبغي أن تدوم، ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق.

ومنها: أن يحسن إلى كل من يقدر أن يحسن إليه من المسلمين ما استطاع، وأن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه، ويستأذن ثلاثاً فإن لم يأذن انصرف.

ومنها: أن يخالق الناس بخلق حسن، وذلك أن يعامل كلاً منهم بحسب طريقته، فإنه متى لقي الجاهل بالعلم، واللاهي بالفقه، والغبي بالبيان، أذى وتأذى.

ومنها: أن يوقر المشايخ، ويرحم الصبيان، وأن يكون مع الخلق كافة طلق الوجه رقيقاً، وأن يفي لهم بالوعد، وينصف الناس من نفسه، ولا يأتي إليهم إلا ما يحب أن يؤتى إليه.

---

(١) البخاري في الأدب المفرد (٤١٤)، أبو داود (٤٩١٢).

قال الحسن: أوحى الله إلى آدم عليه السلام أربع كلمات، وقال: فيهن جماع الأمر لك ولولدك: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين الخلق. فأما التي لي: فتعبدني لا تشرك بي شيئاً. وأما التي لك: فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه. وأما التي بيني وبينك: فعليك الدعاء وعليَّ الإجابة. وأما التي بينك وبين الناس: فتصحبهم بالذي تحب أن يصحبوك به.

ومنها زيادة توقير ذوي الهيئات.

ومنها: إصلاح ذات البين، وستر عورات المسلمين

واعلم: أنه من تأمل ستر الله تعالى على العصاة في الدنيا اقتدى بلطفه، فإنه جعل الشهادة في الزنى أن يشهد أربعة من العدول أنهم شهدوا ذلك كالميل في المكحلة، وهذا لا يتفق، ومن هذا أثر كرمه في الدنيا يرجى منه ذلك في الآخرة.

ومنها: أن يتقي مواضع التهم، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن به، وألسنتهم عن غيبته.

ومنها أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة، ويسعى في قضاء حوائجهم.

ومنها: أن يبدأ بالسلام كل مسلم قبل أن يكلمه، ومن السنة المصافحة. فقد روي عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما من مسلمَيـن التقيا، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، إلا كان حقاً على الله عزّ وجلّ أن يحضر دعاءهما، وأن لا يفرق بين أيديهما حتى يغفر لهما»[1].

وفي حديث آخر: «إذا صافح المؤمنُ المؤمنَ نزلت عليهما مائةُ رحمةٍ، تسعة وتسعون لأبشهما وأحسنهما خلقاً»[2].

ولا بأس بتقبيل يد المعظم في الدين، ولا بأس بالمعانقة. وأما الأخذ بالركاب لتوقير العلماء، فقد فعل ذلك ابن عباس بزيد بن ثابت رضي الله عنهما، والقيام على سبيل الإكرام لأهل الفضل حسن، وأما الانحناء فمنهي عنه.

ومنها: أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم الغير، ويناضل ـونه وينصره.

---

(١) أحمد (١٤٢/٣)، البزار (٢٠٠٤ ـ كشف الأستار).

(٢) البزار (٢٠٠٣ ـ كشف الأستار).

ومنها: أنه إذا ابتلي بذي شر، فينبغي أن يجامله ويتقيه، لحديث عائشة رضي الله عنها.

وقال محمد بن الحنفية: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بداً، حتى يجعل الله عزّ وجلّ له فرجاً.

ومنها: أن يجتنب مخالطة الأغنياء، ويختلط بالمساكين، ويحسن إلى الأيتام.

ومنها: عيادة مرضاهم.

ومن آداب العائد: أن يضع يده على المريض، ويسأله كيف هو، ويخفف الجلوس، ويظهر الرقة، ويدعو له بالعافية، ويغض البصر عن عورات المكان.

ويستحب للمريض أن يفعل ما أخرجه مسلم في أفراده، من حديث عثمان ابن أبي العاص رضي الله عنه أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[1].

وجملة آداب المريض: حسن الصبر، وقلة الشكوى والتضجر، والفزع إلى الدعاء، والتوكل على الله سبحانه.

ومنها: أن يشيع جنائزهم، ويزور قبورهم.
والمقصود من التشييع: قضاء حق المسلمين، والاعتبار.
قال الأعمش: كنا نحضر الجنائز، فلا ندري من نعزي لحزن القوم كلهم.
والمقصود من زيارة القبور: الدعاء، والاعتبار، وترقيق القلب.

ومن آداب تشييع الجنائز: المشي، ولزوم الخشوع، وترك الحديث، وملاحظة الميت، والتفكير في الموت، والاستعداد له.

وأما حقوق الجار: فاعلم أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام فيستحق ما يستحقه كل مسلم وزيادة، وجاء في الحديث: «إن الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق. فالجار الذي له ثلاثة حقوق: الجار المسلم ذو الرحم، فله حق الجوار، وحق الإسلام، وحق

---

(1) مسلم (٧/ ٢٠).

الرحم. وأما الذي له حقان: فالجار المسلم، له حق الإسلام، وحق الجوار. وأما الذي له حق واحد: فالجار المشرك»[1].

واعلم: أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط، بل احتمال الأذى والرفق، وابتداء الخير، وأن يبدأ جاره بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويهنئه في الفرح، ويصفح عن زلاته، ولا يطلع إلى داره، ولا يضايقه في وضع الخشب على جداره، ولا في صب الماء في ميزابه، ولا في طرح التراب في فنائه، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف من عوراته، ولا يتسمع عليه كلامه، ويغض طرفه عن حرمه، ويلاحظ حوائج أهله إذا غاب.

فصل [في حقوق الأقارب والرحم]

وأما حقوق الأقارب والرحم: ففي الحديث الصحيح، من رواية عائشة، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»[2].

وفي حديث آخر من أفراد البخاري: «ليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»[3].

وفي حديث آخر من أفراد مسلم أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيؤون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، قال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسِفُّهم المَلّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»[4]. والمعنى أنك منصور عليهم، وقد انقطع احتجاجهم عليه بحق القرابة، كما ينقطع كلام من سف المل، وهو الرماد الحار. والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة في صلة الرحم، وفي حقوق الوالدين، وفي تأكد حق الأم.

وأما حقوق الولد: فاعلم أنه لما كانت الطباع تميل إلى الولد لم يحتج إلى

---

(١) البزار (١٨٩٦ ـ كشف الأستار)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٢٣٦)، وابن عدي في الكامل (١٨١٨).

(٢) رواه مسلم (٧/٨)، والبخاري بلفظ آخر.

(٣) البخاري (٧/٨)، والأدب المفرد (٦٨)، والترمذي (١٩٠٨).

(٤) مسلم (٨/٨)، أحمد (٢/٣٠٠، ٤١٢، ٤٨٤).

تأكيد الوصية به، إلا أنه قد يغلب هوى الوالد للولد، فيترك تعليمه وتأديبه. وقد قال الله تعالى: ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُم نَاراً ﴾ [التحريم: ٦].

قال المفسرون: معناه: علموهم وأدبوهم.

وينبغي للوالد أن يُحْسِنَ اسم ابنه، ويعقَّ عنه، فإذا بلغ سبع سنين أمره بالصلاة وختنه، فإذا بلغ زوَّجه.

وأما حقوق المملوك، فأن يطعمه، ويكسوه، ولا يكلفه ما لا يطيق، ولا ينظر إليه بعين الازدراء، وأن يعفو عن زلله، وليتذكر الله عند زلل نفسه، فيعفو رجاء أن يعفو الله تعالى عنه.

* * *

باب العزلة

اختلف الناس في العزلة والمخالطة، أيتهما أفضل؟ مع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن فوائد وغوائل، وأكثر الزهاد اختاروا العزلة.

وممن ذهب إلى اختيار العزلة: سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، والفضيل، وبشر الحافي، في آخرين.

وممن ذهب إلى استحباب المخالطة سعيد بن المسيب، وشريح، والشعبي، وابن المبارك في آخرين.

ولكل طائفة فيما ذهبت إليه حجج، ونحن نشير إلى ذلك.

أما حجة الأولين، فقد روي في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «رَجُلٌ يُجاهد بنفسِه ومالِه، ورجل في شِعْبٍ من الشِعاب يَعْبُدُ رَبَّه ويدع الناسَ من شره»[1].

وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «املك عليك لسانك، وليسعْكَ بيتُك، وابك على خطيئتِك»[2].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خذوا بحظكم من العزلة.

---

(١) البخاري (١٨/٤)، مسلم (٣٩/٦).

(٢) الترمذي (٢٤٠٦)، أحمد (٢٥٩/٥)، وابن المبارك في الزهد (١٣٤)، والبغوي (٤١٢٨).

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لوددت أن بيني وبين الناس بابا من حديد، لا يكلمني أحد ولا أكلمه حتى ألقى الله سبحانه.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الليل، أحلاس البيوت جُدُدَ القلوب خُلْقانَ الثياب، تعرفون في أهل السماء، وتخفون على أهل الأرض.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: نعم صومعة المرء المسلم بيته، يكف لسانه وفرجه وبصره، وإياكم ومجالس الأسواق، فإنها تلهي وتلغي.

وقال داود الطائي: فر من الناس كما تفر من الأسد.

وقال أبو مهلهل: أخذ بيدي سفيان الثوري وأخرجني إلى الجبانة، فاعتزلنا ناحية، فبكى ثم قال: يا أبا مهلهل، إن استطعت أن لا تخالط في زمانك أحداً فافعل، وليكن همك مرمة جهازك.

وأما حجة من اختار المخالطة، فمن ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»[1]، واحتجوا بأشياء غير ذلك ضعيفة لا تقوم بها حجة على ذلك، منها قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وهذا ضعيف، لأن المراد تفرق الآراء والمذاهب في أصل الشريعة، واحتجوا أيضاً بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا هجرة فوق ثلاث»[2] قالوا: والعزلة هجر بالكلية، وهذا ضعيف لأن المراد به قطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة.

فصل [في ذكر فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها]

اعلم: أن اختلاف الناس في هذا أيضاً هو كاختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة، وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فكذلك نقول فيما نحن فيه، فلنذكر أولاً فوائد العزلة وهي ست:

الفائدة الأولى: الفراغ للعبادة، والاستئناس بمناجاة الله سبحانه، فإن ذلك

(١) الترمذي (٢٥٠٧)، أحمد (٢/٤٣)، (٥/٣٦٥)، البخاري في الأدب المفرد (٣٨٨).
(٢) البخاري (٨/٢٥، ٢٦)، مسلم (٨/٨، ٩).

يستدعي فراغا، ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إلى ذلك خصوصاً في البداية.

قيل لبعض الحكماء: إلى أي شيء أفضى بهم الزهد والخلوة؟ قال: إلى الأنس بالله.

وقال أويس القرني رضي الله عنه: ما كنت أرى أن أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره.

واعلم: أن من تيسر له بدوام الذكر الأنس بالله، أو بدوام الفكر تحقيق معرفة الله، فالتجرد لذلك أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة.

الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض لها الإنسان غالباً بالمخالطة، وهي أربعة:

أحدها: الغيبة، فإن عادة الناس التمضمض بالأعراض والتفكه بها، فإن خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى، وإن سكت كنت شريكاً، فإن المستمع أحد المغتابين، وإن أنكرت أبغضوك واغتابوك فازدادوا غيبة إلى الغيبة، وربما خرجوا إلى الشتم.

الثانية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من خالط الناس لم يخل عن مشاهدة المنكرات، فإن سكت عصى الله، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر، وفي العزلة سلامة من هذا.

الثالثة: الرياء، وهو الداء العضال الذي يعسر الاحتراز منه، وأول ما في مخالطة الناس إظهار التشوق إليهم، ولا يخلو ذلك عن الكذب، إما في الأصل، وإما في الزيادة، وقد كان السلف يحترزون في جواب قول القائل: كيف أصبحت، وكيف أمسيت؟ كما قال بعضهم وقد قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحنا ضعفاء مذنبين، نأكل أرزاقنا، وننتظر آجالنا.

واعلم: أنه إذا كان سؤال السائل لأخيه: كيف أصبحت؟ لا يبعثه عليه شفقة ولا محبة، كان تكلفاً ورياء، وربما سأله وفي القلب ضغن وحقد يورث أن يعلم فساد حاله، وفي العزلة الخلاص عن هذا، لأنه من لقي الخلق ولم يخالقهم بأخلاقهم، مقتوه واستثقلوه واغتابوه، ويذهب دينهم فيه، ويذهب دينه ودنياه في الانتقام منهم.

الرابعة: مسارقة الطبع من أخلاقهم الرديئة، وهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، وذلك أنه قل أن يجالس الإنسان فاسقاً مدة، مع كونه منكراً عليه في باطنه، إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لوجد فرقاً في النفور عن الفساد، لأن الفساد يصير بكثرة المباشرة هيناً على الطبع، ويسقط وقعه واستعظامه، ومهما طالت مشاهدة الإنسان الكبائر من غيره، احتقر الصغائر من نفسه، كما أن الإنسان إذا لاحظ أحوال السلف في الزهد والتعبد، احتقر نفسه، واستصغر عبادته، فيكون ذلك داعية إلى الاجتهاد، وبهذه الدقيقة يعرف سر قول القائل: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة.

ومما يدل على سقوط وقع الشيء بسبب تكرره ومشاهدته، أن أكثر الناس إذا رأوا مسلماً قد أفطر في رمضان، استعظموا ذلك، حتى يكاد يفضي إلى اعتقادهم فيه الكفر، وقد يشاهدون من يؤخر الصلاة عن أوقاتها، فلا ينفرون عنه نفورهم عن تأخير الصوم، مع أن ترك صلاة واحدة تخرج إلى الكفر، ولا سبب لذلك إلا أن الصلاة تتكرر، والتساهل فيها يكثر، وكذلك لو لبس الفقيه ثوباً من حرير، أو خاتماً من ذهب، لاشتد إنكار الناس لذلك، وقد يشاهدونه يغتاب، فلا يستعظمون ذلك، والغيبة أشد من لبس الحرير، ولكن لكثرة سماعها، ومشاهدة المغتابين، سقط عن القلوب وقعها، فافطن لهذه الدقائق واحذر مجالسة الناس، فإنك لا تكاد ترى منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا، وفي غفلتك عن الآخرة، وتهون عليك المعصية، وتضعف رغبتك في الطاعات، فإن وجدت مجلساً يذكر الله فيه، فلا تفارقه فإنه غنيمة المؤمن.

الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين عن الخوض فيها، فإنه قلما تخلو البلاد من العصبية والخصومات، والمعتزل عنهم سليم.

وقد روى ابن عمر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر الفتن، ووصفها وقال: «إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، فكانوا هكذا» وشبك بين أصابعه، فقلت: ما تأمرني؟ فقال: «الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودع أمر العامة»[1].

وقد روي غير ذلك من الأحاديث في معناه.

---

(١) أبو داود (٤٣٤٣)، أحمد (٢/٢١٢)، الحاكم (٤/٥٢٥).

الفائدة الرابعة: الخلاص من شر الناس، فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة، ومرة بالنميمة، ومرة بسوء الظن، ومرة بالتهمة، ومرة بالأطماع الكاذبة، ومن خالط الناس لم ينفك من حاسد وعدو، وغير ذلك من أنواع الشر التي يلقاها الإنسان من معارفه، وفي العزلة خلاص من ذلك، كما قال بعضهم:

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرنَّ من الصحاب

فإن الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب

وقال عمر رضي الله عنه: في العزلة راحة من خلطاء السوء.

وقال إبراهيم بن أدهم: لا تتعرف إلى من لا تعرف، وأنكر من تعرف.

وقال رجل لأخيه: أصحبك إلى الحج؟ فقال: دعنا نعش في ستر الله، فإنا نخاف أن يرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه.

وهذه فائدة أخرى في العزلة، وهي بقاء الستر على الدين والمروءة وسائر العورات.

الفائدة الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك، وطمعك عنهم.

أما طمعهم، فإن رضاهم غاية لا تدرك، فالمنقطع عنهم قاطع لطمعهم في حضور ولائمهم وإملاكاتهم، وغير ذلك.

وقد قيل: من عم الناس بالحرمان رضوا عنه كلهم.

وأما انقطاع طمعك، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا تحرك حرصه، وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر المطامع فيتأذى.

وفي الحديث: «انظروا إلى مَنْ دونكم، ولا تنظروا إلى مَنْ فوقكم، فإنه أجدرُ أن لا تزدروا نعمةَ اللهِ عليكم»[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [طه: ١٣١].

الفائدة السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى، ومقاساة أخلاقهم، وإذا تأذى الإنسان بالثقلاء، لم يلبث، أن يغتابهم، فإن آذوه بالقدح فيه كافأهم، فانجرَّ الأمر إلى فساد الدين، وفي العزلة سلامة من ذلك.

---

(١) مسلم (٨/٢١٣)، البخاري (٨/١٢٨) من وجه آخر.

فصل [في افات العزلة]

اعلم: أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد من الاستعانة بالغير، ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة.

ومن فوائد المخالطة: التعلم والتعليم، والنفع والانتفاع، والتأديب والتأدب، والاستئناس والإيناس، ونيل الثواب في القيام بالحقوق، واعتياد التواضع، واستفادة التجارب من مشاهدة هذه الأحوال، والاعتبار بها، فهذه فوائد الخلطة، ولنفصلها:

الفائدة الأولى: التعلمُ والتعليم، وقد ذكرنا فضلهما في كتاب العلم، فأما من تعلم الفرض ورأى أنه لا يتأتى منه الخوض في العلوم، ورأى الاشتغال بالعبادة، فليعتزل، وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران.

ولهذا قال الربيع بن خيثم: تفقه ثم اعتزل، والعلم أصل الدين، ولا خير في عزلة العوام.

سئل بعض العلماء: ما تقول في عزلة الجاهل؟ فقال: خبال ووبال، فقيل له: فالعالم؟ فقال: ما لك ولها، دعها، معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء، وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها.

وأما التعليمُ، ففيه ثواب عظيم إذا صحت النية فيه، ومتى كان القصد إقامة الجاه والاستكثار من الأتباع، فهو هلاك الدين، وقد سبق ذلك في كتاب العلم، والغالب في هذا الزمان سوء القصد من المتعلمين، فيقتضي الدين الاعتزال عنهم، فإن صودف طالب لله ومتقرب بالتعلم إليه، لم يجز الاعتزال عنه، ولا يحل كتمان العلم، ولا ينبغي أن يغتر بقول من قال: تعلمنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله، فإنه أشار بهذه إلى علوم القرآن والحديث ومعرفة سير الأنبياء والصحابة، وذلك يتضمن التخويف والتحذير، وهو سبب لإثارة الخوف من الله سبحانه، فإن لم يؤثر في الحال أثر في المآل، فأما علم الكلام وعلم الخلاف، فإنه لا يرد الراغب في الدنيا إلى الله تعالى، بل لا يزال صاحبه متمادياً في حرصه إلى آخر عمره.

الفائدة الثانية: النفع والانتفاع، أما الانتفاع بالناس، فبالكسب والمعاملة، والمحتاج إلى ذلك مضطر إلى ترك العزلة، وأما إن كان معه ما يقنعه، فالعزلة أفضل، إلا أن يقصد التصديق بكسبه، فذلك أفضل من العزلة، إلا أن تكون العزلة

مفيدة له معرفة الله تعالى والأنس به، عن كشف وبصيرة، لا عن أوهام وخيالات فاسدة.

وأما النفع: فهو أن ينفع الناس، إما بماله أو ببدنه لقضاء حوائجهم، ومن قا على ذلك مع القيام بحدود الشرع، فهو أفضل من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر، فذاك الذي لا يعدل به البتة.

الفائدة الثالثة: التأديب والتأدب، ونعني به الارتياض بمقاساة الناس، والمجاهدة في تحمل أذاهم، وكسر النفس، وقهر الشهوة، وذلك أفضل من العزلة في حق من لم تتهذب أخلاقه.

وينبغي أن يفهم أن الرياضة لا تراد لنفسها كما لا يراد ذلك من رياضة الدابة، بل المراد منها أن تتخذ مركباً تقطع عليه المراحل، والبدن مطية يسلك بها طريق الآخرة، وفيها شهوات إن لم تكسر جمحت براكبها في الطريق، فمن اشتغل طوال عمره بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمره برياضة الدابة ولم يركبها، ولا يستفيد إلا الخلاص من عضها ورفسها، وهي لعمري فائدة، ولكن ليست معظم المقصود، قيل لراهب: يا راهب، فقال: لست براهب، إنما أنا كلب عُقّور، حبست نفسي حتى لا أعقر الناس، وهذا حسن بالإضافة إلى من يَعقُر، لكن لا ينبغي أن يقتصر عليه.

وأما التأديب: فهو أن يؤدب غيره، ويتطرق إليه من دقائق الآفات ما يتطرق إلى نشر العلم على ما ذكر.

الفائدة الرابعة: الاستئناس والإيناس، وقد يكون مستحباً كالاستئناس بأهل التقوى وقد يقصد به ترويح القلوب من كرب الوحدة، فينبغي أن يكون الاستئناس في بعض الساعات بمن لا يفسد بقيتها، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين.

الفائدة الخامسة: في نيل الثواب وإنالته.

أما الأول: فبحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وحضور الإملاكات، والدعوات، ففيها ثواب من جهة إدخال السرور على المؤمن.

وأما الثاني: فهو أن يفتح بابه للناس ليعزوه أو يهنئوه أو يعودوه، فإنهم ينالون

بذلك ثواباً، وكذلك إن كان من العلمـاء فأذن لهم في زيارته.

ولكن ينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بآفـاتها، فيـرجح العـزلة أو المخالطة، وقد كان أكثر السلف يؤثرون العزلة عليها.

الفائدة السادسة: التواضع، ولا يقدر على ذلك في الوحدة، فقد يكون الكبر سبباً في اختياره العزلة، ويمنعه في المحافل التقصير في إكرامه وتقديمه، وربما ترفع عن مخالطتهم لارتفاع محله عند نفسه، أو نحو ذلك.

وعلامة من هذه صفته أن يحب أن يزار ولا يحب أن يزور، ويفرح بتقرب السلاطين والعوام إليه واجتماعهم على بابه، وتقبيل يده، فالعزلة بهذا السبب جهل، لأن التواضع لا يغض من منصب الكبير

فإذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقاً بالتفضيل نفياً وإثباتاً خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الفائت بسبب مخالطته من الفوائد، ويقاس الفائت بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل.

فقد قال الشافعي رحمه الله: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة للسوء، فكن بين القبض والبسط، ومن ذكر سوى هذا فهو قاصر، وإنما هو إخبار عن حاله، فلا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال.

فإن قيل: فما آداب العزلة؟.

قلنا: ينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شره عن الناس، ثم طلب السلامة من شر الأشرار، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين، ثم تجريد الهمة لعبادة الله تعالى أبداً، فهذه آداب بينة.

ثم ليكن في خلواته مواظباً على العلم والعمل، والذكر والفكر، فيجتني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته ليصفو وقته، وليكف عن السؤال عن أخبارهم، وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به، فإن جميع ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة، فوقوع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض، وليقنع باليسير من المعيشة، وإلا اضطره التوسع إلى مخالطة الناس.

وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الناس، ولا يصغي إلى الثناء عليه بالعزلة، ولا القدح فيه بترك الخلطة، فإن ذلك يؤثر في القلب فيقف عن السير في طريق الآخرة.

وليكن له جليس صالح يستريح إليه ساعة عن كد المواظبة، ففي ذلك عون على بقية الساعات، ولا يتم الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر أمله، فيقدر أنه إذا أصبح لا يمسي، وإذا أمسى لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم.

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر متى ضاق عليه قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به، لم يطق وحشة الوحدة بعد الموت، وأن من أنس بذكر الله ومعرفته لم يزل الموت أنسه، لأن الموت لا يهدم محل الأنس والمعرفة، كما قال الله تعالى في حق الشهداء: ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩] وكل متجرد لله في جهاد نفسه، فهو شهيد، كما ورد عن بعض الصحابة أنه قال: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.

* * *

كتاب آداب السفر

السفر وسيلة إلى الخلاص من مهروب عنه، أو الوصول إلى مرغوب إليه.

والسفر سفران: سفر بظاهر البدن عن الوطن، وسفر بسير القلب عن أسفل سافلين إلى ملكوت السماوات، وهذا أشرف السفرين، فإن الواقف على الحالة التي نشأ عليها عقيب الولادة، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء، لازم درجة القصور، قانع برتبة النقص، ومستبدل بمتسع عرضه السماوات والأرض ظلمة السجن وضيق الحبس.

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقص القـادرين على التمـام

إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه في خطر خطير، اندرست مسالكه.

فأما سفر البدن: فهو أقسام، وله فوائد وآفات عظيمة، فإنه يضاهي النظر في العزلة والمخالطة، وقد ذكرنا منهاج ذلك.

فالفوائد الباعثة عليه لا تخلو من هرب أو طلب، فالهرب إما من أمر له نكاية في الأمور الدنيوية، كالطاعون إذا ظهر ببلد، أو كخوف فتنة وخصومة، أو غلاء سعر.

وإما أمر له نكاية في الدين، كمن ابتلي في بلده بجاه أو مال أو اتساع أسباب، فصدَّه عن التجرد لله تعالى، فيؤثر الغربة والخمول ويجتنب السعة والجاه، وكمن يُدعى إلى بدعة أو إلى ولاية عمل لا تحل مباشرته، فيطلب الفرار منه.

وأما المطلوب، فهو إما دنيوي كالمال والجاه، أو ديني كالعلم بأمور دينه، أو بأخلاقه في نفسه، أو بآيات الله في أرضه، وقلّ مذكور بالعلم محصل من زمان الصحابة رضي الله عنهم إلى زماننا إلا وحصل العلم بالسفر وسافر لأجله.

وأما علمه بنفسه وأخلاقه، فذلك أيضاً مهم، فإن سلوك الآخرة لا يمكن إلا بتحسين الخلق وتهذيبه، وإنما سمي السفر سفراً، لأنه يسفر عن الأخلاق.

وفي الجملة فالنفس في الوطن لا تظهر خبائث أخلاقهم لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة، فإذا حملت وعثاء السفر، وصرفت عن مألوفاتها

المعتادة، وامتحنت بمشاق الغربة، انكشفت غوائلها، ووقع الوقوف على عيوبها.

وأما آيات الله في أرضه، ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر:

ففيها قِطَع متجاورات، وفيها الجبال والبراري والقفار والبحار، وأنواع الحيوان والنبات، وما من شيء إلا وهو شاهد لله بالوحدانية، ومسبح بلسان ذلق لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد.

وإنما نعني بالسمع: سمع الباطن، فبه يدرك نطق لسان الحال، وما من ذرة في السموات والأرض إلا ولها أنواع شاهدات لله سبحانه بالوحدانية.

وقد ذكرنا أن من فوائد السفر الهرب من الولاية والجاه وكثرة العلائق، لأن الدين لا يتم إلا بقلب فارغ عن غير الله، ولا يتصور فراغ القلب في الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية، ولكن يتصور تخفيفها وتقليلها، وقد نجا المخففون وهلك المثقلون، والمخف الذي ليست الدنيا أكبرَ همه.

فصل [في السفر المباح]

ومن أقسام السفر أن يكون مباحاً، كسفر التفرج والتنزه، فأما السياحة في الأرض لا لمقصود، ولا إلى مكان معروف، فإنه منهي عنه.

فقد روينا من حديث طاووس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا رَهْبانيةَ، ولا تبتُّلَ، ولا سِياحةَ في الإسلام»[1].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: ما السياحة من الإسلام في شيء ولا من فعل النبيين ولا الصالحين. ولأن السفر يشتت القلب، فلا ينبغي للمريد أن يسافر إلا في طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدي به في سيرته.

وللسفر آداب معروفة مذكورة في مناسك الحج وغيرها.

من ذلك أن يبدأ برد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، ورد الودائع.

ومنها: أن يختار رفيقاً صالحاً، ويودع الأهل والأصدقاء.

ومنها: أن يصلي صلاة الاستخارة، وأن يكون سفره يوم الخميس بكرة.

---

(١) عبد الرزّاق في المصنف (١٥٨٦٠) ـ وهو حديث مرسل، ورواه ابن قتيبة في غريب الحديث ـ كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/٣٨٧).

ومنها: أن لا يمشي منفرداً، وأن يكون أكثر سيره بالليل، ولا يهمل الأذكار والأدعية إذا وصل منزلاً أو علا نشزاً أو هبط وادياً.

ومنها: أن يستصحب معه ما فيه مصلحته، كالسواك، والمشط، والمرآة، والمكحلة، ونحو ذلك.

فصل [فيما لا بد للمسافر منه]

ينبغي له أن يتزود للدنيا والآخرة، أما زاد الدنيا، فالمطعم والمشرب وما يحتاج إليه.

ولا ينبغي أن يقول: أخرج متوكلاً فلا أحمل زاداً، فهذا جهل، فإن حمل الزاد لا يناقض التوكل.

وأما زاد الآخرة، فهو العلم الذي يحتاج إليه في طهارته وصلاته وعبادته، وتعلم رخص السفر، كالقصر والجمع والفطر، ومدة مسح السفر على الخفين والتيمم، والتنفل للماشي، وكل ذلك مذكور في كتب الفقه بشروط.

ولا بد للمسافر من معرفة ما يتجدد بسبب السفر، وهو علم القبلة والأوقات، فإن ذلك في السفر آكد من الحضر.

ويستدل على القبلة بالنجوم والشمس والقمر والرياح والمياه والجبال والمجرَّة على ما هو مبين في موضعه، ويعتبر الجبال بأن وجودها جميعها مستقبلة البيت.

وأما المجرَّة، فتكون أول الليل ممتدة على كتف المصلي اليسرى إلى القبلة، ثم يلتوي رأسها حتى تصير في آخر الليل على كتفه اليمنى، وتسمى المجرة: سُرُج السماء.

وأما معرفة أوقات الصلوات، فلا بد منها، ووقت الظهر يدخل بزوال الشمس، فلينصب المسافر عوداً مستقيماً، وليعلِّم علامات على رأس الظل، ولينظر، فإن رآه في النقصان علم أنه لم يدخل وقت الظهر، فإذا أخذ في الزيادة علم أنه قد زالت الشمس ودخل الوقت، وهو أول وقت الظهر، وآخره إذا صار ظل كل شيء مثله، ثم يدخل أول وقت العصر، وآخره إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه.

وعن الإمام أحمد: أن آخره ما لم تصفر الشمس، ثم يذهب وقت الاختيار، ويبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس، وباقي الأوقات معروفة.

* * *

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

اعلم: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي بعث الله به النبيين، ولو طوي بساطه، لاضمحلت الديانة، وظهر الفساد، وخربت البلاد.

قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وفي هذه الآية بيان أنه فرض على الكفاية لا فرض عين، لأنه قال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾، ولم يقل: كونوا كلكم آمرين بالمعروف، فإذا قام به من يكفي سقط عن الباقين، واختص الفلاح بالقائمين المباشرين له. وفي القرآن العظيم آيات كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها، مثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرقاً فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً»[1].

فصل [في مراتب الإنكار وبعض ما ورد فيه]

فقد جاء في الحديث المشهور من رواية مسلم، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ رأى منكم منكَراً فليغيِّرْه بيده، فإنْ لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان»[2].

وفي حديث آخر: «أفضلُ الجهاد كلمةُ حقٍّ عنْدَ سُلْطَان جَائرٍ»[3].

---

(١) البخاري (٣/٢٣٧)، أحمد (٤/٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧٣)، الترمذي (٢١٧٣)، البيهقي (١٠/٢٨٨).

(٢) مسلم (١/٥٠)، أبو داود (١١٤٠)، أحمد (٣/١٠).

(٣) ابن ماجه (٤٠١٢)، أحمد (٥/٢٥١، ٢٥٦).

وفي حديث آخر: «إذا رأيتَ أمتي تهابُ الظالمَ أنْ تقولَ له: أَنت ظالمٌ، فقد تُودِّع منهم»[1].

وقام أبو بكر رضي الله عنه، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿ يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُم لاَ يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُم ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنّ الناس إذا رأوا المنكرَ فلم يغيِّروه أوشـك أن يعمَّهم اللهُ بعذاب»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لتأمُرُنَّ بالمعروفِ ولتنهونَّ عن المنكرِ، أو ليسلطنَّ اللهُ شرارَكم على خيارِكم فيدعو خيارُكم فلا يستجابُ لهم»[3].

فصل [في أركانه وشروطه ودرجاته وآدابه ونحو ذلك]

اعلم: أن أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة:

أحدها: أن يكون المنكر مكلفاً مسلماً قادراً، وهذا شرط لوجوب الإنكار.

فإن الصبي المميز، له إنكار المنكر، ويثاب على ذلك، لكن لا يجب عليه

وأما عدالة المنكر، فاعتبرها قوم وقالوا: ليس للفاسق أن يحتسب، وإنما استدلوا بقوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُم ﴾ [البقرة: ٤٤] وليس لهم في ذلك حجة.

واشترط قوم كون المنكر مأذوناً فيه من جهة الإمام أو الوالي، ولم يجيزوا لآحـاد الرعية الحسبة، وهذا فاسد، لأن الآيات والأخبار عامة تدل على أن كل من رأى منكراً فسكت عنه عصى، فالتخصيص بإذن الإمام تحكم.

ومن العجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا: لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرج الإمام المعصوم، وهؤلاء أخس رتبة من أن يتكلموا، لكن جوابهم أن يقال لهم إذا جاؤوا إلى القاضي طالبين حقوقهم: نصرتكم أمـر بالمعـروف، واستخراج حقوقكم من يد من ظلمكم نهي عن المنكر، ولم يجيء زمان ذلك لأن الإمام لم يخرج بعد.

---

(١) أحمد (٢/١٦٣، ١٩٠)، الحاكم (٤/٩٦).

(٢) أحمد (١، ١٦، ٢٩، ٥٣ ـ شاكر)، أبو داود (٤٣٣٨).

(٣) ابن عديّ في الكامل (١٧٩٦)، وقد جاء من طريق آخر لمسند أحمد (٥/٣٩١)، والترمذي (٢١٦٩) والبغوي (٤١٥٤).

فإن قيل: في الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية على المحكوم عليه، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم، مع كونه حقاً، فينبغي أن لا يثبت لآحاد الرعية إلا بتفويض من السلطان.

قلنا: أما الكافر فممنوع من ذلك لما فيه من السلطة والعز، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة.

واعلم أن الحسبة لها خمس مراتب:

التعريف والوعظ بالكلام اللطيف.

الثالثة: السب والتعنيف، ولسنا نعني بالسب الفاحشة، بل نقول له: يا جاهل يا أحمق، ألا تخاف من الله تعالى! ونحو ذلك.

والرابعة: المنع بالقهر، ككسر الملاهي وإراقة الخمر.

والخامسة: التخويف والتهديد بالضرب. أو مباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه، فهذه المرتبة تحتاج إلى الإمام دون ما قبلها، لأنه ربما جر إلى فتنة.

واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض.

فإن قيل: فهل تثبت الحسبة للولد على الوالد، والعبد على السيد، والزوجة على الزوج، والرعية على الوالي؟.

قلنا: أصل الولاية ثابت للكل، وقد رتبنا للحسبة خمس مراتب:

فللولد من ذلك الحسبة بالتعريف، ثم بالوعظ والنصح باللطف.

وله من الرتبة الخامسة: أن يكسر العود، ويريق الخمر، ونحو ذلك، وهذا الترتيب ينبغي أن يجري في العبد والزوجة.

وأما الرعية مع السلطان، فالأمر فيه أشد من الولد، فليس معه إلا التعريف والنصح.

ويشترط كون المنكر قادراً على الإنكار، فأما العاجز، فليس عليه إنكار إلا بقلبه، ولا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي، بل يلتحق به خوف مكروه يناله، فذلك في معنى العجز.

وكذلك إذا علم أن إنكاره لا ينفع، فينقسم إلى أربعة أحوال:

أحدها: أن يعلم أن المنكر يزول بقوله أو فعله من غير مكروه يلحقه، فيجب عليه الإنكار.

الحالة الثانية: أن يعلم أن كلامه لا ينفع وأنه إن تكلم ضرب، فيرتفع الوجوب عنه.

الحالة الثالثة: أن يعلم أن إنكاره لا يفيد، لكنه لا يخاف مكروهاً، فلا يجب عليه الأمر لعدم الفائدة، لكن يستحب لإظهار شعائر الإسلام والتذكير بالدين.

الحالة الرابعة: أن يعلم أنه يصاب بمكروه، ولكن يبطل المنكر بفعله، مثل أن يكسر العود، ويريق الخمر، ويعلم أنه يضرب عقيب ذلك، فيرتفع الوجوب عنه، ويبقى مستحباً لقوله في الحديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[1].

ولا خلاف أنه يجوز للمسلم الواحد أن يهجم على صفوف الكفار ويقاتل، وإن علم أنه يقتل، لكن إن علم أنه لا نكاية له في الكفار، كالأعمى يطرح نفسه على الصف، حرم ذلك، وكذلك لو رأى فاسقاً وحده وعنده قدح خمر وبيده سيف، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب الخمر لضرب عنقه، لم يجز له الإقدام على ذلك، لأن هذا لا يؤثر في الدين أثراً يفديه بنفسه، وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر، وظهر لفعله فائدة، كمن يحمل في صف الكفار ونحوه.

وإن علم المنكر أنه يضرب معه غيره من أصحابه، لم تجز له الحسبة، لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بإفضائه إلى منكر آخر، وليس ذلك من القدرة في شيء. ولسنا نعني بالعلم في هذه المواضيع إلا غلبة الظن، فمن غلب على ظنه أنه يصيبه مكروه، لم يجب عليه الإنكار، وإن غلب على ظنه أنه لا يصيبه وجب، ولا اعتبار بحالة الجبان، ولا بالشجاع المتهور، بل الاعتبار بالمعتدل الطبع، السليم المزاج. ونعني بالمكروه: الضرب أو القتل، وكذلك نهب المال، والإشهار في البلد مع تسويد الوجه، فأما السب والشتم، فليس بعذر في السكوت، لأن الآمر بالمعروف يلقى ذلك في الغالب.

الركن الثاني: أن يكون ما فيه الحسبة منكراً موجوداً في الحال ظاهراً، فمعنى كونه منكراً أن يكون محذور الوقوع في الشرع، والمنكر أعم من المعصية، إذ من رأى صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر، فعليه أن يريق خمره ويمنعه، وكذلك لو رأى مجنوناً يزني بمجنونة أو بهيمة، فعليه أن يمنعه.

وقولنا: موجوداً في الحال، احتراز ممن شرب الخمر وفرغ من شربها، ونحو ذلك، فإن ذلك ليس إلى الآحاد، وفيه أيضاً احتراز عما سيوجد في ثاني الحال، كمن يعلم بقرينة حاله أنه عازم على الشرب الليلة، فلا حسبة عليه إلا بالوعظ.

---
(1) تقدم في صفحة ١١٤.

وقولنا: ظاهراً، احتراز ممن تستر بالمعصية في داره وأغلق بابه، فإنه لا يجوز أن يتجسس عليه، إلاَّ أن يظهر ما يعرفه من هو خارج الدار، كأصوات المزامير والعيدان، فلمن سمع ذلك أن يدخل ويكسر الملاهي، فإن فاحت رائحة الخمر، فالأظهر جواز الإنكار.

ويشترط في إنكار المنكر أن يكون معلوماً كونه منكراً بغير اجتهاد، فكل ما هو في محل الاجتهاد، فلا حسبة فيه، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله متروك التسمية، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه يسير النبيذ الذي ليس بمسكر.

الركن الثالث: في المنكر عليه، ويكفي في صفته أن يكون إنساناً، ولا يشترط كونه مكلفاً كما بينا قبله من أنه ينكر على الصبي والمجنون.

الركن الرابع: نفس الاحتساب، وله درجات وآداب:

الدرجة الأولى: أن يعرف المنكر، فلا ينبغي له أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار، ولا يتعرض للشم ليدرك رائحة الخمر، ولا أن يمس ما قد ستر بثوب ليعرف شكل المزمار، ولا أن يستخبر جيرانه ليخبروه بما يجري، بل لو أخبره عدلان ابتداءً أن فلاناً يشرب الخمر، فله إذ ذاك أن يدخل وينكر.

الدرجة الثانية: التعريف، فإن الجاهل يقدم على الشيء لا يظنه منكراً، فإذا عرف أقلع عنه، فيجب تعريفه باللطف، فيقال له: إن الإنسان لا يولد عالماً، ولقد كنا جاهلين بأمور الشرع حتى علمنا العلماء، فلعل قريتك خالية من أهل العلم. فهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء. ومن اجتنب محذور السكوت عن المنكر، واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه، فقد غسل الدم بالبول.

الدرجة الثالثة: النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله، ويورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد، ويحكي له سيرة السلف، ويكون ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، وها هنا آفة عظيمة ينبغي أن يتوقاها، وهو أن العالم يرى عند التعريف عز نفسه بالعلم، وذل غيره بالجهل.

ومثال ذلك مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه، وهو غاية الجهل، ومذلة عظيمة، وغرور من الشيطان. ولذلك محك ومعيار، فينبغي أن يمتحن به المحتسب نفسه، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه، أو باحتساب غيره عليه، أحب إليه من امتناعه [عنه] باحتسابه، فإن كانت الحسبة شاقة عليه، ثقيلة على نفسه، وهو يود أن يكفى بغيره، فليحتسب، فإن باعثه هو الدين، وإن

كان الأمر بالعكس، فهو متبع هوى نفسه، متوسل إلى إظهار جاهه بواسطة إنكاره، فليتق الله وليحتسب أولاً على نفسه.

وقيل لداود الطائي: أرأيت رجلاً دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟ قال: أخاف عليه السوط. قيل: هو يقوى على ذلك، قال: أخاف عليه السيف، قيل: هو يقوى على ذلك، قال: أخاف عليه الداء الدفين: العجب.

الدرجة الرابعة: السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن، وإنما يعدل إلى هذا عند العجز عن المنع باللطف، وظهور مبادىء الإصرار، والاستهزاء بالوعظ والنصح، ولسنا نعني بالسب: الفحش والكذب، بل نقول له: يا فاسق، يا أحمق، يا جاهل، ألا تخاف الله؟ قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَكُم وَلِمَا تَعْبُدُونَ من دُونِ الله أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

الدرجة الخامسة: التغيير باليد، ككسر الملاهي، وإراقة الخمر، وإخراجه من الدار المغصوبة، وفي هذه الدرجة أدبان:

أحدهما: أن لا يباشر التغيير ما لم يعجز عن تكليف المنكر عليه ذلك، فإذا أمكنه أن يكلفه الخروج عن الأرض المغصوبة، فلا ينبغي أن يجره ولا يدفعه.

والثاني: أن يكسر الملاهي كسراً يبطل صلاحيتها للفساد، ولا يزيد على ذلك، ويتوقى في إراقة الخمور كسر الأواني إن وجد إليه سبيلاً، وإن لم يقدر إلا بأن يرمي ظروفها بحجر أو نحوه، فله ذلك، وتسقط قيمة الظروف، ولو ستر الخمر بيديه، فإنه يقصد يديه بالضرب ليتوصل إلى إراقة الخمر، ولو كانت الخمر في قوارير ضيقة الرؤوس، بحيث أنه إذا اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق فمنعوه، فله كسرها، لأن هذا عذر، وكذلك إن كان يضيع الزمان في صبها، وتتعطل أشغاله، فله كسرها ولو لم يحذر من الفساق.

فإن قيل: فهلا يجوز الكسر زجراً، وكذلك الجر بالرجل في الإخراج من الدار المغصوبة زجراً؟.

قلنا: إنما يجوز مثل ذلك للولاة، ولا يجوز لآحاد الرعية، لخفاء وجه الاجتهاد فيه.

الدرجة السادسة: التهديد والتخويف كقوله: دع عنك هذا وإلا فعلت بك كذا وكذا، وينبغي أن يقدم هذا على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه.

والأدب في هذه الرتبة أن لا يهدد بوعيد لا يجوز تحقيقه، كقوله: لأنهبن

دارك، ولأسبين زوجتك، لأنه إن قال ذلك عن عزم، فهو حرام، وإن قاله عن غير عزم، فهو كذب.

الدرجة السابعة: مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه إشهار سلاح، وذلك جائز للآحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة، فإذا اندفع المنكر فينبغي أن يكف.

الدرجة الثامنة: أن لا يقدر على الإنكار بنفسه ويحتاج إلى أعوان يشهرون السلاح، فإنه ربما يستمد الفاسق أيضاً بأعوانه ويؤدي إلى القتال، فالصحيح أن ذلك يحتاج إلى إذن الإمام، لأنه يؤدي إلى الفتن وهيجان الفساد.

وقيل: لا يشترط في ذلك إذن الإمام.

فصل [في صفات المحتسب]

وقد ذكرنا آداب المحتسب مفصلة، وجملتها ثلاث صفات في المحتسب:

العلم بمواقع الحسبة وحدودها ومواقعها، ليقتصر على حد الشرع.

والثاني: الورع، فإنه قد يعلم شيئاً ولا يعمل به لغرض من الأغراض.

والثالث: حسن الخلق، وهو أصل ليتمكن من الكف، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع خلق حسن.

قال بعض السلف: لا يأمر بالمعروف إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهى عنه، حليم فيما يأمر به، حليم فيما ينهى عنه، فقيه فيما يأمر به، فقيه فيما ينهى عنه.

ومن الآداب: تقليل العلائق، وقطع الطمع عن الخلق لتزول المداهنة، فقد حكي عن بعض السلف أنه كان له سنور، وكان يأخذ لسنوره في كل يوم من قصاب في جواره شيئاً من الغدد، فرأى على القصاب منكراً، فدخل الدار فأخرج السنور، ثم جاءه فأنكر على القصاب، فقال: لا أعطيك بعد هذا شيئاً لسنورك، فقال: ما أنكرت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك، وهذا صحيح، فإن لم يقطع الطمع من الناس من شيئين لم يقدر على الإنكار عليهم.

أحدهما: من لطف ينالونه به.

والثاني: من رضاهم عنه وثنائهم عليه.

وأما الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمتعين، قال الله تعالى: ﴿ **فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً** ﴾ [طه: ٤٤].

وروي أن أبا الدرداء رضي الله عنه مر على رجل قد أصاب ذنباً والناس يسبونه، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم. فقالوا: أفلا تبغضه؟ فقال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه، فهو أخي.

ومر فتى يجر ثوبه، فهمَّ أصحاب صلة بن أشيم أن يأخذوه بألسنتهم أخذاً شديداً، فقال صلة: دعوني أكفكم أمره، ثم قال: يا ابن أخي، إن لي إليك حاجة. قال: ما هي؟ قال: أحب أن ترفع إزارك، قال: نعم ونعمى عين، فرفع إزاره، فقال صلة لأصحابه: هذا كان أمثل مما أردتم، فإنكم لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم.

ودعي الحسن إلى عرس، فجيء بجام من فضة فيه خبيص، فتناوله وقلبه على رغيف، فأصاب منه، فقال رجل: هذا نهي في سكون.

* * *

باب في المنكرات المألوفة في العادات وفي الإنكار على الأمراء والسلاطين، وأمرهم بالمعروف

ولنذكر في ذلك فصلين:

الفصل الأول

اعلم: أن المنكرات المألوفة في العادات لا يمكن حصرها، لكنا نشير إلى جمل يستدل بها على أمثالها، فمن ذلك:

منكرات المساجد:

مما يشاهد كثيراً في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وكذلك كل ما يقدح في صحة الصلاة، من نجاسة على ثوب المصلي لا يراها، أو انحراف عن القبلة بسبب عمى أو ظلام.

ومن ذلك اللحن في القراءة.

واشتغال المعتكف بإنكار هذه الأشياء وتعريفها أفضل له من نافلة يقتصر عليها.

ومن ذلك: تراسيل المؤذنين وتطويلهم مد كلماته.

ومن ذلك: أن يكون على الخطيب ثوب حرير، أو بيده سيف مذهب.

ومن ذلك: ما يجري من القصاص في المساجد من الكذب، والأشياء

المنهي عنها، كالخوض في الكلام الموجب للفتن، ونحو ذلك

ومن ذلك: أن يكون الرجال مختلطين بالنساء، فينبغي إنكار ذلك عليهم.

ومنها: الحلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة، والتعويدات، وقيام السؤال، وإنشادهم الأشعار، ونحو هذا. فهذه منها ما هو حرام، ومنها ما هو مكروه.

منكرات الأسواق:

ومن ذلك: الكذب في المرابحة، وإخفاء العيب، فمن قال: اشتريت هذه السِّلعة بعشرة، ورابح فيها درهماً، وكان كاذباً، فهو فاسق.

ويجب على من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه، فإن سكت مراعاة للبائع، كان شريكاً له في الخيانة. وكذلك إذا علم العيب، لزمه أن يبينه للمشتري، وكذلك التفاوت في الميزان والذِّراع، يجب على كل من عرفه تغييره، إما بنفسه، أو برفعه إلى الوالي حتى يغيره.

ومنها: الشروط الفاسدة، واستعمال الربا، وبيع الملاهي، والصور المجسمة، ونحو ذلك.

منكرات الشوارع:

ومن ذلك بناء دكان متصلة بالأبنية المملوكة، وإخراج الأجنحة، وغرس الأشجار إذا كان ذلك يؤدي إلى تضييق الطريق والإضرار بالمارّة. فأما وضع الحطب والطعام في الطريق بمقدار ما ينقل إلى البيوت فجائز، فإن ذلك يشترك الكافة في الحاجة إليه.

ومن المنكرات: ربط الدواب على الطريق بحيث تضيق وتؤذي الناس، فيجب المنع من ذلك، إلا إذا كان بمقدار الحاجة للنزول والركوب.

ومن ذلك: تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيق، وكذلك طرح الكناسة على جوادِّ الطريق، وتبديد قشور البطيخ، أو رش الماء بحيث يخشى منه الزلق، والماء الذي يجتمع من ميزاب معين. فأما إن كان من المطر، فذلك على الولاة، وليس للآحاد في ذلك إلا الوعظ.

منكرات الحمامات:

من ذلك: صور الحيوانات على باب الحمَّام أو داخله، ويكفي في زوال

ذلك أن تشوه وجوه الصور، بحيث يبطل به تصويرها. ومن لم يقدر على الإنكار، لم يجز له الدخول إلا للضرورة، وليعدل إلى حمام آخر.

ومن ذلك: كشف العورات، والنظر إليها، وكشف المدلِّك عن الفخذ، وما تحت السرة، لتنحية الوسخ أو مس العورة.

ومنها: غمس اليد والأواني النجسة في المياه القليلة، فإن فعل ذلك مالكي، لم ينكر عليه، بل يتلطف به، ويقول له يمكنك أن لا تؤذيني بتفويت الطهارة عليَّ.

منكرات الضيافة:

من ذلك: فرش الحرير للرجال، والبخور في مجمرة فضة أو ذهب، والشرب فيهما، واستعمال ماء الورد منهما، وكذلك تعليق الستور وفيها الصور، وسماع القينات والأوتار، واطلاع النساء على الشباب الذين تخاف فتنتهم، فكل ذلك منكر يجب تغييره، ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج.

وأما الصُور على النمارق والبسط، فليس بمنكر، وكذلك الفرش الحرير، والذهب للنساء، فإنه جائز، ولا رخصة في تثقيب آذان الصبية لأجل تعليق حلق الذهب، فإن ذلك جرح مؤلم لا يجوز، وفي المخانق والأسورة كفاية عن ذلك، والاستئجار على ذلك غير صحيح، والأجرة المأخوذة عليه حرام.

ومن ذلك أن يكون في الضيافة مبتدع يتكلم في بدعته، فلا يجوز الحضور معه إلا لمن يقدر على الرد عليه، وإن لم يتكلم المبتدع جاز الحضور مع إظهار الكراهة له والإعراض عنه، وإن كان هناك مضحك بالفحش والكذب، لم يجز الحضور، ويجب الإنكار، فإن كان مزحاً لا كذب فيه ولا فحش، أبيح ما لم يقل من ذلك، فأما اتخاذه صناعة وعادة فيمنع منه.

المنكرات العامة:

من تيقن أن في السوق منكراً يجري على الدوام، أو في وقت معين وهو قادر على تغييره، لم يجز له أن يسقط ذلك عنه بالقعود في بيته، بل يلزمه الخروج، فإن قدر على تغيير البعض لزمه.

وحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه، فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلم ذلك أهله وأقاربه، ثم يتعدى إلى جيرانه وأهل محلته، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى السواد كذلك إلى أقصى العالم، فإن قام بذلك الأقرب، سقط عن الأبعد، وإلا خرج به كل قادر عليه.

الفصل الثاني: [في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر]

وقد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف، والجائز من ذلك مع السلاطين القسمان الأولان وهما: التعريف والوعظ، فأما تخشين القول، نحو: يا ظالم، يا من لا يخاف الله، فإن كان ذلك يحرك فتنة يتعدى شرها إلى الغير، لم يجز، وإن لم يخف إلا على نفسه، فهو جائز عند جمهور العلماء، والذي أراه المنع من ذلك، لأن المقصود إزالة المنكر، وحمل السلطان بالانبساط عليه على فعل المنكر أكبر من المنكر الذي قصد إزالته، وذلك أن قرب السلاطين التعظيم، فإن سمعوا من آحاد الرعية: يا ظالم، يا فاسق، رأوا غاية الذل، لم يصبروا على ذلك.

قال الإمام أحمد رحمه الله: لا تتعرضن بالسلطان، فإن سيفه مسلول، فأما ما جرى من السلف من التعرض لأمرائهم، فإنهم كانوا يهابون العلماء، فإذا انبسطوا عليهم احتملوهم في الأغلب.

وقد جمعت مواعظ السلف للخلفاء والأمراء في كتاب «المصباح المضيء» وأنا أنتخب منه ها هنا حكايات.

قال سعيد بن عامر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني موصيك بكلمات من جوامع الإسلام ومعالمه: اخش الله في الناس، ولا تخش الناس في الله، ولا يخالف قولك فعلك، فإن خير القول ما صدَّقه الفعل، وأحب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحب لنفسك وأهل بيتك، وخض الغمرات إلى الحق حيث علمته، ولا تخف في الله لومة لائم. قال: ومن يستطيع ذلك يا أبا سعيد؟ قال: من ركب في عنقه مثل الذي ركب في عنقك.

* * *

وقال قتادة: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المسجد ومعه الجارود، فإذا امرأة برزة على الطريق، فسلم عليها، فردت عليه، أو سلمت عليه، فرد عليها، فقالت: هيه يا عمر، عهدتك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خشي الفوت، فبكى عمر رضي الله عنه، فقال الجارود: هيه، لقد تجرأت على أمير المؤمنين وأبكيته.

فقال عمر: دعها، أما تعرف هذه؟ هي خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها

من فوق سماواته، فعمر والله أحرى أن يسمع كلامها.

* * *

ودخل شيخ من الأزد على معاوية، فقال: اتق الله يا معاوية، واعلم أنك كل يوم يخرج عنك، وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا إلا بعداً، ومن الآخرة إلا قرباً، وعلى إثرك طالب لا تفوته، وقد نصب لك علم لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم، وما أوشك أن يلحقك الطالب، وإنا وما نحن فيه وأنت زائل، والذي نحن صائرون إليه باقٍ، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

* * *

ودخل سليمان بن عبد الملك المدينة، فأقام بها ثلاثاً، فقال: ما ها هنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحدثنا؟

فقيل له: ها هنا رجل يقال له: أبو حازم، فبعث إليه، فجاء.

فقال سليمان: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟ فقال له أبو حازم: وأي جفاء رأيت مني؟ فقال له: أتاني وجوه المدينة كلهم ولم تأتني؟! فقال: ما جرى بيني وبينك معرفة آتيك عليها. قال: صدق الشيخ، يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب. قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الله تعالى؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله فرحاً مسروراً، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه خائفاً محزوناً. فبكى سليمان وقال: ليت شعري، ما لنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال أبو حازم: اعرض نفسك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله. قال: يا أبا حازم، وأني أصيب تلك المعرفة من كتاب الله؟ قال: عند قوله: ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ** ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤]. قال: يا أبا حازم، فأين رحمة الله؟ قال: ﴿ **قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٦]. قال: يا أبا حازم، من أعقل الناس؟ قال: من تعلم الحكمة وعلمها الناس. قال: فمن أحمق الناس؟ قال: من حط نفسه في هوى رجل وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره. قال: يا أبا حازم، فما أسمعُ الدعاء؟ قال: دعاء المخبتين. قال: فما أزكى الصدقة؟ قال: جهد المقل.

قال: يا أبا حازم، ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: اعفني من هذا. قال سليمان: نصيحة تلقيها. قال أبو حازم: إن ناساً أخذوا هذا الأمر عنوة من غير

مشاورة المسلمين، ولا إجماع من رأيهم، فسفكوا فيه الدماء على طلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنها، فليت شعري، ما قالوا؟ وما قيل لهم؟ فقال بعض جلسائهم: بئس ما قلت يا شيخ، فقال أبو حازم: كذبت، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه. قال سليمان: يا أبا حازم، أصبحنا تصيب منا ونصيب منك. قال: أعوذ بالله من ذلك. قال: ولم؟ قال: أخاف أن أركن إليكم شيئاً قليلاً، فيذيقني ضعف الحياة، وضعف الممات. قال: فأشر عليّ. قال: اتق الله أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

قال: يا أبا حازم، ادع لنا بخير. فقال: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره للخير، وإن كان غير ذلك، فخذ إلى الخير بناصيته. فقال: يا غلام، هات مائة دينار، ثم قال: خذ هذا يا أبا حازم. قال: لا حاجة لي به، لي ولغيري في هذا المال أسوة، فإن واسيت بيننا وإلا فلا حاجة لي فيها، إني أخاف أن يكون لما سمعت من كلامي. فكأن سليمان أعجب بأبي حازم، فقال الزهري: إنه لجاري منذ ثلاثين سنة، ما كلمته قط، فقال أبو حازم: إنك نسيت الله فنسيتني. قال الزهري: أتشتمني؟ قال سليمان: بل أنت شتمت نفسك، أما علمت أن للجار على الجار حقاً؟ قال أبو حازم: إن بني إسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء، وكانت العلماء تفر بدينها منهم، فلما رأى ذلك قوم من أذلة الناس تعلموا ذلك العلم، وأتوا به الأمراء، واجتمع القوم على المعصية، فسقطوا وانتكسوا، ولو كان العلماء يصونون دينهم وعلمهم، لم تزل الأمراء تهابهم. قال الزهري: كأنك إياي تريد وبي تعرض؟ قال: هو ما تسمع.

* * *

وحكي أن أعرابياً دخل على سليمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إني مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته، فإن وراءه ما تحب إن قبلته. قال: قل، قال: يا أمير المؤمنين، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوه فيك، خربوا الآخرة وعمروا الدنيا، فهم حرب للآخرة، سلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً والأمة خسفاً، وأنت مسؤول عما اجترحوا، وليسوا بمسؤولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غبناً بائع آخرته بدنيا غيره. فقال سليمان: أما أنت فقد سللت لسانك، وهو أقطع من سيفك. فقال: أجل يا أمير المؤمنين، لك لا عليك. قال: فهل من حاجة في ذات نفسك؟ قال: أما خاصة دون عامة فلا، ثم قام فخرج. فقال سليمان: لله دره ما أشرف

أصله، وأجمع قلبه، وأذرب لسانه، وأصدق نيته، وأورع نفسه، هكذا فليكن الشرف والعقل.

* * *

وقيل: وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لأبي حازم: عظني. فقال: اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن.

* * *

وقال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق، منها خرج الناس بما يضرهم وما ينفعهم، وكم من قوم غرهم مثلها مثل الذي أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عُدَّة، ولا لما كرهوا منها جُنة، واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم فنحن محقوقون يا أمير المؤمنين أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نغبطهم بها فنخلفهم فيها، وإلى الأعمال التي نتخوف عليهم فيها فنكف عنها، فاتق الله، وافتح الأبواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم. ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله عزّ وجلّ: إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

* * *

ودخل عطاء بن أبي رباح على هشام، فرحب به وقال: ما حاجتك يا أبا محمد؟ وكان عنده أشراف الناس يتحدثون، فسكتوا، فذكره عطاء بأرزاق أهل الحرمين وعطياتهم. فقال: نعم، يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاء أرزاقهم، ثم قال: يا أبا محمد هل من حاجة غيرها؟ فقال: نعم.. فذكره بأهل الحجاز، وأهل نجد، وأهل الثغور، ففعل مثل ذلك، حتى ذكره بأهل الذمة أن لا يكلفوا ما لا يطيقون، فأجابه إلى ذلك، ثم قال له في آخر ذلك: هل من حاجة غيرها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، اتق الله في نفسك، فإنك خلقت وحدك، وتموت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك، لا والله ما معك ممن ترى أحد.

قال: فأكب هشام يبكي، وقام عطاء. فلما كان عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس ما ندري ما فيه، أدراهم أم دنانير؟ وقال: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بهذا، فقال: ﴿ ما أَسْأَلُكُمْ عَليهِ مِنْ أَجْرٍ إن أَجْرِيَ إلا عَلَى رَبِّ العالَمِين ﴾ ثم خرج ولا والله ما شرب عندهم حسوة ماء فما فوقها.

* * *

وعن محمد بن علي قال: إني لحاضر مجلس المنصور، وفيه ابن أبي ذئب، وكان والي المدينة الحسن بن زيد، فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر المنصور شيئاً من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين، سل عنهم ابن أبي ذئب. قال: فسأله عنهم، فقال: أشهد أنهم أهل الحطم في أعراض الناس. فقال أبو جعفر: قد سمعتم؟ فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين، فسله عن الحسن بن زيد. فسأله، فقال: أشهد أنه يحكم بغير الحق. فقال: قد سمعت يا حسن. قال: يا أمير المؤمنين، سله عن نفسك. فقال: ما تقول فيَّ؟ قال: أوَ يعفيني أمير المؤمنين؟ فقال: والله لتخبرني. فقال: أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه، وجعلته في غير أهله. فوضع يده في قفا ابن أبي ذئب، وجعل يقول له: أما والله لولا أنا لأخذت أبناء فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك. فقال ابن أبي ذئب: قد ولي أبو بكر وعمر فأخذا بالحق وقسما بالسوية، وأخذا بأقفاء فارس والروم، فخلاه أبو جعفر، وقال: والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك، فقال: والله يا أمير المؤمنين إني أنصح لك من ابنك المهدي.

* * *

وعن الأوزاعي رحمه الله قال: بعث إليَّ المنصور وأنا بالساحل فأتيته، فلما وصلت إليه وسلمت عليه استجلسني، ثم قال: ما الذي أبطأ بك يا أوزاعي؟

قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم.

قلت: فانظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئاً ثم لا تعمل به، فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف، فانتهره المنصور وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة، فطابت نفسي وانبسطت في الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أيما والٍ مات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنة»[1].

يا أمير المؤمنين، كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم، أحمرهم، وأسودهم، ومسلمهم، وكافرهم، وكل له عليك نصيب من العدل، فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراء فئام، ليس منهم أحد إلاَّ وهو يشكو بلية أدخلتها عليه، أو ظلامة سقتها إليه.

يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن زياد بن حارثة، عن حبيب بن سلمة،

---

(١) البخاري (٩/٨٠)، ومسلم (٩/٦) من حديث معقل بن يسار.

ان رسول الله صلى الله عليه واله وسلم دعا إلى القصاص من نفسه - في خدش خدشه - أعرابياً لم يتعمده، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، إن الله تعالى لم يبعثك جباراً ولا متكبراً، فدعا ﷺ الأعرابيّ، فقال: «اقتص مني»، فقال الأعرابي: قد أحللتك، بأبي أنت وأمي، وما كنت لأفعل ذلك أبداً، ولو أتيت على نفسي. فدعا له بخير[1].

يا أمير المؤمنين، رض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك.

يا أمير المؤمنين، إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك، وكذلك لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك.

يا أمير المؤمنين، جاء في تأويل هذه الآية عن جدك: ﴿مَا لِهَٰذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، قال: الصغيرة: التبسم، والكبيرة الضحك، فكيف بما عملته الأيدي، وحصدته الألسن؟

يا أمير المؤمنين، بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لو ماتت سخلة على شاطىء الفرات ضيعة، لخشيت أن أسأل عنها، فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك؟

يا أمير المؤمنين، جاء في تأويل هذه الآية عن جدك: ﴿يَا دَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَىٰ﴾ [صٓ: ٢٦] قال: إذا قعد الخصمان بين يديك، وكان لك في أحدهما هوى، فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له فيفلج على صاحبه، فأمحوك من نبوتي، ثم لا تكون خليفتي، يا داود: إنما جعلت رسلي إلى عبادي رعاء كرعاء الإبل لعلمهم بالرعاية، ورفقهم بالسياسة، ليجبروا الكسر، ويدلوا الهزيل على الكلأ والماء.

يا أمير المؤمنين، إنك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه.

يا أمير المؤمنين: حدثني يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن أبي عميرة الأنصاري: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة، فرآه بعد أيام مقيماً، فقال له: ما منعك من الخروج إلى عملك؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهدين في سبيل الله؟ قال: لا. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما من والٍ يلي شيئاً

(١) رواه ابن أبي الدنيا في مواعظ الخلفاء.

من أمور الناس، إلاّ أتى يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه، يوقف على جسر جهنم، ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضوٍ منه عن موضعه، ثم يعاد فيحاسب، فإن كان محسناً نجا بإحسانه، وإن كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر فهوى به في النار سبعين خريفاً»[1]. فقال له: ممن سمعت هذا؟ فقال: من أبي ذر وسلمان رضي الله عنهما، فأرسل إليهما عمر فسألهما، فقالا: نعم، سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقال عمر: واعمراه من يتولاها بما فيها؟ فقال أبو ذر رضي الله عنه: من سلت الله أنفه، وألصق خده بالأرض، فأخذ المنديل ـ يعني المنصور ـ فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكاني.

ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قد سأل جدك العباس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إمارة على مكة أو الطائف أو اليمن، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عم، نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها»[2] نصيحة منه لعمه وشفقة منه عليه، وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئاً إذ أوحي إليه: ﴿وأَنذرْ عشيرَتَكَ الأقربينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فقال: يا عباس، ويا صفية، ويا فاطمة، إني لست أغني عنكم من الله شيئاً، لي عملي ولكم عملكم[3]، وقد قال عمر بن الخطاب: لا يقيم أمر الناس إلاّ حصيف العقل، لا تأخذه في الله لومة لائم، وذكر تمام كلامه للمنصور، ثم قال: فهي نصيحة، والسلام عليك.

ثم نهض فقال: إلى أين؟ فقال: إلى الوطن بإذن أمير المؤمنين. فقال: أذنت لك، وشكرت لك نصيحتك، وقبلتها بقبولها، والله الموفق للخير، والمعين عليه. وبه أستعين، وعليه أتوكل، وهو حسبي ونعم الوكيل، فلا تخلني من مطالعتك إياي بمثلها، فإنك المقبول القول غير المتهم في النصيحة.

قلت: أفعل إن شاء الله. فأمر له بمال يستعين به على خروجه، فلم يقبله، وقال: أنا في غنىً عنه، وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا كلها، وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في رده.

* * *

ولما حج الرشيد قيل له: يا أمير المؤمنين، قد حج شيبان. قال: اطلبوه لي، فأتوه به، فقال: يا شيبان، عظني، قال: يا أمير المؤمنين، أنا رجل ألكن، لا

(١) رواه ابن أبي الدنيا في مواعظ الخلفاء.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في مواعظ الخلفاء.

(٣) البخاري (٦/١٤٠)، ومسلم (١/١٣٣) دون زيادة لي عملي.

أفصح بالعربية، فجئني بمن يفهم كلامي حتى أكلمه. فأتي برجل يفهم كلامه، فقال له بالنبطية: قل له: يا أمير المؤمنين، إن الذي يخوفك قبل أن تبلغ المأمن، أنصح لك من الذي يؤمنك قبل أن تبلغ الخوف، قال له: أي شيء تفسير هذا؟ قال: قل له: الذي يقول لك: اتق الله فإنك رجل مسؤول عن هذه الأمة، استرعاك الله عليها، وقلدك أمورها، وأنت مسؤول عنها، فاعدل في الرعية، واقسم بالسوية، وانفذ في السرية، واتق الله في نفسك، هذا الذي يخوفك، فإذا بلغت المأمن أمنت، هذا أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم وفي شفاعته، فلا يزال يؤمنك حتى إذا بلغت الخوف عطبت، قال: فبكى هارون حتى رحمه من حوله، ثم قال: زدني، قال: حسبك.

* * *

وعن علقمة بن أبي مرثد، قال: لما قدم عمر بن هبيرة العراق، أرسل إلى الحسن وإلى الشعبي، فأمر لهما ببيت، فكانا فيه نحواً من شهر، ثم دخل عليهما وجلس معظماً لهما، فقال: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إليَّ كتباً، أعرف أن في إنفاذها الهلكة، فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله، فهل تريان في متابعتي إياه فرجاً؟ فقال الحسن: يا أبا عمرو، أجب الأمير. فتكلم الشعبي، فانحط في أمر ابن هبيرة، كأنه عذره، فقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ قال: أيها الأمير فقد قال الشعبي ما قد سمعت. فقال: ما تقول أنت؟ قال: أقول: يا عمر بن هبيرة، ويوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك.

يا عمر بن هبيرة، إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولن يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله تعالى.

يا عمر بن هبيرة، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، فيغلق به باب المغفرة دونك.

يا عمر بن هبيرة، لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة، كانوا عن الدنيا وهي مقبلة عليهم أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة عنكم.

يا عمر بن هبيرة، إني أخوفك مقاماً خوفكه الله تعالى فقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

يا عمر بن هبيرة، إن تك مع الله في طاعته، كفاك يزيد بن عبد الملك، وإن

تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله، وكلك الله إليه.

فبكى عمر بن هبيرة وقام بعبرته.

فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما، وأكثر فيها للحسن، وكان في جائزة الشعبي بعض الإقتار، فخرج الشعبي إلى المسجد، فقال: أيها الناس، من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه، فليفعل، فوالذي نفسي بيده، ما علم الحسن شيئاً منه فجهلته، ولكني أردت وجه ابن هبيرة، فأقصاني الله منه

* * *

ودخل محمد بن واسع رحمه الله على بلال بن أبي بردة في يوم حار وبلال في حبشة، وعنده الثلج، فقال له: يا أبا عبدالله، كيف ترى بيتنا هذا؟ قال: إن بيتك لطيب، والجنة أطيب منه، وذكر النار يلهي عنه. قال: ما تقول في القدر؟ قال: جيرانك أهل القبور، ففكر فيهم، فإن فيهم شغلاً عن القدر. قال: ادع الله لي. قال: وما تصنع بدعائي؟ وعلى بابك كذا وكذا يقولون: إنك ظلمتهم، برفع دعاؤهم قبل دعائي، لا تظلم، ولا تحتاج لدعائي.

* * *

فهذا مختصر من أخبار من وعظ الأمراء، فمن أراد الزيادة، فلينظر في «المصباح المضيء».

وهذه كانت سير العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوات السلاطين إيثاراً لإقامة حق الله تعالى على تقاتهم، إلاَّ أن السلاطين كانوا يعرفون حق العلم وفضله فيصبرون على مضض مواعظ هؤلاء.

والذي أراه الآن، الهرب من السلاطين، فهو الأولى، فإن قدر لقاء، اقتنع بلطف الموعظة حسب.

ولذلك سببان:

أحدهما: يتعلق بالواعظ، وهو سوء قصده وميله إلى الدنيا والرياء، فلا يخلص له وعظه.

والثاني: يتعلق بالموعوظ، فإن حب الدنيا قد شغل الأكثرين عن ذكر الآخرة، وتعظيمهم الدنيا أنساهم تعظيم العلماء، وليس لمؤمن أن يذل نفسه.

* * *

آخر كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكر المصنف قبل ذلك كتاباً في السماع والوجد، فلنذكر شيئاً منه ها هنا مختصراً.

فصل [في حكم السماع]

اعلم: أن السماع الذي نعني به الغناء من أكبر ما تطرق به إبليس إلى فساد القلوب، وغرّ به خلقاً لا يحصون من العلماء والزهاد، فضلاً عن العوام، حتى ادَّعَوْا حضور القلب مع الله عند سماع الأغاني المطربة، وظنوا أن ما أوجبه السماع من طرب القلوب وانزعاجها، وجد يتعلق بالآخرة.

وإذا أردت أن تعرف الحق، فانظر في القرن الأول، هل فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً من ذلك أو أصحابه، ثم انظر إلى أقوال التابعين وتابعيهم، وفقهاء الأمة، كمالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد رحمهم الله، فكل القوم ذموا الغناء، حتى قال مالك: إذا اشترى جارية، فوجدها مغنية، كان له ردها، وسئل عن الغناء، قال: إنما يفعله الفساق.

وسئل الإمام أحمد عن رجل مات وخلف ولداً وجارية مغنية، فاحتاج الصبي إلى بيعها، فقال: تباع على أنها ساذجة لا مغنية، فقيل له: إنها تساوي ثلاثين ألفاً إذا كانت مغنية، وإذا بيعت ساذجة ربما ساوت عشرين ديناراً، فقال: لا تباع إلاَّ على أنها ساذجة، وقد أطبق الفقهاء على الزجر عن الغناء.

ومن المتأخرين أبو الطيب الطبري من كبار أصحاب الشافعي، وصنف كتاباً، وبالغ في النهي عنه، وإنما تعلق بإباحته قوم مفتونون، قالوا: قد أجازه قوم من السلف.

وقد سمع أحمد بن حنبل قول قوّال، فقال: لا بأس بهذا، فينبغي أن يتأمل الذي أفتى بجوازه ما هو، وليس إلاَّ الأشعار الزهدية وما يشبهها، من غير ضرب بقضيب، أو آلة تطرب، ولا ضم إلى ذلك تصفيق ولا رقص.

وعلى هذا يحمل حديث عائشة في الجاريتين المغنيتين لما غنتا بما تقاولته الأنصار يوم بعاث فإن ذلك لا يطرب.

ومعلوم أنه لم يكن للأوائل ما أحدثه الأواخر من الدف والصنج والشبابة والشمر الرقيق، فإن هذه الأشياء تثير دفائن الهوى الكامنة في النفوس وتزعج، فيحسب الجاهل هذا الانزعاج معلقاً بالآخرة، وهيهات.

وليتهم قالوا: إن هذا مباح من اللهو فنستريح إليه، وإنما يظنونه قربة، ويسمون الطرب المخرج عن حد العقل وجداً، وربما أوجد الطرب ما لا يحل، من تمزيق الثياب، والتخبط، وكل هذا بمعزل عن طريق السلف، وغير خاف أنه ضلال عن الجادة، فلا ينبغي للإنسان أن يغالط نفسه، وإنما الوجد الصحيح وجد القلب عند سماع القرآن والوعظ، فحينئذ يثور من الباطن خوف من الوعيد، وشوق من الوعد، وندم على التفريط، وجميع هذه الحركات الباطنة توجب سكون الظاهر، لا الجمز والتصفيق، ولم يضق علينا القرآن والوعظ وأشعار الزهد، حتى نحتاج في إحضار القلوب إلى باب الله تعالى أن نذكر سلمى وسعدى، ولا ننكر أنه قد يتفق في بعض تلك الأشعار ما يصح أن يوجد إشارة، إلاَّ أن الأغلب منها إمالة القلوب إلى الهوى الدنيوي.

ومثل من أراد أن يأخذ منها للآخرة، كمثل من قال: أنا أنظر إلى الأمرد المستحسن لأتعجب من صنعة القادر، فإنه قد أخطأ الطريق، لأن ما تستلبه الشهوة والطبع عند النظر يكدر طريق الفكر ويشغل عنه، فلذلك نمنعه ونقول: انظر إلى ما لا مكدر فيه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُروا إلى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ [قٓ: ٦]. ومن قال: إنه لا يؤثر عندي ما يؤثر عند غيري من انجذاب الطبع إلى الهوى، كان مدعياً ما يخالف الجبلة، فلا يلتفت إلى دعواه، وقد بالغت في الكشف عن هذا كله في كتابي المسمى بـ «تلبيس إبليس» فلم أر التطويل ها هنا، والله أعلم.

* * *

باب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

اعلم: أن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتائج الأخلاق، والآداب رشح المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتحليها.

ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه، ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلّهية، لم يفض على ظاهره جمال الآداب النبوية.

وقد أسلفنا جملة من الآداب بما يغني عن إعادتها ها هنا، لكن نقتصر في هذا الباب على شيء من آداب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخلاقه لنجمع

مع جمع الآداب تأكيد الإيمان بمشاهدة أخلاقه الكريمة التي يشهد آحادها بأنه أكرم الخلق وأعلاهم مرتبة وأجلهم قدراً، فكيف بمجموعها؟

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: كان خُلُقُه القرآن، يغضبُ لغضبه ويرضَى لرضاه[1]، ولما كمل الله تعالى خُلُقَه أثنى عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فسبحان من أعطى ثم أثنى.

وهذه جملة من محاسن أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم، وصفته:

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحلم الناس، وأسخى الناس، وأعطف الناس.

وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله.

وكان أشد حياء من العذراء في خدرها.

وكان يجيب دعوة المملوك، ويعود المرضى، ويمشي وحده، ويردف خلفه، ويقبل الهدية، ويأكلها، ويكافىء عليها، ولا يأكل الصدقة، ولا يجد من الدَّقل ما يملأ بطنه ولم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام تباعاً.

وكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع.

وكان يأكل ما حضر، وما عاب طعاماً قط.

وكان لا يأكل متكئاً، ويأكل مما يليه.

وكان أحب الطعام إليه اللحم، ومن الشاة الكتف، ومن البقول الدُّباء، ومن الصبغ الخل، ومن التمر العجوة.

وكان يلبس ما وجد، مرة برد حبرة، ومرة جبة صوف.

ويركب تارة بعيراً، وتارة بغلة، وتارة حماراً، ويمشي مرة راجلاً حافياً.

وكان يحب الطيب، ويكره الريح الخبيثة.

ويكرم أهل الفضل، ويتألف أهل الشرف.

ولا يجفو على أحد، ويقبل معذرة المعتذر إليه.

---

(١) مسلم (٢/١٦٩)، وأبو داود (١٣٤٢)، والنسائي (٣/١٩٩)، وأحمد (٦/٥٤، ٩١، ١١١، ١٦٣)، وابن ماجه (٢٣٣٣)، والدارمي (١/٣٤٥).

يمزح ولا يقول إلّا حقاً، يضحك في غير قهقهة، لا يمضي عليه وقت في غير عمل لله تعالى، أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه.

وما لعن امرأة ولا خادماً قط.

وما ضرب أحداً بيده قط، إلّا أن يجاهد في سبيل الله.

وما انتقم لنفسه إلّا أن تنتهك حرمات الله.

وما خيِّـرَ بين شيئين إلّا اختار أيسرهما، إلّا أن يكون مأثماً أو قطيعة رحم، فيكون أبعد الناس منه.

وقال أنس رضي الله عنه: خدمته عشر سنين، فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله: لِمَ لا فعلت كذا؟

ومن صفته في التوراة: محمد رسول الله، عبدي المختار، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

وكان من خلقه أن يبدأ بالسلام من لقيه، ومن فارقه بحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف. وما أخذ أحد يده فأرسل يده حتى يرسلها الآخذ.

وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس مختلطاً بأصحابه كأنه أحدهم، فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل عنه.

وكان طويل السكوت، فإذا تكلم لم يسرد كلامه، بل يتثبت فيه ويكرره ليفهم.

وكان يعفو مع القدرة، ولا يواجه أحداً بما يكره.

وكان أصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، ومن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، وكان أصحابه إذا تكلموا في أمر الدنيا تحدث معهم، وكانوا يتذاكرون أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم.

وكان أشجع الناس. قال بعض أصحابه: كنا إذا احمر [ت الحدق، واشتد] البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير، كان ربعة من القوم.

وكان أزهر اللون ولم يكن بالآدم.

وكان رجل الشعر، ليس بالسبط ولا الجعد القطط، وكان شعره إلى شحمة أذنه.

وكان واسع الجبهة، أزج الحواجب، أدعج العينين، أهدب الأشفار، أقنى العرنين، سهل الخدين، كث اللحية، كأن عنقه جيد دمية، عريض الصدر، سواء البطن والصدر، رحب الراحة، طويل الزندين، كفه ألين من الحرير صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم:

فإن من شاهد أحواله وسمع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وآدابه وبدائع تدبيره لمصالح الخلق ومحاسن إشارته في تفصيل ظاهر الشرع الذي تعجز العقلاء والفصحاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم، لم يبق عنده ريب في أن ذلك لم يكن محتسباً بحيلة، وأنه لا يتصور ذلك إلاّ بالاستمداد من تأييد سماوي وقوة إلٓهية، وإن ذلك لا يصح لملبِّس ولا كذاب، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه.

ومن أعظم معجزاته، وأوضح دلالته القرآن العزيز الذي عجز الخلائق عن الإتيان بمثله، ومعجز كل نبي انقضى بذهابه، وهذا المعجز باق أبداً.

ومن معجزاته انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وإطعامه الخلق الكثير من الطعام اليسير، ورميه بحصيات يسيرة فوصلت إلى أعين الخلق الكثير، وحنين الجذع إليه كما يحن العشار، وإخباره بالغائبات فكانت كما قال، وَرَدُّ عين قتادة بيده فكانت أحسن عينيه، وتفل في عين عليّ رضي الله عنه وهو أرمد فصح من وقته، إلى غير ذلك من المعجزات التي شاعت ولم يوجد سبيل إلى كتمانها، نسأل الله أن يوفقنا للاقتداء بأخلاقه وصفاته، إنه كريم مجيب، والحمد لله رب العالمين.

* * *

كتاب شرح عجائب القلوب

اعلم: أنَّ أشْرَفَ ما في الإنسانِ قَلبهُ؛ فإنه العالم بالله، العامل له، الساعي إليه، المقرب المكاشف بما عنده، وإنما الجوارح أتباع وخدام له يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد.

ومن عرف قلبه عرف ربه، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم ونفوسهم، والله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته أن يمنعه من معرفته ومراقبته، فمعرفة القلب وصفاته أصل الدين، وأساس طريق السالكين.

فصل [في مداخل إبليس في قلب الإنسان]

اعلم: أن القلب بأصل فطرته قابل للهدى، وبما وضع فيه من الشهوة والهوى، مائل عن ذلك، والتطارد فيه بين جندي الملائكة والشياطين دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما، فيتمكن، ويستوطن، ويكون اجتياز الثاني اختلاساً، كما قال تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، وهو الذي إذا ذكر الله خنس، وإذا وقعت الغفلة انبسط، ولا يُطردُ جند الشياطين من القلب إلَّا ذكر الله تعالى، فإنه لا قرار له مع الذكر.

واعلم: أن مِثل القلب كَمِثل حِصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن، وَيَملكهُ ويستولي عليه، ولا يَمكنُ حِفظُ الحصن إلَّا بحراسة أبوابه، ولا يَقدِرُ على حراسة أبوابه من لا يَعرفها، ولا يُتَوَصل إلى دفع الشيطان إلَّا بمعرفة مداخله، ومداخل الشيطان وأبوابهُ صفات العَبد، وهي كثيرةٌ، إلَّا أنا نُشيرُ إلى الأبوابَ العَظيمة الجارية مَجرَى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان.

فمن أبوابه العظيمة: الحَسد، والحِرص، فمتى كان العبد حريصاً على شيء، أعماه حرصه وأصمه، وغطى نور بصيرته التي يعرف بها مداخل الشيطان.

وكذلك إذا كان حسوداً، فيجد الشيطان حينئذ الفرصة، فيحسن عند

الحريص كل ما يوصله إلى شهوته، وإن كان منكراً أو فاحشاً.

ومن أبوابه العظيمة: الغضب، والشهوة، والحِدَّة، فإن الغَضَبَ غول العَقل، وإذا ضَعُفَ جند العقل هجم حينئذ الشيطان فلعب بالإنسان. وقد روي أن إبليس يقول: إذا كان العبد حديداً، قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة.

ومن أبوابه: حب التزيين في المَنزل والثياب والأثاث، فلا يزال يدعو إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها، والتزين بالثياب، والأثاث، فيخسر الإنسان طول عمره في ذلك.

ومن أبوابه: الشبع، فإنه يقوي الشهوة، ويشغل الطاعة.

ومنها: الطمع في الناس، فإن من طمع في شخص، بالغ بالثناء عليه بما ليس فيه، وداهنه، ولم يأمره بالمعروف، ولم ينهه عن المنكر.

ومن أبوابه: العجلة، وترك التثبت، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «العَجَلَةُ من الشيطان، والتأني من الله تعالى»[1].

ومن أبوابه: حب المال، ومتى تمكن من القلب أفسده، وحمله على طلب المال من غير وجهه، وأخرجَهُ إلى البخل، وخوفَهُ الفقر، فَمَنَعَ الحقوق اللازمة.

ومن أبوابه: حمل العوام على التعصب في المذاهب، دون العمل بمقتضاها.

ومن أبوابه أيضاً: حمل العوام على التفكير في ذات الله تعالى، وصفاته، وفي أمور لا تبلغها عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين.

ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين، فإن من حكم على مسلم بسوء ظنه، احتقره وأطلق فيه لسانه، ورأى نفسه خيراً منه، وإنما يترشح سوء الظن بخبث الظان، لأن المؤمن يطلب المعاذير للمؤمن، والمنافق يبحث عن عيوبه.

وينبغي للإنسان أن يحترز عن مواقف التهم، لئلا يساء به الظن، فهذا طرف من ذكر مداخل الشيطان، وعلاج هذه الآفات سد المداخل بتطهير القلب من الصفات المَذمومة، وسيأتي الكلام على هذه الصفات إن شاء الله تعالى مفصلاً.

إذا قُلعت من القلب أصول هذه الصفات، بقي للشيطان بالقلب خطرات

---

(١) الترمذي (٢٠١٢)، البغوي (٣٥٩٨) وإسناده ضعيف لضعف عبد المهيمن بن عباس.

واجتيازات من غير استقرار، فيمنعه من ذلك ذكر الله تعالى، وعمارة القلب بالتقوى.

ومثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك، فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز، فإنه ينزجر بأن تقول له: اخسأ، وإن كان بين يديك شيء من ذلك وهو جائع، لم يندفع عنك بمجرد الكلام، فكذاك القلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر.

فأما القلب الذي غلب عليه الهوى، فإنه يرفع الذكر إلى حواشيه، فلا يتمكن الذكر من سويدائه، فيستقر الشيطان في السويداء.

وإذا أردتَ مصداق ذلك، فتأمل هذا في صلاتكَ، وانظر إلى الشيطان كيف يحدِّث قلبك في مثل ذلك الموطن، بذكر السوق، وحساب المعاملين، وتدبيرُ أمرُ الدنيا.

واعلم: أنَّه قد عفي عن حديث النفس، ويدخل في ذلك ما هممت به، ومن ترك ذلك خوفاً من الله تعالى كُتبتْ له حسنة، وإن تركه لعائق، رجونا له المسامحة، إلا أن يكون عزماً، فإن العزم على الخطيئة خطيئة، بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا التقي المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل: ما بال المقتولِ؟ قال: إنه كان حَرِيصاً على قتلِ صاحبه»[1].

وكيف لا تقع المؤاخذة بالعَزم، والأعمال بالنية، وهل الكبر والرياء والعجب إلا أمور باطنة؟ ولو أن إنساناً رأى على فراشه أجنبية ظنها زوجته لم يأثم بوطئها، ولو رأى زوجته وظنها أجنبية أثم بوطئها، وكل هذا متعلق بعقد القلب.

فصل [في ثبات القلوب على الخير]

وقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلوبَنا على دينك، يا مُصرف القلوب إصرف قلبنا إلى طاعتك»[2].

وفي حديث آخر: «مَثَلُ القَلبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ بأرض فلاةٍ تُقَلِّبُها الرياحُ»[3].

---

(١) البخاري (١/١٥، ٩/٦٤)، مسلم (٨/١٧٠).

(٢) الترمذي (٢١٤٠)، البغوي (٨٨)، والحاكم (٢/٢٨٨) وابن أبي عاصم في السنة (٢٢٥).

(٣) أحمد (٤/٤١٩)، البغوي (٨٧)، ابن أبي عاصم (٢٢٧).

واعلم: أن القلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة:

القلب الأول: قلب عمر بالتقوى، وزكي بالرياضة، وطهر عن خبائث الأخلاق، فتتفرج فيه خواطر الخير من خزائن الغيب، فيمده الملك بالهدى.

القلب الثاني: قلب مخذول، مشحون بالهوى، مُندس بالخبائث، ملوث بالأخلاق الذميمة، فيقوى فيه سلطان الشيطان لاتساع مكانه، ويضعف سلطان الإيمان، ويمتلىء القلب بدخان الهوى، فيعدم النور، ويصير كالعين الممتلئة بالدخان، لا يمكنها النظر، ولا يؤثر عنده زجر ولا وعظ.

والقلب الثالث: قلب يبتدىء فيه خاطر الهوى، فيدعوه إلى الشر، فيلحقه خاطر الإيمان، فيدعوه إلى الخير.

مثاله: أن يحمل الشيطان حملة على العقل، ويقوي داعي الهوى ويقول: أما ترى فلاناً وفلاناً كيف يطلقون أنفسهم في هواها، حتى يعد جماعة من العلماء، فتميل النفس إلى الشيطان، فيحمل الملك حملة على الشيطان، ويقول: هل هلك إلا من نسي العاقبة، فلا تغتر بغفلة الناس عن أنفسهم، أرأيت لو وقفوا في الصيف في الشمس ولك بيت بارد، أكنت توافقهم أم تطلب المصلحة؟ أفتخالفهم في حر الشمس، ولا تخالفهم فيما يؤول إلى النار؟ فتميل النفس إلى قول الملك، ويقع التردد بين الجندين، إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به، فمن خلق للخير يسر له، ومن خلق للشر يسر له: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللهُ أن يهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ في السَّمَاء** ﴾ [الأنعام: ١٢٥].
اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه.

* * *

كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

وذلك في فصول:

اعلم: أن الخلق الحسن صفة الأنبياء والصديقين، وأن الأخلاق السيئة سموم قاتلة، تنخرط بصاحبها في سلك الشيطان، وأمراض تفوت جاه الأبد، فينبغي أن تعرف العلل ثم التشمير في معالجتها، ونحن نشير إلى جمل من الأمراض، وكيفية معالجتها في الجملة من غير تفصيل، فإن ذلك يأتي مبيناً إن شاء الله تعالى.

الفصل الأول
في فضيلة حسن الخلق وذم سوء الخلق

وقد ذكر شيء من ذلك في آداب الصحبة.

واعلم: أن الناس قد تكلموا في حسن الخلق متعرضين لثمرته لا لحقيقته، ولم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل منهم ما حضر في ذهنه، وكشف الحقيقة في ذلك أن يقال: كثيراً ما يستعمل حسن الخلق مع الخلق، فيقال: فلان حسن بالخَلق والخُلق. أي حسن الظاهر والباطن، فالمراد بالخَلق: الصورة الظاهرة، والمراد بالخُلق: الصورة الباطنة، وذلك أن الإنسان مركب من جسد ونفس.

فالجسد مدرك بالبصر، والنفس مدركة بالبصيرة، ولكل واحدة منها هيئة وصورة إما جميلة أو قبيحة، والنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله سبحانه وتعالى أمره فقال: ﴿ إني خَالِقٌ بَشَراً من طين * فَإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ من رُوحي ﴾ [صٓ: ٧١ - ٧٢]، فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح منسوب إليه سبحانه وتعالى، فالخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الأفعال جميلة سميت خلقاً حسناً، وإن كانت قبيحة سميت خلقاً سيئاً.

وقد زعم بعض من غلبت عليه البُطالة فاستثقل الرياضة، أن الأخلاق لا يتصور

تغييرها، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهر.

والجواب: أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواعظ والوصايا معنى، وكيف تنكر تغيير الأخلاق ونحن نرى الصيد الوحشي يستأنس، والكلب يعلم ترك الأكل، والفرس تعلم حسن المشي وجودة الانقياد، إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للصلاح، وبعضها مستصعبة.

وأما خيال من اعتقد أن ما في الجبلة لا يتغير، فاعلم أنه ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية، وإنما المطلوب من الرياضة رد الشهوة إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط، وأما قمعها بالكلية فلا، كيف والشهوة إنما خلقت لفائدة ضرورية في الجبلة، ولو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان. أو شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه. وقد قال الله تعالى: ﴿ أشدَّاء على الكُفَّار ﴾ [الفتح: ٢٩] ولا تصدر الشدة إلا عن الغضب، ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفار، وقال تعالى: ﴿ والكَاظِمينَ الغَيظَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ولم يقل: الفاقدين الغيظ.

وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والتقلل، قال الله تعالى: ﴿ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف: ٣١] إلا أن الشيخ المرشد للمريد إذا رأى له ميلاً إلى الغضب والشهوة، حسن أن يبالغ في ذمهما على الإطلاق ليرده إلى التوَسُّط، ومما يدل على أن المراد من الرياضة الاعتدال أن السخاء خلق مطلوب شرعاً، وهو وسط بين طرفي التقتير والتبذير وقد أثنى الله عليه بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ إذا أنفقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَم يَقتروا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان: ٦٧].

واعلم: أن هذا الاعتدال، تارة يحصل بكمال الفطرة منحة من الخلق، فكم من صبي يخلق صادقاً سخياً حليماً، وتارة يحصل بالاكتساب، وذلك بالرياضة، وهي حمل النفس على الأعمال الجالبة للخلق المطلوب، فمن أراد تحصيل خلق الجود، فليتكلف فعل الجواد من البذل ليصير ذلك طبعاً له.

وكذلك من أراد التواضع تكلف أفعال المتواضعين، وكذلك جميع الأخلاق المحمودة فإن للعادة أثراً في ذلك، كما أن من أراد أن يكون كاتباً تعاطى فعل الكتابة، أو فقيهاً تعاطى فعل الفقهاء من التكرار، حتى ينعطف على قلبه صفة الفقه، إلا أنه لا ينبغي أن يطلب تأثير ذلك في يومين أو ثلاثة، وإنما يؤثر مع الدوام،

كما لا يطلب في النمو علو القامة في يومين أو ثلاثة. وللدوام تأثير عظيم.

وكما لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعات، فإن دوامها يؤثر، وكذلك لا يستهان بقليل الذنوب.

وكما أن تعاطي أسباب الفضائل يؤثر في النفس ويغير طبعها، فكذلك مساكنة الكسل أيضاً يصير عادة، فيحرم بسببه كل خير.

وقد تكتسب الأخلاق الحسنة بمصاحبة أهل الخير، فإن الطبع لص يسرق الخير والشر.

قلت: ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «المرء عَلَى دِينِ خَلِيلِه فلينظرْ أحدُكم مَنْ يُخَالِل»[1].

الفصل الثاني
في بيان الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت أن الاعتدال في الأخلاق هو الصحة في النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض، فاعلم أن مثال النفس في علاجها كالبدن في علاجه، فكما أن البدن لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل بالتربية بالغذاء، كذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم.

وكما أن البدن إذا كان صحيحاً، فشأن الطبيب العمل على حفظ الصحة، وإن كان مريضاً، فشأنه جلب الصحة إليه، كذلك النفس إذا كانت زكية طاهرة مهذبة الأخلاق، فينبغي أن يسعى بحفظها وجلب مزيد القوة إليها، وإن كانت عديمة الكمال، فينبغي أن يسعى بجلب ذلك إليه.

وكما أن العلة الموجبة لمرض البدن لا تعالج إلا بضدها، إن كانت من حرارة فبالبرودة وإن كانت من البرودة فبالحرارة، فكذلك الأخلاق الرذيلة التي هي من مرض القلب، علاجها بضدها، فيعالج مرض الجهل بالعلم، ومرض البخل بالسخاء، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهى.

وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء، وشدة الصبر عن المشتهيات لصلاح الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال المجاهدة، والصبر على مداواة مرض

(١) تقدم ص ٩١.

القلب، بل أولى، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت، ومرض القلب عذاب يدوم بعد الموت أبداً.

وينبغي للذي يطبُّ نفوس المريدين أن لا يهجم عليهم بالرياضة في فن مخصوص، حتى يعرف أخلاقهم وأمراضهم، إذ ليس علاج كل مريض واحداً، فإذا رأى جاهلاً بالشرع علمه، وإذا رأى متكبراً حمله على ما يوجب التواضع، أو شديد الغضب ألزمه الحلم.

وأشد حاجة الرائض لنفسه، قوة العزم، فمتى كان متردداً بَعُدَ فلاحُه، ومتى أحس من نفسه ضعف العزم تصبَّر، فإن نقصت عزيمتها عاقبها لئلا تعاود، كما قال رجل لنفسه: تتكلمين فيما لا يعنيك؟ لأعاقبنك بصوم سنة.

الفصل الثالث

في علامات مرض القلب وعوده إلى الصحة وبيان الطريق إلى معرفة الإنسان عيوب نفسه

- اعلم: أن كل عضو خلق لفعل خاص، فعلامة مرضه أن يتعذر منه ذلك الفعل، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد تعذر البطش، ومرض العين تعذر الإبصار، ومرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله، وهو العلم والحكمة والمعرفة. وحب الله تعالى وعبادته، وإيثار ذلك على كل شهوة.

فلو أن الإنسان عرف كل شيء ولم يعرف الله سبحانه، كان كأنه لم يعرف شيئاً.

وعلامة المعرفة: الحب، فمن عرف الله أحبه، وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات، فمن آثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض، كما أن المعدة التي تؤثر أكل الطين على أكل الخبز ـ وقد سقطت عنها شهوة الخبز ـ مريضة.

ومرض القلب خفي قد لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفُل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، لأن دواءه مخالفة الهوى، وإن وجد الصبر لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء، والمرض قد استولى عليهم، والطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً، واندرس هذا العلم،

وأنكر طب القلوب ومرضها بالكلية، وأقبل الناس على أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات فهذه علامة أصل المرض.

وأما عافيته وعوده إلى الصحة بعد المعالجة، فهو أن ينظر إلى العلة، فإن كان يعالج داء البخل، فعلاجه بذل المال، ولكنه لا يسرف، ويصير إلى حد التبذير، فيحصل داء آخر فيكون كمن يعالج البرودة بالحرارة الغالبة حتى تغلب الحرارة، فيكون داءً أيضاً، بل المطلوب الاعتدال.

وإذا أردت أن تعرف الوسط، فانظر إلى نفسك، فإن كان إمساك المال وجمعه ألذ عندك، وأيسر عليك من بذله لمستحقه، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل، فعالج نفسك على البذل، وإن صار البذل للمستحق ألذ عندك، وأخف عليك من الإمساك، فقد غلب عليك التبذير، فارجع إلى المواظبة على الإمساك، ولا تزال تراقب نفسك، وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها، حتى تتقطع علاقة قلبك عن المال، فلا تميل إلى بذله ولا إمساكه، بل يصير عندك كالماء، فلا تطلب فيه إمساكه لحاجة محتاج، أو بذله لحاجة محتاج، فكل قلب صار كذلك، فقد جاء الله سليماً في هذا المقام.

ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق، حتى لا تكون له علاقة بشيء من الدنيا، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها، غير ملتفتة إليها، ولا متشوفة إلى أسبابها، فحينئذ ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة.

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض، بل هو أدق من الشعر، وأحد من السيف، فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة، ولأجل عسر الاستقامة أمر العبد أن يقول في كل يوم مرات: ﴿ اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتقيم ﴾ [الفاتحة: ٦]، ومن لم يقدر على الاستقامة، فليجتهد على القرب من الاستقامة فإن النجاة بالعمل الصالح.

ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة، فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه، وليشتغل بعلاج واحد بعد واحد، وليصبر ذو العزم على مضض هذا الأمر، فإنه سيحلو كما يحلو الفطام للطفل بعد كراهته له، فلو رد إلى الثدي لكرهه، ومن عرف قصر العمر بالنسبة إلى مدة حياة الآخرة حمل مشقة سفر أيام لتنعم الأبد، فعند الصباح يحمد القوم السُّرَى.

واعلم: أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، فمن كانت له بصيرة، لم تخف عليه عيوبه، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوبهم، يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه.

فمن أراد الوقوف على عيب نفسه، فله في ذلك أربع طرق:

الطريقة الأولى: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، يعرفه عيوب نفسه وطرق علاجها، وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده، فمن وقع به، فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغي أن يفارقه.

الطريقة الثانية: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، وينصبه رقيباً على نفسه لينبهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله.

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: رحم الله امرءاً أهدى إلينا عيوبنا.

وسأل سلمان رضي الله عنه لما قدم عليه من عيوبه، فقال: سمعت أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وأن لك حلتين: حلة بالليل، وحلة بالنهار، فقال: هل بلغك غير هذا؟ قال: لا، قال: أما هذا فقد كفيتهما.

وكان عمر رضي الله عنه يسأل حذيفة: هل أنا من المنافقين؟ وهذا لأن كل من علت مرتبته في اليقظة زاد اتهامه لنفسه، إلا أنه عز في هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة، لأنه قل في الأصدقاء من يترك المداهنة، فيخبر بالعيب، أو يترك الحسد، فلا يزيد على قدر الواجب.

وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم، ونحن الآن في الغالب أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا.

وهذا دليل على ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة كالعقارب، ولو أن منبهاً نبهنا على أن تحت ثوب أحدنا عقرباً لتقلدنا له منة، واشتغلنا بقتلها، والأخلاق الرديئة أعظم ضرراً من العقرب على ما لا يخفى.

الطريقة الثالثة: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوىء، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه، أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفي عنه عيوبه.

الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذموماً فيما بينهم، يجَتنبه.

فصل [في شهوات النفوس]

وقد ذكرنا أن شهوات النفوس لم توضع إلا لفائدة، إذ لولا شهوة المطعم ما حصل تناول الغذاء، ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل، وإنما المذموم فضول الشهوات وطغيانها، وثمة قوم لم يفهموا هذا القدر، فأخذوا يتركون كل ما تشتهيه النفس، وهذا ظلم لها بإسقاط حقها، فإن لها حقاً بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ لِنَفْسِكَ عليك حَقّاً»(1) حتى إن قائلاً منهم يقول: لي كذا وكذا سنة أشتهي كذا، فلا أتناوله، وهذا انحراف عن الحلّ وخلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه كان يتناول المشتهى من الحلو والعسل وغيرهما، فلا يلتفت إلى زاهد قلّ علمه، فحرم نفسه حظها من المشتهى على الإطلاق، فإنه إلى الظلم أقرب منه إلى العدل، وإنما يترك المشتهى إذا صعبت الطريق إليه، مثل أن لا يحصل إلا بوجه مكروه، أو يخاف من تناوله انحلال عزمه، فتطمع النفس في استدامته، أو يحذر من ذلك زيادة شبع، فيثقله عن عبادته، فأما تناوله في بعض الأوقات لتقوية النفس، فذلك كالطب للمريض، يمدح ولا يذم، ولا بأس بالرفق بالنفس لتقوى على السلوك.

بيان علامات حسن الخلق

ربما جاهد المريد نفسه حتى ترك الفواحش والمعاصي، ثم ظن أنه قد هذب خلقه، واستغنى عن المجاهدة، وليس كذلك، فإن حسن الخلق هو مجموع صفات المؤمنين، وقد وصفهم الله تعالى فقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً ﴾ [الأنفال: ٢ - ٣ - ٤]، وقال: ﴿ التائِبونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ والناهُونَ عَنِ المُنْكَرِ وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١٢] وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١]، وقال: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً ﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة، فمن أشكل عليه حاله، فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون البعض يدل على البعض دون البعض

---

(1) البخاري (٣/٤٩، ٥١)، مسلم (٣/١٦٥).

فليشتغل بحفظ ما وجده وتحصيل ما فقده.

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بها إلى محاسن الأخلاق.

ففي «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «والذي نفسي بيده لا يُؤْمِنُ عبدٌ حتى يُحِب لأخيه مَا يُحبُّ لنفسه»[1].

وفيهما أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عنه صلى الله عليه وآله وسلم نه قال: «مَنْ كَان يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر فليكرِم ضيفَه، ومَنْ كَان يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخرِ فلا يؤذ جارَه، ومَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر فليقُلْ خيراً أو لَيصمُتْ»[2].

وفي حديث آخر: «أكْمَل المؤمنين إيمَاناً أحْسَنُهُم أخْلاقاً»[3].

ومن حسن الخلق: احتمال الأذى، ففي «الصحيحين» أن أعرابياً جذب رداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى أثرت حاشيته في عاتقه صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ضحِك، ثم أَمَرَ له بعطاء[4].

وكان إذا آذاه قومه قال: «اللهم اغْفِرْ لِقَومي فإنَّهم لا يَعْلَمُون»[5].

وكان أويس القرني إذا رماه الصبيان بالحجارة يقول: يا إخوتاه، إن كان ولا بد، فارموني بالصغار لئلا تدموا ساقي فتمنعوني من الصلاة.

وخرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البراري، فاستقبله جندي فقال: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فشجه، فلما أخبر أنه إبراهيم، جعل يقبل يده ورجله، فقال: إنه لما ضرب رأسي، سألت الله له الجنة، لأني علمت أني أوجر بضربه إياي فلم أحب أن يكون نصيبي منه الخير، ونصيبه مني الشر.

---

(١) البخاري (١/١٠)، مسلم (١/٤٩).
(٢) البخاري (٨/١٣)، مسلم (١/٤٩، ٥٠).
(٣) الترمذي (١١٦٢)، أبو داود (٤٦٨٢)، أحمد (٢/٢٥٠، ٤٧٢) والحاكم (١/٣).
(٤) البخاري (٨/٢٩)، مسلم (٣/١٠٣).
(٥) البخاري (٩/٢٠)، مسلم (٥/١٧٩).

واجتاز بعضهم في سكة، فطرح عليه رماد من السطح، فجعل أصحابه يتكلمون. فقال: من استحق النار فصولح على الرماد، ينبغي له أن لا يغضب.

فهذه نفوس ذللت بالرياضة، فاعتدلت أخلاقهم، ونقيت عن الغش بواطنها، فأثمرت الرضى بالقضاء، ومن لم يجد من نفسه بعض هذه العلامات التي وجدها هؤلاء، فينبغي أن يداوم الرياضة ليصل، فإنه بعدُ ما وصل.

فصل [في رياضة الصبيان في أول النشوء]

اعلم: أن الصبي أمانة عند والديه، وقلبه جوهرة ساذجة، وهي قابلة لكل نقش، فإن عُوِّدَ الخير نشأ عليه، وشاركه أبواه ومؤدبه في ثوابه، وإن عوّد الشر نشأ عليه، وكان الوزر في عنق وليه، فينبغي أن يصونه ويؤدبه ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعوده التنعم، ولا يحبب إليه أسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر.

بل ينبغي أن يراقبه من أول عمره، فلا يستعمل في رضاعه وحضانته إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا بدت فيه مخايل التمييز وأولها الحياء، وذلك علامة النجابة وهي مبشرة بكمال العقل عند البلوغ، فهذا يستعان على تأديبه بحيائه.

وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام، فينبغي أن يعلم آداب الأكل، ويعوده أكل الخبز وحده في بعض الأوقات لئلا يألف الإدام فيراه كالحتم، ويقبح عنده كثرة الأكل، بأن يشبه الكثير الأكل بالبهائم، ويحبب إليه الثياب البيض دون الملوثة والإبريسم، ويقرر عنده أن ذلك من شأن النساء والمخنثين، ويمنعه من مخالطة الصبيان الذين عودوا التنعم، ثم يشغله في المكتب بتعليم القرآن والحديث وأحاديث الأخيار، ليغرس في قلبه حب الصالحين، ولا يحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق.

ومتى ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه، ويجازى بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال تغوفل عنه ولا يكاشف، فإن عاد عوتب سراً وخُوِّفَ من اطلاع الناس عليه، ولا يكثر عليه العتاب، لأن ذلك يهون عليه سماع الملامة، وليكن حافظاً هيبة الكلام معه.

وينبغي للأم أن تخوفه بالأب، وينبغي أن يمنع النوم نهاراً، فإنه يورث الكسل، ولا يمنع النوم ليلاً، ولكنه يمنع الفرش الوطيئة لتصلب أعضاؤه.

ويتعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم.

ويعود المشي والحركة والرياضة لئلا يغلب عليه الكسل.

ويمنع أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه أبواه، أو بمطعمه أو ملبسه.

ويعود التواضع والإكرام لمن يعاشره.

ويمنع أن يأخذ شيئاً من صبي مثله، ويعلم أن الأخذ دناءة، وأن الرفعة في الإعطاء.

ويقبح عنده حب الذهب والفضة.

ويعود أن لا يبصق في مجلسه، ولا يتمخط، ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يضع رجلاً على رجل، ويمنع من كثرة الكلام.

ويعوّد أن لا يتكلم إلا جواباً، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه، وأن يقوم لمن هو فوقه ويجلس بين يديه.

ويمنع من فحش الكلام، ومن مخالطة من يفعل ذلك، فإن أصل حفظ الصبيان حفظهم من قرناء السوء.

ويحسن أن يفسح له بعد خروجه من المكتب في لعب جميل، ليستريح به من تعب التأديب، كما قيل: روح القلوب تعِ الذكر.

وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه وتعظيمهم.

وإذا بلغ سبع سنين أمر بالصلاة، ولم يسامح في ترك الطهارة ليتعود، ويخوف من الكذب والخيانة، وإذا قارب البلوغ، ألقيت إليه الأمور.

واعلم: أن الأطعمة أدوية، والمقصود منها تقوية البدن على طاعة الله تعالى، وأن الدنيا لا بقاء لها، وأن الموت يقطع نعيمها، وهو منتظر في كل ساعة، وأن العاقل من تزود لآخرته، فإن كان نشوؤه صالحاً ثبت هذا في قلبه، كما يثبت النقش في الحجر.

قال سهل بن عبدالله: كنت ابن ثلاث سنين، وأنا أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار، فقال لي خالي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ قلت:

كيف اذكره؟ قال: قل بقلبك ثلاث مرات من غير أن تحرك لسانك: الله معي، الله ناظر إليَّ، الله شاهدي، فقلت ذلك ليالي، ثم أعلمته، فقال: قلها في كل ليلة إحدى عشرة مرة. فقلت ذلك، فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة، قال لي خالي: احفظ ما علمتك، ودم عليه إلى أن تدخل قبرك، فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت له حلاوة في سري، ثم قال لي خالي: يا سهل من كان الله معه، وهو ناظر إليه، وشاهد عليه، هل يعصيه؟ إياك والمعصية ومضيت إلى المكتب، وحفظت القرآن، وأنا ابن ست سنين أو سبع، ثم كنت أصوم الدهر، وقوتي من خبز الشعير، ثم بعد ذلك كنت أقوم الليل كله.

فصل [في شروط الرياضة]

واعلم: أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين، أصبح بالضرورة مريداً لها، زاهداً في الدنيا، فإن من كان معه خرزة، فرأى جوهرة نفيسة، لم يبق له رغبة في الخرزة، فإذا قيل له: بعها بالجوهرة، أسرع في ذلك.

واعلم: أن من رزقه الله تعالى الانتباه لذلك، فإن عليه لسلوك الرياضة شرطاً لا بد من تقديمه، ومعتصماً لا بد من التمسك به، وحصناً لا بد من التحصن به.

فأما الشرط، فهو رفع الحجاب بترك الذنوب.

وأما المعتصم، فشيخ يدله على الطريق لئلا تختطفه الشياطين في السبل.

وأما الحصن، فالخلوة، وعليه من الوظائف مخالفة الهوى، وكثرة الذكر والاقتصاد في الأوراد.

ومنتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله أبداً، ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره، ولا يخلو إلا بطول المجاهدة، فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج، فأما تفصيل الرياضة في كل صفة، فسيأتي إن شاء الله تعالى.

* * *

كتاب كسر الشهوتين
شهوة البطن، وشهوة الفرج

شهوة البطن من أعظم المهلكات، وبها أخرج آدم عليه السلام من الجنة، ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة في المال، ويتبع ذلك آفات كثيرة، كلها من بطر الشبع.

وفي الحديث، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «المؤمنُ يَأكلُ في مِعىً واحدٍ، والكافرُ يَأْكُلُ في سبعةِ أمعاءٍ»[1].

وفي حديث آخر: «ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شراً من بطنِه، حسبُ ابنُ آدم أكلاتٍ يُقمْنَ صُلْبَه، فإنْ كَان لا محالةَ، فثلثٌ لطعامِه، وثُلُثٌ لشرابه، وثُلثٌ لِنَفَسِه»[2].

وقال عقبة الراسبي: دخلت على الحسن وهو يتغدى، فقال: هلم، فقلت: أكلت حتى لا أستطيع، فقال: سبحان الله أو يأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل؟!

وقد بالغ جماعة من الزهاد في التقلل من الأكل والصبر على الجوع، وقد بينا عيب ما سلكوا في غير هذا الكتاب، ومقام العدل في الأكل رفع اليدين من بقاء شيء من الشهوة، ونهاية المقام الحسن قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثُلُثٌ لطعامِه، وثُلُثٌ لشرابِه، وثُلُثٌ لنَفَسِه».

فالأكل في مقام العدل يصح البدن وينفي المرض، وذلك أن يتناول الطعام حتى يشتهيه، ثم يرفع يده وهو يشتهيه، والدوام على التقلل من الطعام يضعف القوى، وقد قلل أقوام مطاعمهم حتى قصروا عن الفرائض، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة، وليس كذلك، ومن مدح الجوع، فإنما أشار إلى الحالة المتوسطة التي ذكرناها.

وطريق الرياضة في كسر شهوة البطن أن من تعود استدامة الشبع، فينبغي له أن يقلل من مطعمه يسيراً مع الزمان، إلى أن يقف على حد التوسط الذي أشرنا إليه، وخير الأمور أوساطها، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات، ويكون سبباً لبقاء القوة، فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع، فحينئذ يصح البدن، وتجتمع

(١) البخاري (١٩٣/٧)، مسلم (١٣٢/٦).

(٢) تقدم صفحة ٦٤.

الهمة، ويصفو الفكر، ومتى زاد في الأكل أورثه كثرة النوم، وبلادة الذهن، وذلك بتكثير البخار في الدماغ حتى يغطي مكان الفكر، وموضع الذكر، ويجلب أمراضاً أخر.

وليحذر من ترك شيئاً من الشهوات أن تتطرق إليه آفة الرياء، وقد كان بعضهم يشتري الشهوة ويعلقها في بيته وهو زاهد فيها، يستر بها زهده، وهذا هو الزهد، في الزهد بإظهار ضده، وهو عمل الصديقين، لأنه يجرع نفسه كأس الصبر مرتين، والثانية أمر.

وأما شهوة الفرج، فاعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الآدمي لفائدتين:

إحداهما: بقاء النسل، والثانية ليدرك لذة يقيس عليها لذات الآخرة، فإن ما لم يدرك جنسه بالذوق، لا يعظم إليه الشوق، إلا أنه إذا لم تُرَدّ هذه الشهوة إلى الاعتدال، جلبت آفات كثيرة، ومحناً، ولولا ذلك ما كان النساء حبائل الشيطان.

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما تَرَكْتُ في الناس بعدي فتنةً أَضَرّ على الرجال من النساء»[1].

وقال بعض الصالحين: لو ائتمنني رجل على بيت مال، لظننت أن أؤدي إليه الأمانة، ولو ائتمنني على زنجية أخلو بها ساعة واحدة، ما ائتمنت نفسي عليها.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يخلو رَجُلٌ بامرأةٍ فإنَّ ثالثهما الشيطان»[2].

وقد ينتهي الإفراط في هذه الشهوة، حتى تصرف همة الرجل إلى كثرة التمتع بالنساء فيشغله عن ذكر الآخرة، وربما آل إلى الفواحش، وقد تنتهي بصاحبها إلى العشق، وهو أقبح الشهوات، وأجدرها أن تستحيى منه، وقد يقع عند كثير من الناس عشق المال، والجاه، واللعب بالنرد، والشطرنج، والطنبور، ونحو ذلك، فتستولي هذه الأشياء على القلوب فلا يصبرون عنها.

ويسهل الاحتراز عن ذلك في بدايات الأمور، فإن آخرها يفتقر إلى علاج شديد، وقد لا ينجع، ومثاله من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب تريد دخوله، فما أهون منعها بصرف عنانها، ومثال من يعالجه بعد استحكامه، مثال من يتركها حتى تدخل الباب وتجاوزه، ثم يأخذ بذنبها يجرها إلى وراء، وما أعظم التفاوت بين الأمرين!!.

* * *

(١) البخاري (٧/١١)، مسلم (٨/٨٩).

(٢) الترمذي (٢١٦٦)، أحمد (١/١٨، ٢٦)، ابن حبان (٢٢٨٢)، الحاكم (١/١٨).

كتاب آفات اللسان

آفاته كثيرة متنوعة، ولها في القلب حلاوة، ولها بواعث من الطبع، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت، فلنذكر أولاً فضيلة الصمت، ثم نتبعه بذكر الآفات مفصلة إن شاء الله تعالى.

اعلم: أن الصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر.

وفي الحديث، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ يَضْمَنْ لي ما بين لَحْيَيْهِ، وما بين رجليه أضمنْ له الجنة»[1].

وفي حديث آخر: «لا يَسْتَقِيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبُه، ولا يستقيم قلبُه حتى يستقيمَ لسانُه»[2].

وفي حديث معاذ في آخره: «كُفَّ عليك هذا» فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤخذون بما نتكلمُ به؟ قال: «ثَكِلَتْكَ أمُّك يا مُعاذ، وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم؟»[3].

وفي حديث آخر: «مَنْ كَفَّ لسانَه سَتَرَ اللَّهُ عَورَتَه»[4].

وقال ابن مسعود: ما شيء أحوج إلى طول سجن من لساني.

وقال أبو الدرداء: أنصف أذنيك من فيك، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد، لتسمع أكثر مما تتكلم به.

وقال مخلد بن الحسين: ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها.

---

(١) البخاري (٨/١٢٥)، الترمذي (٢٤٠٨) أحمد (٥/٣٣٣).

(٢) أحمد (٣/١٩٨).

(٣) الترمذي (٢٦١٦)، ابن ماجة (٣٩٧٣)، البغوي (١١)، أحمد (٥/٢٣١، ٢٣٧).

(٤) أبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/١١١) وابن أبي الدنيا في «الصمت».

ذكر آفات الكلام:

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعني.

واعلم: أن من عرف قدر زمانه، وأنه رأس ماله، لم ينفقه إلا في فائدة، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني، لأنه من ترك ذكر الله تعالى واشتغل فيما لا يعني، كان كمن قدر على أخذ جوهرة، فأخذ عوضها مَدَرة، وهذا خسران العمر.

وفي الحديث الصحيح، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مِنْ حُسْنِ إسلامِ المرءِ تركُه ما لا يعنيه»(١).

وقيل للقمان الحكيم: ما بلغ من حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيته، ولا أتكلم بما لا يعنيني.

وقد روي أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعاً، فجعل يتعجب مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك، فمنعته حكمته فأمسك، فلما فرغ داود عليه السلام، قام ولبس الدرع ثم قال: نعم الدرع للحرب. فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله.

الآفة الثانية: الخوض في الباطل، وهو الكلام في المعاصي، كذكر مجالس الخمر، ومقامات الفساق.

وأنواع الباطل كثيرة. وعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»(٢). وقريب من ذلك الجدال والمراء وهو كثرة الملاحاة للشخص لبيان غلطه وإفحامه، والباعث على ذلك الترفع.

فينبغي للإنسان أن ينكر المنكر من القول، ويبين الصواب، فإن قبل منه وإلا ترك المماراة، هذا إذا كان الأمر معلقاً بالدين، فأما إذا كان في أمور الدنيا، فلا وجه للمجادلة فيه، وعلاج هذه الآفة بكسر الكبر الباعث على إظهار الفضل، وأعظم من المراء الخصومة، فإنها أمر زائد على المراء.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أبغض الرجال إلى الله الألد

---

(١) الترمذي (٢٣١٨)، البغوي (٤١٣٢).

(٢) البخاري (١٢٥/٨)، مسلم (٢٢٣/٨، ٢٢٤)، أحمد (٣٧٩/٢).

الخصم»[٣]. وهذه الخصومة نعني بها الخصومة بالباطل أو بغير علم، فأما من له حق فالأولى أن يصدف عن الخصومة مهما أمكن لأنها توغر الصدر، وتهيج الغضب، وتورث الحقد، وتخرج إلى تناول العرض.

الآفة الثالثة: التقعر في الكلام، وذلك يكون بالتشدق، وتكلف السجع.

وعن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أبغضَكُم إليَّ وأبعدَكُم مني يوم القيامة مساوئكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون المتَفَيهقون»[٢].

ولا يدخل في كراهة السجع والتصنع ألفاظ الخطيب، والتذكير من غير إفراط، ولا إغراب، لأن المقصود من ذلك تحريك القلوب، وتشويقها، ورشاقة اللفظ ونحو ذلك.

الآفة الرابعة: الفحش والسب والبذاء، ونحو ذلك، فإنه مذموم منهي عنه، ومصدره الخبث واللؤم.

وفي الحديث: «إياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»[٣].
«الجنة حرام على كل فاحش».
وفي حديث آخر: «ليس المؤمنُ بالطعانِ ولا اللعانِ ولا الفاحشِ ولا البذيء»[٤].

واعلم: أن الفحش والبذاء هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ما يكون ذلك في ألفاظ الجماع وما يتعلق به، فإن أهل الخير يتحاشون عن تلك العبارات ويكنون عنها.

ومن الآفات: الغناء وقد سبق فيه كلام في غير هذا الموضع.

الآفة الخامسة: المزاح، أما اليسير منه، فلا ينهى عنه إذا كان صدقاً.

فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يَمزحُ ولا يقول إلا حقاً، فإنه قال

---

(١) البخاري (٦/٣٥)، مسلم (٨/٥٧).

(٢) تقدم في صفحة ٩٨.

(٣) ابن حبان (١٥٨٠)، أحمد (٢/١٥٩، ١٩١، ١٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٨٧)، والحميدي في مسنده (١١٥٩).

(٤) الترمذي (١٩٧٧)، أحمد (١/٤٠٤)، البخاري في الأدب المفرد (٣١٢، ٣٣٢)، وابن حبان (٤٨)، والحاكم (١/١٢).

لرجل: «يا ذا الأذنين»[1]، وقال لآخر: «إنا حاملوك على ولد الناقة»[2]، وقال للعجوز: «إنه لا يدخلُ الجنةَ عجوز»[3] ثم قرأ: ﴿ إنا أنشأناهن إنشاءً * فجعلناهُنَّ أبكاراً ﴾ [الواقعة: ٣٦ ـ ٣٧]، وقال لأخرى: «زوجك الذي في عينيه بياض؟»[4].

فقد اتفق في مزاحه صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أشياء:

أحدها: كونه حقاً.

والثاني: كونه مع النساء والصبيان، ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال.

والثالث: كونه نادراً، فلا ينبغي أن يحتج به من يريد الدوام عليه، فإن حكم النادر ليس كحكم الدائم، ولو أن إنساناً دار مع الحبشة ليلاً ونهاراً ينظر إلى لعبهم واحتج بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقف لعائشة[5] وأذن لها أن تنظر إلى الحبشة، لكان غالطاً، لندور ذلك، فالإفراط في المزاح والمداومة عليه منهي عنه، لأنه يسقط الوقار، ويوجب الضغائن والأحقاد، وأما اليسير كما تقدم، من نحو نوع مزاح النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإن فيه انبساطاً وطيب نفس.

الآفة السادسة: السخرية والاستهزاء، ومعنى السخرية: الاحتقار والاستهانة، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وكله ممنوع منه في الشرع، ورد النهي عنه في الكتاب والسنة.

الآفة السابعة: إفشاء السر، وإخلاف الوعد، والكذب في القول واليمين، وكل ذلك منهي عنه، إلا ما رخص فيه من الكذب لزوجته، وفي الحرب، فإن ذلك يباح.

وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب، فهو فيه

---

(١) الترمذي (١٩٩٢، ٣٨٢٨) وفي الشمائل (٢٢٥)، أبو داود (٥٠٠٢)، أحمد (١١٧/٣، ١٢٧)، والبغوي (٣٦٠٦).

(٢) الترمذي (١٩٩١)، أبو داود (٤٩٩٨)، أحمد (٢٦٧/٣)، البخاري في الأدب المفرد (٢٦٨)، البغوي (٣٦٠٥).

(٤) عزاه الحافظ العراقي «للزبير بن بكار» في كتاب الفكاهة والمزاح، ولم يذكر سنده ولا تكلم عليه بشيء.

(٥) البخاري (٢٠/٢)، مسلم (٢٢/٣).

مباح إن كان ذلك المقصود مباحاً، وإن كان المقصود واجباً، فهو واجب، فينبغي أن يحترز عن الكذب مهما أمكن.

وتباح المعاريض، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ في المعاريض مندوحةً عن الكذب»[1]، وإنما تصلح المعاريض عند الحاجة إليها، فأما مع غير الحاجة، فمكروهة لأنها تشبه الكذب.

فمن المعاريض ما روينا عن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه أنه أصاب جارية له، فعلمت امرأته، فأخذت شفرة، ثم أتت فوافقته قد قام عنها، فقالت: أفعلتَها؟ فقال: ما فعلتُ شيئاً، قالت: لتقرأن القرآن أو لأبعجنك بها، فقال رضي الله عنه:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشقَّ معروفٌ من الفجر ساطعُ
يبيت يُجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالكافرين المضاجعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبُنا ... به موقناتٌ أنَّ ما قال واقعُ

قالت: آمنت بالله وكذبت بصري.

كان النخعي إذا طُلِبَ قال للجارية: قولي لهم: اطلبوه في المسجد.

الآفة الثامنة: الغيبة، وقد ورد الكتاب العزيز بالنهي عنها، وشبه صاحبها بآكل الميتة.

وفي الحديث: «إن دماءكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرام»[2].

وعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا معشر مَنْ آمنَ بلسانه ولم يدخلْ الإيمانُ قلبَه: لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنَّه مَنْ تَتَبَّعَ عورةَ أخيه تتبَّعَ اللَّهُ عورتَه، ومَنْ تتبَّعَ اللَّهُ عورته يفضحه ولو في جوفِ بيته»[3].

وفي حديث آخر: «إياكم والغيبة، فإن الغيبةَ أشدُّ من الزنا، إنَّ الرجلَ قد يزني ويشربُ، ثم يتوبُ ويتوبُ اللَّهُ عليه، وإن صاحبَ الغيبة لا يغفرُ اللَّهُ له حتى يغفرَ له صاحبهُ».

وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما: إياك والغيبة، فإنها إدام كلاب الناس. والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة مشهورة.

---

(١) البخاري في الأدب المفرد (٨٨٥) موقوفاً على عمران بن حصين.

(٢) البخاري (١/٢٦، ٣٧)، مسلم (٥/٨).

(٣) أبو داود (٤٨٨٠)، الترمذي (٢٠٣٢)، ابن حبان (١٤٩٤)، وأحمد (٤/٤٢١)، والبغوي (٣٥٢٦).

ومعنى الغيبة: أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه، سواء كان نقصاً في بدنه، كالعمش، والعور، والحول، والقرع، والطول، والقصر، ونحو ذلك.

أو في نسبه، كقولك: أبوه نبطي، أو هندي، أو فاسق، أو خسيس، ونحو ذلك.

أو في خُلُقِه كقولك: هو سيىء الخلق بخيل متكبر ونحو ذلك.
أو في ثوبه، كقولك: هو طويل الذيل، واسع الكم، وسخ الثياب.

والدليل على ذلك، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الغيبة قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قال: أرأيت إن كان في أخي ما أقول يا رسول الله؟ قال: «إن كان في أخاك ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»[1].

واعلم: أن كل ما يفهم منه مقصود الذم، فهو داخل في الغيبة، سواء كان بكلام أو بغيره، كالغمز، والإشارة والكتابة بالقلم، فإن القلم أحد اللسانين.

وأقبح أنواع الغيبة، غيبة المتزهدين المرائين، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان، والتبذل في طلب الحطام، أو يقولون: نعوذ بالله من قلة الحياء، أو نسأل الله العافية، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم.

وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان: ذاك المسكين قد بلي بآفة عظيمة، تاب الله علينا وعليه، فهو يظهر الدعاء ويخفي قصده.

واعلم: أن المستمع للغيبة شريك فيها، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه، فإن خاف فبقلبه، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَنْ أذلّ عنده مؤمن وهو يقدر أن ينصره أذلَّه الله عزّ وجلّ على رؤوس الخلائق»[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من حمى مؤمناً من منافق يعيبه، بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم»[3].

---

(١) مسلم (٨/٢١)، والترمذي (١٩٣٤).
(٢) أحمد (٣/٤٨٧).
(٣) أبو داود (٤٨٨٣)، وأحمد (٣/٤٤١)، والبغوي (٣٥٢٧)، وابن المبارك في الزهد (٦٨٦).

ورأى عمر بن عتبة مولاه مع رجل وهو يقع في آخر، فقال له: ويلك نزه سمعك عن استماع الخنا، كما تنزه نفسك عن القول به، فالمستمع شريك القائل، إنما نظر إلى شر ما في وعائه فأفرغه في وعائك، ولو ردت كلمة سفيه في فيه لسعد بها رادها كما شقي بها قائلها.

وقد وردت أحاديث في حق المسلم على المسلم، تقدمت في كتاب الصحبة.

فصل [في بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها]

أما الأسباب التي تبعث على الغيبة فكثيرة.

منها: تشفي الغيظ، بأن يجري من إنسان في حق آخر سبب يوجب غيظه، فكلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحبه.

السبب الثاني: من البواعث على الغيبة: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم، فإنهم إذا كانوا يتفكهون في الأعراض، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة.

الثالث: إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول: فلان جاهل، وفهمه ركيك، ونحو ذلك، غرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه، ويريهم أنه أعلم منه.

وكذلك الحسد في ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك.

الرابع: اللعب والهزل، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة، حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا.

وأما علاج الغيبة، فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومقته، وأن حسناته تنقل إلى المغتاب إليه، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة.

وينبغي إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر في عيوب نفسه، ويشتغل بإصلاحها، ويستحي أن يعيب وهو معيب، كما قال بعضهم:

فإن عبْتَ قوماً بالذي فيك مثله   فكيف يعيب الناس من هو أعور

وإن عبت قوماً بالذي ليس فيهم فذلك عند الله والناس أكبر

وإن ظن أنه سليم من العيوب، فليتشاغل بالشكر على نعم الله عليه، ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة، وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له، فينبغي أن لا يرضاها لغيره من نفسه.

فلينظر في السبب الباعث على الغيبة، فيجتهد على قطعه، فإن علاج العلة يكون بقطع سببها. وقد ذكرنا بعض أسبابها، فيعالج الغضب بما سيأتي في كتاب الغضب، ويعالج موافقة الجلاس بأن يعلم أن الله تعالى يغضب على من طلب رضى المخلوقين بسخطه، بل ينبغي أن يغضب على رفقائه، وعلى نحو هذا معالجة البواقي.

فصل [في حصول الغيبة بسوء الظن]

وقد تحصل الغيبة بالقلب، وذلك سوء الظن بالمسلمين.

والظن ما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب، فليس لك أن تظن بالمسلم شراً، إلا إذا انكشف أمر لا يحتمل التأويل فإن أخبرك بذلك عدل، فمال قلبك إلى تصديقه، كنت معذوراً، لأنك لو كذبته كنت قد أسأت الظن بالمخبر، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر، بل ينبغي أن تبحث، هل بينهما عداوة وحسد؟ فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك، ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغبط الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة.

وإذا تحققت هفوة مسلم، فانصحه في السر.

واعلم: أن من ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس، وذلك منهي عنه، لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم، ولو لم ينكشف لك، كان قلبك أسلم للمسلم.

بيان الأعذار المرخصة
في الغيبة وكفارة الغيبة

اعلم: أن المرخص في ذكر مساوىء الغير، وهو غرض صحيح في الشرع، لا يمكن التوصل إليه إلا به، وذلك يدفع إثم الغيبة، وهو أمور:

أحدها: التظلم، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى من يستوفي حقه.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد الظالم إلى منهاج الصلاح.

الثالث: الاستفتاء، مثل أن يقول للمفتي: ظلمني فلان، أو أخذ حقي، فكيف طريقي في الخلاص، فالتعيين مباح، والأولى التعريض، وهو أن يقول: ما تقول في رجل ظلمه أبوه أو أخوه ونحو ذلك؟

والدليل على إباحة التعيين حديث هند حين قالت: إن أبا سفيان رَجُلٌ شحيحٌ ولم ينكر عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم[1].

الأمر الرابع: تحذير المسلمين، مثل أن ترى متفقهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق، وتخاف أن يتعدى إليه ذلك، فلك أن تكشف له الحال.

وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة أو الفسق، فتذكر ذلك للمشتري.

وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير، لا على قصد الوقيعة، إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح.

الخامس: أن يكون معروفاً بلقب، كالأعرج، والأعمش، فلا إثم على من يذكره به، وإن وجد عن ذلك معدلاً كان أولى.

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق، ولا يستنكف أن يذكر به.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الحياء فلا غيبةَ له»[2].

وقيل للحسن: الفاجر المعلن بفجوره، ذكري له بما فيه غيبة؟ قال: لا، ولا كرامة.

وأما كفارة الغيبة، فاعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين:

إحداهما: على حق الله تعالى، إذ فعل ما نهاه عنه، فكفارة ذلك التوبة والندم.

والجناية الثانية: على محارم المحلوق، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل، جاء إليه واستحله. وأظهر له الندم على فعله.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه

(١) البخاري (٧/١٩٥)، ومسلم (٥/١٢٩).

(٢) البيهقي (١٠/٢١٠)، والخطيب (٨/٤٣٨).

قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه، من مال أو عرض، فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا، وإلا أخذ من سيئات هذا فألقي عليه»[1].

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل، جعل مكان استحلاله الاستغفار له، لئلا يخبره بما لا يعلمه، فيوغر صدره.

وقد ورد في الحديث: «كفارة من اغتيب أن يستغفر له»[2].

وقال مجاهد: كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير، وكذلك إن كان قد مات.

الآفة التاسعة: من آفات اللسان: النميمة، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يَدْخُل الجنة قَتَّات»[3] وهو النمام.

واعلم: أن النميمة تطلق في الغالب على نقل قول إنسان في إنسان، مثل أن يقول: قال فيك فلان كذا وكذا، وليست مخصوصة بهذا، بل حدها كشف ما يكره كشفه، سواء كان من الأقوال أو الأعمال، حتى لو رآه يدفن مالاً لنفسه فذكره، فهو نميمة. وكل من نقلت إليه النميمة، مثل أن يقال له: قال فيك فلان كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، ونحو ذلك، فعليه ستة أشياء:

الأول: أن لا يصدق الناقل، لأن النمام فاسق مردود الشهادة.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه.

الثالث: أن يبغضه في الله، فإنه بغيض عند الله.

الرابع: أن لا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: أن لا يحمله ما حكي له على التجسس والبحث، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات: ١٣].

السادس: أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه، فلا يحكي نميمته.

ويروى أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل: بلغني أنك وقعت فيَّ، وقلت كذا وكذا. فقال الرجل: ما فعلت، فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق، فقال الرجل: لا يكون النمام صادقاً، فقال سليمان: صدقت، اذهب بسلام.

(١) البخاري (٣/ ١٧٠).

(٢) أورده ابن عدي (١٠٩٨)، وفي سنده عنبسة بن عبد الرحمن، قال أبو حاتم: كان يضع الحديث.

(٣) البخاري (٨/ ٢١)، ومسلم (١/ ٧١).

وقال يحيى بن أبي كثير: يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر.

وقد حكي أن رجلاً ساوم بعبد، فقال مولاه: إني أبرأ إليك من النميمة والكذب، فقال: نعم، أنت بريء منهما، فاشتراه. فجعل يقول لمولاه: إن امرأتك تبغي وتفعل، وإنها تريد أن تقتلك، ويقول للمرأة: إن زوجك يريد أن يتزوج عليك ويتسرى، فإن أردت أن أعطفه عليك، فلا يتزوج ولا يتسرى، فخذي الموسى واحلقي شعرة من حلقه إذا نام، وقال للزوج: إنها تريد أن تقتلك إذا نمت. قال: فذهب فتناوم لها، فجاءت بموسى لتحلق شعرة من حلقه، فأخذ بيدها فقتلها، فجاء أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه.

الآفة العاشرة: كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين، وينقل كلام كل واحد إلى الآخر، ويكلم كل واحد بكلام يوافقه، أو يعده أنه ينصره، أو يثني على الواحد في وجهه ويذمه عند الآخر.

وفي الحديث: «إنَّ شَرَّ الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[1].

واعلم: أن هذا فيمن لم يضطر إلى ذلك، فأما إذا اضطر إلى مداراة الأمراء جاز.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنا لنكشر في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم. ومتى قدر أن لا يظهر موافقتهم لم يجز له.

الآفة الحادية عشرة: المدح، وله آفات:

منها: ما يتعلق بالمادح، ومنها: ما يتعلق بالممدوح. فأما آفات المادح، فقد يقول ما لا يتحققه، ولا سبيل للإطلاع عليه، مثل أن يقول: إنه ورع وزاهد، وقد يفرط في المدح فينتهي إلى الكذب، وقد يمدح من ينبغي أن يذم.

وقد روي في حديث: «إن الله تعالى يغضبُ إذا مُدحَ الفاسِقُ»[2].

وقال الحسن: من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يعصى الله.

---

(١) البخاري (٨/٢١)، ومسلم (٨/٢٧).

(٢) الخطيب (٧/٢٩٨، ٨/٤٢٨) وأورده ابن عدي (١٣٠٧)، وفي إسناده أبو خلف الأعمى، قال ابن حبان: منكر الحديث.

وأما الممدوح، فإنه يحدث فيه كبراً أو إعجاباً، وهما مهلكان، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما سمع رجلاً يمدح رجلاً: «ويلك، قطعتَ عُنُقَ صَاحِبك»[1]. . الحديث وهو مشهور.

وقد روينا عن الحسن قال: كان عمر رضي الله عنه قاعداً ومعه الدِّرة والناس حوله، إذ أقبل الجارود، فقال رجل: هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر رضي الله عنه ومن حوله، وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدِّرة، فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لي ولك، أما سمعتها؟ قال: سمعتها، فمه؟ قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطىء منك، ولأن الإنسان إذا أثني عليه بالخير رضي عن نفسه، وظن أنه قد بلغ المقصود، فيفتر عن العمل، ولهذا قال: «قطعت عنق صاحبك. . .».

فأما إذا سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس، فقد أثنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم.

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر والعجب والفتور عن العمل، ولا ينجو من هذه الآفات إلا أن يعرف نفسه، ويتفكر في أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه.

وقد روي أن رجلاً من الصالحين أثنى عليه، فقال: اللهم إن هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني.

الآفة الثانية عشرة: الخطأ في فحوى الكلام فيما يرتبط في أمور الدين، لا سيما فيما يتعلق بالله تعالى، ولا يقدر على تقويم اللفظ بذلك إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أو فصاحة، لم يخل كلامه عن الزلل، لكن يعفو الله عنه لجهله.

مثال ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا يقل أحدكم: ما شاء الله وشئتَ، ولكن لِيقل، ما شاء الله ثم شئتَ»[2]، وذلك لأن في العطف المطلق تشريكاً وتسوية، وقريب من ذلك إنكاره على الخطيب قوله: «ومن

---

(١) البخاري (٨/٢٢)، ومسلم (٨/٢٢٧).

(٢) أبو داود (٤٩٨٠)، أحمد (٥/٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨)، والبيهقي (٣/٢١٦).

يعصهما فقد غوى»[1] وقال: «قل: ومن يعص الله ورسوله».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، كُلّكُم عَبيدُ الله، وكُلُّ نِسائكم إماء الله، ولكن ليقل، غُلامي وجَاريتي»[2].

وقال النخعي: إذا قال الرجل للرجل: يا حمار، يا خنزير، قيل له يوم القيامة: أرأيتني خلقته حماراً، أو أرأيتني خلقته خنزيراً؟

فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام، ولا يمكن حصره، ومن تأمل ما أوردناه في آفات اللسان، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم، وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ صَمَتَ نَجَا»[3]، لأن هذه الآفات مهالك وهي على طريق المتكلم، فإن سكت سلم.

فصل [لا تسأل عن صفات الله عزّ وجلّ]

ومن آفات العوام سؤالهم عن صفات الله سبحانه وتعالى وكلامه.

اعلم: أن الشيطان يخيل إلى العامي أنك بخوضك في العلم تكون من العلماء وأهل الفضل، فلا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم بما هو كفر وهو لا يدري. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يُوشِكُ الناسُ أن يسألوا، حتى يقولوا: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟»[4] فسؤال العوام عن غوامض العلم أعظم الآفات، وبحثهم عن معاني الصفات مما يفسدهم لا مما يصلحهم، إذ الواجب عليهم التسليم، فالأولى بالعامي الإيمان بما ورد به القرآن، ثم التسليم لما جاء به الرسول من غير بحث، واشتغالهم بالعبادات، فإن اشتغالهم بالبحث عن أسرار العلم، كبحث سائمة الدواب عن أسرار الملك.

* * *

---

(١) مسلم (١٢/٣)، أبو داود (٤٩٨١)، وأحمد (٢٥٦/٤، ٣٧٩).

(٢) مسلم (٤٦/٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٠٩)، وأحمد (٤٦٢/٢، ٤٨٤).

(٣) الترمذي (٢٥٠١)، أحمد (١٥٩/٢، ١٧٧)، والبغوي (٤١٢٩)، وابن المبارك في الزهد (٣٨٥).

(٤) أبو داود (٤٧٢٢)، وابن السني (٦٣٢).

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

اعلم: أن الغضب شعلة من النار، وأن الإنسان ينزع فيه عند الغضب عرق إلى الشيطان اللعين، حيث قال: ﴿ خَلَقْتَنِي من نارٍ وَخَلَقْتَهُ من طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢] فإن شأن الطين السكون والوقار، وشأن النار التلظي والاشتعال، والحركة والاضطراب.

ومن نتائج الغضب: الحقد والحسد، ومما يدل على ذم الغضب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم للرجل الذي قال له: أوصني، قال: «لا تغضبْ»، فردد عليه مراراً، قال: «لا تغضبْ»(١).

وفي حديث آخر أن ابن عمر رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ماذا يُبْعِدُنِي مِنْ غَضبِ الله عزّ وجلّ؟ قال: «لا تغضبْ»(٢).

وفي المتفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليسَ الشديدُ بالصُّرعَةِ، إنَّما الشديدُ الذي يملكُ نفسَه عند الغَضَبِ»(٣).

وعن عكرمة في قوله تعالى: ﴿ وَسَيِّداً وَحَصُوراً ﴾ [آل عمران: ٣٩] قال: السيد الذي يملك نفسه عند الغضب ولا يغلبه غضبه.

وروينا أن ذا القرنين لقي ملكاً من الملائكة فقال: علمني علماً أزداد به إيماناً ويقيناً، قال: لا تغضب، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فرد الغضب بالكظم، وسكنه بالتؤدة، وإياك والعجلة، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك، وكن سهلاً ليناً للقريب والبعيد، ولا تكن جباراً عنيداً.

وروينا أن إبليس لعنه الله بدا لموسى عليه السلام، فقال يا موسى: إياك والحِدَّة، فإني ألعب بالرجل الحديد كما يلعب الصبيان بالكرة، وإياك والنساء،

---

(١) البخاري (٨/٣٥)، الترمذي (٢٠٢٠)، أحمد (٢/٤٦٤)، البغوي (٣٥٨٠).

(٢) أحمد (٢/١٧٥)، ابن حبان (١٩٧١).

(٣) البخاري (٨/٣٤)، مسلم (٨/٣٠).

فإني لم أنصب فخاً قط أثبت في نفسي من فخ أنصبه بامرأة، وإياك والشح، فإني أفسد على الشحيح الدنيا والآخرة.

وكان يقال: اتقوا الغضب، فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل، والغضب عدو العقل.

وحقيقة الغضب: غليان دم القلب لطلب الانتقام، فمتى غضب الإنسان ثارت نار الغضب ثوراناً يغلي به دم القلب، وينتشر في العروق، ويرتفع إلى أعالي البدن، كما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر، ولذلك يحمر الوجه والعين والبشرة، وكل ذلك يحكي لون ما وراءه من حمرة الدم، كما تحكي الزجاجة لون ما فيها، وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه.

فإن كان الغضب صدر ممن فوقه، وكان معه يأس من الانتقام، تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب، فصار حزناً، ولذلك يصفر اللون، وإن كان الغضب من نظير يشك فيه، تردد الدم بين انقباض وانبساط، فيحمر ويصفر ويضطرب، فالانتقام هو قوت لقوة الغضب.

والناس في قوة الغضب على درجات ثلاث: إفراط، وتفريط، واعتدال.

فلا يحمد الإفراط فيها، لأنه يخرج العقل والدين عن سياستهما، فلا يبقى للإنسان مع ذلك نظر ولا فكر ولا اختيار.

والتفريط في هذه القوة أيضاً مذموم، لأنه يبقى لا حمية له ولا غيرة، ومن فقد الغضب بالكلية، عجز عن رياضة نفسه، إذ الرياضة إنما تتم بتسلط الغضب على الشهوة، فيغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة، ففقد الغضب مذموم، فينبغي أن يطلب الوسط بين الطريقين.

واعلم: أنه متى قويت نار الغضب والتهبت، أعمت صاحبها، وأصمته عن كل موعظة، لأن الغضب يرتفع إلى الدماغ، فيغطي على معادن الفكر، وربما تعدى إلى معادن الحس، فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه، وتسود الدنيا في وجهه، ويكون دماغه على مثال كهف أضرمت فيه نار فاسود جوه، وحمي مستقره، وامتلأ بالدخان، وكان فيه سراج ضعيف فانطفأ، فلا يثبت فيه قدم، ولا تسمع فيه كلمة، ولا ترى فيه صورة، ولا يقدر على إطفاء النار، فكذلك يفعل بالقلب والدماغ، وربما زاد الغضب فقتل صاحبه.

ومن آثار الغضب في الظاهر، تغير اللون، وشدة الرعدة في الأطراف،

وخروج الأفعال عن الترتيب، واستحالة الخلقة، وتعاطي فعل المجانين، ولو رأى الغضبان صورته في حال غضبه وقبحها لأنف لنفسه من تلك الحال، ومعلوم أن قبح الباطن أعظم.

فصل [في بيان الأسباب المهيجة للغضب وذكر علاج الغضب]

قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادتها وإزالة أسبابها.

فمن أسبابه: العجب، والمزاح، والمماراة، والمضادة، والغدر، وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهذه أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، فينبغي أن يقابل كل واحد من هذه بما يضادّه، فيجتهد على حسم مواد الغضب وقطع أسبابه.

وأما إذا هاج الغضب فيعالج بأمور:

أحدها: أن يتفكر في الأخبار الواردة في فضل كظم الغيظ، والعفو، والحلم، والاحتمال، كما جاء في البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً استأذن على عمر رضي الله عنه، فأذن له، فقال له: يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر رضي الله عنه، حتى هم أن يُوقِعَ به. فقال الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين إن الله عزّ وجلّ قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُر بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَن الجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عزّ وجلّ.

الثاني: أن يخوف نفسه عقاب الله تعالى، وهو أن يقول: قدرة الله عليّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت فيه غضبي، لم آمن أن يمضي الله عزّ وجلّ غضبه عليّ يوم القيامة فأنا أحوج ما أكون إلى العفو. وقد قال الله تعالى في بعض الكتب: يا ابن آدم! اذكرني عند الغضب، أذكرك حين أغضب، ولا أمحقك فيمن أمحق.

والثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة، والانتقام، وتشمير العدو في هدم أعراضه، والشماتة بمصائبه، فإن الإنسان لا يخلو عن المصائب، فيخوف نفسه ذلك في الدنيا إن لم يخف من الآخرة، وهذا هو تسليط شهوة على غضب، ولا ثواب عليه، لأنه تقديم لبعض الحظوظ على بعض، إلا أن يكون محذوره أن يتغير عليه أمر يعينه على الآخرة، فيثاب على ذلك.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب على ما تقدم، وأنه يشبه حينئذ الكلب الضاري، والسبع العادي، وأنه يكون مجانباً لأخلاق الأنبياء والعلماء في عاداتهم، لتميل نفسه إلى الاقتداء بهم.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام، مثل أن يكون سبب غضبه أن يقول له الشيطان: إن هذا يحمل منك على العجز، والذلة والمهانة، وصغر النفس، وتصير حقيراً في أعين الناس، فليقل لنفسه: تأنفين من الاحتمال الآن، ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك. وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين.

وينبغي أن يكظم غيظه، فذلك يعظمه عند الله تعالى، فما له وللناس؟ أفلا يجب أن يكون هو القائم يوم القيامة إذا نودي: ليقم من وقع أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا، فهذا وأمثاله ينبغي أن يقرره على قلبه.

السادس: أن يعلم أن غضبه إنما كان من شيء جرى على وفق مراد الله تعالى، لا على وفق مراده، فكيف يقدم مراده على مراد الله تعالى، هذا ما يتعلق بالقلب.

وأما العمل، فينبغي له السكون، والتعوذ، وتغيير الحال، وإن كان قائماً جلس، وإن كان جالساً اضطجع، وقد أمرنا بالوضوء أيضاً عند الغضب، فهذه الأمور وردت في الأحاديث.

أما الحكمة في الوضوء عند الغضب، فقد بينها في الحديث. كما روى أبو وائل قال: كنا عند عروة بن محمد، فكلمه رجل بكلام، فغضب غضباً شديداً، فقام وتوضأ، ثم جاء فقال: حدثني أبي عن جدي عطية ـ وكانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الغَضَبَ مِن الشَّيطان، وإنَّ الشَّيطان خُلِقَ من النار، وإنما تُطْفَأ النارُ بالماء، فإذا غَضِبَ أحدُكم فليتوضأ»[1].

وأما الجلوس والاضطجاع، فيمكن أن يكون إنما أمر بذلك ليقرب من الأرض التي منها خلق، فيذكر أصله فيذل، ويمكن أن يكون ليتواضع بذله، لأن الغضب ينشأ من الكبر، بدليل ما روى أبو سعيد، عن النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) أبو داود (٤٧٨٤)، أحمد (٤/٢٢٦)، البغوي (٣٥٨٣).

وسلم أنه ذكر الغضب وقال: «مَنْ وَجَدَ شيئاً من ذلك، فليلصِقْ خَدَّه بالأرض»(١).

وقيل: غضب المهدي على رجل، فدعا بالسياط فلما رأى شبيب شدة غضبه، وإطراق الناس، فلم يتكلموا بشيء، قال: يا أمير المؤمنين، لا تغضبن لله بأشد مما غضب لنفسه، فقال: خلوا سبيله.

فصل [في كظم الغيظ]

قال الله تعالى: ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] فذكر ذلك في معرض المدح.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ كَظَم غَيظاً وهو قادرٌ على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء»(٢).

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

فصل [في الحلم]

روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنَّما العِلم بالتعَلُّم، والحِلم بالتَحلُّم»(٣).

«اطلبوا العلمَ، واطلبوا مع العلم السكينة والحلم، لينوا لمن تُعَلِّمون ولمن تَعلَّمونَ منه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء، فيغلبَ جهلُكم عليكم»(٤).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لأشج بن قيس: «إن فيك خلقين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»(٥).

وشتم رجل ابن عباس رضي الله عنه، فلما قضى مقالته، فقال: يا عكرمة، انظر هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحيى.

وأسمع رجل معاوية كلاماً شديداً، فقيل له: لو عاقبته؟ فقال: إني لأستحي أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي.

---

(١) الترمذي (٢١٩١)، أحمد (٦١،١٩/٣)، البغوي (٤٠٣٩).

(٢) الترمذي (٢٠٢١، ٢٤٩٣)، أبو داود (٤٧٧٧)، وابن ماجه (٤١٨٦)، وأحمد (٤٤٠/٣).

(٣) الخطيب في تاريخه (١٢٧/٩).

(٤) أورده ابن عدي (١٦٤٣) وفيه عباد بن كثير قال البخاري: تركوه.

(٥) مسلم (٣٦/١، ٣٧)، أحمد (٢٣/٣)، والبخاري في الأدب (٥٨٥، ٥٨٦).

وقسم معاوية نطعاً، فبعث منها إلى شيخ من أهل دمشق فلم يعجبه، فجعل عليه يميناً أن يضرب رأس معاوية، فأتى معاوية فأخبره، فقال له معاوية: أوف بنذرك وارفق بالشيخ.

وجاء غلام لأبي ذر وقد كسر رجل شاة له، فقال له: من كسر رجل هذه؟ قال: أنا فعلته عمداً لأغيظك، فتضربني، فتأثم. فقال: لأغيظن من حرضك على غيظي، فأعتقه.

وشتم رجل عدي بن حاتم وهو ساكت، فلما فرغ من مقالته قال: إن كان بقي عندك شيء فقل قبل أن يأتي شباب الحي، فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا.

ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلة في الظلمة، فمر برجل نائم فعثر به، فرفع رأسه وقال: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا، فهمَّ به الحرس، فقال عمر: مه، إنما سألني أمجنون؟ فقلت: لا.

ولقي رجل علي بن الحسين رضي الله عنهما، فسبه، فثارت إليه العبيد، فقال: مهلاً، ثم أقبل على الرجل فقال: ما ستر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحى الرجل، فألقى عليه خميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الرسول.

وقال رجل لوهب بن منبه: إن فلاناً شتمك، فقال: ما وجد الشيطان بريداً غيرك.

فصل [في العفو والرفق]

اعلم: أن معنى العفو أن تستحق حقاً فتسقطه، وتؤدي عنه من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم والكظم. وقال الله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤١]، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»

وعن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عقبة، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعك، وتعطي من

حرمك، وتعفو عمن ظلمك»[1].

وروي أن منادياً ينادي يوم القيامة: ليقم من وقع أجره على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا عمن ظلمه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»[2].

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الله عزّ وجلّ يحب الرفق في الأمر كله»[3].

وفي حديث آخر: «من يحرم الرفق يحرم الخير»[4].

باب في الحقد والحسد

اعلم: أن الغيظ إذا كظم لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن، فاحتقن فيه فصار حقداً.

وعلامته دوام بغض الشخص واستثقاله والنفور منه، فالحقد ثمرة الغضب، والحسد من نتائج الحقد.

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء»[5].

وفي «الصحيحين» عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، كونوا عباد الله إخواناً»[6].

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[7].

وفي حديث آخر أنه قال: «يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة،

---

(١) أحمد (٤/١٤٨)، والبغوي (٣٤٤٣)، والحاكم (٤/١٦١).

(٢) البزار (١٩٦١ - كشف الأستار).

(٣) البخاري (٨/١٤)، مسلم (٧/٤).

(٤) مسلم (٨/٢٢)، ابن ماجه (٣٦٨٧)، أحمد (٤/٣٦٢).

(٥) الترمذي (٢٥١٠)، أحمد (١/١٦٥، ١٦٧).

(٦) البخاري (٨/٢٣)، ومسلم (٨/١٠).

(٧) ابن ماجه (٤٢١٠)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/٢٩٨): هذا إسناد فيه عيسى بن أبي عيسى وهو ضعيف.

فطلع رجل، فسئل عن عمله، فقال: إني لا أجد لأحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه»[1].

وروينا أن الله تبارك وتعالى يقول:

«الحاسد عدو نعمتي، متسخط لقضائي، غير راض بقسمتي بين عبادي».

وقال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى الجنة، وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى النار.

وقال إبليس لنوح عليه السلام: إياك والحسد، فإنه صيرني إلى هذه الحال.

واعلم: أن الله تعالى إذا أنعم على أخيك نعمة، فلك فيها حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، فهذا هو الحسد.

والحالة الثانية: أن لا تكره وجودها ولا تحب زوالها، ولكنك تشتهي لنفسك مثلها، فهذا يسمى غبطة.

قال المصنف رحمه الله:

قلت: واعلم أني ما رأيت أحداً حقق الكلام في هذا كما ينبغي، ولا بد لي من كشفه فأقول:

اعلم: أن النفس قد جبلت على حب الرفعة، فهي لا تحب أن يعلوها جنسها، فإذا علا عليها، شق عليها وكرهته، وأحبت زوال ذلك ليقع التساوي، وهذا أمر مركوز في الطباع. وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ثلاث لا ينجو منهن أحد: الظن، والطيرة، والحسد، وسأحدثكم ما المخرج من ذلك، إذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ»[2].

وعلاج الحسد، تارة بالرضى بالقضاء، وتارة بالزهد في الدنيا، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلى بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلاً، ولا ينطق، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته.

---

(١) أحمد (٣/١٦٦)، البغوي (٣٥٣٥)، والبزار (١٩٨١).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الحسد».

فأما من يحسد نبياً على نبوته، فيجب أن لا يكون نبياً، أو عالماً على علمه فيؤثر أن لا يرزق ذلك أو يزول عنه، فهذا لا عذر له، ولا تجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة، فأما إن أحب أن يسبق أقرانه، ويطلع على ما لم يدركوه، فإن لا يأثم بذلك، فإنه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم، بل أحب الارتفاع عنهم ليزيد حظه عند ربه، كما لو استبق عبدان إلى خدمة مولاهما، فأحب أحدهما أن يستبق. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٧].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجلٍ آتاه الله عزّ وجلّ القرآن، فهو يقوم بـه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه في الحق آناء الليل وآناء النهار»[1].

والحسد له أسباب:

أحدها: العـداوة، والتكبر، والعجب، وحب الـرياسـة، وخبث النفس، وبخلها، وأشدها: العداوة والبغضاء، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب، وخالفه في غرضه، أبغضه قلبه، ورسخ في نفسه الحقد.

والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك، وظنه مكافأة من الله تعالى له، ومهما أصابته نقمة ساءه ذلك، فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقي أن لا يبغي، وأن يكره ذلك من نفسه، فأما أن يبغض إنساناً فيستوي عنده مسرته ومساءته، فهذا غير ممكن.

وأما الكبر، فهو أن يصيب بعض نظرائه مالاً أو ولاية، فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره، وأن يكون من أصاب ذلك دونه، فلا يحتمل ترفعه عليه أو مساواته. وكان حسد الكفار لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريباً من ذلك. قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] وقال في حق المؤمنين: ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقال في آية أخرى: ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ [يس: ١٥] وقال: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٤] فعجبوا وأنفوا من أن يفوز برتبة الرسالة بشر مثلهم فحسدوهم.

وأما حب الرياسة والجاه، فمثاله أن الرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون، إذا غلب عليه حب الثناء، واستفزه الفرح بما يمدح به، من أنه

---

(1) البخاري (٦/٢٣٦)، ومسلم (٢/٢٠١).

أوحد العصر، وفريد الدهر في فنه، إذا سمع بنظير له في أقصى العالم، ساءه ذلك وأحب موته، أو زوال النعمة التي بها يشاركه في علم، أو شجاعة، أو عبادة، أو صناعة، أو ثروة، أو غير ذلك، وليس ذلك إلا لمحض الرياسة بدعوى الانفراد.

وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يؤمنون خوفاً من بطلان رئاستهم.

وأما خبث النفس وشحها على عباد الله، فإنك تجد من الناس من لا يشتغل برئاسة ولا تكبر، وإذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم عليه به، شق عليه ذلك، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وتنغيص عيشهم، فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته.

وقد قال بعض العلماء: البخيل من يبخل بمال نفسه، والشحيح الذي يبخل بمال غيره، فهذا يبخل بنعمة الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة، وهذا ليس له سبب إلا خبث النفس ورداءة الطبع، وهذا معالجته شديدة، لأنه ليس له سبب عارض، فيعمل على إزالته، بل سببه خبث الجبلة، فيعسر إزالته، فهذه أسباب الحسد.

فصل [في سبب كثرة الحسد]

واعلم: إنما يكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها، ويقع ذلك غالباً بين الأقران، والأمثال، والإخوة، وبني العم، لأن سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل فيها، فيثور التنافر والتباغض.

ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، والإسكاف يحسد الإسكاف، ولا يحسد البزاز إلا أن يكون سبب آخر، لأن مقصد كل واحد من هؤلاء غير مقصد الآخر.

فأصل العداوة التزاحمُ على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين، إذ لا رابطة بين شخصين في بلدين، ولا يكون بينهما محاسدة إلا من اشتد حرصه على الجاه، فإنه يحسد كل من في العالم ممن يساهمه في الخصلة التي يفاخر بها.

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين،

وأما الآخرة، فلا ضيق فيها، فإن من أحب معرفة الله تعالى، وملائكته، وأنبياءه، وملكوت أرضه وسماءه، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين، بل المعلوم الواحد يعرف ألف ألف عالم، وَيفرحُ بمعرفته غيرهُ، فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة، لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه، وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله، ولا ضيق فيما عند الله، لأن أجل ما عند الله من النعيم لذة لقائه، وليس فيه ممانعة ولا مزاحمة. ولا يضيق بعض الناظرين على بعض، بل يزيد الأنس بكثرتهم، إلا أنه إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا.

والفرق بين العلم والمال، أن المال لا يحل في يدٍ ما لم يرتحل عن يد أخرى، والعلم مستقر في قلب العالم، ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه، ولا نهاية له، فمن عوّد نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكه، صار ذلك عنده ألذ من كل نعيم، لأنه لم يكن ممنوعاً عنه ولا مزاحماً فيه، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق، لأن غيره لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته، فقد عرفت أنه لا حسد إلا في المتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل.

ولهذا لا ترى الناس يتزاحمون على النظر إلى زينة السماء، لأنها واسعة الأقطار، وافية بجميع الأبصار، فعليك إن كنت شفيقاً على نفسك أن تطلب نعيماً لا زحمة فيه، ولذة لا تتكدر، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله تعالى وعجائب ملكوته، ولا ينال ذلك في المعرفة أيضاً، فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله سبحانه، ولم تجد لذتها، وضعفت فيها رغبتك، فلست برجل، إنما هذا شأن الرجال، لأن الشوق بعد الذوق، ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقي من المحرومين.

واعلم: أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا، وأنه لا يضر المحسود في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع به، والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك، ولو لم تكن تؤمن بالبعث لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد، لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع، فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب في الآخرة.

وبيان قولنا: أن المحسود لا ضرر عليه في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع

بحسدك في الدين والدنيا، لأن ما قدره الله له من نعمة لا بد أن تدوم إلى أجله الذي قدره، ولا ضرر عليه في الآخرة، لأنه لا يأثم هو بذلك، بل ينتفع به، لأنه مظلوم من جهتك، لا سيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل.

وأما منفعته في الدنيا، فهو أن من أهم أغراض الخلق غم الأعداء، ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحسد.

فإذا تأملت ما ذكرنا، علمت أنك عدو لنفسك، وهو صديق لعدوك، فما مثلك إلا كمثل من يرمي حجراً عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه، ويرجع الحجر على حدقته اليمنى فيقلعها، فيزيد غضبه، فيعود ويرميه بحجر أشد من الأول، فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيعميها، فيزداد غيظه، فيرميه الثالثة، فيعود الحجر على رأسه فيشدخه، وعدوه سالم يضحك منه، فهذه الأدوية العلمية، فإذا تفكر الإنسان فيها، أخمدت نار الحسد من قلبه.

وأما العمل النافع فيه، فهو أن يتكلف نقيض ما يأمر به الحسد، فإذا بعثه على الحقد والقدح في المحسود، كلف نفسه المدح له، والثناء عليه، وإن حمله الكبر، ألزم نفسه التواضع له، وإن بعثه على كف الإنعام عنه، ألزم نفسه زيادة في الإنعام.

وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصاً اغتابهم، أهدوا إليه هدية.

فهذه أدوية نافعة للحسد جداً، إلا أنها مرة، وربما يسهل شربها أن يعلم أنه إذا كان لا يكون كل ما تريد، فأرد ما يكون، وهذا هو الدواء الكلي، والله أعلم.

باب في ذم الدنيا

الآيات الواردة في القرآن العزيز بعيب الدنيا، والتزهيد فيها، وضرب الأمثال لها كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ الآية [آل عمران: ١٤ ـ ١٥]، وقوله: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وقوله: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقوله: ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:

٣٥]، وقوله: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن من تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهم مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [النجم: ٢٩ - ٣٠].

وأما الأحاديث، ففي «الصحيحين» من رواية المسور بن شداد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبَعهُ في اليم، فلينظر بم ترجع؟»[١].

وفي حديث آخر: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٢] رواه مسلم.

وفي حديث آخر: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»[٣]. رواه الترمذي وصححه.

وفي حديث آخر: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها»[٤].

وروى أبو موسى، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من أحب دنياه، أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[٥].

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتاباً طويلاً فيه: أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة. وكن أسرَّ ما تكون فيها، احذر ما تكون لها، سرورها مشوب بالحزن، وصفوها مشوب بالكدر، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبراً، ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عزَّ وجلَّ عنها زاجر، وفيها واعظ، فما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن، ما نظر إليها منذ خلقها.

ولقد عرضت على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مفاتيحها وخزائنها، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، زواها الله عن الصالحين اختياراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها؟ ونسي ما صنع الله بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم حين شد على بطنه الحجر، والله ما أحد من الناس بسط له في

---

(١) مسلم (١٥٦/٨)، الترمذي (٢٣٢٣) وابن ماجه (٤١٠٨).

(٢) مسلم (٢١٠/٨) والترمذي (٢٣٢٤)، وابن ماجه (٤١١٣)، وأحمد (٣٢٣/٢، ٣٨٩).

(٣) الترمذي (٢٣٢٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢٥٣/٣).

(٤) الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، والبغوي (٤٠٢٨).

(٥) أحمد (٤١٢/٤)، والحاكم (٣٠٨/٤)، وابن حبان (٢٤٧٣)، والبغوي (٤٠٣٨).

الدنيا، فلم يخف أن يكون قد مكر به، إلا كان قد نقص عقله، وعجز رأيه، وما أمسك عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه.

وقال مالك بن دينار: اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء، يعني الدنيا.

ومن أمثلة الدنيا: قال يونس بن عبيد: شبهت الدنيا كرجل نائم، فرأى في منامه ما يكرهه وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه.

ومثل هذا قولهم: الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا.

والمعنى أنهم ينتبهون بالموت وليس في أيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به.

قيل: إن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة. فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم. قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين، كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد، ولا يكونون منك على حذر.

رروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية، مشوه خلقها، فتشرف على الخلق، فيقال: هل تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه. فيقال: هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها، وبها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم تقذف في جهنم، فتنادي: يا رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها.

وعن أبي العلاء، قال: رأيت في النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة، والناس عكوف عليها متعجبون، ينظرون إليها، فقلت: من أنت ويلك؟ قالت: أما تعرفني؟ قلت: لا، قالت: أنا الدنيا. فقلت: أعوذ بالله من شرك. قالت: إن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم.

وقال بعضهم: رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوهة الخلقة حدباء.

مثال آخر: واعلم أن أحوالك ثلاث:

حال لم تكن فيها شيئاً، وهي قبل أن توجد.

وحال أخرى، وهي من ساعة موتك إلى ما لا نهاية له في البقاء السرمدي، فإن لنفسك وجوداً بعد خروجها من بدنك، إما في الجنة أو النار، وهو الخلود الدائم.

وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة، وهي أيام حياتك في الدنيا، فانظر إلى مقدار ذلك، وانسبه إلى الحالتين، تعلم أنه أقل من طرفة عين في مقدار عمر الدنيا.

ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها، ولم يبال كيف انقضت أيامه بها في ضرر وضيق، أو سعة ورفاهية، ولهذا لم يضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة. وقال: «ما لي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب، قال تحت شجرة، ثم راح وتركها»[1].

وقال عيسى عليه السلام: الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها. هذا مثل واضح، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة، واللحد هو الركن الثاني على آخر القنطرة.

ومن الناس من قطع نصف القنطرة، ومن الناس من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيفما كان فلا بد من العبور، فمن وقف يبني على القنطرة ويزينها وهو يستحث للعبور عليها، فهو في غاية الجهل والحمق.

وقيل: مثل طالب الدنيا، مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً، ازداد عطشاً حتى يقتله.

وكان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.

مثال آخر: روي عن الحسن قال: بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي، أنفذوا الزاد وخسروا الظهر، وبقوا بين ظهراني المفازة، لا زاد ولا حمولة، فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رجل في حلة يقطر رأسه، فقالوا: إن هذا قريب عهد بريف، وما جاء هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء، علام أنتم؟ قالوا: على ما ترى. قال: أرأيتكم إن هديتكم إلى ماءٍ رواءٍ، ورياضٍ خضرٍ ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً. قال: عهودكم ومواثيقكم بالله. قال: فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله

(١) الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد (٣٩١/١، ٤٤١)، والحاكم (٣١٠/٤)، والبغوي (٤٠٣٤).

لا يعصونه شيئاً. قال: فأوردهم ماءً ورياضاً خضراً، فمكث فيهم ما شاء الله، ثم قال: يا هؤلاء، الرحيل. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كماءكم، وإلى رياض ليست كرياضكم، فقال أكثر القوم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده، وما نصنع بعيش خير من هذا؟ وقالت طائفة قليلة: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه؟ وقد صدقكم في أول حديثه، فوالله ليصدقنكم في آخره. قال: فراح فيمن اتبعه، وتخلف بقيتهم، فنزل عدو، فأصبحوا بين أسير وقتيل»[1].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وأنا النذير العريان، فالنجاء، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم، فنجوا، وكذبته طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم. فصبَّحهم الجيش في مكانهم، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من حق»[2].

فصل [في بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود]

قد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقاً، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التي خلقت للمنافع، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب.

وقد وضع الله في الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها، فكلما تاقت منعوها، ظناً منهم أن هذا هو الزهد المراد، وجهلاً بحقوق النفس، وعلى هذا أكثر المتزهدين، وإنما فعلوا ذلك لقلة العلم، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول:

اعلم: أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان، فيها حظ، وهي الأرض وما عليها، فإن الأرض مسكن الآدمي، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله عزّ وجلّ، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به مدح، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنف الشره وقع

(١) ابن المبارك في الزهد (٥٠٧).

(٢) البخاري (٩/١١٥)، ومسلم (٧/٦٣).

في الذم، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى، ويشغل عن طلب الآخرة فيفوت المقصود، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة، ويرد لها الماء، ويغير عليها ألوان الثياب، وينسى أن الرفقةَ قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته.

ولا وجه أيضاً للتقصير في تناول الحاجة، لأن الناقة لا تقوى على السير إلا بتناول ما يصلحها، فالطريق السليم هي الوسطى، وهي أن يؤخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك، وإن كان مشتهىً، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها.

وقد كان سفيان الثوري يأكل في أوقات من طيب الطعام، ويحمل معه في السفر الفالوذج.

وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات في بعض الأوقات، ويقول: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال.

ولينظر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته، فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا، ولا تفريط في حقوق النفس.

وينبغي أن يتلمح حظ النفس في المشتهى، فإن كان في حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها وينشطها للخير، فلا يمنعها منه، وإن كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة فذلك حظ مذموم، والزهد فيه يكون.

باب في ذم البخل والحرص والطمع وذم المال ومدحه ومدح القناعة والسخاء، ونحو ذلك

اعلم: أن المال لا يذم لذاته بل يقع الذم لمعنى من الآدمي، وذلك المعنى إما شدة حرصه أو تناوله من غير حله، أو حبسه عن حقه، أو إخراجه في غير وجهه، أو المفاخرة به، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إنما أَمْوَالُكُم وَأَوْلَادُكُم فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وفي «سنن الترمذي» عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[١].

(١) الترمذي (٢٣٧٦)، والدارمي (٢/٣٠٤)، وأحمد (٣/٤٥٦، ٤٦٠)، والبغوي (٤٠٥٤)، وابن حبان (٢٤٧٢).

وقد كان السلف يخافون من فتنة المال. وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى الفتوح يبكي ويقول: ما حبس الله هذا عن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وعن أبي بكر لشرٍّ أراده الله بهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له.

وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلتك سمه. قيل: ما رقيته؟ قال: أخذه مِنْ حِلِّه ووضعه في حقه. وقال: مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما، قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله.

بيان في مدح المال

قد بينّا أن المال لا يذم لذاته بل ينبغي أن يمدح، لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا، وقد سماه الله تعالى خيراً، وهو قوام الآدمي. قال الله تعالى في أول سورة النساء: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾ [النساء: ٥].

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي منه حقه.

وقال أبو إسحاق السبيعي: كانوا يرون السعة عوناً على الدين.

وقال سفيان: المال في زماننا هذا سلاح المؤمنين.

وحاصل الأمر؛ أن المال مثل حية فيها سم وترياق، فترياقه فوائده، وغوائله سمه، فمن عرف فوائده وغوائله، أمكنه أن يحترز من شره، ويستدر من خيره.

أما فوائده، فتنقسم إلى دنيوية ودينية:

أما الدنيوية، فالخلق يعرفونها، ولذلك تهالكوا في طلبها.

وأما الدينية، فتنحصر في ثلاثة أنواع:

أحدها: أن ينفقه على نفسه، إما في عبادة، كالحج والجهاد، وإما في الاستعانة على العبادة، كالمطعم والملبس والمسكن وغيرها من ضرورات المعيشة، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر، لم يتفرغ القلب للدين والعبادة، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به، فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية، ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة على الحاجة، فإن ذلك من حظوظ الدنيا.

النوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام:

أحدها: الصدقة، وفضائلها كثيرة مشهورة.

القسم الثاني: المروءة، ونعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة ونحو ذلك، وهذا من الفوائد الدينية، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء.

القسم الثالث: وقاية العرض نحو بذل المال لدفع هُجو الشعراء، وثلب السفهاء، وقطع ألسنتهم، وكف شرهم، فهو من الفوائد الدينية، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «وما وقى الرجل به عرضه فهو صدقة»[1]. وهذا لأنه يمنع المغتاب من معصية الغيبة، ويحرز مما يثير كلامه من العداوة التي تحمل في الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة.

القسم الرابع: ما يعطيه أجراً على الاستخدام، فإن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لمهنة أسبابها كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتعذر عليه سلوك الآخرة بالفكر والذكر اللذين هما أعلى مقامات السالك، ومن لا مال له يفتقر إلى أن يتولى خدمة نفسه بنفسه، فكل ما يتصور أن يقوم به غيرك، ويحصل بذلك غرضك، فإن تشاغلك به غبن، لأن احتياجك إلى التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم والعمل والذكر والفكر أشد.

النوع الثالث: ما لا يصرفه الإنسان إلى معين، لكن يحصل به خيراً عاماً، كبناء المساجد، والقناطر، والوقوف المؤبدة، فهذه جملة فوائد المال في الدين، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة، من الإخلاص من ذل السؤال، وحقارة الفقر، والعز بين الخلق، والكرامة في القلوب، والوقار.

وأما غوائل المال وآفاته، فتنقسم أيضاً إلى دينية ودنيوية:

أما الدينية فثلاث فئات:

الأولى: أنه يجر إلى المعاصي غالباً، لأن من استشعر القدرة على المعصية، انبعثت داعبته إليها.

والمال نوع من القدرة يحرك داعيته إلى المعاصي، ومتى يئس الإنسان من المعصية، لم تتحرك داعيته إليها.

---

(١) البغوي (١٦٤٦)، والحاكم (٢/٥٠) وصححه ولكن الذهبي رده بقوله: عبد الحميد ضعفوه، الخرائطي في مكارم الأخلاق (٨٣)، والدارقطني (٣/٢٨).

ومن العصمة أن لا تجد، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهي هلك، وإن صبر لقي شدة في معاناة الصبر مع القدرة، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أنه يحرك إلى التنعم في المباحات، حتى تصير له عادة وإلفاً، فلا يصبر عنها، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة، فيقتحم الشبهات، ويترقى إلى آفات من المداهنة والنفاق، لأن من كثر ماله خالط الناس، وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغيبة، وكل ذلك من الحاجة إلى إصلاح المال.

الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد، وهو أن يلهيه ماله عن ذكر الله تعالى، وهذا هو الداء العضال، فإن أصل العبادات ذكر الله تعالى، والتفكير في جلاله وعظمته، وذلك يستدعي قلباً فارغاً.

وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكراً في خصومة الفلاحين ومحاسبتهم وخيانتهم، ويتفكر في منازعة شركائه في الحدود والماء، وأعوان السلطان في الخراج والأجراء على التقصير في العمارة ونحو ذلك.

وصاحب التجارة يمسي ويصبح متفكراً في خيانة شريكه، وتقصيره في العمل، وتضيعه المال.

وكذا سائر أصناف المال، حتى صاحب المال المجموع المكنوز يفكر في كيفية حفظه، وفي الخوف عليه.

ومن له قوت يوم بيوم فهو في سلامة من جميع ذلك، وهذا سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا، من الخوف والحزن والهم والغم والتعب.

فإذاً ترياق المال أخذ القوت منه، وصرف الباقي إلى الخيرات، وما عدا ذلك سموم وآفات.

بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس

واعلم: أن الفقر محمود، ولكن ينبغي للفقير أن يكون قانعاً، منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريص على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس.

وقد روي في «صحيح مسلم» عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»[1].

وقال سليمان بن داود عليهما السلام: قد جربنا العيش كله، لينه من شديده، فوجدناه يكفي منه أدناه.

وفي حديث جابر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «القناعة مال لا ينفد»[2].

وقال أبو حازم: ثلاث من كن فيه كمل عقله: من عرف نفسه، وحفظ لسانه، وقنع بما رزقه الله عزّ وجلّ.

وقرأ بعض الحكماء: أنت أخو العز ما التحفت بالقناعة

أما الحرص، فقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «أيها الناس، أجملوا في الطلب، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له»[3].

ونهى عن الطمع فقال: «اجمع اليأسَ مما في أيدي الناس»[4]

وقال بعضهم: لو قيل للطمع: من أبوك؟ قال: الشك في المقدور، ولو قيل له: ما حرفتك؟ قال: اكتساب الذل، ولو قيل له: ما غايتك؟ قال: الحرمان.

وقيل: الطمع يذل الأمير، واليأس يعز الفقير.

بيان علاج الحرص والطمع
والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان:

الصبر، والعلم، والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:

الأول: الاقتصاد في المعيشة، والرفق في الإنفاق، فمن أراد القناعة فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه، ويرد نفسه إلى ما لا بد منه، فيقنع بأي طعام كان، وقليل من الإدام، وثوب واحد، ويوطن نفسه على ذلك، وإن كان له

---

(١) مسلم (٣/١٠٢)، والترمذي (٢٣٤٨)، والبغوي (٤٠٤٣)، وأحمد (٢/١٦٨).

(٢) أورده ابن عدي (١٥٠٧) وفيه عبدالله بن أبي عمرو الغفاري: متروك الحديث.

(٣) ابن ماجه (٢١٤٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٤١٨)، والحاكم (٢/٣) وصححه ووافقه الذهبي والبيهقي (٥/٢٦٤)، وأبو نعيم في الحلية (٣/٢٦٥).

(٤) ابن ماجه (٤١٧١)، وأحمد (٥/٤١٢).

عيال، فيرد كل واحد إلى هذا القدر.

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما عال من اقتصد»[1] وفي حديث آخر: «التدبير نصف العيش»[2]. وفي حديث آخر: «ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضى والغضب»[3].

الثاني: إذا تيسر له في الحال ما يكفيه، فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الأمل، واليقين بأن رزقه لا بد أن يأتيه، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي، أنه ليس من نفس تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله عزّ وجلّ، فإنه لا يدرك عند الله إلا بطاعته»[4].

وإذا انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه، فإن في الحديث: «أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب»[5].

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وما في الطمع والحرص من الذل.

وليس في القناعة إلا الصبر عن المشتبهات والفضول، مع ما يحصل له من ثواب الآخرة، ومن لم يؤثر عزًّ نفسه عن شهوته، فهو ركيك العقل، ناقص الإيمان.

الرابع: أن يكثر تفكره في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى منهم، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين، ويسمع أحاديثهم، ويطالع أحوالهم، ويخير عقله بين مشابهة أراذل العالمين، أو صفوة الخلق عند الله تعالى، حتى يهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير، وأنه إن تنعم بالأكل فالبهيمة أكثر أكلاً منه، وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سفاداً منه.

---

(١) أحمد (١/٤٤٧)، وأورده ابن عدي (١٣٠١) وفيه إبراهيم الهجري ضعيف الحديث.

(٢) رواه الديلمي في (مسند الفردوس)، وفيه خلاد بن عيسى جهله العقيلي ووثقه ابن معين.

(٣) البزار (٨٠ ـ كشف الأستار).

(٤) الحاكم في المستدرك (٢/٤)، والبغوي (٤١١٠ ـ ٤١١٣)، والشافعي في الرسالة (٣٠٦).

(٥) رواه الديلمي في (مسند الفردوس) وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، وفيه عمر بن راشد متروك.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر، كما ذكرنا في آفات المال، وينظر إلى ثواب الفقر، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه في الدنيا، وإلى من فوقه في الدين، كما جاء في الحديث من رواية مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»(١).

عماد الأمر: الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل لتمتع دائم، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لما يرجو من الشفاء.

فصل [في لزوم القناعة لمن فقد المال]

ينبغي لمن فقد المال أن يستعمل القناعة كما ذكرنا، ولمن وجده أن يستعمل السخاء والإيثار واصطناع المعروف، فإن السخاء أخلاق الأنبياء، وهو أصل من أصول النجاة.

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «قال جبريل عليه السلام: قال الله عزّ وجلّ: الإسلام دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما صحبتموه»(٢).

وفي حديث آخر: عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تجافوا عن ذنوب السخي، فإن الله آخذ بيده كلما عثر»(٣).

وفي حديث آخر: «الجنة دار الأسخياء، وما جبل ولي الله إلا على السخاء»(٤).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بعبادة ولا بصيام، ولكن دخلوها بسخاء النفس، وسلامة الصدر، والنصح للمسلمين»(٥).

---

(١) مسلم (٨/٢١٣)، والترمذي (٢٥١٣).

(٢) الخرائطي في مكارم الأخلاق (٣١٥)، وأورده أبو حاتم في العلل (٢/٣٤٣) وقال: موضوع. وأورده ابن عدي (١٥٠٦).

(٣) الخرائطي في مكارم الأخلاق (٣٢٦) وفيه ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(٤) الخرائطي في مكارم الأخلاق (٣٥)، وأورده ابن عدي (١٩٠) وأورده ابن الجوزي في الموضوعات.

(٥) أورده ابن عدي (٢٢٩١) وفيه محمد بن عبد العزيز الدينوري، وهو متروك.

وفي حديث آخر: «عليكم باصطناع المعروف، فإنه يمنع مصارع السوء»[1].

وقال ابن السماك: عجبت ممن يشتري المماليك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه؟!.

ومن حكايات الأسخياء:

قد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وأنه ما سئل شيئاً قط فقال: لا. وأن رجلاً سأله، فأعطاه غنماً بين جبلين، فأتى الرجل قومه، فقال: يا قوم: أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

وقيل: كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم، فخرج إلى المسجد، فقال له طلحة: قد تهيأ مالك فاقبضه، فقال: هو لك يا أبا محمد معونة على مروءتك.

وجاء أعرابي إلى طلحة، فسأله، وتعرف إليه برحم، فقال: إن هذه الرحم، ما سألني بها أحد قبلك، فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم.

وقال عروة: رأيت عائشة رضي الله عنها تقسم سبعين ألفاً، وهي ترقع درعها.

وروي أنها قسمت في يوم ثمانين ومائة ألف بين الناس، فلما أمست قالت: يا جارية عليَّ فطوري، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أم درة: أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه!؟ فقالت: لو ذكرتني لفعلت.

واشترى عبدالله بن عامر من خالد بن عقبة داره التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل، سمع بكاء أهل خالد. فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا: يبكون على دارهم، قال: يا غلام: ائتهم، فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً.

وبعث رجل إلى عبد الله أنه قد وصف لي لبن البقر، فابعث لي بقرة أشرب من لبنها. فبعث إليه بسبعمائة بقرة ورعاتها، وقال: القرية التي كانت ترعى فيها لك.

ودخل علي بن الحسن على محمد بن أسامة بن زيد في مرضه، فجعل يبكي، فقال: ما شأنك؟ قال: عليَّ دين، قال: كم هو؟ قال: خمسة عشر ألف

---

(1) ابن أبي الدنيا في (قضاء الحوائج)، والطبراني في (الأوسط).

دينار، أو بضعة عشر ألف دينار. قال: فهي عليَّ.

وجاء رجل إلى معن، فسأله، فقال: يا غلام: ناقتي الفلانية وألف دينار، فدفعها إليه وهو لا يعرفه.

وبلغنا عن معن أن شاعراً أقام ببابه مدة فلم يتهيأ له لقاؤه، فقال لبعض خدمه: إذا دخل الأمير البستان فعرِّفني، قال: فلما دخل عرّفه، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، فلما بصر معن بالخشبة، أخذها، فإذا فيها مكتوب:

أيا جود معن ناج معناً بحاجتي فما لي إلى معنٍ سواك شفيع

فقال من صاحب هذه؟ فدعا الرجل، فقال له: كيف قلتَ؟ فقاله، فأمر له بعشر بدر[1]، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط، وقرأ ما فيها، ودعا الرجل، فدفع إليه مائة ألف درهم أخرى، فلما أخذها الرجل، خاف أن يعود فيستعيدها منه، فخرج، فلما كان اليوم الثالث، قرأ ما فيها، فدعا الرجل فطلب فلم يوجد. فقال معن: حق عليَّ أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار.

ومرض قيس بن سعد بن عبادة، فاستبطأ إخوانه، فقيل له، إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً، ينادي: من كان عليه لقيس حق، فهو منه في حل، قال: فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده.

وقام رجل إلى سعيد بن العاص يسأله، فأمر له بمائة ألف درهم، فبكى، فقال سعيد: ما يبكيك؟ قال: أبكي على الأرض أن تأكل مثلك، فأمر له بمائة ألف أخرى.

فصل [في البخل وذمه]

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق»[2].

---

(١) البدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم.

(٢) الترمذي (١٩٦٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٢) وفي سنده صدقة بن موسى وهو ضعيف، ضعفه النسائي وابن معين.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً»[1].

وفي أفراد مسلم، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل»[2].

وروى جابر رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لبني سلمة: «من سيدكم؟ قالوا: جد بن قيس على أننا نبخله، قال: وأي داءٍ أدوأ من البخل؟ بل سيدكم بشر بن البراء بن معرور»[3] وهي أصح من ذكر عمرو بن الجموح، وغلط بعض الرواة، فقال: البراء بن معرور، البراء مات قبل الهجرة.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[4].

قال الخطابي: الشح في المنع أبلغ من البخل.

وقال سلمان الفارسي: إذا مات السخي، قالت الأرض والحفظة: رب تجاوز عن عبدك في الدنيا بسخائه، وإذا مات البخيل قالت: اللهم احجب هذا العبد عن الجنة، كما حجب عبادك عما جعلت في يديه من الدنيا.

وقال بعض الحكماء: من كان بخيلاً ورث ماله عدوه.

ووصف أعرابي رجلاً فقال: لقد صغر في عيني لعظم الدنيا في عينه.

وذم أعرابي قوماً فقال: يصومون عن المعروف ويفطرون على الفواحش.

من حكايات البخلاء:

روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان الحاجب رجلاً من أجل العرب، وكان بخيلاً، وكان لا يوقد ناراً بليل كراهة أن يراها راءٍ فينتفع بضوئها، فإذا احتاج إلى إيقادها فأوقد ثم بصر بمستضيء بها أطفأها.

وقيل: كان مروان بن أبي حفصة من أبخل الناس، فخرج يريد المهدي،

---

(١) النسائي (٦/١٣ ـ ١٤)، أحمد (٢/٢٥٦)، الحاكم (٢/٧٢)، والبيهقي (٩/١٦١)، والبغوي (٢٦١٩).

(٢) البخاري (٨/٩٨، ٩٩) ومسلم (٨/٧٥).

(٣) البخاري في الأدب المفرد (٢٩٦).

(٤) البزار (٨٢، ٨٣ ـ كشف الأستار) وأبو نعيم في الحلية (٢/٣٤٣).

فقالت له امرأته: ما لي عليك إن رجعت بالجائزة؟. قال: إن أعطيت مائة ألف درهم، أعطيتك درهماً، فأعطي ستين ألف درهم فأعطاها أربعة دوانق.

وقيل: كان بعض البخلاء موسراً كثير الأموال، وكان ينظر في دقائق الأشياء فاشترى شيئاً من الحوائج، ودعا حمالاً وقال: بكم تحمل هذه الحوائج؟ قال: بحبة. قال: أبخس. قال ما أقل من حبة؟ لا أدري ما أقول. قال: نشتري بالحبة جزراً، فنجلس جميعاً فنأكله.

فصل [في فضل الإيثار وبيانه]

اعلم أن السخاء والبخل درجات:

فأرفع درجات السخاء الإيثار، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه.

وأشد درجات البخل، أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال، ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشهوة فيمنعه منها البخل.

فكم بين من يبخل على نفسه مع الحاجة، وبين من يؤثر على نفسه مع الحاجة، فالأخلاق عطايا يَضَعُها الله عزّ وجلّ حيث يشاء.

وليس بعد الإيثار درجة في السخاء. وقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالإيثار، فقال: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ [الحشر: ٩] وكان سبب نزول هذه الآية قصة أبي طلحة، لما آثر ذلك الرجل المجهود بقوته وقوت صبيانه، وحكايته مشهورة.

واستشهد باليرموك عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وجماعة من بني المغيرة، فأتوا بماء وهم صرعى، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه. أتي عكرمة بالماء فنظر إلى سهيل بن عمرو ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا، ونظر سهيل إلى الحارث ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا، وكل منهم يؤثر الآخر على نفسه بالشربة، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمر بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسي أنتم

وأهدي إلى رجل من الصحابة رضي الله عنه رأس شاة، فقال: إن أخي أحوج إليه مني، فبعث به إلى رجل، فبعث به ذلك إلى آخر، حتى تداولته سبع أبيات، فرجع إلى الأول.

خرج عبدالله بن جعفر إلى ضيعة له، فنزل على نخل لقوم فيها غلام أسود

يعمل فيها، إذ أتى الغلام بقوته، فدخل الحائط كلب، فدنا من الغلام فرمى إليه قرصاً فأكله، ثم رمى إليه قرصاً آخر فأكله، ثم رمى إليه ثالث فأكله، وعبدالله ينظر فقال: يا غلام! كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت، قال: فلم آثرت به هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب، جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده، قال: فما أنت صانع؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبدالله بن جعفر: ألام على السخاء وهذا أسخى مني، فاشترى الحائط وما فيه من الآلات، واشترى الغلام وأعتقه ووهبه له.

واجتمع جماعة من الفقراء في موضع لهم وبين أيديهم أرغفة معدودة لا تكفيهم فكسروا الرغفان، وأطفأوا السراج، وجلسوا للأكل، فلما رفع الطعام، إذا هو بحاله، لم يأكل أحد منهم شيئاً إيثاراً لأصحابه.

فصل [في حد البخل والسخاء]

وقد تكلم الناس في حد البخل والسخاء، فذهب قوم إلى أن حد البخل منع الواجب، وأن من أدى ما يجب عليه، فليس ببخيل، وهذا غير كافٍ، فإن من لم يسلم إلى عياله إلا القدر الذي يفرضه الحاكم، ثم يضايقهم في زيادة لقمة أو تمرة فإنه معدود من البخلاء، فالصحيح أن البراءة من البخل تحصل بفعل الواجب في الشرع واللازم بطريق المروءة مع طيب القلب بالبذل.

فأما الواجب بالشرع، فهو الزكاة، ونفقة العيال.

وأما اللازم بطريق المروءة، فهو ترك المضايقة، والاستقصاء عن المحقرات، فإن ذلك يستقبح، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص، فقد يُستقبح من الغني ما لا يستقبح من الفقير، ويستقبح من الرجل المضايقة لأهله وأقاربه وجيرانه ما لا يستقبح من الأجانب، فالبخيل الذي يمنع ما لا ينبغي أن يمنع، إما بحكم الشرع أو لازم المروءة. ومن قام بواجب الشرع، ولازم المروءة، فقد تبرأ من البخل، لكن لا يتصف بصفة الجود ما لم يبذل زيادة على ذلك.

قال بعضهم: الجواد: هو الذي يعطي بلا منٍّ. وقيل: هو الذي يفرح بالإعطاء. فأما علاج البخل، فاعلم أن سبب البخل حب المال.

ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، وإن كان قصير الأمل وله ولد، فإنه يقوم مقام طول الأمل.

الثاني: أن يحب عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره لو اقتصر على ما جرت عادته به، ويفضل معه آلاف، ويكون شيخاً لا ولد له، ثم لا تسمح نفسه بإخراج الواجب عليه، ولا بصدقة تنفعه، ويعلم أنه إذا مات أخذه أعداؤه، أو ضاع إن كان مدفوناً، وهذا مرض لا يرجى علاجه.

ومثال ذلك مثال رجل أحب شخصاً، فلما جاء رسوله، أحب الرسول ونسي محبوبه واشتغل بالرسول، فإن الدنيا رسول مبلغ إلى الحاجات، فيحب الدنانير لذاتها، وينسى الحاجات، وهذا غاية الضلال.

واعلم: أن علاج كل علة بمضادة سببها.

فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر، وطول الأمل بكثرة ذكر الموت.

ويعالج التفات القلب إلى الولد، بأن من خلقه خلق معه رزقه، وكم ممن لم يرث شيئاً أحسن حالاً مِمَن وَرِثَ.

فليحذر أن يترك لولده الخير، ويقدم على الله بشر، فإن ولده إن كان صالحاً فالله يتولاه، وإن فاسقاً فلا يترك ما يَستَعِينُ به على المعاصي، وليردد على سمعه ما ذكرناه في ذم البخل ومدح السخاء.

واعلم: أنه إذا كثرت المحبوبات في الدنيا، كثرت المصائب بفقدها، فمن عرف آفة المال لم يأنس به، ومن لم يأخذ منه إلا قدر حاجته، وأمسك ذلك لحاجته فليس ببخيل، والله أعلم.

* * *

كتاب ذم الجاه والرياء وعلاجهما وفضيلة الخمول وغير ذلك

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية»[1]. وهذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء، فضلاً عن عامة العباد، وإنما يبتلى بها العلماء والعُباد المشمِّرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم لما قهروا نفوسهم وفطموها عن الشهوات، وحملوها بالقهر على أسباب العبادات، لم تطمع في المعاصي الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فاستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل، ووجدت مخلصاً من شدة المجاهدة في لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم، فأصابت النفس في ذلك لذة عظيمة، فاحتقرت فيها ترك المعاصي، فأحدهم يظن أنه مخلص لله عزَّ وجلَّ، وقد أثبت في ديوان المنافقين، وهذه مكيدة عظيمة لا يسلم منها إلا المقربون.

ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة، وإذا كان ذلك هو الداء الدفين، الذي هو أعظم شبكة للشياطين، وجب شرح القول في سببه، وحقيقته، وأقسامه.

اعلم: أن أصل الجاه هو حب انتشار الصيت والاشتهار، وذلك خطر عظيم، والسلامة في الخمول. وأهل الخير لم يقصدوا الشهرة، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها، فإن وقعت من قبل الله تعالى، فرُّوا عنها، وكانوا يؤثرون الخمول، كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه خرج من منزله، فتبعه جماعة، فالتفت إليهم وقال: علام تتبعوني؟ فوالله لو علمتم ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان.

وفي لفظ آخر أنه قال: ارجعوا، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

وكان أبو العالية رحمه الله إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام.

---

(١) أبو نعيم في الحلية (٧/١٢٢) وأورده ابن عدي (١٥٢٩).

وكان خالد بن معدان رحمه الله إذا عظمت حلقته، قام وانصرف كراهة الشهرة.

وقال الزهري رحمه الله: ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياسة، نرى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال، فإذا نوزع الرياسة، حامىَ عليها وعادى.

قال رجل لبشر الحافي رحمه الله: أوصني، فقال: أخمل ذكرك، وطيب مطعمك. وقال: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب في الدنيا أن يعرفه الناس.

وقد روي في «صحيح مسلم» أن عمر بن سعد انطلق إلى أبيه سعد وهو في غنم له خارجاً عن المدينة، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما أتاه قال: يا أبت أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره وقال: اسكت، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»[1].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذِ، ذو حظ من الصلاة، أحسنَ عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً، فصبر على ذلك»[2] ثم نقر بيده، فقال: «عُجِّلَتْ منيَّته، قلَّت بواكيه، قلَّ تراثه» حديث حسن.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يوصي أصحابه، فيقول: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب، تُعرفون في السماء، وتَخْفَوْنَ على أهل الأرض.

فإن قيل: هذا فيه فضيلة الخمول، وذم الشهرة، وأي شهرة أكثر من شهرة الأنبياء، وأئمة العلماء.

قلنا: المذموم طلب الإنسان الشهرة، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن في وجودها فتنة على الضعفاء، فإن مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعة في السباحة، إذا تعلق به أحد غرق وغرقه، فأما

---

(١) مسلم (٨/٢١٥)، أحمد (١/١٦٨)، والبغوي (٤٢٢٨).

(٢) الترمذي (٢٣٤٧)، وأحمد (٥/٢٥٥)، والبغوي (٤٠٤٤)، وابن المبارك في الزهد (١٩٦).

السابح النحرير، فإن تعلق الغرقى به سبب لنجاتهم وخلاصهم.

فصل [في أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا]

واعلم: أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها، وطاعتها، والتصرف فيها.

فالجاه هو قيام المنزلة في قلوب الناس، وهو اعتقاد القلوب نعتاً من نعوت الكمال في هذا الشخص، إما من علم أو عبادة، أو نسب أو قوة، أو حسن صورة، أو غير ذلك مما يعتقده الناس كمالاً، فبقدر ما يعتقدون له من ذلك تذعن قلوبهم لطاعته، ومدحه وخدمته، وتوقيره.

فهذا يبين أن الجاه محبوب بالطبع، وأنه أبلغ من حب المال، لأن المال لا يتعلق الغرض بعينه، بل لكونه وسيلة إلى المحبوبات، فاشتراك الجاه والمال في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة، والجاه في ذلك أرجح من المال.

واعلم: أن من الجاه ما يحمد وما يذم، لأن من المعلوم أنه لا بد للإنسان من مال لضرورة المطعم والملبس ونحوهما، فكذلك لا بد له من جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، لأن الإنسان لا يخلو من الحاجة إلى سلطان يحرسه، ورفيق يعينه، وخادم يخدمه، فحبه ذلك ليس بمذموم، لأن الجاه وسيلة إلى الأغراض، كالمال.

والتحقيق في هذا أن لا يكون المال والجاه محبوبين لأعيانهما، ومتى طلب الإنسان قيام جاهه لأجل صفة هو متصف بها لغرض صحيح، كقول يوسف عليه السلام: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥] أو قصد إخفاء عيب من عيوبه لئلا تزول منزلته، كان ذلك مباحاً، فإن طلب المنزلة باعتقادهم فيه صفة ليست فيه، كالعلم، والورع، والنسب، فذلك محظور.

وكذلك لو حسَّن الصلاة بين أيديهم ليعتقدوا فيه الخشوع، فإنه يكون مرائياً بذلك، فلا يجوز تملك القلوب بتزوير، ولا تملك المال بتلبيس.

بيان علاج حب الجاه

اعلم: أن من غلب على قلبه حب الجاه، صار مقصورَ الهمِّ على مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتردد إليهم، والمرآة لهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما

يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق، وأصل الفساد، لأن كل من طلب المنزلة في قلوب الناس اضطر أن ينافقهم بإظهار ما هو خال عنه، ويجر ذلك إلى المراءاة بالعبادات واقتحام المحظورات، والتوصل إلى اقتناص القلوب.

ولذلك شبَّه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حب المال والشرف وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين أرسلا في غنم.

فحب الجاه إذاً من المهلكات، يجب علاجه، وعلاجه مركب من علم وعمل، أما الأول، فهو أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه، هو كمال القدرة على أشخاص الناس وقلوبهم، وذلك إذا صفا وسلم يكون في آخره الموت، فينبغي أن يتفكر في نفسه في الأخطار والآفات اللاحقة لأصحاب الجاه في الدنيا، من تطرق الحسد إليهم، وقصدهم بالإيذاء، فتراهم خائفين على الدوام من زوال جاههم، محترزين من تغيير منزلتهم في القلوب.

والقلوب أشد تغيراً من القدر في غليانها، فالاشتغال بمراعاة ذلك غموم عاجلة، مكدرة لحفظ الجاه، فلا يفي مرجو الدنيا بمخوفها، فضلاً عما يفوت في الآخرة، فهذا من حيث العلم.

وأما العلاج من حيث العمل، فهو إسقاط الجاه من قلوب الخلق بأفعال توجب ذلك، كما روي أن بعض الملوك قصد زيارة رجل زاهد، فلما قرب منه، استدعى طعاماً وبقلاً ولبناً، وجعل يأكل بشره، ويعظم اللقمة فلما نظر إليه الملك سقط من عينه.

ولما أريد إبراهيم النخعي على القضاء لبس قميصاً أحمر وقعد في السوق.

واعلم: أن انقطاع الزاهد عن الناس يوجب جاهاً له عندهم، فإذا خاف من تلك الفتنة، فليخالطهم على وجه السلامة، وليمش في الأسواق، وليشتر حاجته ويحملها، وليقطع طمعه من دنياهم، وقد تم مراده.

وكان بشر الحافي يجلس إلى عطار، وكانوا يراعون نواميس المتزهدين اليوم.

فصل [في عدم الاكتراث بذم الناس]

واعلم: أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس، وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس، رجاء المدح، وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات، فوجبت معالجته.

وطريق ذلك أن ننظر إلى الصفة التي مدحت بها، إن كانت موجودة فيك فلا يخلـو: إما أن يكون مما يفرح به كالعلم والورع، أو مما لا يصلح أن يفرح به، كالجاه والمال.

أما الأول، فينبغي أن يحذر من الخاتمة، فإن الخوف منها شغل عن الفرح بالمدح، ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح الناس.

وأما القسم الثاني، وهو المدح بسبب الجاه والمال، فالفرح بذلك، كالفرح بنبات الأرض الذي يصير عن قريب هشيماً، ولا يفرح بذلك إلا من قل عقله، وإن كنت خالياً عن الصفة التي مدحت بها، ففرحك بالمدح غاية الجنون.

وقد ذكرنا آفات المدح فيما تقدم في كتاب آفات اللسان، فلا ينبغي أن تفرح به، بل تكرهه، كما كان السلف يكرهونه، ويغضبون على فاعله.

وعلاج كراهية الذم يفهم من علاج حب المدح، فإنه ضده، والقول الوجيز فيه أن من ذمك، إما أن يكون صادقاً فيما قال، قاصداً للنصح لك، فينبغي أن تتقلد منته، ولا تغضب، فإنه قد أهدى إليك عيوبك، وإن لم يقصد بذلك النصح، فإنه يكون قد جنى هو على دينه، وانتفعت بقوله، لأنه عرَّفك ما لم تكن تعرف، وذكَّرك من خطاياك ما نسيت، وإن افترى عليك بما أنت منه بريء، فينبغي أن تتفكر في ثلاثة أشياء:

أحدها: أنك إن خلوت من ذلك العيب لم تخل من أمثاله، فما ستر الله عزَّ وجلَّ عليك من عيوبك أكثر، فاشكره إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك فذكر ما أنت عنه بريء.

الثاني: أن ذلك كفارات لذنوبك.

الثالث: أنه جنى على دينه، وتعرض لغضب الله عليه، فينبغي أن يسأل الله العفو عنه، كما روي أن رجلاً شج إبراهيم بن أدهم، فدعا له بالمغفرة وقال: صرت مأجوراً بسببه، فلا أجعله معاقباً بسببي، وقد تقدمت هذه الحكاية في فضل الحلم.

القسم الثاني من الكتاب

في بيان الرياء وحقيقته
وأقسامه وذمه ونحو ذلك

وقد ورد ذم الرياء في الكتاب والسنة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِم سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ [الماعون: ٤ - ٦] وقوله: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [الكهف: ١١٠].

وأما الأحاديث، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيما يرويه عن ربه عزَّ وجلَّ أنه قال: «من عمل عملاً أشرك فيه غيري، فهو للذي أشرك، وأنا منه بريء»[١].

وفي حديث آخر: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: يا رسول الله: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول الله عزَّ وجلَّ لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، هل تجدون عندهم خيراً»[٢].

وقال بشر الحافي: لأن أطلب الدنيا بمزمار أحب إليَّ من أن أطلبها بالدين.

واعلم: أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، فالمرائي يري الناس ما يطلب به الحظوة عندهم وذلك أقسام:

الأول: الرياء في الدين، وهو أنواع:

أحدها: أن يكون من جهة البدن، بإظهار النحول والصفار، ليريهم بذلك شدة الاجتهاد، وغلبة خوف الآخرة، وكذلك يرائي بتشعث الشعر، ليظهر أنه مستغرق في هم الدين، لا يتفرغ لتسريح شعره.

ويقرب من هذا خفض الصوت، وإغارة العينين، وذبول الشفتين، ليدل بذلك على أنه مواظب على الصوم، ولهذا قال عيسى ابن مريم عليه السلام: إذا صام

(١) مسلم (٨/٢٢٣)، ابن ماجه (٤٢٠٢)، والبغوي (٤١٣٧).

(٢) أحمد (٥/٤٢٨، ٤٢٩)، والبغوي (٤١٣٥).

أحدكم فليدهن رأسه، ويرجل شعره. وذلك لما يخاف على الصائم من آفات الرياء، فهذا الرياء من جهة البدن لأهل الدين.

وأما أهل الدنيا، فيراؤون بإظهار السمن، وصفاء اللون، واعتدال القامة، وحسن الوجه، ونظافة البدن.

النوع الثاني: الرياء من جهة الزي، كالإطراق حالة المشي، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب، ولبس الصوف، وتشمير الثياب كثيراً، وتقصير الأكمام، وترك الثوب مخرقاً غير نظيف.

ومن ذلك لبس المرقعة، والثياب الزرق، تشبهاً بالصوفية مع الإفلاس من صفاتهم في الباطن.

ومنه التقنع فوق العمامة، لتنصرف إليه الأعين بالتمييز بتلك العادة.

وهؤلاء طبقات، منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح، بإظهار التزهد بلبس الثياب المخرقة الوسخة الغليظة، ليرائي بذلك، ولو كلف هذا أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً مما كان السلف يلبسونه، لكان عنده بمنزلة الذبح، لخوفه أن يقول الناس: قد بدا له من الزهد، وقد رجع عن تلك الطريقة.

وطبقة أخرى: يطلبون القبول عند أهل الصلاح، وعند أهل الدنيا من الملوك والأمراء والتجار، فلو لبسوا الثياب الفاخرة لم تقبلهم القراء أهل الصلاح، ولو لبسوا المخرقة الدنية لازدرتهم الملوك والأغنياء، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فيطلبون الأثواب الرقيقة، والأكسية الرفيعة والفوط الرفيعة فيلبسونها، وأقل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب الغني، ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء، فيلتمسون القبول عند الفريقين.

وهؤلاء لو كلفوا لبس خشن أو وسخ، لكان عندهم كالذبح، خوفاً من السقوط في أعين الملوك والأغنياء، ولو كلفوا لبس الرقيق ورفيع الكتان الأبيض ونحو ذلك، لعظم ذلك عليهم، خوفاً من أن تنحط منزلتهم عند أهل الصلاح، وكل مراءٍ بزي مخصوص ثقل عليه الانتقال إلى ما دونه أو فوقه خوفاً من المذمة.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بالثياب النفيسة، والمراكب الحسنة، وأنواع التجمل في الملبس والمسكن وأثاث البيت، وهم في بيوتهم يلبسون الثياب الخشنة، ويشتد عليهم أن يروا بتلك المنزلة.

النوع الثالث: الرياء بالقول، ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير وحفظ الأخبار والآثار، لأجل المحاورة، وإظهار غزارة العلم والدلالة على شدة العناية بأحوال

السلف، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف والحزن ونحو ذلك.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح في الكلام ونحو ذلك.

النوع الرابع: الرياء بالعمل، كمراءاة المصلي بطول القيام، وتطويل الركوع والسجود، وإظهار الخشوع، ونحو ذلك.

وكذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة ونحو ذلك.

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم، بالتبختر، والإختيال، وتحريك اليدين، وتقريب الخطى، والأخذ بأطراف الذيل، وإمالة العطفين، ليدلوا بذلك على الحشمة.

النوع الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين، كالذي يتكلف أن يستزير عالماً أو عابداً، ليقال: إن فلاناً قد زار فلاناً، وإن أهل الدين يترددون إليه، ويتبركون به، وكذلك من يرائي بكثرة الشيوخ، ليقال: لقي شيوخاً كثيرة، واستفاد منهم، فيباهي بذلك، فهذه مجامع ما يرائي به المراؤون، يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد.

ومنهم من يطلب مجرد الجاه، وكم من عابد اعتزل في جبل، وراهب انزوى إلى دير، مع قطع طمعهم من مال الناس، لكنه يحب مجرد الجاه.

ومنهم من يكون قصده المال، ومنهم من قصده الثناء وانتشار الصيت.

فإن قيل: هل الرياء حرام، أم مكروه، أم مباح؟

فالجواب: أن فيه تفصيلاً، وهو إما أن يكون بالعبادات، أو بغيرها، فإن كان الرياء بالعبادات، فهو حرام، فإن المرائي بصلاته وصدقته وحجته، ونحو ذلك، عاص آثم، لأنه يقصد بذلك غير الله تعالى المستحق للعبادة وحده، فالمرائي بذلك في سخط الله.

وأما إن كان بغير العبادات، فهو كطلب المال على ما تقدم، لا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورة، فكذلك الجاه، وكما أن كسب قليل من المال وهو ما يحتاج إليه الإنسان محمود، فكذلك الجاه، هو الذي طلبه يوسف عليه السلام في قوله: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥] ولا نقول بتحريم الجاه وإن كثر، إلا إذا حمل صاحبه على ما لا يجوز على نحو ما ذكرنا في المال.

وأما سعة الجاه من غير حرص على طلبه، ومن غير اغتمام بزواله وإن زال، فلا ضرر فيه، إذ لا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلماء الدين بعده، ولكن انصراف الهمم إلى طلب الجاه نقصان في الدين، ولا يوصف بالتحريم.

وتحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس، إنما هو ليراه الناس، وكذلك كل تجمل لأجلهم لا يقال: إنه منهي عنه.

وقد تختلف المقاصد بذلك، فإن أكثر الناس يحبون أن لا يروا بعين نقص في حال.

وفي أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنة، ونعله حسنة، فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»[1].

ومن الناس من يؤثر إظهار نعمة الله عليه، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك.

فصل [في أن أبواب الرياء بعضها أشد من بعض]

واعلم: أن بعض أبواب الرياء أشد من بعض، لأنه درجات.

أشدها وأغلظها أن لا يكون مراده بالعبادة الثواب أصلاً، كالذي يصلي بين الناس، ولو انفرد لم يصل.

الدرجة الثانية: أن يقصد الثواب مع الرياء قصداً ضعيفاً بحيث لو كان خالياً لم يفعله، فهو قريب من القسم الأول في كونهما ممقوتين عند الله تعالى.

الثالثة: أن يكون قصد الرياء، وقصد الثواب متساويين، بحيث لو انفرد كل واحد منهما عن الآخر لم يبعثه على العمل، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح، ولا يسلم من الإثم.

الرابعة: أن يكون اطلاع الناس عليه مقوياً لنشاطه، ولو لم يطلع عليه أحد لم يترك العبادة، فهذا يثاب على قصده الصحيح، ويعاقب على قصده الفاسد، وقريب من ذلك الرياء بأوصاف العبادة لا بأصلها، كالذي يصلي وغرضه تخفيف الركوع والسجود: ولا يطيل القراءة، فإذا راه الناس أحسن ذلك فهذا أيضاً من الرياء المحظور، لأنه يتضمن تعظيم الخلق، ولكنه دون الرياء بأصول العبادات.

(١) مسلم (١/٦٥)، الترمذي (١٩٩٩).

بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أن الرياء جلي وخفي:

فالجلي: هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه.

وأخفى منه قليلاً رياء لا يبعث على العمل بمجرده، لكن يخفف العمل الذي أريد به وجه الله تعالى، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف نشط له وسهل عليه. وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا في التسهيل، لكنه مع ذلك مستبطِنٌ في القلب، ومتى لم يؤثر الدعاء في العمل لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات، وأجلى علاماته أنه يُسرّ باطلاع الناس على طاعته، فرب عبد مخلص يخلص العمل، ولا يقصد الرياء بل يكرهه، ويتم العمل على ذلك، لكن إذا اطلع الناس عليه سره ذلك وارتاح له، ورَوَّحَ ذلك عن قلبه شدة العبادة، فهذا السرور يدل على رياء خفي منه يُرشَحُ السرور، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس، فيعلم أن الرياء كان مستكناً في القلب استكنان النار في الحجر، فأظهر منه اطلاع الناس أثر الفرح والسرور، ثم إذا استشعر تلك اللذة بالإطلاع لم يقابل ذلك بكراهة، بل قد يتحرك حركة خفيفة، ويتكلف أن يطلع عليه بالتعريض لا بالتصريح.

وقد يخفى، فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً ولا تصريحاً، ولكن بالشمائل كإظهار النحول، والصفار، وخفض الصوت، ويبس الشفتين وآثار الدموع وغلبة النعاس الدالة على طول التهجد.

وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الإطلاع عليه، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدؤوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وينشطوا في قضاء حوائجه، ويسامحوه في المعاملة، ويوسعوا له المكان، فإن قصر في ذلك مقصر، ثقل ذلك على قلبه، كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها.

ومتى لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق، لم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء، وكل ذلك يوشك أن ينقص الأجر، ولا يسلم منه إلا الصدّيقون.

وقد روينا عن وهب بن منبه، أن رجلاً من العبَّاد قال لأصحابه: إنا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، وإنا نخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا من

هذا الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن كان له حاجة أحبَّ أن تقضى لمكان دينه، وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص له لمكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم، فركب في موكبه، فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس، فقال العابد: ما هذا؟ قيل: هذا الملك، فقال لصاحبه: ائتني بطعام. فأتاه ببقل وزبيب وقلوب الشجر، فجعل يحشو شدقيه ويأكل أكلاً عنيفاً، فقال الملك: أين صاحبكم؟ فقالوا: هذا، فقال: كيف أنت؟ قال: كالناس، فقال الملك: ما عند هذا خير، وانصرف عنه، فقال: الحمدُ لله الذي صرفه عني وهو لي لائم.

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي، يجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم.

وشوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومتى أدرك الإنسان من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته أو لا يطلع، ففيه شعبة من الرياء، ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر ومفسداً للعمل، بل فيه تفصيل.

فإن قيل: فما ترى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعته، فهل جميع ذلك مذموم؟

فالجواب: أن السرور ينقسم إلى محمود ومذموم.

فالمحمود: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله تعالى أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله، فيسر بحسن صنع الله ونظره له ولطفه به، حيث كان يستر الطاعة والمعصية، فأظهر الله سبحانه عليه الطاعة، وستر عليه المعصية، ولا لطف أعظم من ستر القبيح، وإظهار الجميل، فيكون فرحه بذلك، لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، أو يستدل بإظهار الله الجميل، وستر القبيح عليه في الدنيا، أنه كذلك يفعل به في الآخرة، فإنه قد جاء معنى ذلك في الحديث.

فأما إن كان فرحه باطلاع الناس عليه لقيام منزلته عندهم، حتى يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه، فهذا مكروه مذموم.

فإن قيل: فما وجه حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول

الله، الرجل يعمل العمل فيسره، فإذا اطلع عليه، أعجبه، فقال: «له أجران: أجر السر، وأجر العلانية»[1].

فالجواب: أن هذا الحديث ضعيف، وقد رواه الترمذي، وفسره بعض أهل العلم بأن معناه: أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير، لقوله عليه السلام: «أنتم شهداء الله في الأرض»[2].

وقد روي في أفراد مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[3].

فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرموه عليه، فهذا رياء.

فصل [في بيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط]

إذا ورد على العبد وارد الرياء، فلا يخلو:

إما أن يكون ورد بعد فراغه من العبادة أو قبله، فإن ورد عليه بعد الفراغ سرور بالظهور من غير إظهار منه، فهذا لا يحبط العمل، لأنه قد تم على نعت الإخلاص فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به، فأما إن تحدث به بعد تمامه وأظهره، فهذا مخوف، والغالب عليه أنه كان في قلبه وقت مباشرة العمل نوع رياء، فإن سلم من الرياء نقص أجره، فإن بين عمل السر والعلانية سبعين درجة.

وأما إذ ورد الرياء قبل الفراغ من العبادة، كالصلاة التي عقدها على إخلاص فإن كان مجرد سرور، لم يؤثر في العمل، وإن كان رياء باعثاً على العمل، مثل أن يطيل الصلاة ليرى مكانه، فهذا يحبط الأجر.

وأما ما يقارن العبادة، مثل أن يبتدىء الصلاة على قصد الرياء، فإن أتمها على ذلك لم يعتد بها، وإن ندم فيها على فعله، فالذي ينبغي له أن يبتدئها، والله أعلم.

---

(١) الترمذي (٢٣٨٤)، وابن ماجه (٤٢٢٦)، وابن حبان (٦٥٥، ٢٥١٦).

(٢) البخاري (٢/١٢١)، ومسلم (٣/٥٣).

(٣) مسلم (٨/٤٤)، ابن ماجه (٤٢٢٥)، أحمد (٥/١٥٦، ١٥٧)، والبغوي (٤١٤٠).

باب في دواء الرياء
وطريقة معالجة القلب فيه

قد عرفت أن الرياء محبط للأعمال، وسبب لمقت الله تعالى، وأنه مر المهلكات، ومن هذا حاله، فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته.

وفي معالجته مقامان:

أحدهما: في قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني: في دفع ما يخطر منه في الحال.

المقام الأول: اعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة، وإذا فصل، رجع إلى ثلاثة أصول.

وهي حب لذة الحمد، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس.

ويشهد لذلك ما في «الصحيحين» من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله، أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[1].

فمعنى قوله: «يقاتل شجاعة» أي: ليذكر ويحمد، ومعنى قوله: «يقاتل حمية» أي: يأنف أن يقهر أو يذم، ومعنى: «يقاتل رياء» أي: ليرى مكانه، وهذا هو لذة الجاه والمنزلة في القلوب.

وقد لا يشتهي الإنسان الحمد، ولكنه يحذر من الذم، كالجبان بين الشجعان، فإنه يثبت ولا يفر لئلا يذم. وقد يفتي الإنسان بغير علم حذراً من الذم بالجهل، فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك إلى الرياء.

وعلاجه أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه إذا ظن أنه خير له ونافع، إما في الحال أو المآل، فإن علم أنه لذيذ في الحال ضارٌ في المآل، سهل عليه اجتنابه وقطع عنه الرغبة، كمن يعلم أن العسل لذيذ، ولكن إذا بان أن فيه سماً، أعرض عنه، فكذلك طريق هذه الرغبة أن تعلم ما فيها من المضرَّة، فإن الإنسان متى عرف مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه، ومن المنزلة في الآخرة، وما يتعرض له من العذاب والمقت والخزي، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من

(١) البخاري (١/٤٣، ٤/٢٥)، مسلم (٦/٤٦).

تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإنَّ رضى الناس غاية لا تدرك، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق، ومن طلب رضاهم في سخط الله، سخط الله عليه وأسخطهم عليه. ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله له لأجل مدحهم؟ ولا يزيد مدحهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته. وكذلك ذمهم لِمَ يحذر منه؟ ولا يضره ذمهم شيئاً ولا يعجل أجله، ولا يؤخر رزقه، فإن العباد كلهم عجزة، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإذا قرر هذا في نفسه، فترت رغبته في الرياء، وأقبل على الله تعالى بقلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يضره ويقل نفعه.

وأما الطمع فيما في أيدي الناس، فيزيله بأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأنه لا رازق سواه، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد، لم يخل من المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد.

ومن الدواء النافع أن يعود نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، فإنه لا دواء في الرياء مثل إخفاء الأعمال، وذلك يشق في بداية المجاهدة، فإذا صبر عليه مدة بالتكلف، سقط عنه ثقله، وأمده الله بالعون، فعلى العبد المجاهدة، ومن الله التوفيق.

المقام الثاني: في دفع العارض من الرياء أثناء العبادة، وذلك لا بد من تعلمه أيضاً، فإن من جاهد نفسه، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وإسقاط نفسه من أعين الناس، واحتقار مدحهم وذمهم، فإن الشيطان لا يتركه في أثناء العبادة، بل يعارضه بخطرات الرياء، فإذا خطر له معرفة الخلق بعبادته واطلاعهم عليها، دفع ذلك بأن يقول: ما لك وللخلق علموا أو لم يعلموا، والله عالم بحالك، فأي فائدة في علم غيره؟

فإن هاجت الرغبة إلى آفة الحمد، ذكَّرها آفات الرياء والتعرض للمقت، فيقابل تلك الرغبة بكراهة المقت، فإن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة، ومعرفة آفة الرياء تثير كراهة.

فصل [في بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات وبيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس على الذنب وذمهم له]

أما الأول، فاعلم أن في إسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء،

وفي الإظهار فائدة الاقتداء، وترغيب الناس في الخير.

ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج والجهاد.

والمظهر للعمل ينبغي أن يراقب قلبه، حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفي، بل ينوي الاقتداء به، ولا ينبغي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك، فإن مثال الضعيف مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم، وأقبل عليهم حتى تشبثوا به، فهلكوا وهلك معهم.

فأما من قوي وتم إخلاصه، وصغر الناس في عينه، واستوى عنده مدحهم وذمهم، فلا بأس بالإظهار له، لأن الترغيب في الخير خير.

وقد روي ذلك عن جماعة من السلف أنهم كانوا يظهرون شيئاً من أحوالهم الشريفة ليقتدى بهم، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر: لا تبكوا عليَّ، فإني ما لفظت بخطيئة منذ أسلمت.

وقال أبو بكر بن عياش رحمه الله لابنه: إياك أن تعصي الله تعالى في هذه الغرفة، فإني ختمت فيها اثنتي عشرة ألف ختمة.

ونحو ذلك كثير من كلامهم، والله أعلم.

وأما الرخصة في كتمان الذنوب، [فربما ظن ظان أن كتمان الخطايا رياء، وليس كذلك فإن الصادق] الذي لا يرائي إذا وقعت منه معصية، كان له سترها، لأن الله يكره ظهور المعاصي ويحب سترها.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات، فليستتر بستر الله عزّ وجلّ»[1].

فهذا وإن عصى بالذنب، لم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله عزّ وجلّ، وهذا ينشأ عن قوة الإيمان.

وينبغي أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً، فهذا أثر الصدق فيه.

ومن ذلك أن يكره ذم الناس له، من حيث أن ذلك يشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى، فإن الطبع يتأذى بالذم، وبهذه العلة أيضاً ينبغي أن يكره المدح إذا كان يشغله عن الله تعالى، ويستغرق قلبه، ويصرفه عن الذكر، فإن هذا أيضاً من قوة الإيمان.

---

(١) الحاكم (٤/٢٤٤) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي (٨/٣٣٠).

فصل [في ترك الطاعات خوفاً من الرياء]

فأما ترك الطاعات خوفاً من الرياء، فإن كان الباعث له على الطاعة غير الدين، فهذا ينبغي أن يترك، لأنه معصية لا طاعة فيه.

وإن كان الباعث على ذلك الدين، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصاً، فلا ينبغي أن يترك العمل، لأن الباعث الدين.

وكذلك إذا ترك العمل خوفاً من أن يقال: إنه مراءٍ، فلا ينبغي ذلك، لأنه من مكائد الشيطان.

قال إبراهيم النخعي: إذا أتاك الشيطان وأنت في صلاة فقال: إنك مراءٍ، فزدها طولاً.

وأما ما روي عن بعض السلف أنه ترك العبادة خوفاً من الرياء. كما روي عن إبراهيم النخعي أن إنساناً دخل عليه وهو يقرأ في المصحف، فأطبق المصحف وترك القراءة، وقال: لا يراني هذا أني أقرأ كل ساعة، فيحمل هذا على أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزين فقطعوا.

فصل [في بيان ما يصح من نشاط العبد بسبب رؤية الخلق وما لا يصح]

قد يبيت الرجل مع المتهجدين، فيصلون أكثر الليل، وعادته قيام ساعة، فيوافقهم، أو يصومون فيصوم، ولولاهم ما انبعث هذا النشاط.

فربما ظن ظان أن هذا رياء، وليس كذلك على الإطلاق، بل فيه تفصيل، وهو أن كل مؤمن يرغب في عبادة الله تعالى، ولكن تعوقه العوائق، وتستهويه الغفلة، فربما كانت مشاهدة الغير سبباً لزوال الغفلة واندفاع العوائق، فإن الإنسان إذا كان في منزله تمكن من النوم على فراش وطيء وتمتع بزوجته، فإذا بات في مكان غريب، اندفعت هذه الشواغل، وحصلت له أسباب تبعث على الخير، منها مشاهدة العابدين.

وقد يعسر عليه الصوم في منزله لكثرة المطاعم، بخلاف غيره، ففي مثل هده الأحوال ينتدب الشيطان للصد عن الطاعة، ويقول: إذا عملت غير عادتك كنت مرائياً، فلا ينبغي أن يلتفت إليه، وإنما ينبغي أن ينظر إلى قصده الباطن، ولا يلتفت إلى وسواس الشيطان.

ويختبر أمره بأن يمثل القوم في مكان يراهم ولا يرونه، فإن رأى نفسه تسخو بالتعبد فهو لله، وإن لم تسخ كان سخاؤها عندهم رياء، وقس على هذا.

فهذه جملة آفات الرياء، فكن بحاثاً عنها، وتفقد نيتك، فإن الرياء أخفى من دبيب النمل.

وينبغي للمريد أن يلزم قلبه القناعة بعلم الله في جميع طاعته.

وإنما يقنع بذلك من خاف الله ورجاه، ولا ينبغي أن يؤيس نفسه من الإخلاص بأن يقول: إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء، وأنا من المخلطين، فيترك المجاهدة في تحصيل الإخلاص، لأن المخلط إلى ذلك أحوج.

قال إبراهيم بن أدهم: تعلمت المعرفة من راهب يقال له: سمعان، دخلت على صومعته فقلت له: منذ كم أنت في صومعتك هذه؟ قال: منذ سبعين سنة، قلت: ما طعامك؟ قال: كل ليلة حمصة، قلت: فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة؟ قال: ترى الذين بحذائك؟ قلت: نعم، قال: إنهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي ويطوفون حولها يعظموني بذلك، فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة، ذكرتها عزَّ تلك الساعة، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة، فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد، فوقَّر في قلبي المعرفة، فقال: أزيدك؟ قلت: نعم، قال: انزل عن الصومعة، فنزلت فأدلى إليَّ ركوة فيها عشرين حمصة، ثم قال لي: ادخل الدير، فقد رأوا ما أدليت إليك، فلما دخلت الدير، اجتمعت النصارى فقالوا: يا حنيفي، ما الذي أدلى إليك الشيخ؟ قلت: شيئاً من قوته. قالوا: وما تصنع به؟ نحن أحق به، ساوم به. قلت: عشرون ديناراً، فأعطوني عشرين ديناراً، فرجعت إلى الراهب، فقال: أخطأت، لو ساومتهم عشرين ألفاً لأعطوك، هذا عز من لا يعبده، فانظر كيف يكون عز من يعبده، يا حنيفي أقبل على عبادة ربك.

فقد بان بهذا أن استشعار النفوس عزَّ العظمة في القلوب يكون باعثاً إلى الخلوة، فهذه آفة عظيمة، وعلامة سلامته منها أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة، ويكون عمله عمل من ليس على الأرض غيره، فإذا خطرت خطرات ضعيفة ردها الله، والله تعالى أعلم.

* * *

كتاب ذم الكبر والعجب

وهما فصلان:

الفصل الأول في الكبر:

قال الله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٣].

وفي الحديث الصحيح من أفراد مسلم، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»(١).

وفي «الصحيحين» عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قالت النار: أوثرت بالمتكبرين»(٢).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يحشر الجبَّارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذر، يطؤهم الناس لهوانهم على الله عزّ وجلّ»(٣).

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: من كانت معصيته في شهوة، فارج له التوبة، فإن آدم عليه السلام عصى مشتهياً فغفر له، فإذا كانت معصيته من كبر، فاخش عليه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبراً فلُعِنَ.

وفي «الصحيحين»: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة، فقال أبو بكر: يا رسول الله إنَّ أحدَ شِقَّي إزاري ليسترخي، إلا أن أتعاهد ذلك منه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لست ممن يصنعه خيلاء»(٤).

واعلم: أن الكبر خلق باطن تصدر عن أعمال هي ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه، يعني يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً.

(١) تقدم ص ٢٠٦.

(٢) البخاري (٦/١٧٣)، ومسلم (٨/١٥١).

(٣) الترمذي (٢٤٩٢)، وأحمد (٢/١٧٩)، والبغوي (٣٥٩٠)، وابن المبارك في الزهد (١٩١).

(٤) البخاري (٧/١٨٢).

وبهذا ينفصل عن العجب، فإن العجب لا يستدعي غير المعجب، حتى لو قدر أن يخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجباً، ولا يتصور أن يكون متكبراً، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه، فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام، حقر من دونه وازدراه، وصفة هذا المتكبر، أن ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً واستحقاراً.

وآفة الكبر عظيمة، وفيه يهلك الخواص، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء.

وكيف لا تعظم آفته، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر.

وإنما صار حجاباً دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين، لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر على التواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم الغيظ وقبول النصح، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم. فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه.

ومن شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم، وقبول الحق، والانقياد له.

وقد تحصل المعرفة للمتكبر، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق، كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُم ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل: ١٤] ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ [المؤمنون: ٤٧] ﴿ إِن أَنتُم إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم: ١٠] وآيات كثيرة نحو هذا، وهذا تكبر على الله وعلى رسوله.

وقد تقدم أن التكبر على العباد هو احتقارهم واستعظام نفسه عليهم، وذلك أيضاً يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى، كما حمل إبليس كبره على آدم عليه السلام أن امتنع من امتثال أمر ربه في السجود.

وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكبر فقال: «الكبر: بطر الحق وغمط الناس». ومعنى غمط الناس: الازدراء بهم، واستحقارهم. ويروى: غمص الناس بمعنى غمط الناس.

فصل [في تقسيم آفات الكبر]

واعلم: أن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون الكبر مستقراً في قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيراً

من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها.

الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه، فترى العالم يصعر خده للناس، كأنه معرض عنهم، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، حين قال: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

الدرجة الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعاوى والمفاخر، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً.

قال ابن عباس: يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم﴾ [الحجرات: ١٣].

وكذلك التكبر بالمال، والجمال، والقوة، وكثرة الأتباع، ونحو ذلك، فالكبر بالمال أكثر ما يجري بين الملوك والتجار ونحوهم.

والتكبر بالجمال أكثر ما يجري بين النساء، ويدعوهن إلى التنقص والغيبة وذكر العيوب.

وأما التكبر بالأتباع والأنصار، فيجري بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين.

وفي الجملة فكل ما يمكن أن يعتقد كمالاً، فإن لم يكن في نفسه كمالاً، أمكن أن يتكبر به، حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمر والفجور، لظنه أن ذلك كمال.

واعلم: أن التكبر يظهر في شمائل الإنسان، كصَعَر وجهه، ونَظَره شزراً، وإطراق رأسه، وجلوسه متربعاً ومتكئاً، وفي أقواله، حتى في صوته ونغمته، وصيغة إيراده الكلام، ويظهر ذلك أيضاً في مشيه وتبختره، وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته.

ومن خصال المتكبر: أن يحب قيام الناس له.

والقيام على ضربين:

قيام على رأسه وهو قاعد، فهذا منهي عنه، قال رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار»[1]. وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين.

الثاني: قيام عند مجيء الإنسان، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك.

قال أنس: لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك[2].

وقد قال العلماء: يستحب القيام للوالدين والإمام العادل، وفضلاء الناس، وقد صار هذا كالشعار بين الأفاضل، فإذا تركه الإنسان في حق من يصلح أن يفعل في حقه، لم يأمن أن ينسبه إلى إهانته، والتقصير في حقه، فيوجب ذلك حقداً.

واستحباب هذا في حق القائم لا يمنع الذي يقام له أن يكره ذلك، ويرى أنه ليس بأهل لذلك.

ومن خصال المتكبر: أن لا يمشي إلا ومعه أحد يمشي خلفه.

ومنها أن لا يزور أحداً تكبراً على الناس.

ومنها أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه.

وقد روى أنس رضي الله عنه قال: كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتنطلق به في حاجتها[3].

وقال ابن وهب: جلست إلى عبد العزيز بن أبي روَّاد، وإن فخذي لتمس فخذه .فنحيت نفسي عنه، فأخذ ثيابي فجرني إليه وقال: لِمَ تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة،وإني لا أعرف منكم رجلاً شرّاً مني؟!.

ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومنها أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته، وقد اشترى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً وحمله. وكان أبو بكر رضي الله عنه يحمل الثياب إلى السوق يتجر فيها. واشترى عمر رضي الله عنه لحماً فعلقه بيده وحمله إلى بيته. واشترى علي رضي الله عنه تمراً فحمله في ملحفة، فقال له قائل: أحمل عنك؟ قال: لا،

---

(1) أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥)، وأحمد (٤/٩٣، ١٠٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٧).

(2) الترمذي (٢٧٥٤)، أحمد (٣/١٣٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٤٦).

(3) البخاري (٨/٢٤) معلقاً، أحمد (٣/٥٨).

أبو العيال أحق أن يحمل.

وأقبل أبو هريرة رضي الله عنه يوماً من السوق وقد حمل حزمة حطب، وهو يومئذ خليفة مروان، فقال لرجل: أوسع الطريق للأمير.

ومن أراد أن ينفي الكبر، ويستعمل التواضع، فعليه بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد سبقت الإشارة إليها في كتاب «آداب المعيشة».

* * *

بيان معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلم: أن الكبر من المهلكات، ومداواته فرض عين، ولك في معالجته مقامان:

الأول: في استئصال أصله وقطع شجرته، وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه أذل من كل ذليل، ويكفيه أن ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب، ثم من نطفة خرجت من مخرج البول، ثم من علقة، ثم من مضغة، فقد صار شيئاً مذكوراً، بعد أن كان جماداً لا يسمع ولا يبصر، ولا يحس ولا يتحرك، فقد ابتدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبفقره قبل غناه.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: ﴿مِن أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: ١٨ - ١٩] ثم امتن عليه بقوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠]، وبقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [الدهر: ٢] فأحياه بعد الموت، وأحسن تصويره، وأخرجه إلى الدنيا، فأشبعه وأرواه، وكساه وهداه وقوّاه.

فمن هذا بدايته، فأي وجه لكبره وفخره؟

على أنه لو دام له الوجود على اختياره لكان لطغيانه طريق، بل قد سلط عليه الأخلاط المتضادة، والأمراض الهائلة، بينما بنيانه قد تم، إذ هو قد وهى وتهدم، لا يملك الشيء لنفسه ضراً ولا نفعاً، بينما هو يذكر الشيء فينساه، ويستلذ الشيء فيرديه، ويروم الشيء فلا يناله، ثم لا يأمن أن يسلب حياته بغتة.

هذا أوسط حاله، وذاك أول أمره، وأما آخر أمره، فالموت الذي يعده جماداً كما كان، ثم يلقى في التراب فيصير جيفة منتنة، وتبلى أعضاؤه، وتنخر عظامه، ويأكل الدود أجزاءه، ويعود تراباً يعمل منه الكيزان، ويعمر منه البنيان، ثم بعد طول البلى تجمع أجزاؤه المتفرقة، ويحضر عرضة القيامة، فيرى أرضاً مبدلة، وجبالاً مسيرة، وسماءً منشقة، ونجوماً منكدرة، وشمساً مكوّرة، وأحوالاً مظلمة،

وجحيماً تزفر، وصحائف تنشر، ويقال له: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليومَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء: ١٤]. فيقول: وما كتابي؟ فيقال: كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها ملكان يحصيان ما تنطق به وتعمل، من قليل وكثير، وقيام وقعود، وأكل وشرب، وقد نسيت ذلك، وأحصاه الله تعالى، فهلم إلى الحساب عليه، وأعد جواباً له، وإلا فأنت تساق إلى النار، فما لمن هذه حاله التكبر؟ فإن صار إلى النار، فالبهائم أحسن حالاً منه، لأنها تعود إلى التراب، ومن هذا حاله وهو على شك من العفو عن أخطائه، كيف يتكبر؟! ومن الذي يسلم من ذنب يستحق به العقوبة، وما مثله إلا كمثل رجل جنى على ملك جناية استحق أن يضرب لأجلها ألف سوط، فحبس في السجن ليخرج فيعاقب، وهو منتظر أن يدعى به لذلك. أفتراه يتكبر على أهل السجن؟ وهل الدنيا إلا سجن، وهل المعاصي إلا موجبة للعقاب؟

وأما معرفة ربه، فيكفيه أن ينظر في آثار قدرته وعجائب صنعته، فتلوح له العظمة، وتظهر له المعرفة، فهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر.

ومن العلاج العملي التواضع بالفعل لله تعالى ولعباده، وذلك بالمواظبة على استعمال خلق المتواضعين، وقد تقدمت الإشارة إلى طريقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما كان عليه من التواضع والأخلاق الجميلة.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأنساب، فمن اعتراه الكبر من جهة النسب، فليعلم أن هذا تعزز بكمال غيره، ثم يعلم أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة قذرة، وأباه البعيد تراب، ومن اعتراه الكبر بالجمال، فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم، ومن اعتراه من جهة القوة، فليعلم أنه لو آلمه عرق، عاد أعجز من كل عاجز، وإن حُمَّى يوم تُحَلحِلُ من قوَّته ما لا يعود في مدة، وإن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وبقةً لو دخلت في أذنه لأقلقته.

ومن تكبر بسبب الغنى، فإذا تأمل خلقاً من اليهود، وجدهم أغنى منه، فأفٍّ لشرف تسبق به اليهود، ويستلبه السارق في لحظة، فيعود صاحبه ذليلاً.

ومن تكبر بسبب العلم، فليعلم أن حجة الله على العالم آكد من الجاهل، وليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أن قدره أعظم من قدر غيره.

وليعلم أيضاً أن الكبر لا يليق بالله سبحانه، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله

تعالى بغيضاً عنده. وقد أحب الله منه أن يتواضع، وكذلك كل سبب يعالجه بنقيضه ويستعمل التواضع.

واعلم: أن هذا الخُلُق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط:

فطرفه الذي يميل إلى الزيادة تكبراً.

وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة.

والوسط يسمى تواضعاً، وهو المحمود، وهو أن يتواضع من غير مذلة، فخير الأمور أوساطها، فمن تقدم على أقرانه فهو متكبر، ومن تأخر عنهم، فهو متواضع، لأنه قد وضع شيئاً من قدره، فأما إذا أدخل على العالم إسكافي أو نحوه، فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه، ثم قدم له نعله ومشى معه إلى الباب، فقد تخاسس وتذلل، فذلك غير محمود، بل المحمود العدل، وهو أن يعطي كل ذي حق حقه، لكن تواضعه للسوقة بالرفق في السؤال واللين في الكلام، وإجابة الدعوة، والسعي في الحاجة، ولا يحقره، ولا يستصغره، والله أعلم.

الفصل الثاني في العجب:

روي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «بينما رجل يتبختر في بردين وقد أعجبته نفسه، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»(١).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوىً متبع، وإعجاب المرء بنفسه»(٢).

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الهلاك في شيئين: العجب، والقنوط. وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير، والقانط لا يطلب، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى.

قال مطرف رحمه الله: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً، أحبُّ إليَّ من ان أبيت قائماً وأصبح معجباً.

واعلم: أن العجب يدعو إلى الكبر، لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، وهذا مع الخلق.

---

(١) البخاري (٧/١٨٣)، مسلم (٦/١٤٩).

(٢) تقدم في ص ١٩٣.

فأما مع الخالق، فإن العجب بالطاعات نتيجة استعظامها، فكأنه يمن على الله تعالى بفعلها، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها، ويعمى عن آفاتها المفسدة لها.

وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها وأعجب بها.

والعجب إنما يكون بوصف كمال من علم أو عمل، فإن انضاف إلى ذلك أن يرى حقاً له عند الله إدلالاً، فالعجب يحصل باستعظام ما عجب به، والإدلال يوجب توقع الجزاء، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده.

فصل [في علاج العجب]

اعلم: أن الله سبحانه هو المنعم عليك بإيجادك وإيجاد أعمالك، فلا معنى لعجب عامل بعمله، ولا عالم بعلمه، ولا جميل بجماله، ولا غني بغناه، إذ كل ذلك من فضل الله تعالى، وإنما الآدمي محل لفيض النعم عليه، وكونه محلاً له نعمة أخرى.

فإن قلت: إن العمل حصل بقدرتك ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك فمن أين قدرتك، وكل ذلك من الله تعالى لا منك، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه، وهذا المفتاح بيد الله تعالى، وما لم تُعْط المفتاح لا يمكنك العمل كما لو قعدت عند خزانة مغلقة لم تقدر على ما فيها إلا أن تُعطى مفتاحها.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(1).

واعلم: أن العجب يكون بالأسباب التي بها يقع الكبر، وقد سبق ذكرها وعلاجها.

ومن ذلك العجب بالنسب، كما يتخيل الشريف أنه ينجو بشرف آبائه، وعلاجه أن يعلم أنه متى خالف آباءه، وظن أنه ملحق بهم، فقد جهل، وإن اقتدى بهم، فإنه لم يكن العجب من أخلاقهم، بل الخوف والإزراء على النفس.

وإنما شرفوا بالطاعة المحمودة، لا بنفس النسب. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللهِ أَتقَاكُم ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) البخاري (١٢٢/٨)، ومسلم (١٣٩/٨).

وسلم: «يا فاطمة، لا أغني عنك من الله شيئاً»[1].

فإن قلت: إنما يرجى الشريف أن يشفع فيه ذوو قرابته.

فالجواب: أن كل المسلمين يرجون الشفاعة، وقد يشفع في الشخص بعد إحراقه بالنار، وقد يقوى الذنب فلا تنجي الشفاعة.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء، فيقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك»[2].

ومثل المنهمك في الذنوب اعتماداً على رجاء الشفاعة، كمثل المريض المنهمك في الشهوات، اعتماداً على طبيبه الحاذق المشفق، وذلك جهل، فإن اجتهاد الطبيب ينفع بعض الأمراض لا كلها.

ويوضح هذا أن سادات الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يخافون من الآخرة، فكيف يتكل من ليس في مثل مراتبهم؟!.

ومن ذلك العجب بالرأي الخطأ، كما قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ [فاطر: ٨]. وعلاج هذا أشد من علاج غيره، فإن هذا متى كان معجباً برأيه لم يُصغ إلى نصح ناصح، وكيف يترك ما يعتقده نجاة؟! وإنما علاجه في الجملة أن يكون متهماً لرأيه أبداً، لا يغتر به، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب، أو سنة أو دليل عقلي جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة.

والأولى لمن لم يتفرغ لاستغراق العمر في العلم أن لا يخوض في المذاهب، ولكن يقف عند اعتقاد الجمل، وأن الله سبحانه واحد لا شريك له، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهو السَّمِيعُ البَصيرُ ﴾، وأن رسوله صادق فيما جاء به ويؤمن بما جاء به القرآن من غير بحث ولا تنقير، ويصرف زمنه في التقوى، وأداء الطاعات، فمتى خاض في المذاهب ورام ما لا يصل إلى معرفته، هلك.

* * *

(١) البخاري (٦/ ١٤٠)، ومسلم (١/ ١٣٣).

(٢) البخاري (٤/ ٩٠)، ومسلم (٦/ ١٠).

كتاب الغرور وأقسامه ودرجاته

ومن الناس من غرته الدنيا، فقال: النقد خير من النسيئة، والدنيا نقد، والآخرة نسيئة، وهذا محل التلبيس، فإن النقد لا يكون خيراً من النسيئة، إلا إذا كان مثل النسيئة. ومعلوم أن عمر الإنسان بالإضافة إلى مدة الآخرة ليس بجزء من ألف جزء إلى أن ينقطع النفس، وإنما أراد من قال: النقد خير من النسيئة، إذا كانت النسيئة مثل النقد، وهذا غرور الكفار.

فأما ملابسو المعاصي مع سلامة عقائدهم، فإنهم قد شاركوا الكفار في هذا الغرور، لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة، إلا أن أمرهم أسهل من أمر الكفار، من جهة أن أصل الإيمان يمنعهم من عقاب الأبد.

ومن العصاة من يغتر، فيقول: إن الله كريم، وإنما نتكل على عفوه، وربما اغتروا بصلاح آبائهم.

وقد قال العلماء: من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا الغفران مع الإصرار، فهو مغرور.

وليعلم أن الله تعالى مع سعة رحمته شديد العقاب، وقد قضى بتخليد الكفار في النار، مع أنه لا يضره كفرهم، وقد سلط الأمراض والمحن على خلق من عباده في الدنيا، وهو سبحانه قادر على إزالتها، ثم خوفنا من عقابه، فكيف لا نخاف؟!.

فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل، وما لا يبعث على العمل فهو غرور. يوضح هذا أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة، وإيثار المعاصي.

والعجب أن القرن الأول عملوا وخافوا، ثم أهل هذا الزمان أمنوا مع التقصير واطمأنوا، أتراهم عرفوا من كرم الله تعالى ما لم يعرف الأنبياء والصالحون.

ولو كان هذا الأمر يدرك بالمنى، فلم تعب أولئك وكثر بكاؤهم؟! وهل ذم أهل الكتاب بقوله: ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، إلا لمثل هذا الحال؟!.

وأما من اغتر بصلاح آبائه، فهلا يذكر قصة نوح عليه السلام مع ابنه، وإبراهيم عليه السلام مع أبيه، ومحمد مع أمه صلى الله عليه وآله وسلم وعلى سائر النبيين.

ويقرب من هذا الغرور، غرور أقوام لهم طاعات ومعاصي، إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يظنون أن حسناتهم ترجح، فترى الواحد منهم يتصدق بدرهم ويكون قد تناول من الغصب أضعاف ذلك، ولعل الذي تصدق به من المغصوب، ويتكل على تلك الصدقة، وما هو إلا كمن وضع درهماً في كفه وألفاً في أخرى، ثم رجا أن يرجح الدرهم بألف.

ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه، وسبب ذلك أنه يحفظ عدد حسناته، ولا يحاسب نفسه على سيئاته، ولا يتفقد ذنوبه، كالذي يستغفر الله ويسبحه مائة مرة في اليوم ثم يظل طول نهاره يغتاب المسلمين، ويتكلم بما لا يُرضي، فهو ينظر في فضائل التسبيح والاستغفار، ولا ينظر في عقوبة الغيبة والكلام المنهي عنه.

فصل [الاغترار واقع بالعلماء والعبَّاد]

ويقع الاغترار في الأغلب في حق أربعة أصناف:
العلماء، والعبَّاد، والمتصوفة، والأغنياء.

الصنف الأول: العلماء:

فأما أهل العلم، فالمغترون منهم فرق:

منهم فرق أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم من الله بمكان، ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة، علموا أن علم المعاملة لا يراد به إلا العمل، ولولا العمل لم يكن له قدر. قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩] ولم يقل: قد أفلح من تعلم كيف يزكيها، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم، فليذكر ما ورد في العالم الفاجر، كقوله تعالى: ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، و﴿ كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة: ٥].

ومنهم فرقة أخرى أحكموا العلم والعمل الظاهر، ولم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا

الصفات المذمومة منها، كالكبر والحسد والرياء، وطلب العلو، وطلب الشهرة، فهؤلاء زينوا ظاهرهم، وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1].

فتعاهدوا الأعمال، ولم يتعاهدوا القلوب، والقلب هو الأصل، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

ومثال هؤلاء كمثل رجل زرع زرعاً، فنبت ونبت معه حشيش يفسده، فأمر بقلعه، فأخذ يجز رؤوسه وأطرافه ويترك أصوله، فلم تزل أصوله تقوى.

وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة، إلا أنهم بعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلى بذلك العوام دون من بلغ مبلغهم من العلم، فإذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة. قال أحدهم: ما هذا بكبر، وإنما هو طلب عز الدين، وإظهار شرف العلم، وإرغام المبتدعين، فإني لو لبست الدون من الثياب، وجلست في الدون من المجالس، شمتت بي أعداء الدين، وفرحوا بذلي، وفي ذلي ذل الإسلام، وينسى الغرور، وأن إبليس هو الذي سول له هذا بدليل أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه كانوا يتواضعون ويؤثرون الفقر والمسكنة.

وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما قدم الشام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع خفيه وأمسكهما، وخاض الماء، ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة: لقد صنعت اليوم صنعاً عظيماً عند أهل الأرض، فصك في صدره وقال: أوْهْ لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة.

إنكم كنتم أذل وأحقر الناس، فأعزكم الله برسوله، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله.

وفي رواية عنه: لما قدم الشام، استقبله الناس وهو على بعيره. فقيل له: لو ركبت برذوناً تلقى به عظماء الناس ووجوههم؟ فقال عمر رضي الله عنه: لا أراكم ها هنا، إنما الأمر من ها هنا ـ وأشار بيده إلى السماء ـ خلوا سبيل جملي.

ثم العجب من مغرور يطلب عز الدنيا بالثياب الرفيعة، والخيول الفارهة ونحو ذلك. وإذا خطر له خاطر الرياء قال: إنما غرضي بهذا إظهار العلم والعمل،

---

(١) مسلم (١١/٨)، وأحمد (٢/٢٨٥، ٥٣٩)، وابن ماجة (٤١٤٣)، والبغوى (٤١٥٠).

لاقتداء الناس بي ليهتدوا إلى الدين، ولو كان هذا قصده لفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به، لأن من كان قصده صلاح الخلق يفرح بصلاحهم على يد من كان، وكذلك من يدخل منهم على سلطان، ويتودد إليه، ويثني عليه، ويتواضع له ويقول: إنما غرضي بهذا أن أشفع في مسلم أو أدفع عنه الضرر، والله يعلم أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند السلطان لثقل عليه ذلك.

وقد ينتهي غرور بعضهم إلى أنه يأخذ من مالهم الحرام ويقول: هذا مال لا مالك له، وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام من أئمتهم، فيغير بهذا التلبيس من جهة نظره إلى نفسه، وربما كان دجّالاً من الدّجالين من جهة قوله: هذا مال لا مالك له. وغاية الأمر وقوع الاختلاط في الأموال، وذلك لا يمنع كونها حراماً، وقد يكون عالماً بمن أخذ منه المال.

وفرقة أخرى أحكموا العلم، وطهروا جوارحهم وزيّنوها بالطاعات، وتفقدوا قلوبهم بتصفيتها من الرياء والحسد والكبر ونحو ذلك، ولكن بقيت في زوايا القلب خفايا من مكائد الشيطان وخدع النفس لم يفطنوا لها وأهملوها، فترى أحدهم يُسْهِرُ ليله ويُنْصِبُ نهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها، ويرى أن باعثه على ذلك الحرص على إظهار دين الله تعالى، وربما كان الباعث لذلك طلب الذكر وانتشار الصيت، ولعله لا يخلو في تصنيفه من الثناء على نفسه، إما صريحاً بالدعاوى الطويلة العريضة، وإما ضمناً بالطعن في غيره ليبين في طعنه في غيره أنه أفضل من ذلك الغير، وأعظم منه علماً. فهذا وأمثاله من خفايا العيوب التي لا يفطن لها إلا الأكياس الأقوياء، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه، ويحرص على صلاحها.

ومن سرته حسنته وساءته سيئته، فهو مرجو أمره، بخلاف من يزكي نفسه ويظن أنه من خيار الخلق. فهذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة، فكيف بالذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم.

فمنهم من اقتصر على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات. وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لصلاح المعايش، وربما ضيعوا الأعمال الظاهرة وارتكبوا بعض المعاصي من الغيبة والنظر إلى ما لا يحل، والمشي إلى ما لا يجوز، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وجميع المهلكات، فهؤلاء مغرورون من وجهين: أحدهما من حيث العمل، والآخر من حيث العلم.

ومثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه، لا بل مثلهم مثل من به علة البرسام وهو مشرف على الهلاك، فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة، وجعل يكرر ذلك، وذلك غاية الغرور.

وسبب غروره ما سمع في النقل من تعظيم الفقه، ولم يدر أن الفقه هو الفقه عن الله تعالى، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة، ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُم طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ الآية [التوبة: ١٢٣]. والذي يحصل له الإنذار غير هذا العلم، فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات، وحفظ الأبدان بالأموال، ودفع القتل والجراحات.

والمال في طريق الله تعالى آلة، والبدن مركب.

وإنما العلم المهم معرفة سلوك الطريق، وقطع عقبات القلب التي هي من الصفات المذمومة، فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى.

ومثال من اقتصر على ذلك، كمثل من اقتصر في سلوك الحج على علم خرز الراوية والخف، ولا شك أنه لا بد من ذلك: ولكن ليس من الحج في شيء.

ومن هؤلاء من اقتصر على علم الخلاف، ولم يهمه إلا طريق المجادلة، والإلزام، والإفحام، ودفع الحق لأجل الغلبة، فهو أسوأ حالاً ممن ذكر قبلهم، وجميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف.

وأما أدلة الأحكام، فيشتمل عليها علم المذهب، وهي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما حيل الجدل، من الكسر، والقلب، وفساد الوضع والتركيب، والتعدية فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام.

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء، والرد على المخالفين.

ثم هؤلاء طائفتان: ضالة، ومحقة، فالضالة التي تدعو إلى غير السنة، المحقة التي تدعو إلى السنة، والغرور شامل لجميعهم.

أما الضالة، فاغترارها ظاهر، وأما المحقة فاغترارها من حيث أنها ظنت أن

الجدال أهم الأمور، وأفضل القربات في دين الله تعالى، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث، وأن من صدق الله ورسوله من غير تحرير دليل، فليس بكامل الإيمان، فلهذا الظن الفاسد قطعوا أعمارهم في تعلم الجدل والبحث عن المقالات، وعميت بصائرهم، فلم يلتفتوا إلى القرن الأول، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق، وأنهم قد أدركوا كثيراً من البدع والهوى، فلم يجعلوا أعمارهم ودينهم عرضاً للخصومات والمجادلات، ولم يشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم، بل لم يتكلموا فيه إلا لضرورة رد الضلال، فإن رأوه مصراً على بدعته هجروه من غير مماراة ولا جدل.

وقد روي في الحديث: «ما ضل قوم بعد هُدىً إلا أوتوا الجدل»[1].

وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص، وهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات وهم منفكون عنها أنهم من أهلها، فهؤلاء يدعون إلى الله وهم هاربون منه، فهم أعظم الناس غرة.

ومن هؤلاء من يعدل عن المنهاج الواجب في الوعظ إلى الشطح وتلفيق كلام خارج عن قانون الشرع والعقل طلباً للأغراب.

ومنهم من يستشهد بأشعار الوصال والفراق، وغرضهم أن يكثر الصياح مجالسهم والتواجد، ولو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الإنس.

ومنهم فرقة استغرقوا أوقاتهم في سماع الحديث، وجمع رواياته، وأسانيده الغريبة والعالية، فهمُّ أحدهم أن يدور البلاد، ويرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان، ولقيت فلاناً، ولي من الإسناد ما ليس لغيري.

ومنهم فرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر، وزعموا أنهم علماء الأمة، وأذهبوا أعمارهم في دقائق النحو واللغة، ولو عقلوا لعلموا أن مضيِّع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيِّع عمره في معرفة لغة الترك، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها، فيكفي من اللغة علم الغريبين: غريب القرآن، والحديث، ومن النحو ما يقوِّم به اللسان.

فأما التعمق إلى درجات لا تتناهى، فذلك يشغل عما هو أجود منه وألزم.

---

(١) الترمذي (٣٢٥٣)، ابن ماجة (٤٨)، أحمد (٥/٢٥٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١٠١).

ومثال التعمق في ذلك، مثال من ضيَّع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن، مقتصراً على ذلك، وذلك غرور، لأن المقصود من الحروف المعاني، وإنما الحروف ظروف وأدوات، ومن احتاج إلى شرب السكنجبين لإزالة الصفراء، فضيع عمره في تحسين القدح الذي يشرب فيه، فهو مغرور، والسعيد من أخذ من كل شيء من هذا حاجته المهمة لا غير، وتجاوز إلى العمل، واجتهد فيه وفي تصفيته من الشوائب، فهذا هو المقصود.

وفرقة أخرى عظم غرورهم، فوضعوا الحيل في دفع الحقوق، وظنوا أن ذلك ينفعهم، بل ذلك غرور، فإن الإنسان إذا ألجأ زوجته إلى أن تبرئه من حقها لم يبرأ فيما بينه وبين الله تعالى.

وكذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول لزوجته، واتهابه مالها لإسقاط الزكاة، ونحو ذلك من أنواع الحيل.

الصنف الثاني: أرباب التعبد والعمل، وهم فرق:

فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل والفضائل، وربما تعمقوا في استعمال الماء حتى خرجوا إلى الوسوسة في الوضوء، فترى أحدهم لا يرضى بالماء المحكوم له بالطهارة شرعاً، بل يقدر له الاحتمالات البعيدة في التنجس، ولا يقدر ذلك في مطعمه، فلو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى المطعم، لكان أشبه بسير السلف، فإن عمر رضي الله عنه توضأ من جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة، وكان مع هذا يدع أنواعاً من الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام.

وقد صح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم توضأ من مزادة مشركة[1].

ثم منهم من يخرج إلى الإسراف في الماء، ويطول به الأمر، حتى تضيع الصلاة ويخرج وقتها.

ومنهم من غلبت عليه الوسوسة في تكبيرة الإحرام في الصلاة، حتى ربما فاتته ركعة مع الإمام.

ومنهم من يتوسوس في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات، والفرق بين الضاد والظاء فوق الحاجة، ونحو ذلك، بحيث يهتم بذلك حتى لا يتفكر فيما سواه، ويذهل عن معنى القرآن

---

(١) الخبر مطولاً في البخاري (١/ ٩٤)، ومسلم (٢/ ١٤١).

والاتعاظ به، وهذا من أقبح أنواع الغرور فإن الخلق لم يتكلفوا من تحقيق مخارج الحروف في تلاوة القرآن إلا ما جرت به العادة في الكلام.

ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى سلطان، فأخذ يؤدي الرسالة بالتأنق في مخارج الحروف وتكراره، وهو غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس، فما أحراه بالطرد والتأديب.

وفرقة أخرى اغتروا بقراءة القرآن، فهم يهذُّونه هذّاً، وربما ختموا في اليوم مرتين، فلسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني، ولا يتفكر في معاني القرآن ولا يتعظ بمواعظه، ولا يقف عند أوامره ونواهيه، فهذا مغرور يظن أن المقصود من القرآن التلاوة فقط.

ومثال ذلك، مثال عبد كتب إليه مولاه كتاباً يأمره فيه وينهاه، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، بل اقتصر على حفظه وتكراره، ظاناً أن ذلك هو المراد منه، مع مخالفته أمر مولاه ونهيه.

ومنهم من يلتذ بصوته بالقرآن، معرضاً عن معانيه، فينبغي أن يتفقد قلبه فيعرف هل التذاذه بالنظم، أو بالصوت، أو بالمعاني.

وفرقة أخرى اغتروا بالصوم وأكثروا منه، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة والفضول، ولا بطونهم من الحرام عند الإفطار، ولا خواطرهم عن الرياء.

ومنهم من اغتر بالحج، فيخرج إليه من غير خروج عن المظالم، وقضاء الديون، واسترضاء الوالدين، وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط فرض الحج، ويضيعون في الطريق العبادة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن، ولا يحترزون من الرفث والخصام، وهم مع ذلك يظنون أنهم على خير وهم مغرورون.

وفرقة أخرى أخذوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونسوا أنفسهم.

ومنهم من يؤم في مسجد، ولو تقدم عليه أورع منه وأعلم، ثقل عليه.

ومنهم من يؤذن ويظن أن ذلك لله، ولو أذن غيره في غيبته، اشتد عليه ذلك وقال: قد زاحمني في مرتبتي.

ومنهم من يجاور بمكة أو بالمدينة وقلبه متعلق ببلاده، وقول الناس: فلان مجاور بمكة أو بالمدينة، ثم إنه يجاور ويطمع في أوساخ الناس، وقد يجمع ذلك

ويشح به ويجتمع له جملة من المهلكات. وما من عمل إلا وفيه آفات، فمن لم يعرفها وقع فيها، ومن أراد أن يعرفها، فلينظر في كتابنا هذا، فينظر في آفات الرياء الحاصل في العبادات من الصوم والصلاة وفي جميع القربات في الأبواب المرتبة في هذا الكتاب، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق.

وفرقة أخرى زهدت في المال، وقنعت بالدون من اللباس والطعام، وقنعت من المسكن بالمساجد، فظنت أنها أدركت رتبة الزهاد، وهم مع هذا شديدو الرغبة في الرياسة والجاه، فقد تركوا أهون الأمرين وباؤوا بأعظم المهلكين.

وفرقة أخرى حرصت على النوافل، ولم تعتن بالفرائض، فترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل، ولا يجد للفريضة لذة، ولا يحرص على المبادرة إليها في أول الوقت، وينسى قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه عزَّ وجلَّ: «ما تقرب المتقربون إليَّ بمثل أداء ما افترضت عليهم»[1].

الصنف الثالث: المتصوفة:

والمغرورون منهم فرق:

فرقة منهم اغتروا بالزي والنطق والهيئة، فتشبهوا بالصادقين من الصوفية بالظاهر، ولم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة، ثم هم يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويمزق بعضهم أعراض بعض إذا اختلفوا في غرض، وهؤلاء غرورهم ظاهر.

ومثالهم مثال عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين تثبت أسماؤهم في الديوان، ويقطع كل واحد منهم قطراً من أقطار الأرض، فاشتاقت نفسها إلى ذلك، فلبست درعاً ووضعت على رأسها مغفراً، وتعلمت من رَجَزِ الأبطال أبياتاً، وتعلمت زيهم وجمع شمائلهم، ثم توجهت إلى العسكر، فكتبَ اسمها في ديوان الشجعان، فلما حضرت في ديوان العرض، أمرت بتجريد المغفر والدرع لينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة، فلما جردت إذا هي عجوز ضعيفة زمنة، فقيل لها: جئت تستهزئين بالملك وأهل حضرته، خذوها وألقوها بين أيدي الفيل، فألقيت إليه.

فهكذا يكون حال المدعين التصوف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء، وعرضوا على الحاكم الأكبر الذي ينظر إلى القلب لا إلى المرقعات والزي.

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٨/١٣١)، والبغوي (١٢٤٨).

وفرقة أخرى ادعت علم المعرفة، ومشاهدة الحق، ومجاورة المقامات والأحوال، والوصول إلى القرب، ولا يعرفون من تلك الأمور إلا الأسماء، فترى أحدهم يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمحدثين وأصناف العلماء بعين الإزدراء، فضلاً عن العوام، حتى إن بعض العامة يلازمهم الأيام الكثيرة، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة، ويرددها كأنه يتكلم عن الوحي، ويحتقر في ذلك جميع العلماء والعباد، ويقول: إنهم محجوبون عن الله، وإنه هو الواصل إلى الحق، وإنه من المقربين، وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين، لم يُحْكِمْ علماً ولم يُهَذِّبْ خلقاً، ولم يراقِب قلباً سوى اتباع الهوى وحفظ الهذيان.

وفرقة منهم طووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام، وبعضهم يقول: إن الله مستغن عن عملي فلمَ أتعب نفسي؟

وبعضهم يقول: لا قدر للأعمال بالجوارح، وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة بحب الله تعالى، وواصلة إلى معرفته، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا، وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربانية، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب، ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله تعالى لقوتهم فيها، ويرفعون أنفسهم عن درجة الأنبياء، لأن الأنبياء عليهم السلام كانوا يبكون على خطيئة واحدة سنين.

وأصناف غرور أهل الإباحة لا تحصى، وكل ذلك أغاليط ووساوس، خدعهم الشيطان بها، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، من غير اقتداء بشيخ صاحب علم ودين صالح للاقتداء به.

ومنهم فرقة أخرى جاوزوا هذه الطريق، واشتغلوا بالمجاهدة، وابتدأوا بسلوك الطريق وانفتح لهم باب المعرفة، فلما استنشقوا مبادىء ريح المعرفة، تعجبوا منها، وفرحوا بها وأعجبهم غريبها، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها، وكيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده عن غيرهم، وكل ذلك غرور، لأن عجائب طريق الله سبحانه وتعالى ليس لها نهاية. ولو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها، قصرت خطاه وحرم الوصل إلى القصد، وكان مثاله مثال من قصد ملكاً، فرأى على بابه روضة فيها أزهار لم يكن رأى مثلها، فوقف ينظر إليها حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك.

الصنف الرابع: أرباب الأموال:

وهم فرق:

ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم، ولو كلف أحدهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه في الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه، ولولا أنه يريد وجه الناس لا وجه الله، لما شق عليه ذلك، فإن الله يطلع عليه، سواء كتب اسمه أو لم يكتبه.

وبعضهم يصرف المال في زخرفة المسجد، وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغلة للمصلين، فإن المقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين.

فأما إن كان المال الذي صرفه في ذلك حراماً، كان أشد في الغرور.

قال مالك بن دينار رحمه الله: أتى رجل مسجداً، فوقف على الباب وقال: مثلي لا يدخل بيت الله، فكتب في مكانه صديقاً.

فبهذا ينبغي أن تعظم المساجد، وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد، لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام، أو بزخرف الدنيا منه على الله تعالى، فغرور هذا من حيث أنه يرى المنكر معروفاً.

وفرقة أخرى يحفظون الأموال ويمسكونها بخلاً، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا تحتاج إلى نفقة المال، كالصيام والصلاة وختم القرآن، وهم مغرورون لأن البخل مهلك، وقد استولى على قلوبهم، فهم محتاجون إلى قمعه بإخراج المال، فقد اشتغلوا عنه بفضائل لا تجب عليهم.

ومثالهم مثال من دخلت في ثوبه حيَّة، فاشتغل عنها بطبخ السكنجبين لتسكن به الصفراء.

ومنهم من لا تسمح نفسه إلا بأداء الزكاة فقط، فيخرج الرديء من المال، أو يعطي من الفقراء من يخدمه، ويتردد في حاجاته، أو من يحتاج إليه في المستقبل أو من له فيه غرض.

ومنهم من يسلم من ذلك إلى بعض الأكابر ليفرقه، لينال بذلك عنده منزلة

ويقوم بحوائجه، وكل ذلك مفسد للنية وصاحبه مغرور، لأنه يطلب بعبادة الله تعالى عوضاً عن غيره.

وفرقة أخرى من أرباب الأموال وغيرهم، اغتروا بحضور مجالس الذكر، وظنوا أن نفس الحضور يغنيهم عن العمل والإتعاظ، وليس كذلك، لأن مجلس الذكر إنما فضل لكونه مرغباً في الخير، وكل ما يراد لغيره إذا لم يوصل إلى ذلك الغير فلا وقع له، وربما سمع أحدهم التخويف، فلا يزيد على قوله: يا سلام سلم، أو أعوذ بالله، ويظن أنه قد أتى المقصود.

ومثال هذا كمثل مريض يحضر عند الأطباء فيسمع ما يجري، أو الجائع يحضر عند من يصف له الأطعمة اللذيذة، ثم ينصرف فلا يغني ذلك عنه. فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها، فكل وعظ لم يغير منك صفة تتغير بها أفعالك، فهو حجة عليك.

فإن قيل: فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يكاد يخلص منه.

فالجواب: أن مدار أمر الآخرة على معنىً واحد، وهو تقويم القلب، ولا يعجز عن ذلك إلا من لم تصدق نيته، فإن الإنسان لو اهتم بأمر الآخرة كما يهتم بأمر الدنيا لنالها. وقد فعل ذلك السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان.

ويستعان على التخلص من الغرور بثلاثة أشياء:

العقل: وهو النور الأصلي الذي يدرك به الإنسان حقائق الأشياء.

والمعرفة: التي يعرف بها الإنسان نفسه وربه ودنياه وآخرته.

وفي كتاب المحبة، وشرح عجائب القلب، والتفكر، وكتاب الشكر إشارات إلى وصف النفس، ووصف جلال الله سبحانه.

ويستعين على معرفة الدنيا والآخرة بما ذكر في كتاب «ذم الدنيا» وكتاب «ذكر الموت»، فإذا حصلت هذه المعارف، ثار من القلب بمعرفة الله تعالى حب الله، وبمعرفة الآخرة حب شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا شدة الرغبة عنها، فيصير أهم أموره إليه ما يوصله إلى الله تعالى، وينفعه في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلب، صحت نيته في الأمور كلها، واندفع عنه كل غرور.

فإذا غلب حب الله تعالى على قلبه لمعرفته به وبنفسه، واحتاج إلى الأمر الثالث وهو العلم، ونعني به العلم بكيفية سلوك الطريق إلى الله تعالى وآفاتها،

والعلم بما يقربه منه ويهديه، وجميع ذلك في كتابنا هذا.

فيعرف من ربع العبادات والعادات ما هو محتاج إليه، وما هو مستغن عنه، ويتأدب بأدب الشرع.

ويعرف من ربع المهلكات جميع العقبات المانعة من طريق الله تعالى، وهي الصفات المذمومة في الخلق.

ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد أن توضع خلفاً من المذمومة بعد محوها، فإذا أحاط بجميع ذلك، أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، والله أعلم.

وإذا فعل جميع ذلك ينبغي أن يكون خائفاً أن يخدعه الشيطان، ويدعوه إلى الرياسة ويخاف عليه أيضاً من الأمن من مكر الله تعالى.

ولذلك قيل: والمخلصون على خطر عظيم.

وقال الإمام أحمد رحمه الله للشيطان حين قال له عند الموت: فُتني. فقال: لا بعد.

فلا ينبغي أن يفارق الخوف قلوب الأولياء أبداً. نسأل الله تعالى السلامة من الغرور، وحسن الخاتمة، إنه قريب مجيب. آخر الغرور.

وبه تمَّ ربع المهلكات، ونشرع الآن في ربع المنجيات.

* * *

الربع الرابع
ربع المنجيات

كتاب التوبة وذكر شروطها
وأركانها وما يتعلق بذلك

اعلم: أن الذنوب حجاب عن المحبوب، والإنصراف عما يبعد عن المحبوب واجب.

وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب، لم يندم على الذنوب، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد، وإذا لم يتوجع لم يرجع.

وقد أمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] وقال سبحانه: ﴿يَا أَيها الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ الآية [التحريم: ٨]. وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرّة»[١].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دَوِّيةٍ مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته»[٢].

والأحاديث في هذا كثيرة، والإجماع منعقد على وجوب التوبة، لأن الذنوب مهلكات مبعدات عن الله تعالى، فيجب الهرب منها على الفور.

والتوبة واجبة على الدوام، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، لو خلا عن

---

(١) مسلم (٨/٧٢) والبخاري في الأدب المفرد (١٦٢١)، والبغوي (١٢٨٨).

(٢) البخاري (٨/٨٤)، ومسلم (٨/٩٢).

معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك، لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، ولا يسلم أحد من هذا النقص، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، وأما أصل ذلك، فلا بد منه.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة»[1]. ولذلك أكرمه الله تعالى بقوله: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢] فأما غيره فكيف يكون حاله؟ ومتى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة، قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [الشورى: ٢٥].

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[2]. والأحاديث في ذلك كثيرة.

فصل [في بيان أقسام الذنوب]

اعلم: أن للإنسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة، لكن تنحصر مثارات الذنوب في أربع صفات:

أحدها: صفات ربوبية، ومنها يحدث الكبر والفخر، وحب المدح والثناء، والعز وطلب الاستعلاء، ونحو ذلك، وهذه ذنوب مهلكات، وبعض الناس يغفل عنها، فلا يعدها ذنوباً.

الثانية: صفات شيطانية، ومنها يتشعب الحسد، والبغي والحيل والخداع والمكر، والغش والنفاق والأمر بالفساد ونحو ذلك.

الثالثة: الصفات البهيمية، ومنها يتشعب الشر والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، فيتشعب من ذلك الزنى واللواطة والسرقة، وأخذ الحطام لأجل الشهوات.

الرابعة: الصفات السبعية، ومنها يتشعب الغضب والحقد، والتهجم على الناس بالقتل والضرب، وأخذ الأموال، وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة.

---

(١) مسلم (٧٢/٨)، وأبو داود (١٥١٥)، والبغوي (١٢٨٧).

(٢) الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجة (٤٢٥٣)، وأحمد (١٣٢/٢، ١٥٣)، وابن حبان (٢٤٤٩)، والبغوي (١٣٠٦).

فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولاً، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً، فإذا اجتمعت هاتان، استعملتا العقل في الصفات الشيطانية، من المكر والخداع والحيل، ثم تغلب الصفات الربوبية.

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع إلى الجوارح، فبعضها في القلب كالفكر، والبدعة، والنفاق، وإضمار السوء، وبعضها في العين، وبعضها في السمع، وبعضها في اللسان، وبعضها في البطن والفرج، وبعضها في اليدين والرجلين، وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى تفاصيل ذلك، فإنه واضح.

ثم الذنوب تنقسم إلى ما يتعلق بحقوق الآدميين، وإلى ما بين العبد وبين ربه.

فما يتعلق بحقوق العباد، فالأمر فيه أغلظ، والذي بين العبد وبين ربه، فالعفو فيه أرجى وأقرب، إلا أن يكون شركاً والعياذ بالله، فذلك الذي لا يغفر.

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الدواوين عند الله عزّ وجلّ ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الذي لا يغفره الله تعالى، فالشرك. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ [المائدة: ٧٢]. وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله عزّ وجلّ، يغفر ذلك، ويتجاوز إن شاء. وأما الديوان الذي لا يترك منه شيئاً، فظلم العباد بعضهم بعضاً، فالقصاص لا محالة»[1].

قسمة أخرى:

اعلم: أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر الاختلاف فيها، واختلفت الأحاديث في عدد الكبائر.

والأحاديث الصحاح في ذكرها خمسة:

الأول: حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله: وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»[2].

---

(١) أحمد (٦/٢٤٠).

(٢) البخاري (٨/٢١٨)، مسلم (١/٦٤).

الثاني: حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، سئل أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك»[1].

الثالث: حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»[2].

الرابع: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: قول الزور ـ أو قال ـ شهادة الزور»[3].

الخامس: حديث أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكرت عنده الكبائر قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[4].

وقد اختلفت العلماء فيها على أقوال كثيرة، والأحاديث في الكبائر لا تدل على حصرها فيها، ولعل الشارع قصد الإبهام ليكون الناس على وجل من الذنوب، لكن يعرف من الأحاديث أجناس الكبائر، ويعرف أيضاً أكبر الكبائر.

فأما أصغر الصغائر، فلا سبيل إلى معرفته، وقد تكلم العلماء في عدد الكبائر، فروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: هي أربع.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: هي سبع.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا بلغه قول ابن عمر: إنها سبع، قال: هي إلى سبعين أقرب منها إلى سبع.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: هي ما أوجب الحد في الدنيا.

وعن ابن مسعود أن الكبائر من فاتحة النساء إلى قوله: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ [النساء: ٣١].

وقال سعيد بن جبير وغيره: هي كل ذنب أوعد الله عليه النار.

وقال أبو طالب المكي: الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار. أربعة

---

(١) البخاري (٦/٢٢، ٨/٩)، مسلم (١/٦٣).

(٢) البخاري (٨/٥)، رواه النسائي (٧/٨٩)، والترمذي (٣٠٢١).

(٣) مسلم (١/٦٤).

(٤) البخاري (٣/٢٢٥)، مسلم (١/٦٤)، والترمذي (٣٠١٩).

في القلب: الشرك، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله تعالى.

وأربعة في اللسان: شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر.

وثلاثة في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا.

واثنتان في الفرج: الزنا واللواطة.

واثنتان في اليدين: القتل والسرقة.

وواحدة في الرجلين: الفرار من الزحف.

وواحدة في جميع البدن، وهي عقوق الوالدين.

وهذا يمكن أن يزاد عليه، وينقص منه، فإن ضرب اليتيم وتعذيبه أكبر من أكلِ ماله، والله أعلم.

فصل [في كيفية توزع الدرجات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا]

اعلم: أن الناس يتفاوتون في الآخرة، كما يتفاوتون في الدنيا، وينقسمون إلى أربعة أقسام: هالكين، ومعذبين، وناجين، وفائزين.

. ومثال ذلك أن يستولي ملك من الملوك على إقليم، فيقتل بعض أهله، ويعذب بعضهم ولا يقتلهم، ويخلي بعضهم، فهم الناجون، ويخلع على بعضهم وهم الفائزون.

وإذا كان الملك عادلاً، فلا يقسمهم كذلك إلا باستحقاق، ولا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك، معانداً له في أصل الولاية، ولا يعذب إلا من قصَّر في خدمته مع الاعتراف له بالملك، ولا يخلي إلا معترفاً له بالملك ولم يقصر، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة، وكل واحد من هذه الأقسام يتفاوتون في النعيم والتعذيب على حسب أحوالهم، ويشهد لذلك ما ورد في الحديث أن من الناس من يمر على الصراط كالبرق الخاطف، ومنهم من يبقى في النار سبعة آلاف سنة، وبين اللحظة وسبعة آلاف سنة تفاوت كثير.

وأما اختلاف العذاب بالشدة، فلا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في

الحساب، ثم يعفو، وقد يضرب بالسياط أو يعذب بغيرها من أنواع العذاب.

وتفاوت منازل أهل السعادة على نحو ذلك في النعيم، فهذه الأمور الكلية معلومة بالنقل ونور المعرفة.

فأما من جهة التفصيل، فنقول: كل من أحكم أصل الإيمان، واجتنب جميع الكبائر، وأحسن جميع الفرائض، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لا يصر عليها، فيشبه أن يعفى عنه، فقد نص القرآن على أن اجتناب الكبائر مكفّر للصغائر.

وهذا إما أن يلتحق بالمقربين، أو بأصحاب اليمين، وذلك بحسب إيمانه ويقينه، فإن قلّ أو ضعف، دنت منزلته، وإن كثر وقوي، علت منزلته.

ثم إن المقربين يتفاوتون بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى، ودرجات العارفين في المعرفة لا تنحصر، لأن بحر المعرفة لا ساحل له، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم، فأعلى درجات أصحاب اليمين، أدنى درجات المقربين، هذا حال من اجتنب الكبائر وأدى الفرائض.

فأما من ارتكب كبيرة، أو أهمل أركان الإسلام، فإنه إن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل، التحق بمن لم يرتكب، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والثوب المغسول كالذي لم يتسخ أصلاً.

فأما إن ماتَ قبل التوبة، فأمره خطر، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه، فيختم له بسوء الخاتمة، لا سيما إذا كان إيمانه تقليداً فإنه قابل للانحلال بأدنى شك وخيال. والعارف الموقن أبعد من أن يخاف عليه سوء الخاتمة. ثم إن عذاب الميت عن غير توبة يكون بحسب قبح الكبائر ومدة الإصرار. ثم ينزل البله المقلدون الجنة، وينزل العارفون المستبصرون أعلى عليين، وما ذكرناه من مراتب العباد في المعاد حكم ظاهر الأسباب، يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة، ولا يقبل إصلاح العلاج، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف، وعلاجه هيِّن، فإن ذلك ظن يصيب غالباً، وقد تثوب إلى الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه، وذلك لأسرار الله تعالى الخفية، وفي أرواح الأحياء غموض للأسباب التي رتبها المسبب، وليس في قوة البشر الوقوف على كنهها، وكذلك الفوز والهلاك في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الإطلاع عليها، وكذلك يجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته، والغضب على المطيع

وإن كثرت طاعاته الظاهرة، فإن الاعتماد على التقوى، والتقوى في القلب، وأحوال القلب قد تخفى على صاحبه، فكيف على غيره؟.

وأما الناجون، ونعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم، ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين، وأولاد الكفار، والذين لم تبلغهم الدعوة، فلم يكن لهم معرفة، ولا جحود، ولا طاعة، ولا معصية، ويصلح أن يكونوا على الأعراف.

وأما الفائزون، فهم العارفون، وهم المقربون والسابقون، وهؤلاء الذين لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرَّة أعين، وليس حرصهم على الجنة، بل على لقاء الله سبحانه وتعالى والنظر إليه.

ومثالهم مثل المحب، فإنه في تلك الحال غافل عن نفسه، لا يحس بما يصيبه في بدنه، ولا همَّ له سوى محبوبه، فهؤلاء الواصلون إلى قرَّة أعين، ولا تخطر على قلب بشر، فهذا القدر كاف في بيان توزيع الدرجات على الحسنات.

فصل [في بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب]

اعلم: أن الصغيرة تكبر بأسباب: منها الإصرار والمواظبة.

وفي الحديث من رواية ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: «لا صغيرةَ مع إصرارٍ ولا كبيرةَ مع الاستغفار»[1].

واعلم: أن العفو عن كبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها، أرجى من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد.

ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على حجر متواليات، فإنها تؤثر فيه، ولو جمعت تلك القطرات في مرة وصبت عليه لم تؤثر، ولهذا قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أَحَبُّ العملِ إلى الله أدومُه وإنْ قَلَّ»[2].

ومن الأسباب التي تعظم بها الصغائر أن يستصغر الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد، صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره العبد، كبر عند الله تعالى، فإن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له.

---

(١) رواه الديلمي في (مسند الفردوس) وفي إسناده أبو شيبة الخراساني، لا يتابع على حديثه.

(٢) تقدم ص ٥٩.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا. أخرجاه في «الصحيحين».

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالى، فإذا نظر إلى عظمة من عصى، رأى الصغيرة كبيرة.

وفي البخاري من حديث أنس رضي الله عنه: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من الموبقات»(١).

وقال بلال بن سعد رحمه الله: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت.

ومن الأسباب أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها، كما يقول: أما رأيتني كيف مزّقت عرض فلان، وذكرت مساويه حتى خجلته، أو يقول التاجر: أما رأيت كيف روجت عليه الزائف، وكيف خدعته وغبنته، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر.

ومنها أن يتهاون بستر الله تعالى وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري أن ذلك قد يكون مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً.

ومنها أن يأتي بالذنب ثم يذكره بمحضر من غيره، وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «كل أمتي معافىً إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان: عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره الله عليه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»(٢).

ومنها أن يكون المذنب عالماً يُقتدى به، فإذا علم منه الذنب، كبر ذنبه، كلبسه الحرير، ودخوله على الظلمة مع ترك الإنكار عليهم، وإطلاق اللسان في الأعراض، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه، كعلم الجدل، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها، فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه.

وفي الحديث: «ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من

---

(١) البخاري (٨ / ١٢٨).

(٢) البخاري (٨ / ٢٤)، ومسلم (٢٢٤٨).

عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1].

فعلى العالم وظيفتان:

إحداهما: ترك الذنب، والثانية: إخفاؤه إذا أتاه.

وكما تتضاعف أوزار العلماء إذا اتُّبعوا على الذنوب، كذلك تتضاعف حسناتهم إذا اتُبعوا على الخير.

وينبغي للعالم أن يتوسط في ملبسه ونفقته، وليكن إلى التقلل أميل، فإن الناس ينظرون إليه.

وينبغي له الاحتراز مما يقتدى به فيه، فإنه متى ترخص في الدخول على السلاطين وجمع الحطام، فاقتدى به غيره، كان الإثم عليه، وربما سلم هو في دخوله، ولم يفهموا كيفية سلامته.

وقد روينا أن ملكاً كان يُكْرِهُ الناس على أكل لحم الخنزير، فجيء برجل عالم، فقال له حاجب الملك: قد ذبحت لك جدياً فكل منه، فلما دخل قرب إليه فلم يأكل، فأمر بقتله، فقال له الحاجب: ألم أقل لك إنه جدي، فقال: ومن أين يعلم حالي من يقتدي بي؟

فصل [في شروط التوبة]

واعلم: أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصي حائلاً بين الإنسان وبين محبوبه.

والندم هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب، وعلامته طول الحزن والبكاء، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعزُّ عليه، طال بكاؤه، واشتدت مصيبته، وأيُّ عزيز أعزّ عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي مخبر أصدق من رسول الله؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد في الحال حزنه، وليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض أدل على الموت من المعاصي على سخط الله، والتعرض بها للنار.

وينبغي للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة، أو بغير شرطها؟ مثل أن يكون صلاها في ثوب نجس، أو بنية غير صحيحة، لجهله بذلك، فيقضيها كلها.

---

(1) مسلم (٣ / ٨٧)، والنسائي (٥ / ٧٥ ـ ٧٦).

وكذلك إن كان عليه صوم، أو زكاة، أو حج، أو غير ذلك من الواجبات، يقضيها كلها، ويفتش على ذلك ويتداركه.

وأما المعاصي، فينبغي أن يفتش من أول بلوغه عن معصية صدرت منه، وينظر فيها، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله تعالى، فالتوبة منه الندم والاستغفار.

ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه، فيطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»(١).

مثال ما ذكرنا: أن يكفِّر سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذكر، ويكفر مس المصحف بغيرِ طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه، وإن أمكنه أن يكتب مصحفاً ويقفه فليفعل، ويكفِّر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال. وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى.

وأما مظالم العباد، ففيها أيضاً معصية الله تعالى، لأنه نهى عن ظلم العباد، فالظالم لهم قد ارتكب نهيه تعالى، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك في المستقبل، والإتيان بالحسنات المضادة لتلكِ المظالم كما تقدم في القسم الأول، فيقابلِ إيذاء الناس بالاحسان إليهم، ويكفِّر غصبِ الأموال بالتصدق بماله الحلال، ويكفِّر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين، ويكفِّر قتل النفوس بالعتق.

هذا فيما يتعلق بحق الله تعالى، فإذا فعل ذلك، لم يكفه حتى يخرجَ من مظالم العباد.

ومظالمهم إما في النفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو إيذاء القلوب.

أما الأول: فإنه إذا قتل خطأً أو أوصل الدية إلى مستحقها، إما منه أو من عاقلته، وإن قتل عمداً، وجب عليه القصاص بشروطه، فعليه أن يبذل نفسه لولي الدم، إن شاء قتله، وإن شاء عفا عنه، ولا يجوز له إخفاء أمره، بخلاف ما لو زنا، أو سرق، أو شرب الخمر، أو باشر ما يجب فيه حد لله تعالى، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه، بل عليه أن يستر نفسه، فإن رفع أمره إلى الوالي حتى أقام عليه الحد، وقع ذلك موقعه وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل قصة ماعز والغامدية.

(١) الترمذي (١٩٨٧)، الدارمي (٢ / ٣٢٣)، أحمد (٥ / ١٥٣، ١٥٨، ١٧٧).

وكذلك حد القذف، لا بد فيه من تحكيم المستحق فيه.

الثاني: المظالم المتعلقة بالأموال، نحو الغصب، والخيانة، والتلبيس في المعاملات، فيجب عليه رد ذلك إلى أصحابه والخروج منه.

وليكتب إلى أصحاب المظالم، وليؤدِّ إليهم حقوقهم، ويستحلهم، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك، ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات، لتؤخذ منه في القصاص يوم القيامة فتوضع في موازين أرباب المظالم، فإنها إن لم تف بذلك أخذ من سيئاتهم، فتوضع فوق سيئاته.

هذا حكم المظالم الثابتة في الذمة والأموال الحاضرة، فإن كان عنده مال من شيء من ذلك لم يعرف مالكه ولا ورثته، تصدق به عنه، وإن اختلط الحلال بالحرام، عرف قدر الحرام بالاجتهاد، وتصدق بمقداره.

الثالث: الجناية على الأعراض، وإيذاء القلوب، فعليه أن يطلب كل واحد منهم، وليستحله، وليعرفه قدر الجناية، فإن الاستحلال المبهم لا يكفي، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى، كنسبته إلى عيب من خفايا عيوبه، أو كزنىً بجاريته، فليجتهد في اللطف به والإحسان إليه، ثم ليستحله مبهماً، ولا بد أن يبقى في مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة، وكذلك من مات من هؤلاء فإنه يفوت أمره، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات، لتؤخذ منه عوضاً يوم القيامة، ولا خلاص إلا برجحان الحسنات.

فصل [في شروط التوبة]

ومن شروط التوبة الصحيحة العزم على أن لا يعود في المستقبل إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها، ويعزم على ذلك عزماً مؤكداً.

مثال ذلك المريض الذي يعلم أن الفاكهة تضر في مرضه، فيعزم عزماً جزماً أن لا يتناول شيئاً من الفاكهة ما دام في مرضه ذلك، فإن هذا العزم يتأكد في الحال، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة، والصمت، وقلة الأكل والنوم، وإحراز قوتٍ حلالٍ، ويترك الشبهات والشهوات من المأكولات والملبوسات.

قال بعضهم: من صدق في ترك الشهوة، وجاهد نفسه فيها سبع مرات، لم يبتل بها، وقال: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين، لم يعد إليه أبداً.

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

الناس في التوبة أربع طبقات:

الطبقة الأولى: تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره، ويتدارك ما فرّط من أمره، ولا يحدّث نفسه بالعود إلى ذنوبه، إلا الزلات التي لا ينفك عنها البشر في العادات، فهذه هي الاستقامة في التوبة. وصاحبها هو السابق بالخيرات.

وتسمى هذه التوبة: النصوح، وتسمى هـذه النفس: المطمئنة! وهؤلاء يختلفون، منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها، ومنهم من تنازعه نفسه وهو مليء بمجاهدتها.

الطبقة الثانية: تائب قد سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد، ولكنه يبتلي بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، وكلما أتى شيئاً منها لام نفسه، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها، فهذه هي النفس اللوّامة لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة، فهذه رتبة عالية أيضاً، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال التائبين، لأن الشر معجون بطينة الآدمي، فقلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره، حتى يثقل ميزانه، فترجح حسناته، فأما أن تخلو كفة السيئات، فبعيد.

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه، إذ قال: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢] وإلى هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلّم: «إن الله يحب المؤمن المُفتّن التواب»[(١)].

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان، وهو يود لو أقدره الله على قمعها، وكفاه شرها، فإذا انتهت ندم، لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب، فهذه النفس تسمى المسؤولة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَاٰخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنوبِهِم خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَاٰخَرَ سَيِّئاً ﴾ فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجو لقوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيهِم ﴾ [التوبة: ١٠٢] وعاقبته مخطرة من حيث

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١ / ٨٠، ١٠٣).

تأخيره وتسويفه، فربما يختطف قبل التوبة، فإن الأعمال بالخواتيم، فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة، وكل نفس يمكن أن يتصل به الموت، فتكون الخاتمة، فليراقب الأنفاس، وليحذر وقوع المحذور.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى الذنوب منهمكاً من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، فهذا من المصرّين، وهذه النفس هي الأمّارة بالسوء، ويخاف على هذا سوء الخاتمة.

فإن مات هذا على التوحيد، فإنه يرجى له الخلاص من النار، ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا يطلع عليه، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح، فإن من قال: إن الله تعالى كريم، وخزائنه واسعة، ومعصيتي لا تضره، ثم تراه يركب البحار في طلب الدينار. فلو قيل له: فإذا كان الحق كريماً، فاجلس في بيتك لعله يرزقك، استجهل قائل هذا وقال: إنما الأرزاق بالكسب، فيقال له: هكذا النجاة بالتقوى.

فصل [فيما ينبغي للتائب فعله]

وقد ذكرنا أن التائب ينبغي له أن يأتي بحسنات تضاد ما عمل من السيئات، لتمحوها وتكفّرها، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات، فما كان بالقلب، فنحو التضرع والتذلل، وأما اللسان، الاعتراف بالظلم والاستغفار، مثل أن يقول: رب ظلمت نفسي فاغفر لي.

روي في الحديث، أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «ما من رجل يذنب ذنباً، فيتوضأ ويحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين، ويستغفر الله عزَّ وجلَّ، إلا غفر له»[1].

وأما الجوارح فبالطاعات، والصدقات، وأنواع العبادات.

فصل [في دواء التوبة وطريق علاج حل عقد الإصرار]

اعلم: أنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء، ولا يبطل الشيء إلا بضده، وسبب الإصرار الغفلة والشهوة، ولا تضاد الغفلة إلا بالعلم، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة.

---

(١) الترمذي (٤٠٦)، أحمد (١ / ٩٢٢).

والغفلة رأس الخطايا، فلا دواء إذاً للتريب إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، كما يجمع في السكنجبين حلاوة السكر وحموضة الخل، فيحصل بمجموعهما قمع الصفراء.

والأطباء لهذا المرض هم العلماء، لأنه مرض القلوب ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان، وإنما صار مرضها أكثر لأمور:

أحدها: أن المريض لا يدري أنه مريض.

الثاني: أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم، بخلاف مرض الأبدان، فإن عاقبته موت مشاهد ينفر الطبع عنه، وما بعد الموت غير مشاهد، فقلّت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب، ويجتهد في علاج البدن من غير اتكال.

الأمر الثالث: وهو الداء العضال فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا، وقد غلب هذا الداء على الأطباء، فلم يقدروا على تحذير الخلق استنكافاً من أن يقال لهم: فما لكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم؟ فبهذا السبب عم الداء وانقطع الدواء.

فإن قيل: فما الذي ينبغي للواعظ سلوكه من الخلق؟

فالجواب: أن ذلك يطول، لكنا نشير إلى الأعمال النافعة في ذلك، وهي أربعة أنواع:

الأول: أن يذكر ما في القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين، وما ورد في الأخبار والآثار من ذلك، ويمزج ذلك بمدح التائبين.

النوع الثاني: حكايات الأنبياء عليهم السلام، والسلف الصالح، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب، كحال آدم عليه السلام، وما لقي في عصيانه من الإخراج من الجنة، وما جرى لداود وسليمان ويوسف عليهم السلام، ولم يورد القرآن هذه الأشياء إلا للاعتبار.

وكان من سعادتهم معالجتهم بذلك، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً، ولأن عذاب الآخرة أشد، فينبغي أن يكثر من هذا على أسماع المصرين، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

النوع الثالث: أن يقرر عندهم، أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب، فهو سبب جناياته، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة

يخاف عقوبة الدنيا أكثر لفرط جهله. والذنوب قد يتعجل في الدنيا شؤمها، كما قال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[1].

وقال الفضيل بن عياض: إني لأعصي الله، فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي.

وقال أبو سلمان الداراني: الاحتلام عقوبة، ولا يفوت أحداً صلاة إلا بذنب يذنبه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إن المؤمن إذا أذنب كان نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، وذلك الران الذي ذكر الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[2] [المطففين: ١٤]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقال الحسن رحمه الله: الحسنة نور في القلب، وقوة في البدن، والسيئة ظلمة في القلب، ووهن في البدن.

النوع الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات في آحاد الذنوب، كشرب الخمر، والزنى، والقتل، والكبر، والحسد، والغيبة.

وينبغي أن يكون طبيباً يعلم الداء، ويدري كيف يصنع الدواء، فإن رجلاً سأل النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: أوصني، قال: «لا تغضب»[3].

وقال آخر: أوصني، فقال: «عليك باليأس مما في أيدي الناس».

فكأنه تخايل في الأول مخايل الغضب، وفي الثاني مخايل الطمع.

وهذا الذي ذكرنا هو علاج الغفلة، فيبقى علاج الشهوة، وطريق علاجها يؤخذ مما ذكرنا في كتاب «رياضة النفس» ولا بد من الصبر، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره، وإنما يحمله على ذلك شدة شهوته، أو غفلته عن مضرته، فلا بد من مرارة الصبر، وكذلك يعالج الشهوة في المعاصي، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة، فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه في السعي وراء

---

(١) ابن ماجة (٤٠٢٢)، وأحمد (٥ / ٢٧٧، ٢٨٠)، والحاكم (١ / ٤٩٣)، والبغوي (٣٤١٨).

(٢) الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجة (٤٢٤٤)، أحمد (٢ / ٢٩٧)، وابن حبان (٢٤٤٨)، والحاكم (٢ / ٥١٧)، والبغوي (١٣٠٤).

(٣) تقدم في ص ١٦٨.

الشهوة، فينبغي أن يستحضر المخوفات التي جاءت في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فإذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة للشهوة.

والذي يهيج الشهوة من خارج، هو حضور المشتهى، والنظر إليه، وعلاجه: الجوع والصوم الدائم، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر، ولا يصبر إلا عن خوف، ولا يخاف إلا عن علم، ولا يعلم إلا عن بصيرة، فأول الأمر حضور مجالس الذكر، والاستماع بقلب مجرد عن الشواغل، ثم التفكر فيما قيل، فينبعث الخوف، ويسهل الصبر، وتتيسر الدواعي لطلب العلاج، وتوفيق الحق سبحانه من وراء ذلك كله.

فإن قيل: ما بال الإنسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه؟

فعن ذلك أجوبة. منها: أن العقاب الموعود ليس بحاضر.

ومنها: أن المؤمن إذا أذنب لا بد أن يعزم على التوبة، وقد وعد أن التوبة تجبر ما فعل، وطول الأمل غالب على الطباع، فلا يزال يسوف بالتوبة، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب.

ومنها: أنه يرجو عفو الله عنه، وعلاج هذه الأسباب أن يفكر في نفسه أن كل ما هو آتٍ قريب، وأنه لا يأمن هجوم الموت، ويعالج التسويف بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، والمسوف يبني الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقي فربما لم يقدر على الترك غداً كما يقدر عليه اليوم، وهل عجز عن الحال إلا لغلبة الشهوة وهي غير مفارقة له غداً؟ بل يتأكد بالاعتياد، ومن هذا هلك المسوفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة، فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها في حال ضعفها، كيف ينتظر الغلبة إذا ضعف وقويت.

وأما انتظار عفو الله تعالى، فعفو الله سبحانه ممكن، إلا أن الإنسان ينبغي له الأخذ بالحزم، وما مثال ذلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها، وترك نفسه وعياله فقراء ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في خربة، وهذا ممكن إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

* * *

كتاب الصبر والشكر

وهو شطران:

الأول: فضل الصبر وحقيقته وأقسامه ونحو ذلك. وقد ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعاً، وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة: ٢٤]. وقال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٦] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر قال الله تعالى: «الصوم لي وأنا أجزي به»[١]. وقد وعد الله الصابرين بأنه معهم، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧] والآيات في هذا كثيرة.

وأما الأحاديث، ففي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما أُعطِي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»[٢] وفي حديث آخر: «الصبرُ من الإيمانِ بمنزلة الرأس من الجسد»[٣].

وقال الحسن: الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله عزَّ وجلّ إلا لعبد كريم عنده. وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة فيطالعها، وفيها: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨].

---

(١) تقدم في ص ٣٨.

(٢) البخاري (٢ / ١٥١ ـ ١٥٢)، ومسلم (٣ / ١٠٢).

(٣) رواه الديلمي في (مسند الفردوس).

واعلم: أن الصبر من خاصية الإنسان، ولا يتصور في البهائم لنقصانها، وغلبة الشهوات عليها من غير شيء يقابلها، ولا يتصور الصبر أيضاً في الملائكة لكمالها، فإن الملائكة جرِّدوا للشوق إلى حضرة الربوبية، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصدها عن حضرة الجلال.

وأما الإنسان فإنه يخلق في ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح، وليس له قوة الصبر، فإذا تحرك العقل وقوي، ظهرت مبادىء إشراق نور الهداية عند سن التمييز، وينمو على التدرج إلى سن البلوغ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس، ولكنها هداية قاصرة لا مرشد لها إلى مصالح الآخرة، فإذا عقد بمعرفة الشرع تلمح ما يتعلق بالآخرة وكثر سلاحه، إلا أن الطبع يقتضي ما يحب، وباعث الشرع والعقل يمنع، والحرب بينهما قائمة، ومعركة هذا القتال قلب العبد، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوات، فإن ثبت حتى قهر الشهوة التحق بالصابرين، وإن ضعف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها، التحق بأتباع الشياطين، وإذا ثبت أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة الهوى، فهذه المقاومة من خاصة الآدميين.

فصل [في أقسام الصبر]

اعلم أن الصبر على ضربين:

أحدهما: بدني، كتحمل المشاق بالبدن، وكتعاطي الأعمال الشاقة من العبادات أو من غيرها.

الضرب الآخر: هو الصبر النفساني عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى، وهذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج، سمي عفة، وإن كان الصبر في قتال، سمي شجاعة، وإن كان في كظم غيظ، سمي حلماً، وإن كان في نائبة مضجرة، سمي سعة صدر، وإن كان في إخفاء أمر، سمي كتمان سر، وإن كان في فضول عيش، سمي زهداً، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ، سمي قناعة.

وأما المصيبة، فإنه يقتصر فيها على اسم الصبر، فقد بان بما ذكرنا أن أكثر أخلاق الإيمان داخلة في الصبر، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلقات.

ثم اعلم أن العبد لا يستغني عن الصبر في كل حال من الأحوال، وذلك أن

جميع ما يلقى العبد في الدنيا لا يخلو من نوعين:

النوع الأول:

ما يوافق هواه من الصحة، والسلامة والمال، والجاه، وكثرة العشيرة، والأتباع، وجميع ملاذ الدنيا، فالعبد محتاج إلى الصبر في جميع هذه الأمور، فلا يركن إليها، ولا ينهمك في التلذذ بها، ويراعي حق الله تعالى في ماله بالإنفاق، وفي بدنه بالمعونة للحق.

ومتى لم يضبط نفسه عن الإنهماك في الملاذ والركون إليها، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، حتى قال بعض العارفين: المؤمن يصبر على البلاء، ولا يصبر على العافية إلا صدِّيق.

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [المنافقون: ٩] وقال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨] ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤].

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، وهذا الصبر متصل بالشكر، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر، وإنما كان الصبر على السراء شديداً، لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه عند حضور الطعام اللذيذ.

النوع الثاني المخالف للهوى وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: الطاعات، فيحتاج العبد إلى الصبر عليها، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية.

ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل، كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً، كالحج والجهاد.

ويحتاج المريد إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال:

حال قبل العبادة، وهي تصحيح النية، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء.

وحال في نفس العبادة، وهي أن لا يغفل عن الله تعالى في أثناء العبادة، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ من العمل.

الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل: وهي الصبر عن إفشائه، والتظاهر به لأجل الرياء والسمعة، وعن كل ما يبطل عمله، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى أبطلها.

القسم الثاني: الصبر عن المعاصي، وما أحوج العبد إلى ذلك.

ثم إن كان الفعل مما تيسر فعله، كمعاصي اللسان من الغيبة، والكذب والمراء ونحوه، كان الصبر عليه أثقل. فترى الإنسان إذا لبس حريراً، استنكر ذلك، ويغتاب أكثر نهاره، فلا يستنكر ذلك، ومن لم يملك لسانه في المحاورات، ولم يقدر على الصبر، لم ينجه إلا العزلة.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت الاختبار، كالمصائب، مثل موت الأحبة، وهلاك الأموال، وعمى العين، وزوال الصحة، وسائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى المقامات، لأن سنده اليقين.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من يرد الله به خيراً يصب به»[1].

وقريب من هذا القسم، الصبر على أذى الناس، كالذي يؤذي بقول أو فعل أو جناية على نفسه أو ماله، والصبر على ذلك يكون بترك المكافآت.

والصبر على أذى الناس من أعلى المراتب، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. وقال ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧] وقال: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الصبر ثلاثة: صبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها، كتب الله له ثلاثمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الأخرى كما بين السماء والأرض، ومن صبر على الطاعة كتبت له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمئة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش مرتين»[2].

---

(١) البخاري (٧/١٤٩).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في (فضل الصبر) وأبو الشيخ في (الثواب).

والأحاديث في فضائل الصبر كثيرة، منها: ما أخرجاه في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله عزّ وجلّ بها عنه، حتى الشوكة يشاكها»[1].

وفي حديث آخر: «ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب ولا همٍّ ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه»[2]. أخرجاه في «الصحيحين».

وفي حديث آخر: «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة، في جسده وفي ماله وفي ولده، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»[3].

وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة»[4] قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وروينا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: قال الله تعالى: «إذا وجهت إلى عبد من عبادي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً، أو أنشر له ديواناً»[5].

فصل [في آداب الصبر]

ومن آداب الصبر استعماله في أول صدمة، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[6] حديث صحيح.

ومن الآداب الاسترجاع عند المصيبة، لحديث أم سلمة رضي الله عنها وهو من رواية مسلم.

---

(١) البخاري (٧/١٤٩)، ومسلم (٨/١٥).

(٢) البخاري (٧/١٤٨)، ومسلم (٨/١٦).

(٣) الترمذي (٢٣٩٩)، وأحمد (٢/٢٨٧، ٤٥٠)، وابن حبان (٦٩٧)، والحاكم (١/٣٤٦)، والبزار (٧٦١ ـ كشف الأستار).

(٤) الترمذي (٢٣٩٨)، ابن ماجة (٤٠٢٣)، وأحمد (١/١٧٢، ١٧٤)، والحاكم (١/٤٠) وصححه، وابن حبان (٦٩٩).

(٥) ابن عدي في الكامل، وسنده ضعيف.

(٦) البخاري (٢/١٠٠، ١٠٤)، ومسلم (٣/٤١).

ومن الآداب سكون الجوارح واللسان، فأما البكاء فجائز.

قال بعض الحكماء: الجزع لا يرد الفائت، ولكن يسر الشامت

ومن حسن الصبر أن لا يظهر أثر المصيبة على المصاب، كما فعلت أم سُليم امرأة أبي طلحة لما مات ابنها، وحديثها مشهور في «صحيح مسلم».

وقال ثابت البناني: مات عبدالله بن مطرف، فخرج مطرف على قومه في ثياب حسنة وقد ادهن، فغضبوا، وقالوا: يموت عبدالله، ثم تخرج في ثياب من هذه مدهناً؟! قال: أفأستكين لها، وعدني ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إليَّ من الدنيا وما فيها.

قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ من رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦ - ١٥٧].

وقال مطرف: ما شيء أعطى به في الآخرة قدر كوز من ماء، إلا وددت أنه أخذ مني في الدنيا.

وكان صلة بن أشيم في مغزىً له ومعه ابنه، فقال: أي بني! تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قتل، ثم تقدم فقتل، فاجتمع النساء عند أمه معاذة العدوية، فقالت: مرحباً إن كنتن جئتن تهنئنني، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن.

وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها، فكتمانها من نعم الله عزّ وجلّ الخفية.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنَه قال: «إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين، فيقول: انظروا ما يقوله لعواده، فإن هو حمد الله تعالى إذا دخلوا عليه، رفعا ذلك إلى الله تعالى وهو أعلم. فيقول: لعبدي إن أنا توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأن أكفر عنه خطاياه»(١).

وقال علي رضي الله عنه: من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك.

وقال الأحنف: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة، ما ذكرتها لأحد.

---

(١) مالك في الموطأ (٥٨٤)، وهو مرسل، ووصله ابن عبد البر في (التمهيد).

وقال رجل للإمام أحمد: كيف تجدك يا أبا عبدالله؟ قال: بخير في عافية. فقال له: حممت البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا في عافية فحسبك، لا تخرجني إلى ما أكره.

وقال شقيق البلخي: من شكا مصيبة به إلى غير الله، لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبداً.

وقال بعض الحكماء: من كنوز البر كتمان المصائب، وقد كانوا يفرحون بالمصائب نظراً إلى ثوابها، وحكاياتهم مشهورة في ذلك.

منها: ما روي أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لما مات دفنه عمر، وسوّى عليه ثم استوى قائماً، فأحاط به الناس، فقال: رحمك الله يا بني! قد كنت براً بأبيك، والله ما زلت منذ وهبك الله لي مسروراً بك، ولا والله ما كنت قط أشد بك سروراً، ولا أرجى بحظي من الله تعالى فيك منذ وضعتك في هذا المنزل الذي صيّرك الله إليه.

فإن قيل: إن كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب، فلا قدرة للآدمي على ذلك، وإن كان الفرح بوجودها كما حكيتم، فهو أبعد.

والجواب: أن الصبر لا يكون إلا عن محبوب أو على مكروه، ولا ينهى عما لا يدخل تحت الكسب، وهو انزعاج الباطن، وإنما ينهى عن المكتسب، كشق الجيوب، ولطم الخدود، والقول باللسان، فأما ما ذكرنا من فرح بعضهم، فذلك فرح شرعي لا طبعي، إذ الطبع لا بد له من كراهة المصائب.

ومثال هذا مثال رجل مريض له شربة لمرضه، فسعى في طلب حوائجها، وأنفق عليها مالاً، فلما تمت، فرح بتمامها وتناولها لما يرجو لها من العافية، فأما طبعه، فما زالت عنه كراهة التناول أصلاً. ولو أن ملكاً قال لرجل فقير: كلما ضربتك بهذا العود اللطيف ضربة أعطيتك ألف دينار، لأحب كثرة الضرب، لا لأنه لا يؤلم، ولكن لما يرجو من عاقبته، وإن أنكاه الضرب، فكذلك السلف تلمحوا الثواب، فهان عليهم البلاء.

فصل [في بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه]

اعلم: أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد بالشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل، فمنهما تركب الأدوية لأمراض القلوب

كلها، فيحتاج كل مرض إلى علم وعمل يليق به، فإن العلل إذا اختلفت اختلف العلاج، إذ معنى العلاج: مضادة العلة.

ونضرب لك مثالاً، فنقول: إذا افتقر الإنسان إلى الصبر عن شهوة الجماع، وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه ولا عينه ولا قلبه، فعلاج ذلك بثلاثة أشياء:

أحدها: مواظبة الصوم، والاقتصار عند الإفطار على قليل من الطعام.

الثاني: قطع أسبابه المهيجة، فإنه إنما يهيج بالنظر، والنظر بالقلب، والقلب يحرك الشهوة، ودواء هذا العزلة، والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة، فإن النظر سهم مسموم من سهام إبليس، ولا يمنع عنه إلا غمض الجفن أو الهرب.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من جنس المشتهى، وذلك بالنكاح. وكل ما يشتهيه الطبع من الحرام، ففي المباحات غنية عنه، وهذا هو العلاج الأرفع في حق أكثر الناس، لأن قطع الغذاء يضعف، ولا يقمع الشهوة بخلاف هذا.

وينبغي للإنسان أن يعود نفسه المجاهدة، فإن من عوَّد نفسه مخالفة الهوى، غلبها متى أراد.

واعلم: أن أشد أنواع الصبر والمجاهدة، كف الباطن من حديث النفس، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ واعتزل، فإن الوساوس لا تزال تجاذبه، ولا علاج لهذا إلا قطع العلائق، وجعل الهم هماً واحداً، وصرف الفكر إلى ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى، وجميع أبواب معرفة الله تعالى، حتى إذا استولى ذلك على قلبه، دفع اشتغاله مجاذبة الشيطان ووسواسه، وإن لم يكن له سير الباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة، من القراءة، والأذكار، والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور، فإن الفكر الباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة، فهذا الذي يمكن أن ينال بالاكتساب والجهد.

فأما مقادير ما ينكشف، ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى من الأحوال والأعمال، فذلك يجري مجرى الصيد، وهو بحسب الرزق، فقد يقل الجهد، ويكثر الصيد، وقد يطول الجهد ويقل الصيد، والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن عزَّ وجلَّ، فإنها توازي أعمال الثقلين، وليس ذلك إلى اختيار العبد، بل اختياره أن يتعرض لتلك الجذبة، بأن يقلع عن قلبه جواذب الدنيا، فإن المجذوب إلى أسفل سافلين، لا يجذب إلى أعلى عليين، وكل منهوم

بالدنيا هو منجذب إليها، فقطع العلائق الجاذبة، هو المراد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها»(١).

فالذي علينا تفريغ المحل، والانتظار لنزول الرحمة، كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش، ويضع فيها البذر، وكل ذلك لا ينفع إلا بمطر، ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى أنه لا يخلي سنة عن مطر، وكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات.

فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب من حشيش الشهوات، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص، وعرضه لمهاب ريح الرحمة، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع عند ظهور الغيم، وكذلك انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة، وعند اجتماع الهم ونشاط القلوب، كيوم عرفة، ويوم الجمعة، وفي رمضان. والهمم والأنفاس أسباب لاستدرار رحمة الله تعالى بحكمته وتقديره.

* * *

الشطر الثاني من الكتاب

في الشكر وفضله وذكر النعم وأقسامها ونحو ذلك

قال الله تعالى: ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقال الله تعالى: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٧] وقال: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبإ: ١٣] وقطع بالمزيد مع الشكر فقال: ﴿ لَئِن شكرتم لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] مع كونه وقف أشياء كثيرة غيره على المشيئة كقوله: ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾ [التوبة: ٢٨] وقوله: ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾ [الأنعام: ٤١] وقوله: ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢١٢] ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [التوبة: ١٥].

ولما عرف إبليس قدر الشكر قال في الطعن على بني آدم: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧].

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قام حتى تفطرت قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟!

---

(١) الطبراني في الأوسط، وقال الهيثمي: فيه من لا أعرفهم.

قال: «أفلا أكون عبداً شاكراً»[1].

وعن معاذ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني أحبك فقل: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[2].

فصل [في كون الشكر بالقلب واللسان والجوارح]

والشكر يكون بالقلب، واللسان، والجوارح.

أما بالقلب، فهو أن يقصد الخير، ويضمره للخلق كافة.

وأما باللسان، فهو إظهار الشكر لله بالتحميد.

وأما بالجوارح، فهو استعمال نعم الله في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، فَمِن شكرِ العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه، فهذا يدخل في جملة شكر هذه الأعضاء.

والشكر باللسان: إظهار الرضى عن الله تعالى، وهو مأمور به. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «التحدث بالنعم شكر، وتركها كفر»[3].

وروي أن رجلين من الأنصار التقيا، فقال أحدهما لصاحبه: كيف أصبحت؟ فقال: الحمد لله. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «قولوا هكذا».

وروي أن رجلاً سلم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرد عليه، ثم قال له عمر: كيف أصبحت؟ قال: أحمد الله، فقال عمر: ذاك الذي أردت.

وقد كان السلف يتساءلون، ومرادهم استخراج الشكر لله، فيكون الشاكر مطيعاً، والمستنطق مطيعاً.

وقال أبو عبد الرحمن الحبلي: إن الرجل إذا سلم على الرجل، وسأله كيف أصبحت؟ فقال له الآخر: أحمد الله إليك، قال: يقول الملك الذي عن يساره للذي عن يمينه: كيف تكتبها؟ قال: أكتبه من الحامدين. فكان أبو عبد الرحمن إذا سئل: كيف أصبحت؟ يقول: أحمد الله إليك وإلى جميع خلقه.

---

(١) البخاري (٦/١٦٩)، مسلم (٨/١٤٢).

(٢) أبو داود (١٥٢٢) والنسائي (٣/٥٣)، وأحمد (٥/٢٤٥، ٢٤٧).

(٣) أحمد (٤/٢٧٨)

فصل [في فعل الشكر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله]

اعلم: أن فعل الشكر وترك الكفران، لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى، إذ معنى الشكر استعمال نعمه في محابه، ومعنى الكفران نقيض ذلك، إما بترك الاستعمال، أو استعماله فيما يكرهه.

ولتمييز ما يحبه الله فيما يكرهه مدركان:

أحدهما: السمع، ومستنده الآيات.

والثاني: بصيرة القلب، وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير عزيز، ولذلك أرسل الله تعالى الرسل، وسهل بهم الطرق على الخلق، ومعرفة ذلك تبنى على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لا يطلع على حكم الشرع في جميع أفعاله، لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً.

وأما الثاني: وهو النظر بعين الاعتبار، فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه: إذ ما خلق الله تعالى شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود، وذلك المقصود هو المحبوب. وتلك الحكمة منقسمة إلى جليَّة وخفيَّة.

أما الجلية، فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل الليل والنهار، فيكون النهار معاشاً، والليل سباتاً، فتتيسر الحركة عند الإبصار، والسكون عند الإستتار، فهذا من جملة حكم الشمس، لا كل الحكمة فيها، وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار.

وأما الحكمة في خلق الكواكب، فخفية لا يطلع عليها كل الخلق، وقد يطلعون على بعض ما فيها من الحكم، نحو كونها زينة للسماء، وجميع أجزاء العالم لا تخلو منه ذرة عن حكمة، وكذلك أعضاء الحيوان، منها ما تبين حكمته بياناً ظاهراً، كالعلم بأن العين للإبصار، واليد للبطش، والرجل للمشي.

فأما الأعضاء الباطنة، كالمرارة، والكلية والكبد، وآحاد العروق، والأعصاب وما فيها من التجاويف والرقة والغلظة، فلا يعرف الحكمة فيها كل الناس، والذين يعرفونها إنما يعرفون منها قدراً يسيراً بالنسبة إلى علم الله تعالى، فكل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ذلك الشيء على غير الوجه الذي أريد به، فقد كفر نعمة الله تعالى فيه، فمن ضرب غيره بيده بغير حق، فقد كفر نعمة الله تعالى في اليد، لأنها خلقت ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه، ويتناول ما ينفعه، لا

ليؤذي بها غيره، وكذلك العين إذا نظر بها إلى محرم، فقد كفر نعمتها، ونعمة الشمس أيضاً، إذ الإبصار يتم بها، فالعين والشمس خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه، ويتقي بهما ما يضره فيهما.

واعلم: أن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها، أن يستعين بها الخلق على الوصول إلى الله تعالى، ولا وصول إليه إلا بمحبته، والأنس به في الدنيا، والتجافي عن غرور الدنيا، ولا أنس إلا بدوام الذكر، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق جميع الأعضاء الباطنة والظاهرة، وكل ذلك لأجل البدن، والبدن مطية النفس، والراجع إلى الله هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله، فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها، لإقدامه على تلك المعصية.

ولنذكر مثالاً واحداً للحكم الخفيَّة التي ليست في غاية الخفاء، حتى يعتبر بها، ويعلم طريق الشكر والكفران على النعم، فنقول: من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير اللذين بهما قوام الدنيا، وهما حجران لا منفعة في أعينهما، ولكن يضطر الخلق إليهما، من حيث كل إنسان يحتاج إلى أعيان كثيرة، في مطعمه، ومشربه، وملبسه، ومركبه، وسائر حاجاته، وقد يعجز عما يحتاج إليه، ويملك ما يستغني عنه، كمن يملك قدراً من الزعفران مثلاً وهو يحتاج إلى جمل يركبه، وآخر يملك الجمل، وربما استغنى عنه، ويحتاج إلى الزعفران، فلا بد بينهما من معاوضة، ولا بد في مقدار العوض من تقدير، إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل، حتى يعطى مثله في الوزن والصورة.

وكذا من يشتري داراً بثياب، أو عبداً بخف، أو دقيقاً بحمار، فهذه الأشياء لا تناسب بينهما، فخلق الله تعالى الدراهم والدنانير، حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال، حتى تقدر بهما، فيقال: هذا الجمل يساوي مائة، وهذا القدر من الزعفران يساوي مائة، فحصل التساوي بينهما حينئذ، وإنما أمكن التعديل بينهما بالنقدين، إذ لا غرض في أعيانهما، فإنه لو كان في أعيانهما غرض لم ينتظم الأمر، فخلقهما الله لتتداولهما الأيدي، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل، وجعلهما

عزيزين في أنفسهما، ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة، فمن ملكهما، فكأنه ملك كل شيء.

إذا عرفت حكمتهما، فكل من عمل فيهما عملاً يخالف المقصود منهما، ولا يليق بحكمتهما، فقد كفر نعمة الله فيهما، فمن كنزهما فقد أبطلهما وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمن حبس الحاكم بين المسلمين في سجن يمتنع من الحكم بسببه، لأنه ضيعهما ومنع الأيدي من تداولهما. ولما كان كثير من الخلق عاجزين عن قراءة الأسطر الإلّهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلّهي لا يدرك بعين البصر، بل بعين البصيرة، أخبرهم الله تعالى بكلام سمعوه بواسطة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَكنزونَ الذَّهبَ وَالفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا في سبيل الله فَبَشِّرْهُم بِعذَابٍ أليم ﴾ [التوبة: ٣٤].

وكل من اتخذ الدراهم والدنانير آنية، فقد كفر نعمة الله فيهما، لأنه أسوأ حالاً ممن كنزهما.

ومثال ذلك من استعمل حاكم البلد في الحياكة والكنس والأعمال التي يقوم بها أخس الناس، وذلك أن الحديد والنحاس والخزف وغيرها يقوم مقام الذهب والفضة في حفظ المائعات، ولا تكفي تلك الأعيان عنهما، ولا يقوم مقامهما فيما أريد بهما من كونهما قيم الأشياء، فمن لم تنكشف له هذه الحكمة بالرحمة الإلّهية قيل له: «من شرب في إناء ذهب أو فضة، فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم» وكذلك كل من عامل بالربا في الدراهم والدنانير، فقد أخرجهما عن مقصودهما، فهذا مثال لحكمة خفيّة من حكم النقدين.

فينبغي أن تعتبر شكر النعمة وكفرها بهذا المثال في غيره من جميع أمورك، في حركتك، وسكونك، ونطقك، وسكوتك في كل فصل صادر منك، إما شكراً أو عكسه، وهو الكفر، وبعض ذلك تصفه بالكراهة، وبعضه بالحظر.

ومن ذلك أن الله تعالى خلق لك يدين، وجعل إحداهما أقوى من الأخرى، فاستحقت بمزيد القوة رجحاناً وشرفاً على الأخرى، وقد أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال، بعضها شريفة، كأخذ المصحف، وبعضها خسيسة، كإزالة النجاسة، فإذا أخذت المصحف باليسار، وأزلت النجاسة باليمين، فقد عكست المقصود، وخصصت الشريف بما هو خسيس، فظلمته.

وكذلك في الرجلين، إذا ابتدأت باليسرى في لبس الخف، فقد ظلمت

اليمنى، لأن الخف وقاية الرجل، وقس على ذلك.

وكذلك نقول: من كسر غصناً من شجرة لغير حاجة مهمة وغرض صحيح، فقد خالف الحكمة في خلق الأشجار، لأنها خلقت للمنفعة بها، فإن كان كسره لغرض صحيح، فلا بأس، وإن فعل ذلك في ملك غيره، فهو ظالم، وإن كان محتاجاً، إلا أن يأذن صاحبه.

فصل [في بيان النعم وحقيقتها وأقسامها]

اعلم: أن كل مطلوب يسمى نعمة، ولكن النعمة في الحقيقة هي السعادة الأخروية، وتسمية ما عداها نعمة تجوز، والأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم أربعة أقسام:

أحدها: ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً، كالعلم، وحسن الخلق، وهو النعمة الحقيقية.

الثاني: ما هو ضار فيهما جميعاً، وهو البلاء حقيقة.

القسم الثالث: ما ينفع في الحال، ويضر في المآل، كالتلذذ، واتباع الشهوات، فهو بلاء عند ذوي الأبصار، والجاهل يظنه نعمة.

ومثاله: الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم، فإنه يعده نعمة إن كان جاهلاً، فإذا علم ذلك عده بلاءً.

القسم الرابع: الضار في الحال، النافع في المآل، وهو نعمة عند ذوي الألباب، بلاء عند الجهال.

ومثاله: الدواء الشنيع مذاقه في الحال، الشافي في المآل من الأسقام، فالصبي الجاهل، إذا كلف شربه ظنه بلاء، والعاقل يعده نعمة، وكذلك إذا احتاج الصبي إلى الحجامة، فإن الأب يدعوه إليها ويأمره بها، لما يلحظ في عاقبتها من الشفاء، والأم تمنعه من ذلك لفرط حبها وشفقتها، لكونها جاهلة بالمصلحة في ذلك، فالصبي يتقلد منة أمه بجهله، ويأنس إليها دون أبيه، ويقدر أباه عدواً، ولو عقل لعلم أن الأم هي العدو الباطن في صورة صديق، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض أشد من ألم الحجامة، فالصديق الجاهل شر من العدو العاقل، وكل إنسان صديق نفسه، ولكن النفس صديق جاهل، فلذلك تعمل به ما لا يعمل العدو.

فصل [في بيان كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء]

اعلم: أن النعم تنقسم إلى ما هو غاية مطلوبة لذاتها، وإلى ما هو مطلوب لأجل الغاية.

أما الغاية فهي سعادة الآخرة، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور: بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لا جهل معه، وغنى لا فقر بعده، وهي السعادة الحقيقية.

وأما القسم الثاني: فهو الوسائل إلى السعادة المذكورة، وهي أربعة أقسام:

أعلاها: فضائل النفس، كالإيمان، وحسن الخلق.

الثاني: فضائل البدن، من القوة والصحة ونحوهما.

الثالث: النعم المطيفة بالبدن، من المال والجاه والأهل.

الرابع: الأسباب التي جمع بينها وبين ما يناسب الفضائل، من الهداية والإرشاد، والتسديد، والتأييد، وكل هذه نعم عظيمة.

فإن قيل: ما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة في المال والجاه ونحوهما؟

قلنا: هذه الأشياء جارية مجرى الجناح المباح، والآلة المستعملة للمقصود.

أما المال، فإن طالب العلم إذا لم تكن معه كفاية، كان كساع إلى الهيجاء بغير سلاح، ولأنه يبقى مستغرق الأوقات في طلب القوت، فيشغله عن تحصيل العلم، وعن الذكر، والفكر، ونحو ذلك.

وأما الجاه فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم، ولا ينفك عن عدو يؤذيه، وظالم يهوش عليه، فيشغل قلبه، وقلبه رأس ماله. وإنما تدفع هذه الشواغل بالعز والجاه.

وأما الصحة والقوة وطول العمر ونحوها، فهي نعم، إذ لا يتم علم ولا عمل إلا بذلك.

وقد قال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: «نعمتان مغبون فيهما كثير من

الناس: الصحة، والفراغ»[1].

ولما سئل: من خير الناس؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله»[2].

وأما المال والجاه، وإن كانا نعمتين، فقد ذكرنا ما فيهما من الآفات فيما تقدم، وأنهما ليسا بمذمومين على الإطلاق.

وأما الهداية والرشد والتسديد والتأييد، فلا خفاء في كونها من أعظم النعم، فلا يستغني أحد عن الحاجة إلى التوفيق، ولذلك قيل:

إذا لم يكن عـون الله للفتى فأكثر مـا يجني عليه اجتهـاده

فصل [من نعم الله الأسباب التي يتم بها الأكل]

واعلم: أنا قد ذكرنا جملة من النعم، وجعلنا صحة البدن نعمة واحدة من النعم الواقعة في الرتبة الثانية، فلو أردنا أن نستقصي الأسباب التي بها تمت هذه النعمة، لم نقدر عليها، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة، فلنذكر شيئاً من جملة الأسباب التي يتم بها الأكل على سبيل التلويح، لا على سبيل الاستقصاء، فنقول: من جملة نعم الله عليك أن خلق لك آلة الإحساس، وآلة الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في الحواس الخمس، التي هي آلة للإدراك.

فأولهما: جاسة اللمس، وهو أول حس يخلق للحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه، فإن الإحساس بما يبعد منه أتم لا محالة، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك، فخلق لك الشـم تدرك به الرائحة من بعد، ولكن لا تدري من أي ناحية جاءت الرائحة، فتحتاج أن تطوف كثيراً حتى تعثر على الذي شممت رائحته، وربما لم تعثر، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك، وتدرك جهته فتقصدها بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب، فربما قصدك عدو بينك وبينه حجاب، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب، فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الحجرات عند جريان الحركات، ولا يكفي ذلك، لو لم يكن لك حسن الذوق، إذ به تعلم ما يوافقك وما يضرك، بخلاف الشجرة، فإنه يصيب في أصلها كل مائع، ولا ذوق لها فتجذبه، وربما يكون ذلك سبب جفافها، ثم

---

(١) البخاري (٨ / ١٠٩)، أحمد (١ / ٢٥٨، ٣٤٤)، والترمذي (٢٣٠٤)، وابن ماجة (٤١٧٠).

(٢) أحمد (٥ / ٤٩)، والبغوي (٤٠٩٤).

أكرمك الله تعالى بصفة أخرى، هي أشرف من الكل، وهو العقل، فبه تدرك الأطعمة ومنفعتها، وما يضر في المآل، وبه تدرك طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع به في الأكل الذي هو سبب صحتك، وهو أدنى فوائد العقل، والحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى، وما ذكرنا من الحواس الخمس الظاهرة، فهي بعض الإدراكات. ولا تظن أننا استوفينا شيئاً من ذلك، فإن البصر واحد من الحواس، والعين آلة له، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة: بعضها رطوبات، وبعضها أغشية مختلفة، لكل واحدة من الطبقات العشر، صفة، وصورة، وشكل، وهيئة، وتدبير، وتركيب، لو اختلت طبقة واحدة منها أو صفة واحدة، لاختل البصر، وعجز عنه الأطباء كلهم، فهذا في حس واحد، وقس حاسة السمع وسائر الحواس، ولا يمكن أن يستوفى ذلك في مجلدات، فكيف ظنك بجميع البدن؟!

ثم انظر بعد ذلك في خلق الإرادة والقدرة، وآلات الحركة من أصناف النعم، وذلك أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الطعام، ولم يخلق لك في الطبع شوق إليه وشهوة تستحثك على الحركة، كان البصر معطلاً، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له، ولا يقدر على تناوله لسقوط شهوته، فخلق لك الله شهوة الطعام وسلطها عليك، كالمتقاضي الذي يضطرك إلى تناول الغذاء.

ثم هذه الشهوة لو لم تسكن عند أخذ مقدار الحاجة من الطعام، لأسرفت وأهلكت نفسك، فخلق لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها، وكذلك القول في شهوة الوقاع لحكمة بقاء النسل.

ثم خلق لك الأعضاء التي هي آلات الحركة في تناول الغذاء وغيره، منها اليدان، وهما مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات وتمتد وتنثني، ولا تكون كخشبة منصوبة.

ثم جعل رأس اليد عريضاً، وهو الكف، وقسمه خمسة أقسام، وهي الأصابع وجعلها مختلفة في الطول والقصر، ووضعها في صفين، بحيث يكون الإبهام في جانب، ويدور على الأصابع البواقي، ولو كانت مجتمعة متراكمة، لم يحصل تمام الغرض، ثم خلق لها أظافر، وأسند إليها رؤوس الأصابع، لتقوى بها، ولتلتقط بها بعض الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع، ثم هب أنك أخذت الطعام باليد، فلا يكفيك حتى يصل إلى باطنك، فجعل لك الفم واللحيين، خلقهما من

عظمين، وركب فيهما الأسنان، وقسمها بحسب ما يحتاج إليه الطعام، فبعضها قواطع كالرباعيات، وبعضها يصلح للكسر كالأنياب، وبعضها طواحن كالأضراس. وجعل اللحي الأسفل متحركاً حركة دورية، واللحي الأعلى ثابتاً لا يتحرك، فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى. وإن كل رحى صنعها الخلق يثبت منها الحجر الأسفل ويدور الأعلى، إلا هذه الرحى التي هي صنع الله سبحانه وتعالى، فإنه يدور منها الأسفل على الأعلى، إذ لو دار الأعلى خوطر بالأعضاء الشريفة التي يحتوي عليها.

ثم انظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان، فإنه يطوف في جوانب الفم، ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة، كالمجرفة التي ترد الطعام إلى الرحى، هذا مع ما فيه من عجائب قوة النطق.

ثم هب أنك قطعت الطعام وعجنته وهو يابس، فما تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة.

فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عيناً يفيض منها اللعاب، وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام.

ثم هذا الطعام المطحون المعجون من يوصله إلى المعدة وهو في الفم، فإنه لا يمكن إيصاله باليد، فهيأ الله تعالى المريء والحنجرة، وجعل رأسها طبقات ينفتح لأخذ الطعام، ثم ينطبق وينضغط حتى يقلب الطعام، فيهوي في دهليز المريء إلى المعدة، فإذا ورد الطعام إلى المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة، فلا يصلح أن يصير لحماً وعظماً ودماً على هذه الهيئة حتى يطبخ طبخاً تاماً، فجعل الله المعدة على هيئة قدر يقع فيها الطعام، فتحتوي عليه وتغلق عليه الأبواب، وينضج بالحرارة التي تتعدى إليها من الأعضاء الأربعة، وهي الكبد من جانبها الأيمن، والطحال من جانبها الأيسر، والثرب من أمامها، ولحم الصلب من خلفها، فينضج الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق، ثم ينصب الطعام من العروق إلى الكبد، فيستقر فيها ريثما يصلح له نضج آخر.

ثم يتفرق في الأعضاء ويبقى منه ثقل ثم يندفع.

ولو استوفينا الكلام في ذلك لطال.

وفي الآدمي من العضلات والعروق ما لا يحصى، مختلف بالصغر والكبر والدقة والغلظ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة، وكل ذلك من الله سبحانه، ولو سكن من جملتها عرق متحرك، أو تحرك عرق ساكن، لهلكت يا مسكين.

فانظر إلى نعم الله تعالى عليك، لتقوى على الشكر، فإنك لا تعرف من نعمة الله تعالى إلا نعمة الأكل، وهي أخسها، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل، والبهيمة أيضاً تعرف أنها تجوع وتأكل، وتتعب فتنام، وتشتهي فتجامع، وإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار، فكيف تقوم بشكر الله تعالى؟! وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر من نعم الله تعالى، فقس على ذلك.

وجملة ما عرفنا وعرفه الخلق كلهم من نعم الله تعالى بالإضافة إلى ما لم يعرفوه، أقل من قطرة في بحر. قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤ والنحل: ١٨].

فصل [في عجائب الأغذية والأدوية]

واعلم: أن الأطعمة كثيرة مختلفة، ولله تعالى في خلقها عجائب لا تحصى. وهي تنقسم إلى أغذية وأدوية وفواكه وغيرها.

فنتكلم عن بعض الأغذية، فنقول: إذا كان عندك شيء من الحنطة، فلو أكلتها لفنيت وبقيت جائعاً، فما أحوجك إلى عمل ينمى به حب الحنطة ويتضاعف، حتى يفي بتمام حاجتك، وهو زرعها، وهو أن تجعلها في أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً، ثم لا يكفي الماء والتراب، إذ لو تركت في الأرض ندية صلبة، لم تنبت لفقد الهواء، فيحتاج إلى تركها في أرض متخلخلة يتغلغل الهواء فيها، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه، فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء، وتصرفه بقهر على الأرض، حتى ينفذ فيها، ثم كل ذلك لا يغني، فيحتاج إلى حرارة الربيع والصيف، فإنه لو كان في البرد المفرط لم ينبت.

ثم انظر إلى الماء الذي تحتاج إليه هذه الزراعة كيف خلقه الله تعالى؟ فجَّر العيون وأجرى منها الأنهار، ولما كان بعض الأرض مرتفعاً لا يناله الماء، أرسل إليها الغيوم، وسلط عليها الرياح لتسوقها بإذنه إلى أقطار العالم، وهي سحب ثقال، ثم يرسله على الأرض مدراراً في وقت الحاجة.

وانظر كيف خلق الله الجبال حافظة للماء، تنفجر منها العيون تدريجاً، فلو خرجت دفعة واحدة لغرقت البلاد وهلك الزرع وغيره.

وانظر كيف سخر الشمس وخلقها، مع بعدها عن الأرض، مسخنة لها في وقت دون وقت، ليحصل البرد عند الحاجة إليه، والحر عند الحاجة إليه.

وخلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب، كما جعل من خاصيه الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه بتقدير الحكيم الخبير، وكل كوكب خلق في السماء، فهو مسخر لنوع فائدة، كما سخرت الشمس والقمر. ولا يخلو كل واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها، وكذلك الشمس والقمر؛ فيهما حكم أخر غير ما ذكرنا لا تحصى.

ولما كانت كل الأطعمة لا توجد في كل مكان، سخر الله تعالى التجار، وسلط عليهم الحرص على جمع المال، مع أنه لا يغنيهم في غالب الأمر شيء، بل يجمعون الأموال، فإما أن تغرق بها السفن أو تنتهبها قطاع الطرق، أو يموتون في بعض البلاد، فتأخذها السلاطين. وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم، وهم أشد أعدائهم لو عرفوا. فانظر كيف سلط الله عليهم الأمل والغفلة، حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح في ركوب البحار، وركوب الأخطار، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك.

واعلم: أن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة إلا للجهل والغفلة، فإنهم منعوا بذلك عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول أحدهم بلسانه: الحمد لله، والشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن تستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعة الله تعالى.

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب:

أحدها: أن الناس لجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على جملة مما ذكرناه، من النعم، لأنها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى واحد منهم اختصاصاً به، فلا يعده نعمة، فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أخذ بمخنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حبسوا في حمام أو بئر ماتوا غماً، فإن ابتلي أحدهم بشيء من ذلك ثم نجا، قدّر ذلك نعمة يشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل، إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة، ثم ترد إليهم في بعض الأحوال، فالنعم في جميع الأحوال أولى بالشكر، فلا ترى البصير يشكر صحة البصر إلا أن يعمى، فإذا أعيد بصره أحس بالنعمة وشكرها حينئذ وعدها نعمة، وهو مثل عبد السوء يضرب دائماً، فإذا ترك ضربه ساعة، شكر وتقلد ذلك منة، وإن ترك ضربه أصلاً، غلبه البطر وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا على المآل الذي يتطرق

الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم.

كما روي أن بعضهم شكا فقره إلى بعض أرباب البصيرة، وأظهر شدة اغتمامه بذلك، فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف؟ قال: لا، قال: أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً.

وحكي عن بعض الفقراء أنه اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً، فرأى في المنام كأن قائلاً يقول له: أتود أنا أنسيناك سورة الأنعام ولك ألف دينار؟ قال: لا. قال: فسورة هود؟ قال: لا، قال: فسورة يوسف؟ قال: لا، قال: فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو؟ فأصبح وقد سري عنه.

ودخل ابن السماك على الرشيد في عظة، فبكى ثم دعا بماء في قدح فقال: يا أمير المؤمنين! لو منعت هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفديها بها؟ قال: نعم. قال: فاشرب رياً، بارك الله فيك. فلما شرب، قال له: يا أمير المؤمنين: أرأيت لو منعت إخراج هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفتدي ذلك؟ قال: نعم. قال: فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه!

وهذا يبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها، ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم، وهذه إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة.

اعلم: أن ما من عبد إلا إذا أمعن النظر رأى من نعم الله نعماً كثيرة لا يشاركه فيها عموم الناس، بل قد يشاركه في ذلك كثير منهم، من ذلك العقل، فما من عبد إلا وهو راضٍ عن الله سبحانه في عقله، يعتقد أنه أعقل الناس، وقلما يسأل الله العقل، وإذا كان ذلك اعتقاده، فيجب عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك.

ومن ذلك الخلق، فإنه ما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها، وأخلاقاً يذمها، ويرى نفسه بريئاً منها، فينبغي أن يشكر الله تعالى على ذلك، حيث أحسن خلقه وابتلى غيره.

ومن ذلك أن ما من أحد إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أركانها ما هو منفرد به، ولو كشف الغطاء عنه حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح، فكيف لو اطلع الناس كافة؟ فلم لا يشكر الله بستر الجميل على مساويه، حيث

أظهر الجميل وستر القبيح، ولننزل إلى طبقة أعم من هذا القبيل، فنقول: ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته، أو أخلاقه أو صفاته، أو أهله، أو ولده، أو مسكنه أو بلده، أو رفيقه، أو أقاربه، أو جاهه، أو سائر محابه، أموراً، لو سلب ذلك وأعطي ما خصص به من ذلك غيره، لكان لا يرضى به، وذلك مثل أن جعله مؤمناً لا كافراً، وحياً لا جماداً، وإنساناً لا بهيمة، وذكراً لا أنثى، وصحيحاً لا مريضاً، وسليماً لا معيباً، فإن كل هذه خصائص.

فإن كان لا يرى أن يبدل حاله بحال غيره، مثل أن لا يعرف شخصاً يرتضي لنفسه حاله بدلاً عن حال نفسه، إما على الجملة، أو في أمر خاص، فإن لله عليه نعماً ليست له على أحد من عباده سواه، وإن كان يرى أنه يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون بعض، فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده، فإنه يراهم عنده لا محالة أقل من غيرهم، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير ممن فوقه، فما باله ينظر إلى من فوقه ولا ينظر إلى من دونه؟!

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه»[1]. وقد رواه الترمذي بلفظ آخر: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»[2].

فإن من اعتبر حال نفسه، وفتش على ما خص به، وجد لله تعالى عليه نعماً كثيرة، لا سيما من خص الإيمان، والقرآن، والعلم، والسنة، ثم الفراغ، والصحة والأمن وغير ذلك.

وقد روي في بعض الأحاديث «من قرأ القرآن فهو غني»[3]. وفي لفظ: «القرآن غنى لا فقر بعده، ولا غنى دونه»[4].

وفي حديث آخر: «من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[5].

---

(١) البخاري (٨ / ١٢٨)، مسلم (٨ / ٢١٣).

(٢) الترمذي (٢٥١٣).

(٣) ابن عدي (١٣٣٢) وفيه يزيد الرقاشي وهو ضعيف.

(٤) الطبراني في الكبير، وفي سنده يزيد الرقاشي، وهو ضعيف.

(٥) الترمذي (٢٣٤٦)، ابن ماجة (٤١٤١)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٠).

وقال بعضهم:

إذا ما القوت يأتي لـ ـكَ في الصحة والأمن
وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

فإن قيل: فما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله تعالى؟

فالجواب: أما القلوب المبصرة، فتتأمل ما رمز إليه من أصناف نعم الله عزَّ وجلّ، وأما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة إلا إذا نزل بها البلاء، فسبيل صاحبها أن ينظر أبداً إلى من دونه، ويفعل ما كان يفعله بعض القدماء، فإنه كان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع البلاء عليهم، ثم يتأمل صحته وسلامته، ويشاهد الجناة الذين يقتلون، وتقطع أيديهم وأرجلهم ويعذبون، فيشكر الله على سلامته من تلك العقوبات، ويحضر المقابر، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا، ليتدارك من عصى عصيانه، وليزيد في الطاعة من أطاع، فإن يوم القيامة يوم التغابن، فإذا شاهد المقابر، وعلم أحب الأشياء إليهم، فليصرف بقية عمره في طاعة الله تعالى وشكره في الإمهال، بأن يصرف العمر إلى ما خلق لأجله، وهو التزود للآخرة.

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن يعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت.

كان الفضيل رحمه الله تعالى يقول: عليكم بمداومة الشكر على النعم، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم.

فصل [في بيان اجتماع الصبر والشكر على وجه واحد]

لعلك تقول: قد ذكرت أن لله تعالى في كل موجود نعمة، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً، فما معنى الصبر، وإن كان البلاء موجوداً، فما معنى الشكر على البلاء؟ وكيف يجتمع الصبر والشكر؟! فإن الصبر يستدعي ألماً، والشكر يستدعي فرحاً، وهما متضادان.

فاعلم أن البلاء موجود، كما أن النعمة موجودة، وأنه ليس كل بلاء يؤمر بالصبر عليه، مثل الكفر، فإنه بلاء، ولا معنى للصبر عليه، وكذا المعاصي، إلا أن الكافر لا يعلم أن كفره بلاء، فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بها بسبب غشيته، والعاصي يعرف عصيانه، فعليه ترك المعصية، وكل بلاء يقدر الإنسان على دفعه لا

يؤمر بالصبر عليه، فلو ترك شرب الماء مع العطش حتى عظم ألمه، لم يؤمر بالصبر على ذلك، بل يؤمر بإزالة الألم، وإنما يكون الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته، فإذن يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجهه، فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الشكر ووظيفة الصبر، فإن الغنى مثلاً يجوز أن يصير سبب هلاك الإنسان، حتى يقصد قتله بسبب ماله، والصحة أيضاً كذلك، فما من نعمة من نعم الدنيا إلا ويجوز أن تصير بلاء، وقد يكون على العبد في بعض الأمور بلاء وفيه نعمة.

مثال ذلك، جهل الإنسان بأجله، فإنه نعمة عليه، إذ لو عرفه تنغص عليه العيش، وطال بذلك غمه، وكذلك جهله بما يضمره بعض الناس له، إذ لو اطلع عليه، لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام، وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره، إذ لو عرف منه ذلك، أبغضه وآذاه، فكان ذلك وبالاً عليه.

ومن ذلك إبهام القيامة، وليلة القدر، وساعة الجمعة، وكل ذلك نعمة، لأن الجهل يوفر الدواعي على الطلب والاجتهاد، فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل، فكيف في العلم؟!

وقد قلنا: إن لله سبحانه في كل موجود نعمة، حتى إن الآلام قد تكون نعمة في حق المتألم، وقد تكون نعمة في حق غيره، كألم الكفار في النار في الآخرة، فإنه نعمة في حق أهل الجنة، إذ لو لم يعذب قوم، ما عرف المتنعمون قدر نعيمهم، وإنما يتضاعف فرح أهل الجنة إذا ذكروا ألم أهل النار، ألا ترى أن أهل الدنيا لا يشتد فرحهم بنور الشمس، مع شدة حاجتهم إليها من جهة أنها عامة مبذولة، ولا بالنظر إلى زينة السماء، وهي أحسن من كل نبت، لأنها عامة، فلذلك لم يشعروا بها، ولم يفرحوا بسببها، فإذا صح قولنا: إن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ونعمة، إما على جميع العباد، أو على بعضهم، ففي خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً، إما على المبتلى، أو على غيره، فيجتمع على العبد وظيفة الشكر والصبر في كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق، ولا نعمة مطلقة، فإن الإنسان قد يفرح بالشيء الواحد من وجه، ويغتم به من وجه، فيكون الصبر من حيث الاغتمام، والشكر من حيث الفرح.

واعلم: أن في كل فقر، ومرض، وخوف، وبلاء في الدنيا، خمسة أشياء ينبغي أن يفرح العاقل بها، ويشكر عليها:

أحدها: أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون عليه أكثر منها، لأن مقدورات الله تعالى لا تتناهى، فلو أضعفها الله عزَّ وجلّ على العبد، فما كان يمنعه؟ فليشكر إذ لم يكن أعظم.

الثاني: أن المصيبة لم تكن في الدين.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليَّ فيه أربع نعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم، وإذ لم أحرم الرضى به، وإذ أرجو الثواب عليه.

قال رجل لسهل بن عبدالله: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي، فقال: اشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك، ماذا كنت تصنع؟ ومن استحق أن يضربك مائة سوط، فاقتصر على عشرة، فهو مستحق للشكر.

الثالث: أن ما من عقوبة إلا كان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة، ومصائب الدنيا يتسلى عنها فتخف، ومصيبة الآخرة دائمة، وإن لم تدم، فلا سبيل إلى تخفيفها، ومن عجلت عقوبته في الدنيا لم يعاقب ثانياً، كذا ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي «صحيح مسلم»: «إن كل ما يصاب به المسلم يكون كفارة له، حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها»[1].

الرابع: أن هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب، ولم يكن بد من وصولها إليه، فقد وصلت واستراح منها، فهي نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها، فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة، كما يكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي، فإنه لو خلي واللعب، لكان يمنعه ذلك من العلم والأدب، فكان يخسر طول عمره، وكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء، قد تكون سبباً لهلاكه، فالملحدون غداً يتمنون أن لو كانوا مجانين وصبياناً، ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد، إلا ويتصور أن يكون له في ذلك خيرة دينية، فعليه أن يحسن الظن بالله عزّ وجلّ، ويقدر الخيرة فيما أصابه ويشكر الله تعالى عليه، فإن حكمة الله تعالى واسعة، وهو أعلم بمصالح العباد منهم، وغداً يشكره العباد على

---

(١) مسلم (١٦/٨)، والبخاري في الأدب (٤٩٨).

البلاء إذا رأوا ثوابه، كما يشكر الصبي بعد البلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه، إذ رأى ثمرة ما استفاد من التأديب.

والبلاء تأديب من الله تعالى، ولطفه بعباده أتم وأوفى من عناية الآباء بالأولاد.

وفي الحديث: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له»[1].

وأيضاً، فاعلم أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عنها، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا والأنس بها، فإذا كثرت المصائب انزعج القلب عن الدنيا ولم يسكن إليها، فصارت سجناً له، فكانت نجاته منها غاية المراد كخلاص المسجون من السجن.

وأما التألم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك بمن يحجمك أو يسقيك دواء نافعاً بلا أجر، فإنك تتألم وتفرح، فتصبر على الألم، وتشكر على سبب الفرح، فمن عرف هذا، تصور منه أن يشكر على البلاء، ومن لا يؤمن أن ثواب المصيبة أكثر منها لم يتصور منه الشكر على المصيبة.

وقد روي أن أعرابياً عزى ابن عباس رضي الله عنه بأبيه فقال:

اصبر نكن بك صابرين فإنما ... صبر الرعية عند صبر الراس

خير من العباس صبرك بعده ... والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عزاني أحد أحسن من تعزيته.

وقد سبق ذكر أنواع البلاء، وثواب الصبر عليها.

فإن قال قائل: الأخبار الواردة في فضل الصبر تدل على أن البلاء في الدنيا خير من النعيم، فهل لنا أن نسأل الله عزّ وجلّ البلاء؟

فالجواب: أنه لا وجه لذلك، فإن في الحديث من رواية أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عاد رجلاً من المسلمين صار مثل الفرخ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هل كنت تدعو بشيء، أو تسأله»؟ قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه، فهلا قلت: اللهم

---

(١) أحمد (٥/ ٢٤).

آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»[1]؟

ومن حديث أنس رضي الله عنه أيضاً، أن رجلاً قال: يا نبي الله: أي الدعاء أفضل؟ قال: «سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة»، ثم أتاه الغد، فقال: يا رسول الله: أي الدعاء أفضل؟ قال: «سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة»، ثم أتاه اليوم الثالث. فقال: «سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة، فإن أعطيت العفو والعافية في الدنيا والآخرة فقد أفلحت»[2].

وفي «الصحيحين» أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»[3].

وقال مطرف: لأن أعافى فأشكر، أحب إليَّ من أن أبتلى فأصبر.

فصل [في بيان أيهما أفضل الصبر أم الشكر]

واختلف الناس: هل الصبر أفضل من الشكر، أو بالعكس؟ وفي ذلك كلام طويل، ذكره المصنف رحمه الله، وتلخيص القول فيه: أن لكل واحد من الصبر والشكر درجات.

فأقل درجات الصبر، ترك الشكوى مع الكراهة، ووراءها الرضى، وهو مقام وراء الصبر، ووراء ذلك الشكر على البلاء، وهو وراء الرضى.

ودرجات الشكر كثيرة، فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر، ومعرفته بتقصيرة عن الشكر شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وستره شكر، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله بغير استحقاق شكر، والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله شكر وحسن التواضع في النعم والتذلل فيها شكر، وشكر الوسائط شكر، لقوله صلى عليه وآله وسلم: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[4]. وقلة الاعتراض و- الأدب بين يدي المنعم شكر، وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها فما يندرج من الأعمال والأقوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر، وهي درجات مختلفة، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر؟.

---

(١) مسلم (٨/٦٧)، والترمذي (٣٤٨٧)، والبغوي (١٣٨٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٨).

(٢) الترمذي (٣٥١٢)، ابن ماجة (٣٨٤٨). والبخاري في الأدب المفرد (٦٣٧)، وأحمد (٣/١٢٧).

(٣) البخاري (٨/١٩٣)، ومسلم (٨/٧٦).

(٤) تقدم في ص ٣٥

لكن نقول: إذا أضيف إلى الشكر الذي هو صرف المال إلى الطاعة، فالشكر أفضل، لأنه تضمن الصبر أيضاً، وفيه فرح بنعمة الله عزّ وجلّ، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء، وترك صرفه إلى التنعم المباح، فهو أفضل من الصبر بهذا الاعتبار.

وأما إذا كان شكر المال ألا يستعين به على معصية، بل يصرفه إلى التنعم المباح، فالصبر هنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من الممسك ماله الصارف له في المباحات، لأن الفقير قد جاهد نفسه وأحسن الصبر على بلاء الله تعالى، وجميع ما ورد من تفضيل أجزاء الصبر على الشكر، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص، لأن السابق إلى أفهام الناس، من نعمة الأموال، والغنى بها، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان: الحمد لله. فإذن الصبر الذي يعتمده العامة أفضل من هذا الشكر الذي يفهمونه. ومتى لحظت المعنى الذي ذكرناه، علمت بأن لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال، فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما ذكر، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر، وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير الذي لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة، ويصرف الباقي في الخيرات، أو يمسكه على اعتقاده أنه خازن للمحتاجين، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها، وإذا صرفه لم يصرفه لطلب جاه ولا تقليد منة، فهذا أفضل من الفقير الصابر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

* * *

كتاب الرجاء والخوف

اعلم: أن الرجاء والخوف جناحان، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود، ولا بد من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسببهما، وما يتعلق بذلك. ونحن نذكرهما في شطرين:

الأول : في الرجاء.

والثاني: في الخوف.

الشطر الأول: الرجاء:

واعلم: أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين، وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام، فإن كان عارضاً سريع الزوال سمي حالاً، كما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة، كصفرة الذهب، وإلى سريعة، كصفرة الوجل، وإلى ما بينهما كصفرة المرض، وكذلك صفات القلب تنقسم إلى هذه الأقسام، وإنما سمي غير الثابت حالاً، لأنه يحول عن القلب.

واعلم: أن كل ما يلاقيك من محبوب أو مكروه ينقسم إلى موجود في الحال، وإلى موجود فيما مضى.

فالأول : يسمى وجداً وذوقاً وإدراكاً.

والثاني: يسمى ذكراً، وإن كان قد خطر ببالك شيء في الاستقبال، وغلب على قلبك، سمي انتظاراً وتوقعاً، فإن كان المنتظر محبوباً، سمي رجاء، وإن كان مكروهاً، سمي خوفاً.

فالرجاء: هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المتوقع لا بد له من سبب حاصل، فإن لم يكن السبب معلوم الوجود ولا معلوم الانتفاء، سمي تمنياً، لأنه انتظار من غير سبب. ولا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، فأما ما يقطع به فلا، إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها، لأن ذلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها، ولكن يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه.

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار ومساقي الماء إليها.

وإن القلب المستغرق بالدنيا، كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر.

ويوم القيامة هو يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقل أن ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة.

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيبة، وألقى فيها بذراً جيداً غير مسوس ولا عفن، ثم ساق إليها الماء في أوقات الحاجة، ونقّى الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع، ثم جلس ينتظر من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، فهذا يسمى انتظاره رجاء.

فأما إن بذر في أرض سبخة صلبة مرتفعة لا يصل إليها الماء ولم يتعاهدها أصلاً، ثم انتظر الحصاد، فهذا يسمى انتظاره حمقاً وغروراً، لا رجاء

وإن بث البذر في أرض طيبة، ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار، سمي انتظاره تمنياً لا رجاءً.

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس إلى اختياره، وهو فضل الله سبحانه، بصرف الموانع المفسدات، فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه ماء الطاعات، وطهر القلب من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره لذلك رجاءً محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا، ثم انتظر المغفرة، كان ذلك حمقاً وغروراً. قال الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِم خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ [الأعراف: ١٦٩] وذم القائل: ﴿ وَلَئِن رُدِدتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً ﴾ [الكهف: ٣٦].

وروى شداد بن أوس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله عزّ وجلّ الأماني»[1].

وقال معروف الكرخي رحمه الله: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحمق. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

المعنى: أولئك الذين يستحقون أن يرجوا، ولم يرد به تخصيص وجود الرجاء، لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ذلك.

واعلم: أن الرجاء محمود، لأنه باعث على العمل، واليأس مذموم، لأنه صارف عن العمل، إذ من عرف أن الأرض سبخة، وأن الماء مغور، وأن البذر لا ينبت، ترك تفقد الأرض، ولم يتعب في تعاهدها.

وأما الخوف، فليس بضد الرجاء، بل رفيق له، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وحال الرجاء يورث طريق المجاهدة بالأعمال، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله عزّ وجلّ، والتنعم بمناجاته، والتلطف في التملق له، فإن هذه الأحوال لا بد أن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك، أو شخصاً من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله سبحانه وتعالى؟ فمتى لم يظهر، استدل به على حرمان مقام الرجاء، فمن رجا أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات، فهو مغرور.

فصل [في فضيلة الرجاء]

روي في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «قال اللَّهُ عَزَّ وجلَّ: أنا عند ظَنِّ عَبدِي بِي»[2] وفي رواية أخرى «فليظن بي ما شاء»[3].

وفي حديث آخر من رواية مسلم: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

---

(١) الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجة (٤٢٦٠)، والبغوي (٤١١٦، ٤١١٧)، وأحمد (١٢٤/٤)، والحاكم (٥٧/١) وصححه، وتعقبه الذهبي فقال: لا والله أبو بكر واه.

(٢) البخاري (١٤٨/٩، ١٧٧)، ومسلم (٦٢/٨، ٦٦، ٩١).

(٣) أحمد (٤٩١/٣، ١٠٦/٤)، الدارمي (٣٠٥/٢).

«لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»[1].

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: أحبني، وأحب من يحبني، وحببني إلى خلقي. قال: يا رب: كيف أحببك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، واذكر آلائي وإحساني.

وعن مجاهد رحمه الله قال: يؤمر بالعبد يوم القيامة إلى النار، فيقول: ما كان هذا ظني فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أن تغفر لي، فيقول: خلوا سبيله.

فصل [في دواء الرجاء والسبب الذي يحصل به]

اعلم: أن دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان:

إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة.

وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضر بنفسه وأهله.

فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة، فلا ينبغي أن يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف، فإن أدوية الرجاء تقلب في حقه سموماً، كما أن العسل شفاء لمن غلبت عليه البرودة، مضرٌ لمن غلبت عليه الحرارة.

ولهذا يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً، ناظراً إلى مواضع العلل، معالجاً كل علة بما يليق بها، وهذا الزمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في التخويف، وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استمالة القلوب إليه، لإصلاح المرضى.

وقد قال علي رضي الله عنه: إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم مكر الله.

إذا عرفت هذا، فاعلم أن من أسباب الرجاء، ما هو من طريق الاعتبار، ومنها ما هو من طريق الأخبار. أما الاعتبار، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه من أصناف النعم في كتاب الشكر، فإذا علم لطائف الله تعالى بعباده في الدنيا، وعجائب حكمته التي راعاها في فطرة الإنسان، وأن لطفه الإلهي لم يقصر عن عباده في دقائق مصالحهم في الدنيا، ولم يرض أن تفوتهم الزيادات في الرتبة، فكيف يرضى سياقتهم إلى الهلاك المؤبد؟! فإن من لطف في الدنيا يلطف في الآخرة، لأن مدبر الدارين واحد.

---

(١) مسلم (٨/١٦٥)، وأبو داود (٣١١٣).

وأما استقراء الآيات والأخبار، فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الذين أسرفوا عَلَى أنفسهم لاَ تقنطوا من رَحْمَةِ الله إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُنوب جَمِيعاً ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿ وَالمَلائِكَةُ يُسَبِّحُون بِحَمْدِ رَبِّهِم وَيَسْتَغْفِرون لِمَن في الأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٥].

وأخبر تعالى أنه أعد النار لأعدائه، وإنما خوف بها أولياءه، فقال: ﴿ لَهُمْ من فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ منَ النَّارِ، وَمِن تحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال تعالى: ﴿ واتقوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ للْكَافِرينَ ﴾ [آل عمران: ١٣١]. وقال: ﴿ فَأَنذَرْتُكُم نَاراً تَلَظَّى * لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأشقى * الَّذي كَذَّبَ وتَوَلَّى ﴾ [الليل: ١٤ - ١٦]. وقال تعالى: ﴿ وإنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِم ﴾ [الرعد: ٦].

ومن الأخبار ما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن إبليس قال لربه عزَّ وجلَّ: بعزَّتك وَجَلالِك، لا أَبْرَحُ أغوي بني آدم ما دَامتِ الأَرْوَاح فِيهم. فَقَال اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: فبعزتي وَجَلالي، لا أَبرحُ أغفرُ لهُم ما استغفروني»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم»[٢] رواه مسلم.

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يدخل أحداً الجنة عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمته»[٣].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الله عزّ وجلّ يوم القيامة: يا آدم: قم فابعث بعث النار فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك. يا رب: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ يشيب المولود، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ٢]. فشق ذلك على الناس، حتى تغيرت وجوههم، وقالوا: يا رسول الله!

---

(١) أحمد (٣/٢٩، ٤١).

(٢) مسلم (٦/٩٤).

(٣) البخاري (٨/١٢٢)، مسلم (٨/١٤١).

وأينا ذلك الواحد؟ فقال صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون، ومنكم واحد» فقال الناس: الله أكبر. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «والله إني لأرجر أن تكونوا ربع أهل الجنة. والله إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، والله إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، فكبر الناس، فقال: «ما أنتم يومئذ في الناس إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض»[1].

فانظر كيف جاء بالتخويف، فلما أزعج جاء باللطف، ومتى اطمأنت القلوب إلى الهوى، فينبغي أن تزعج فإذا اشتد قلقها، ينبغي أن تسكن ليعتدل الأمر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ليغفرن الله عزّ وجلّ يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر.

وروي أن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فلم يضفه وقال: إن أسلمت، أضفتك، فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم منذ تسعين سنة أطعمه على كفره فسعى إبراهيم عليه السلام خلفه، فرده وأخبره في الحال، فتعجب من لطف الله تعالى. فأسلم.

فهذه الأسباب التي تجتلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين واليائسين. فأما الحمقى المغرورون، فلا ينبغي أن يسمعوا شيئاً من ذلك، بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف، فإن أكثر الناس لا يصلحون إلا على ذلك، كعبد السوء الذي لا يستقيم إلا بالعصا.

الشطر الثاني: من الكتاب في الخوف وحقيقته وبيان درجاته وغير ذلك

اعلم: أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال.

مثال ذلك، من جنى على ملك جناية، ثم وقع في يده، فهو يخاف القتل، ويجوِّز العفو، ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله، وتفاحش جنايته، وتأثيرها عند الملك، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف. وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية، بل عن صفة المخوف وعظمته وجلاله، إذ

(١) البخاري (١٢٢/٦)، ومسلم (١٣٩/١).

قد علم أن الله سبحانه، لو أهلك العالمين لم يبال، ولم يمنعه مانع، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه، وبجلال الله تعالى واستغنائه، وأنه لا يسأل عما يفعل، يكون خوفه.

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أعرفكم بالله، وأشدكم له خشية»[1]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وإذا كملت المعرفة، أثرت الخوف، ففاض أثره على القلب، ثم ظهر على الجوارح والصفات بالنحول والاصفرار والبكاء والغشي، وقد يفضي إلى الموت، وقد يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل.

وأما ظهور أثره على الجوارح، فبكفها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، تلافياً لما فرط، واستعداداً للمستقبل.

قال بعضهم: من خاف أدلج. وقال آخر: ليس الخائف من بكى، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه.

ومن ثمرات الخوف، أنه يقمع الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سماً، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة، والمجاهدة، والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال من وقع في مخالب سبع ضارٍ لا يدري أيغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلكه، ولا شغل له إلا ما وقع فيه، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال، أن يمنع المحظورات، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم، سمي ورعاً، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش، فهو الصدق.

---

(١) البخاري (٩/١٢٠)، ومسلم (٧/٩٠).

فصل [الخوف سوط الله تعالى]

اعلم: أن الخوف سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى.

والخوف، له إفراط، وله اعتدال، وله قصور.

والمحمود من ذلك الاعتدال، وهو بمنزلة السوط للبهيمة، فإن الأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط، وليست المبالغة في الضرب محمودة، ولا المتقاصر عن الخوف أيضاً محمود، وهو كالذي يخطر بالبال عند سماع آية، أو سبب هائل، فيورث البكاء، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس، رجع القلب إلى الغفلة، فهو خوف قاصر قليل الجدوى، ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف الذي يضرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألماً مبرحاً، فلا يسوقها إلى المقصد، ولا يصلح لرياضتها، وهذا هو الغالب على الناس كلهم، إلا العارفين والعلماء، أعني العلماء بالله وبآياته، وقد عز وجودهم. وأما المترسمون برسوم العلم، فإنهم أبعد الناس عن الخوف.

وأما القسم الأول، وهو الخوف المفرط، فهو كالذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، فهو أيضاً مذموم، لأنه يمنع من العمل، وقد يخرج المرض والوله والموت، وليس ذلك محموداً، وكل ما يراد لأمر، فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه، فهو مذموم، وفائدة الخوف الحذر، والورع، والتقوى، والمجاهدة والفكر، والذكر، والتعبد وسائر الأسباب التي توصل إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة، مع صحة البدن وسلامة العقل، فإذا قدح في ذلك شيء، كان مذموماً.

فإن قيل: فما تقول فيمن مات من الخوف؟.

فالجواب: أنه ينال لموته على تلك الحال مرتبة لا ينالها لو مات من غير خوف، إلا أنه لو عاش وترقى إلى درجات المعارف والمعاملة، كان أفضل، فإن أفضل السعادة طول العمر في طاعة الله تعالى، فكل ما أبطل العمر والعقل والصحة فهو نقصان وخسران.

بيان أقسام الخوف

اعلم: أن مقامات الخائفين تختلف، فمنهم من يغلب على قلبه خوف

الموت قبل التوبة، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم، أو خوف الميل عن الاستقامة، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة. وأعلى من هذا خوف السابقة، لأن الخاتمة فرع السابقة، والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة، ويضع من يشاء من غير وسيلة، لا يسأل عما يفعل.

وقد قال: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي»[1].

ومن أقسام الخائفين، من يخاف سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر.

ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدي الله تعالى، والخوف من المناقشة، والعبور على الصراط، والخوف من النار وأهوالها، أو حرمان الجنة، أو الحجاب عن الله سبحانه وتعالى، وكل هذه الأسباب مكروهة في أنفسها، مخوفة.

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفين، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين.

فصل [في فضيلة الخوف والرجاء وما ينبغي أن يكون الغالب منهما]

فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة، وهي لقاء الله تعالى، والقرب منه، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة. قال الله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿ رضيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة: ٨].

وفي الحديث عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: «إذا اقشعر جلد العبد من مخافة الله عزّ وجلّ تحاتت عنه ذنوبه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها»[2].

وفي حديث آخر: «لن يغضب الله على من كان فيه مخافة».

وقال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: قال الله عزّ وجلّ: «وعزتي وجلالي،

---

(١) أحمد (١٨٦/٤)، والحاكم (٣١/١)، ابن حبان (١٨٠٦).

(٢) رواه الطبراني والبيهقي بسند ضعيف كما قال العراقي.

لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، إن أمنني في الدنيا، أخفته يوم القامة، وإن خافني في الدنيا، أمنته يوم القيامة»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: «عينان لا تمسهما النار أبداً: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

واعلم: أن قول القائل: أيما أفضل: الخوف، أو الرجاء؟ كقوله: أيما أفضل: الخبز أو الماء؟

وجوابه: أن يقال الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا، نظر إلى الأغلب، فإن استويا، فهما متساويان، والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله، فالخوف أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط، فالرجاء أفضل. ويجوز أن يقال مطلقاً: الخوف أفضل، كما يقال: الخبز أفضل من السكنجبين لأن الخبز يعالج به مرض الجوع، والسكنجبين يعالج به مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثر، فالحاجة إلى الخبز أكثر، فهو أفضل بهذا الاعتبار، لأن المعاصي والاغترار من الخلق أغلب.

وإن نظرنا إلى موضع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل، لأن الرجاء يُستقى من بحر الرحمة، والخوف يُستقى من بحر الغضب.

وأما المتقي، فالأفضل عنده اعتدال الخوف والرجاء، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه، لاعتدلا.

قال بعض السلف: لو نودي: ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل. ولو نودي: ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل. وهذا ينبغي أن يكون مختصاً بالمؤمن المتقي.

فإن قيل: كيف اعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن، وهو على قدم التقوى؟ فينبغي أن يكون رجاؤه أقوى.

فالجواب: أن المؤمن غير متيقن صحة عمله، فمثله من بذر بذراً ولم يجرب

---

(١) ابن حبان (٢٤٩٤).

جنسه في أرض غريبة، والبذر الإيمان، وشروط صحته دقيقة، والأرض القلب، وخفايا خبثه وصفاته من النفاق، وخبايا الأخلاق غامضة، والصواعق أهوال سكرات الموت، وهناك تضطرب العقائد، وكل هذا يوجب الخوف عليه، وكيف لا يخاف المؤمن؟

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة رضي الله عنه: هل أنا من المنافقين؟ وإنما خاف أن تلتبس حاله عليه، ويستتر عيبه عنه، فالخوف المحمود هو الذي يبعث على العمل، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا.

وأما عند نزول الموت، فالأصلح للإنسان الرجاء، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل، وليس ثمة عمل، فلا يستفيد الخائف حينئذٍ إلا تقطيع نياط قلبه، والرجاء في هذه الحال يقوي قلبه، ويحبب إليه ربه، فلا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا إلا محباً لله تعالى، محباً للقائه، حسن الظن به.

وقد قال سليمان التيمي عند الموت لمن حضره: حدثني بالرخص، لعلي ألقى الله وأنا أحسن الظن به.

فصل [في بيان الدواء الذي يستجلب به الخوف]

وذلك يحصل بطريقين:

أحدهما أعلى من الآخر. مثاله أن الصبي إذا كان في بيت، فدخل عليه سبع، أو حية، ربما لم يخف منه، وربما مد يده إلى الحية ليأخذها يلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها، هرب الصبي، وخاف موافقة لأبيه، فخوف الأب عن معرفة، وخوف الولد من غير معرفة، بل هو تقليد لأبيه.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه، وهذا خوف عامة الخلق، وهو حاصل بالإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان، أو قوة الغفلة.

وزوال الغفلة يحصل بالتذكر، والتفكر في عذاب الأخرة، ويزيد بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم، أو سماع أخبارهم.

المقام الثاني: الخوف من الله تعالى، وهو خوف العلماء العارفين. قال الله

تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وصفاته سبحانه تقتضي الهيبة والخوف، فهم يخافون البعد والحجاب.

قال ذو النون: خوف النار عند خوف الفراق، كقطرة في بحر، ولعامة الناس حظ من هذا الخوف، ولكن بمجرد التقليد، فهو يضاهي خوف الصبي من الحية، تقليداً لأبيه، فلذلك يضعف، فإن العقائد التقليدية ضعيفة في الغالب، إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المولدة لها على الدوام، وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات، واجتناب المعاصي، فإذا ارتقى العبد إلى معرفة الله تعالى، خافه بالضرورة، ولا يحتاج إلى علاج يجلب الخوف إلى قلبه، بل يخاف بالضرورة.

ومن قصر، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء.

وفي «صحيح مسلم» من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: دعي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى جنازة غلام من الأنصار. فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يدرك الشر ولم يعمله، قال: «أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله عزّ وجلّ خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[(١)].

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف، قوله تعالى: ﴿ وإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢] فإنه علق المغفرة على أربعة شروط، يبعد تصحيحها.

ومن المخوفات قوله تعالى: ﴿ وَالعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفي خُسْرٍ ﴾ [العصر: ١ ـ ٢] ثم ذكر بعدها أربعة شروط، بها يقع الخلاص من الخسران. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا، وَلَكِن حَقَّ القَوْلُ مِنّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ من الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

ومعلوم أنه لو كان الأمر مستأنفاً لامتدت الأطماع في التحيل، فأما ما حُقَّ في القدم، فلا يمكن تداركه، فليس إلا التسليم، لولا أن الله تعالى لطف بعارفيه، وروح قلوبهم بالرجاء، لاحترقت من نار الخوف.

---

(١) مسلم (٨ / ٥٥)، والبغوي (٧٨)، وأحمد (٦ / ٤١).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه.

ولما حضرت سفيان الثوري الوفاة، جعل يبكي، فقال له رجل: يا أبا عبد الله: أراك كثير الذنوب، فرفع شيئاً من الأرض وقال: والله لذنوبي أهون عندي من هذا، ولكن أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت.

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر.

ويروى أن نبياً من الأنبياء، شكا إلى الله تعالى الجوع والعري، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: عبدي، أما رضيت أن عصمت قلبك أن يكفرني حتى تسألني الدنيا؟! فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال: بلى قد رضيت، فاعصمني من الكفر.

فإذا كان هذا خوف العارفين من سوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم، فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء؟!

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت، مثل البدعة، والنفاق، والكبر، ونحو ذلك من الصفات المذمومة، ولذلك اشتد خوف السلف من النفاق.

قال بعضهم: لو أعلم أني بريء من النفاق، كان أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ولم يريدوا بذلك نفاق العقائد، إنما أرادوا نفاق الأعمال، كما ورد في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[1].

وسوء الخاتمة على رتبتين:

إحداهما أعظم، وهي أن يغلب على القلب والعياذ بالله شك، أو جحود عند سكزات الموت وأهواله، فيقتضي ذلك العذاب الدائم.

والثانية دونها، وهي أن يسخط الأقدار، ويتكلم بالاعتراض، أو يجور في وصيته، أو يموت مصراً على ذنب من الذنوب.

وقد روي أن الشيطان لا يكون في حال أشد على ابن آدم من حال الموت،

(١) البخاري (١ / ٢١٥)، مسلم (١ / ٥٦).

يقول لأعوانه: دونكم هذا، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه.

وقد روي عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، أنه كان يدعو: «اللهم إني أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت»[1].

قال الخطابي: وذلك أن يستولي على الإنسان حينئذ، فيضله ويحول بينه وبين التوبة أو يمنعه الخروج من مظلمة، أو يؤيسه من رحمة الله ويكره إليه الموت، فلا يرضى بقضاء الله عزّ وجلّ.

والأسباب التي تفضي إلى سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها على التفصيل، لكن يمكن الإشارة إلى مجامع ذلك. أما الختم على الشك والجحود، فسببه البدعة، ومعناها أن يعتقد في ذات الله تعالى، أو صفاته، أو أفعاله خلاف الحق، إما تقليداً، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشف الغطاء عند الموت، بان له بطلان ما اعتقده، فيظن أن جميع ما اعتقده هكذا لا أصل له.

ومن اعتقد في الله سبحانه وصفاته اعتقاداً مجملاً على طريقة السلف من غير بحث ولا تنقير، فهو بمعزل عن هذا الخطر إن شاء الله تعالى.

وأما الختم على المعاصي، فسببه ضعف الإيمان في الأصل، وذلك يورث الانهماك في المعاصي، والمعاصي مطفئة لنور الإيمان، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى، فإذا جاءت سكرات الموت، ازداد ذلك ضعفاً، لاستشعاره فراق الدنيا، فإن السبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة، وهو حب الدنيا، والركون إليها، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله، فمن وجد في قلبه حب الله تعالى أغلب من حب الدنيا، فهو أبعد من هذا الخطر، وكل من مات على محبة الله تعالى، قدم به قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم، فضلاً عما يستحقه من الإكرام.

ومن فارقه الروح في حال، خطر بباله فيها الإنكار على الله سبحانه في فعله، أو كان مصراً على مخالفته، قدم على الله قدوم من قدم به قهراً، فلا يخفى ما يستحقه من النكال.

فمن أراد طريق السلامة، تزحزح عن أسباب الهلاك، على أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال، يقلقل قلوب الخائفين.

---

(1) أبو داود (١٥٥٢)، والنسائي (٨ / ٢٨٢).

وقد ورد في «الصحيحين» من حديث سهل بن سعد، أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، وإنه لمن أهل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار»[1].

وروي: «إن العبد إذا عرج بروحه إلى السماء، قالت الملائكة: سبحان الله! نجا هذا العبد من الشيطان: يا ويحه! كيف نجا»؟!.

وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة، فاحذر أسبابها، وأعد ما يصلح لها، وإياك والتسويف بالاستعداد، فإن العمر قصير، وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك، لأنه يمكن أن تخطف فيه روحك، والإنسان يموت على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه.

واعلم: أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح، إلا أن تقنع بما يقيمك، وترفض طلب الفضول، وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة من قلبك، فإنك متحقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعقل منك، فتفكر في اشتداد خوفهم، لعلك تستعد لنفسك.

ذكر خوف الملائكة عليهم السلام

قال الله تعالى في صفتهم: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم من فَوْقِهِم وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠].

وقد روينا عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: «إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته». وذكر تمام الحديث.

وبلغنا أن من حملة العرش من تسيل عينيه مثل الأنهار، فإذا رفع رأسه قال: سبحانك ما تُخشى حق خشيتك، فيقول الله: لكن الذين يحلفون باسمي كاذبين لا يعلمون ذلك.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لما كان ليلة أسري بي، رأيت جبريل عليه السلام كالشن البالي من خشية الله تعالى».

وبلغنا أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو يبكي فقال له: «ما يبكيك، قال: ما جفت لي عين منذ خلق الله جهنم مخافة أن

---

(١) البخاري (٨ / ١٥٥)، ومسلم (١ / ٧٤).

أعصيه، فيلقيني فيها».

وعن يزيد الرقاشي قال: إن لله تعالى ملائكة حول العرش تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة، يميدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالى، فيقول لهم الرب عزّ وجلّ: يا ملائكتي ما الذي يخيفكم وأنتم عندي؟ فيقولون: يا رب! لو أن أهل الأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه، ما أساغوا طعاماً ولا شراباً، ولا انبسطوا في فرشهم، ولخرجوا إلى الصحارى يخورون كما تخور البقر.

وقال محمد بن المنكدر: لما خلقت النار، طارت أفئدة الملائكة من أماكنها، فلما خلق آدم عادت.

وروي أنه لما ظهر من إبليس ما ظهر، طفق جبريل وميكائيل يبكيان، فأوحى الله تعالى إليهما: «ما هذا البكاء؟ قالا: يا رب! ما نأمن من مكرك. فقال تعالى: هكذا فكونا».

ذكر خوف الأنبياء عليهم السلام

قال وهب: بكى آدم عليه السلام على الجنة ثلاثمائة عام، وما رفع رأسه إلى السماء بعد ما أصاب الخطيئة.

وقال وهيب بن الورد: لما عاتب الله تعالى نوحاً عليه السلام في ابنه فقال: ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] بكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كان يسمع لصدر إبراهيم عليه السلام إذا قام إلى الصلاة أزيز من بُعد خوفاً من الله عزّ وجلّ.

وقال مجاهد: لما أصاب داود عليه السلام الخطيئة، خَرَّ لله ساجداً أربعين يوماً حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه، ثم نادى يا رب: قرح الجبين، وجمدت العين، وداود لم يرجع إليه في خطيئته شيء، فنودي: أجائع أنت فتطعم؟ أم مريض فتشفى؟ أم مظلوم فتنصر، فنحب نحيباً هاج كل شيء نبت، فعند ذلك غفر له.

وقيل: كان داود عليه السلام يعوده الناس يظنون أنه مريض، وما به إلا شدة الفرق من الله عزّ وجلّ.

وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً.

وبكى يحيى بن زكريا عليهما السلام حتى بدت أضراسه، فاتخذت أمه قطعتين من لبود فألصقتهما بخديه.

ذكر خوف نبينا صلّى الله عليه وآله وسلّم

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قط مستجمعاً ضاحكاً، حتى أرى لهواته إنما كان يتبسم، وكان إذا رأى غيماً وريحاً عرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرِفَتِ الكراهةُ في وجهك! فقال: «يا عائشة: ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا» أخرجاه في «الصحيحين»[1].

وكان صلّى الله عليه وآله وسلّم يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء[2].

ذكر خوف أصحابه رضي الله عنهم

روينا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وقال: يا ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل. وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر رضي الله عنهم.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع آية فيمرض فيعاد أياماً. وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال: يا ليتني كنت هذه التبنة، يا ليتني لم أكُ شيئاً مذكوراً، يا ليت أمي لم تلدني. وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء.

وقال عثمان رضي الله عنه: وددت أني إذا مت لا أبعث.

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: وددت أني كنت كبشاً فذبحني أهلي، فأكلوا لحمي، وحسوا مرقي.

وقال عمران بن حصين: يا ليتني كنت رماداً تذروه الرياح.

---

(١) البخاري (٦ / ١٦٧)، ومسلم (٣ / ٢٦).

(٢) أبو داود (٩٠٤)، والترمذي في الشمائل (٣٠٥) والبغوي (٧٢٩) وأحمد (٤ / ٢٥، ٢٦).

وقال حذيفة رضي الله عنه: وددت أن لي إنساناً يكون في مالي، ثم أغلق عليَّ بابي، فلا يدخل عليَّ أحد حتى ألحق بالله عزَّ وجلّ.

وكان مجرى الدمع في خد ابن عباس رضي الله عنه كالشراك البالي.

وقالت عائشة رضي الله عنها: يا ليتني كنت نسياً منسياً.

وقال علي رضي الله عنه: والله لقد رأيت أصحاب محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم. لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجداً وقياماً، يتلون كتاب الله تعالى، يراوحون بين جباهم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله عزَّ وجل، مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين.

ذكر خوف التابعين ومن بعدهم

قال هرم بن حيان: وددت والله أني شجرة أكلتني ناقة، ثم قذفتني بعراً، ولم أكابد الحساب يوم القيامة، إني أخاف الداهية الكبرى.

وكان علي بن الحسين إذا توضأ اصفرَّ وتغير، فيقال: ما لك؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟

وكان محمد بن واسع يبكي عامة الليل لا يكاد يفتر.

وكان عُمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، ويبكي حتى تجري دموعه على لحيته. وبكى ليلة فبكى أهل الدار، فلما تجلت عنهم العبرة قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مم بكيت؟ قال: ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله تعالى، فريق في الجنة، وفريق في السعير. ثم صرخ وغشي عليه.

ولما أراد المنصور بيت المقدس، نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز فقال له: أخبرني بأعجب ما رأيت من عمر. فقال: بات ليلة على سطح غرفتي هذه وهو من رخام، فإذا أنا بماء يقطر من الميزاب، فصعدت فإذا هو ساجد، وإذا دموع عينه تنحدر من الميزاب.

وقد روينا عن عمر بن عبد العزيز وفتح الموصلي أنهما بكيا الدم.

وقال إبراهيم بن عيسى اليشكري: دخلت على رجل بالبحرين قد اعتزل الناس، وتفرغ لنفسه، فذاكرته شيئاً من أمر الآخرة، وذكر الموت. قال: فجعل

يشهق حتى خرجت نفسه.

وقال مسمع: شهدت عبد الواحد بن زيد وهو يعظ، فمات يومئذ في ذلك المجلس أربعة أنفس.

وكان يزيد بن مرشد يبكي كثيراً ويقول: والله لو تواعدني ربي أن يسجنني في الحمام، لكان حقي أن لا أفتر من البكاء، فكيف وقد تواعدني أن يسجنني في النار إن عصيته؟!

وقال السري السقطي: إني لأنظر كل يوم إلى أنفي مخافة أن يكون قد اسودّ وجهي.

فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعلماء والأولياء، ونحن أجدر بالخوف منهم، ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ولكن بصفاء القلوب وكمال المعرفة، وإنما أمنا لغلبة جهلنا وقوة قساوتنا، فالقلب الصافي تحركه أدنى مخافة، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ.

قال بعض السلف: قلت لراهب: أوصني، فقال: إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام، فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فيفترسنه، أو يسهو فينهشنه، فهو مذعور فافعل. قلت: زدني. فقال: الظمآن يجزيه من الماء أيسره. وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخص احتوشته السباع والهوام، فهو حقيقة في حق المؤمن، فإن من نظر إلى باطنه بنور بصيرته، رآه مشحوناً بالسباع والهوام، كالغضب، والحقد، والحسد، والكبر، والعجب، والرياء، وغير ذلك، وكلهن ينهشنه ويفترسنه إن سها عنهن، إلا أنه محجوب عن مشاهدتها، فإذا انكشف الغطاء ووضع في القبر، عاينها متمثلة حيات وعقارب يلدغنه، وإنما هي صفاته الحاضرة الآن، فمن أراد أن يقهرها قبل الموت ويقتلها فليفعل، وإلا فليوطن نفسه على لدغها لصميم قلبه، فضلاً عن ظاهر بشرته والسلام.

آخر كتاب الخوف.

* * *

كتاب الزهد والفقر

اعلم: أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وبعضها أسباب كل طاعة، وقد سبق ذم الدنيا في ربع المهلكات، ونحن نذكر الآن فضل البغض لها والزهد فيها، فإنه رأس المنجيات. ومقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقراً، وإما بانزواء العبد عنها، ويسمى ذلك زهداً، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات، وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة. ونحن نذكر الفقر، والزهد، ودرجاتهما، وأقسامهما، وما يتعلق بهما في شطرين:

الشطر الأول من الكتاب في الفقر

اعلم: أن الفقير إلى الشيء هو المحتاج إليه، وكل موجود سوى الله تعالى فهو فقير، لأنه محتاج إلى دوام الوجود، وذلك مستفاد من فضل الله تعالى.

وأما فقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته فلا يحصر، ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال، ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند فقره:

الأولى: أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به، وهرب من أخذه بغضاً له، واحترازاً من شره وشغله، وصاحب هذه الحالة يسمى زاهداً.

الحالة الثانية: أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه عفواً أو صفواً أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به. وصاحب هذه الحالة يسمى قانعاً.

الرابعة: أن يكون تركه للطلب لعجزه، وإلا فهو راغب فيه، لو وجد سبيلا إلى طلبه بالتعب لطلبه، وصاحب هذه الحالة يسمى الحريص.

الخامسة: أن يكون مضطراً إلى ما قصده من المال، كالجائع، والعاري الفاقد للمأكول والملبوس. ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً، كيفما كانت رغبته في الطلب ضعيفة أو قوية.

وأعلى هذه الخمسة: الحالة الأولى، وهي: الزهد، ووراءها حالة أخرى أعلى منها، وهي أن يستوي عنده وجود المال وعدمه، فإن وجده لم يفرح به، ولم يتأذ إن فقده، كما روينا عن عائشة رضي الله عنها أنها جاءها مال في غرارتين، ففرقته في يومها، فقالت لها جاريتها: أما استطعت أن تشتري لنا مما قسمت لحماً بدرهم نفطر عليه. فقالت: لو ذكرتيني لفعلت.

فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده لم تضره، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى، لا في يد نفسه.

وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعاً، ومتى كان الزاهد في الدنيا لا يرغب في وجودها، ولا عدمها، فهو في غاية الكمال.

قال أحمد بن أبي الحواري لأبي سليمان الداراني: قال مالك بن دينار للمغيرة: اذهب إلى البيت فخذ الزكاة التي أهديتها لي، فإن الشيطان يوسوس لي أن اللص قد أخذها، فقال أبو سليمان: هذا من ضعف الزهد، هو قد زهد في الدنيا ما عليه من أخذها. فالهرب من المال والزهد فيه في حق الضعفاء كمال، فأما في حق الأنبياء والأقوياء، فسواء عليهم وجوده وعدمه. وقد يظهر القوي النفار من المال ليقتدي به الضعفاء في الترك، والله أعلم.

فصل [في فضيلة الفقر وتفضيل الفقر على الغنى]

أما الآيات فقد قال الله تعالى في معرض المدح في حق الفقراء: ﴿ لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُوا في سَبِيل اللَّهِ ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٣]. وقال: ﴿ لِلْفُقَرَاء المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا من دِيَارِهم ﴾... الآية [الحشر: ٨].

وأما الأخبار فكثيرة، منها: قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء، إلا أن أصحاب الجد محبوسون» وذكر تمام الحديث. وهو في «الصحيحين»[1].

وفيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»[2].

وفيهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد منذ قدم

---

(١) البخاري (٨ / ١٤١)، ومسلم (٨ / ٨٨).

(٢) البخاري (٨ / ١٢٢)، ومسلم (٨ / ٢١٧).

المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض[1].

وفي أفراد مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال: لقد رأيت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلا يملأ بطنه[2].

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: «يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام» وقال الترمذي: حديث صحيح[3].

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم لعائشة رضي الله عنها: «إياكِ ومجالسة الأغنياء»[4].

وقال: «يُؤتَى بالعبد يوم القيامة فيعتذِرُ الله عزّ وجلّ إليه كما يعتذِرُ الرجل إلى الرجل في الدنيا، فيقول: وعزتي وجلالي ما زويتُ الدنيا عنك لهوانك عليّ، ولكن لما أعددتُ لك من الكرامة. اخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف، فمَنْ أطْعَمَكَ أو كَساك يريدُ بذلك وجهي، فخذْ بيده فهو لك»[5].

وقيل لموسى عليه السلام: إذا رأيت الفقر مقبلاً، فقل: مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنب عجلت عقوبته.

وقال أبو الدرداء: حساب ذي الدرهمين أشد حساباً من ذي الدرهم.

وكان الفقراء يتقدمون في مجلس [سفيان] الثوري على الأغنياء.

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها، وقال: تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء!؟ لا أفعل.

وقال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: «طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً، وقنع بما آتاه الله عزّ وجلّ»[6].

وقد ذكرنا في القناعة وذم الحرص والطمع في كتاب ذم المال ما يغني عن الإعادة، ولا يقدر على ذلك إلا بعد قوة الصبر.

وأما التفضيل بين الغني والفقير، فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير، ولكن لا بد من تفصيل، فنقول: إنما يتصور الشك والخلاف في فقير صابر ليس بحريص

(١) البخاري (٨ / ١٢١)، ومسلم (٨ / ٢١٧).

(٢) مسلم (٨ / ٢٢٠)، والترمذي (٢٣٧٢)، والبغوي (٤٠٧١).

(٣) الترمذي (٢٣٥٣)، وابن ماجة (٤١٢٢)، وابن حبان (٢٥٦٧).

(٤) الترمذي (١٧٨٠)، والبغوي (٣١١٥).

(٥) أبو نعيم في الحلية، وهو حديث لا يصح.

(٦) الترمذي (٢٣٤٩)، وابن حبان (٢٥٤١)، والحاكم (١ / ٣٥) وصححه.

بالإضافة إلى غني شاكر ينفق ماله في الخيرات، أو فقير حريص مع غني حريص، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك، وأن الغني المنفق ماله في الخير أفضل من الفقير الحريص، فإن كان متمتعاً بالمال في المباحات، فالفقير القنوع أفضل منه.

وكشف الغطاء في هذا أن ما يراد لغيره، ولا يراد لعينه، ينبغي أن يضاف إلى مقصوده، إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها، بل لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى، والفقر ليس مطلوباً لعينه، ولكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى، وعدم التشاغل عنه.

وكم من غني لا يشغله الغنى عن الله تعالى، كسليمان عليه السلام، وكذلك عثمان [بن عفان] وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما.

وكم من فقير شغله فقره عن المقصود، وصرفه عن حب الله تعالى والأنس به، وإنما الشاغل له حب الدنيا، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى، فإن المحب للشيء مشغول به، سواء كان في فراقه، أو في وصاله، بل قد يكون شغله في الفراق أكثر.

والدنيا معشوقة الغافلين، فالمحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها. وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر، فالفقير عن الخطر أبعد، لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا تجد، ولما كان ذلك طبع الآدميين إلا القليل منهم، جاء الشرع بذم الغنى وفضل الفقر. وقد تقدم ما يدل على فضله.

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «التقى مؤمنان على باب الجنة: مؤمن غني، ومؤمن فقير، كانا في الدنيا، فأدخل الفقير الجنة، وحبس الغني ما شاء الله تعالى أن يحبس، ثم أدخل الجنة، فلقيه الفقير، فقال: أي أخي: ماذا حبسك؟ والله لقد احتبست حتى خفت عليك، فقال: أي أخي: حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً، وما وصلت إليك حتى سال مني العرق ما لو ورده ألف بعير كلها آكلة حمض، لصدرت عنه رواء»[1].

واعلم: أن فراق المحبوب شديد، فإذا أحببت الدنيا، كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه، وكل من فارق

(١) أحمد في المسند (١ / ٣٠٤) وفي سنده مجهول.

محبوباً كان أذاه في فراقه بقدر حبه له وأنسه به، فينبغي أن تحب من لا يفارقك، وهو الله تعالى، ولا تحب الدنيا التي تفارقك.

فصل [في آداب الفقير في فقره]

ينبغي له أن لا يكون كارهاً لما ابتلاه الله به من الفقر.

وأرفع من هذا أن يكون راضياً فرحاً، ويكون متوكلاً على الله سبحانه، واثقاً به ومتى عكس الحال، وكان يشكو إلى الخلق، ولا يشكو إلى الله تعالى، كان الفقر عقوبة في حقه، فلا ينبغي له إظهار الشكوى، بل يظهر التعفف والتجمل. قال الله تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُم الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّف ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وينبغي للفقير أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، ولا يرغب في مجالسته.

وينبغي له أيضاً أن لا يفتر عن العبادة بسبب فقره، ولا يمنع بذل ما فضل عنه، فإن ذلك جهد المقل. روى أبو ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله: أي الصدقة أفضل؟ قال: «جهد من مقل إلى فقير في السر»[1].

بيان آدابه في قبول العطاء

إذا جاءه بغير سؤال ينبغي أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.

[الأول] أما في نفس المال، فينبغي أن يكون خالياً عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليحترز عن أخذه.

وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة، وما يجب اجتنابه، وما يستحب.

وأما غرض المعطي، فلا يخلو، إما أن يكون طلباً للمحبة، وهو الهدية، فلا بأس بقبولها إذا لم تكن رشوة ولم يكن فيها منة.

الثاني: أن يكون غرض المعطي الثواب، وهو الزكاة والصدقة، فعليه أن ينظر في صفات نفسه، هل هو مستحق أم لا؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة، وإن كان صدقة، فكان المعطي إنما يعطيه لدينه، فلينظر إلى باطنه، فإن كان مقارناً لمعصية في السر، يعلم أن المعطي لو علم بذلك، لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالصدقة عليه، لم يأخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم فلم يكن.

(١) أحمد (٥ / ١٧٨ ، ١٧٩)، في إسناده علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف.

الثالث: أن يكون غرض المعطي الشهرة والرياء والسمعة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد، ولا يأخذه، لأنه إذا قبله يكون معيناً له على قصده الفاسد. وأما غرضه في الأخذ، فلينظر أهو محتاج إليه أو مستغن عنه؟ فإن كان مستغنياً لم يأخذه، وإن كان محتاجاً إليه، وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها، فالأفضل له الأخذ، لما روي عن عمر رضي الله عنه، أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك»[1] أخرجاه في «الصحيحين».

وفي حديث آخر: «من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة، فليقبله ولا يرده، فإنما هو رزق ساقه الله إليه»[2].

فصل [في بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر في السؤال]

اعلم: أنه قد ورد في السؤال أحاديث في النهي عنه، وفي الترخيص فيه.

أما الترخيص: فكقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «للسائل حق وإن جاءِ على فرس»[3] وفي بعض الأحاديث: «ردوا السائل ولو بظلف محرق»[4]. ولو كان السؤال حراماً، لما جاز إعانة المعتدي على عدوانه، والإعطاء إعانة.

وأما أحاديث النهي عن السؤال: فروى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله عزّ وجلّ وليس في وجهه مزعة لحم»[5] أخرجاه في «الصحيحين».

وفيهما أيضاً: أنه صلّى الله عليه وآله وسلّم ذكر التعفف عن المسألة فقال: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[6]. واليد العليا المعطية، والسفلى السائلة.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أنه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال:

---

(١) البخاري (٢ / ١٥٣)، مسلم (٣ / ٩٨).

(٢) أحمد (٤ / ٢٢١)، والحاكم (٢ / ٦٢) وصححه ووافقه الذهبي، وابن حبان (٨٥٤).

(٣) أحمد (١ / ٢٠١)، وأبو داود (١٦٦٥).

(٤) مالك في الموطأ (٥٧٥)، والبغوي (١٦٧٣).

(٥) البخاري (٢ / ١٥٣)، ومسلم (٣ / ٩٦).

(٦) البخاري (٢ / ١٥٢)، ومسلم (٣ / ٩٤).

«من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو كدوحاً في وجهه»[1] إلى آخره. وهو حديث حسن، وفي المعنى أحاديث كثيرة.

وكشف الغطاء في هذا أن نقول: السؤال في الأصل حرام، لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور:

أحدها: الشكوى.
والثاني: إذلال نفسه، وما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه.
والثالث: إيذاء المسؤول غالباً.

وإنما يباح السؤال في حال الضرورة والحاجة المهمة القريبة من الضرورة. أما المضطر، فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً، وكسؤال العاري الذي ليس له ما يواريه.

وأما المحتاج حاجة مهمة فهو كمن له جبة ولا قميص تحتها في الشتاء، فهو يتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهي إلى حد الضرورة، فكذلك من يقدر على المشي لكن بمشقة، يجوز له أن يسأل أجرة يكتري بها للركوب، وتركه أولى. ومن وجد الخبز وهو محتاج إلى الأدم، فله أن يسأل مع الكراهة، وكذلك إذا سأل المحمل من هو قادر على الراحلة.

وينبغي في مثل هذه المسألة أن يظهر الشكر لله تعالى، ولا يسأل سؤال محتاج، بل يقول: أنا مستغن بما أملكه، وإنما النفس تطالبني، فيخرج بهذا عن حد الشكوى لله تعالى.

وينبغي أن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي لا ينقص بذلك في عينه، أو السخي الذي أعد ماله للمكارم، فيخرج بذلك من الذل.

وإن أخذ ممن يعلم أنه إنما أعطاه حياءً، لم يجز له الأخذ، ويجب رده إلى صاحبه.

ولا يجوز للفقير أن يسأل إلا مقدار ما يحتاج إليه، من بيت يسكنه، وثوب يستره، وطعام يقيمه.

ويراعي في هذه الأشياء ما يدفع الزمان من غير تنوق في شيء من ذلك، فإن كان يعلم أنه يجد من يسأله كل يوم، لم يجز أن يسأل أكثر من قوت يومه وليلته،

---

(١) الترمذي (٦٥٠)، وأبو داود (١٦٢٦)، والنسائي (٥ / ٩٧) وابن ماجة (١٨٤٠)، والدارمي (١ / ٣٨٦)، وأحمد (١ / ٣٨٨، ٤٤١).

وإن خاف أن لا يجد من يعطيه، أو خاف أن يعجز عن السؤال، أبيح له السؤال أكثر من ذلك.

ولا يجوز له في الجملة أن يسأل فوق ما يكفيه لسنته، وعلى هذا يتنزل الحديث المروي في تقدير الغنى بخمسين درهماً، فإنها تكفي المنفرد المقتصد لسنة، فأما ذو العائلة فلا.

بيان أحوال السائلين

كان بشر الحافي يقول: الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل، وإن أعطي لا يأخذ، فهذا من الروحانيين.

وفقير لا يسأل، وإن أعطي أخذ، فذاك من أهل حظيرة القدس.

وفقير إذا احتاج سأل، فكفارة مسألته صدقه في السؤال.

قال الشيخ جمال الدين رحمه الله: قلت: وفصل الخطاب أنه متى قدر الفقير على دفع الزمان من غير سؤال، لم يجز له أن يسأل، فإن كان يندفع على مضض، نظرت، فإن كان مثله لا يحتمل، ولا يخاف منه التلف، فالسؤال مباح وتركه فضيلة، وإن كان مثله لا يحتمل، وجب عليه أن يسأل.

قال سفيان الثوري رحمه الله: من جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار.

* * *

الشطر الثاني من الكتاب:

وفيه بيان حقيقة الزهد وفضيلته وذكر درجاته وأقسامه ونحو ذلك

اعلم: أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عن شيء ليس مرغوباً فيه ولا مطلوباً فى نفسه، لم يسم زاهداً، كمن ترك التراب لا يسمى زاهداً.

وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزاهد بمن ترك الدنيا، ومن زهد في كل شيء سوى الله تعالى، فهو الزاهد الكامل، ومن زهد في الدنيا مع رغبته في الجنة ونعيمها، فهو أيضاً زاهد، ولكنه دون الأول.

واعلم: أنه ليس من الزهد ترك المال، وبذله على سبيل السخاء والقوة،

واستمالة القلوب، وإنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة.

ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب، والآخرة كالدر يبقى، قويت رغبته في بيع هذه بهذه. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النساء: ٧٧] وقوله: ﴿ مَا عِنْدَكُم يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ الله بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

ومن فضيلة الزهد قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُم زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُم فِيهِ ﴾ [طه: ١٣١].

وقال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: «من أصبح وهمه الدنيا، شتت الله عليه أمره، وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة، جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»[1].

وقال الحسن: يحشر الناس عراةً ما خلا أهل الزهد، وقال: إن أقواماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب، فأهينوها، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها.

وقال الفضيل: جعل الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

وكان بعض السلف يقول: الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن.

فصل [في درجات الزهد وأقسامه]

من الناس من يزهد في الدنيا وهو لها مشتهٍ، لكنه يجاهد نفسه، وهذا يسمى: المتزهد، وهو مبدأ الزهد.

الدرجة الثانية: أن يزهد فيها طوعاً لا يكلف نفسه ذلك، لكنه يرى زهده ويلتفت إليه، فيكاد يعجب بنفسه، ويرى أنه قد ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه، كما يترك درهماً لأخذ درهمين، وهذا أيضاً نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا أن يزهد طوعاً، ويزهد في زهده، فلا يرى أنه ترك شيئاً، لأنه عرف أن الدنيا ليست بشيء، فيكون كمن ترك خرقة، وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة، فإن الدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة، أخس من خرقة بالإضافة

(١) أحمد (٥ / ١٨٣)، والدارمي (١ / ٧٥)، وابن حبان (٧٢، ٧٣)، وابن ماجه (٤١٠٥)

إلى جوهرة، فهذا هو الكمال في الزهد.

واعلم: أن مثل من ترك الدنيا، مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه، فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل، فقرب من الملك، أفتراه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله؟

فالشيطان كلب في باب الله عزّ وجلّ، ويمنع الناس من الدخول، مع أن الباب مفتوح، والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة، فمن تركها لينال عز الملك، فكيف يلتفت إليها؟ ثم إن نسبتها، أعني ما سلم لكل شخص منها ولو عمِّر ألف سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة، أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا، لأن الفاني لا نسبة له إلى الباقي، كيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة؟

وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه، فعلى ثلاث درجات:

أحدها: الزهد للنجاة من العذاب، والحساب، والأهوال التي بين يدي الآدمي، وهذا زهد الخائفين.

الدرجة الثانية: الزهد للرغبة في الثواب، والنعيم الموعود به، وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء تركوا نعيماً لنعيم.

الدرجة الثالثة: وهي العليا. وهو أن لا يزهد في الدنيا للتخلص من الآلام، ولا للرغبة في نيل اللذات، بل لطلب لقاء الله تعالى، وهذا زهد المحسنين العارفين، فإن لذة النظر إلى الله سبحانه وتعالى بالإضافة إلى لذات الجنة، كلذة ملك الدنيا، والاستيلاء عليها، بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به.

فصل [في بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة]

والضروريات المهمات سبعة أشياء: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه.

فأما الأول ـ وهو المطعم ـ فاعلم أن همة الزاهد منه ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ.

وفي الحديث: «إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين»[1].

(١) أحمد (٥ / ٢٤٣، ٢٤٤)، وأبو نعيم في الحلية (٥ / ١٥٥).

وقالت عائشة رضي الله عنها لعروة: كان يمر بنا هلال، وهلال، وهلال، ما يوقد في بيت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم نار. قال: قلت: يا خالة: فعلى أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: الماء والتمر[1].

والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة.

وقد كان كثير من الزهاد يخشنون المطعم، وكان فيهم من لا يطيق ذلك. فكان الثوري حسن المطعَم، وربما حمل في سفرته اللحم المشوي والفالوذج.

وفي الجملة فالزاهد يقصد ما يصلح به بدنه، ولا يزيد في التنعم، إلا أن الأبدان تختلف، فمنها ما لا يحمل التخشن.

وقد يدخر بعض الناس الزاد الحلال بتقوته، فلا يخرجه ذلك من الزهد، فقد كان السبتي يعمل من السبت إلى السبت ويتقوته.

وورث داود الطائي عشرين ديناراً، فأنفقها في عشرين سنة.

الثاني: الملبس، فالزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرد، ويستر العورة، ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل، لئلا يخرجه التقشف إلى الشهرة. وكان أكثر لباس السلف خشناً، فصار لبس الخشن شهرة.

وقد روي عن أبي بردة قال: أخرجت إلينا عائشة رضي الله عنها كساء ملبداً، وإزاراً غليظاً، وقالت: قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذين. أخرجاه في «الصحيحين»[2].

وعن الحسن قال: خطب عمر رضي الله عنه وهو خليفة، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة.

الثالث: المسكن، فللزاهد فيه ثلاث درجات:

أعلاها: أن لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه، بل يقنع بزوايا المساجد، كأصحاب الصفة.

وأوسطها: أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه، مثل كوخ من سعف، أو خص وما أشبه ذلك.

وأدناها: أن يطلب حجرة مبنية. ومتى طلب السعة وعلو السقف، فقد جاوز

---

(١) البخاري (٨ / ١٢١)، ومسلم (٨ / ٢١٧)

(٢) البخاري (٧ / ١٩٥)، ومسلم (٦ / ١٤٥). وأبو داود (٤٠٣٦)، والترمذي (١٧٣٣).

حد الزهد في المسكن. وقد توفي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ولم يضع لبنة على لبنة.

قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، نلتُ السقف.

وفي الحديث: «إن المسلم ليؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب»[1].

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: إذا كان البنيان كفافاً، فلا أجر ولا وزر.

وفي الجملة: إن كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الزهد.

الرابع: أثاث البيت، فينبغي للزاهد أن يقتصر فيه على الخزف، ويستعمل الإناء الواحد في مقاصده، فيأكل في القصعة، ويشرب فيها، ومن خرج إلى كثرة العدد في الآلة، أو في نفاسة الجنس، خرج عن الزهد.

ولينظر إلى سيرة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم. ففي «صحيح مسلم» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو مضطجع على حصير، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت في خزانة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فإذا أنا بقبضة من شعير، نحو الصاع[2]. وفي رواية البخاري: فوالله ما رأيت شيئاً يرد البصر. والحديث مشهور في «صحيح مسلم».

وقال علي رضي الله عنه: تزوجت فاطمة وما لي ولها فراش إلا جلد كبش، كنا ننام عليه بالليل، ونعلف عليه الناضح بالنهار، وما لي خادم غيرها، ولقد كانت تعجن، وإن قُصتها لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذي بها.

ودخل رجل على أبي ذر رضي الله عنه، فجعل يقلب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر! ما أرى في بيتك متاعاً، ولا أثاثاً. فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا. فقال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت ها هنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

الخامس: المنكح، لا معنى للزهد في أصل النكاح، ولا في كثرته.

---

(١) ابن ماجة (٤١٦٣).

(٢) البخري (٧ / ٣٨)، ومسلم (٤ / ١٨٩، ١٩١).

قال سهل بن عبد الله: حبب إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم النساء.

وكان علي رضي الله عنه من أزهد الصحابة، وكان له أربع نسوة، وبضع عشرة سرية.

وكان أبو سليمان الداراني يقول: كل ما شغلك عن الله، من أهل، ومال، وولد، فهو مشؤوم.

وكشف الغطاء عن ذلك أن نقول: من غلبت عليه شهوته وخاف على نفسه، تعين عليه النكاح، فأما من لا يخاف، فهل النكاح في حقه أفضل أو التعبد؟ فيه اختلاف بين العلماء. والناس مختلفون فيه، منهم من يقصد النكاح لطلب النسل ويمكنه الكسب الحلال للعائلة، فلا يقدح ذلك في دينه، ولا يتشتت قلبه، بل يجمع النكاح همه، ويكف بصره، ويرد فكره، فهذا غاية في الفضيلة، وعليه يحمل حال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحال علي رضي الله عنه، ومن جرى مجراهما، ولا التفات إلى قول من يرى الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح، فإن ذلك يقع ضمناً وتبعاً للمقصود.

وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدون على الجميلة، وذلك محمول على أن تلك تكون إلى الدين أميل، والنفقة عليها أقل، والاهتمام بأمرها يسير، بخلاف المستحسنة، فإنها تشتت القلب، وتشغله، وتريد زيادة في النفقة، وربما لم يكن.

وقد قال مالك بن دينار: يعمد أحدهم فيتزوج ديباجة الحي فتقول: أريد مرطاً فَتَمْرُطُ دِينَه.

السادس: المال: وهو ضروري في المعيشة، فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت، وكان في الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف.

وكان حماد بن سلمة إذا فتح حانوته وكسب حبتين، قام.

وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت، وخلف أربعمائة دينار، وقال: إنما تركتها لأصون بها عرضي وديني.

السابع: الجاه، ولا بد للإنسان من جاه حتى في قلب خادمه، واشتغال الزاهد بالزهد يمهد له الجاه في القلب، فينبغي أن يتحرز من شر ذلك.

وفي الجملة فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا، وكان كثير من السلف

يعرض لهم بالمال الحلال، فيقولون: لا نأخذه، نخاف أن يفسد علينا ديننا.

فصل [في بيان علامات الزهد]

قد تظن أن تارك المال زاهد، وليس كذلك، فإن ترك المال، وإظهار التخشن، سهل على من أحب المدح بالزهد، فكم من راهب قد لازم الدير، وقلل المطعم، وقوّاه على ذلك حب المحمدة، كما سبق ذكره في كتاب الرياء.

ولا بد من الزهد في فضول الأموال والجاه جميعاً، حتى يكمل الزهد في حظوظ النفس، فأول معرفة الزهد مشكل.

وقد قال ابن المبارك: أفضل الزهد إخفاء الزهد، وينبغي أن يعوَّل في هذا على ثلاث علامات:

الأولى: أن لا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم ﴾ [الحديد: ٢٣]. وهذا علامة الزهد في المال.

الثاني: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، وهذه علامة الزهد في الجاه.

الثالث: أن يكون أنسه بالله، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة.

فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى، فهما في القلب كالماء والهواء في القدح، إذا دخل الماء خرج الهواء، فلا يجتمعان.

قيل لبعضهم: إلام أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى الأنس بالله.

قال يحيى بن معاذ: الدنيا كالعروس، ومن يطلبها ماشطتها، والزاهد يسخم وجهها، وينتف شعرها، ويخرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله تعالى عنها.

فهذا ما أردنا ذكره من حقيقة الزهد وأحكامه.

وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.

* * *

كتاب التوحيد والتوكل

بيان فضيلة التوكل

قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٢]. وقال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣].

وفي الحديث: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفاً لا حساب عليهم، ثم قال: «هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»[١]. أخرجاه في «الصحيحين».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[٢].

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم إني أسألك التوفيق لمحابك من الأعمال، وصدق التوكل عليك، وحسن الظن بك»[٣].

والتوكل يبتني على التوحيد، والتوحيد طبقات:

منها أن يصدق القلب بالوحدانية المترجم عنها قولك، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فيصدق بهذا اللفظ، لكن من غير معرفة دليل، فهو اعتقاد العامة.

الثانية: أن يرى الأشياء المختلفة، فيراها صادرة عن الواحد، وهذا مقام المقربين.

الثالثة: أن يرى الإنسان إذا انكشف عن بصيرته أن لا فاعل سوى الله، لم

---

(١) البخاري (٨/ ١٤٠)، ومسلم (١/ ١٣٦ - ١٣٨).

(٢) تقدم في ص ٧٦.

(٣) أبو نعيم في الحلية مرسلاً.

ينظر إلى غيره، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل، لأنه في الحقيقة هو الفاعل وحده، فسبحانه والكل مسخرون له، فلا يعتمد على المطر في خروج الزرع، ولا على الغيم في نزول المطر، ولا على الريح في سير السفينة، فإن الاعتماد على ذلك جهل بحقائق الأمور. ومن انكشفت له الحقائق، علم أن الريح لا تتحرك بنفسها، ولا بد لها من محرك. فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي التفات من أخذ لتضرب عنقه، فوقع له الملك بالعفو عنه، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقَلم الذي كتب به التوقيع، ويقول: لولا هذا القلم ما تخلصت، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم، وهذا غاية الجهل. ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه، شكر الكاتب دون القلم، وكل المخلوقَات في قهر تسخير الخالق أبلغ من القلم في يد الكاتب، فسبحان مسبب الأسباب الفعَّال لما يريد.

فصل [في بيان أحوال التوكل وأعماله وحده ونحو ذلك]

اعلم: أن التوكل مأخوذ من الوكالة، يقال: وكل فلان أمره إلى فلان، أي فوّض أمره إليه، واعتمد فيه عليه.

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الموكل، ولا يتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء: الشفقة، والقوة، والهداية. فإذا عرفت هذا، فقس عليه التوكل على الله سبحانه، وإذا ثبت في نفسك أنه لا فاعل سواه، واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء علمه علم، ولا وراء رحمته رحمة، اتكل قلبك عليه وحده لا محالة، ولم يلتفت إلى غيره بوجه، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك، فسببه أحد أمرين:

إما ضعف اليقين بأحد هذه الخصال.

وإما ضعف القلب باستيلاء الجبن عليه، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قد ينزعج ببقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان في اليقين، فإنه من كان يتناول عسلاً، فشبه بين يديه بالعذرة، ربما نفر طبعه منه، وتعذر عليه تناوله.

ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت، نفر طبعه من

ذلك، وإن كان متيقناً كونه ميتاً جماداً في الحال، ولا ينفر طبعه عن سائر الجمادات، وذلك جبن في القلب، وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان منه، وقد يقوى ذلك حتى يصير مرضاً، حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه.

فإذاً لا يتم التوكل إلا بقوة القلب، وقوة اليقين جميعاً، فإذا انكشفَ لك معنى التوكل، وعلمت الحالة التي تسمى توكلاً، فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات.

الأولى: ما ذكرناه، وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى الثقة بكفالته وعنايته، كحاله في الثقة بالوكيل.

الدرجة الثانية: وهي أقوى، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه، فانه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سواها، ولا يعتمد إلا إياها، وإن نابه أمر كان أول خاطر يخطر على قلبه، وأول سابق إلى لسانه: يا أماه. فمن كان تألهه إلى الله، ونظره إليه، واعتماده عليه، كلف به كما يكلف الصبي بأمه، فيكون متوكلاً حقاً.

والفرق بين هذا وبين الأول، أن هذا متوكل قد فني في توكله عن توكله، إذ لا يلتفت إلى غير المتوكل عليه، ولا مجال في قلبه لغيره.

وأما الأول، فهو متوكل بالتكليف والكسب، وليس فانياً عن توكله، بل له التفات إليه، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده.

الدرجة الثالثة: وهي أعلى منهما، أن يكون بين يدي الله تعالى مثل الميت بين يدي الغاسل، لا يفارقه إلا أنه لا يرى نفسه ميتاً، وهذا يفارق حال الصبي مع أمه فإنه يفزع إلى أمه، ويصيح ويتعلق بذيلها.

وهذه الأحوال توجد في الخلق، إلا أن الدوام يبعد، ولا سيما المقام الثالث.

فصل [في بيان أعمال المتوكلين]

قد يظن بعض الناس أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة، وكلحم على وضم، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع.

والشرع قد أثنى على المتوكلين، وإنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه إلى مقاصده، وسعي العبد إما أن يكون لجلب نفع مفقود كالكسب، أو حفظ موجود كالإدخار، وإما لدفع ضرر لم ينزل، كدفع الصائل، أو لإزالة ضرر قد نزل، كالتداوي من المرض، فحركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة.

الفن الأول: في جلب المنافع، فنقول: الأسباب التي بها تجلب المنافع على ثلاث درجات:

أحدها: سبب مقطوع به كالأسباب التي ارتبطت بها المسببات بتقدير الله تعالى ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف، مثاله: أن يكون الطعام بين يديك وأنت جائع، فلا تمد يدك إليه وتقول: أنا متوكل، وشرط التوكل ترك السعي، ومد اليد إلى الطعام سعي، وكذلك مضغه وابتلاعه، فهذا جنون محض، وليس من التوكل في شيء، فإنك إذا انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون أكل الطعام، أو يخلق في الطعام حركة إليك، أو يسخر ملكاً ليمضغه ويوصله إلى معدتك، فقد جهلت سنة الله.

وكذلك لو لم تزرع، وطمعت أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذر، أو تلد الزوجة من غير وقاع، فكل ذلك جنون، وليس التوكل في هذا المقام ترك العمل، بل التوكل فيه بالعلم والحال.

أما العلم: فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام، واليد، والأسباب، وقوة الحركة، وأنه الذي يطعمك ويسقيك.

وأما الحال، فهو أن يكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى، لا على اليد والطعام، لأنه ربما جفت يدك، وبطلت حركتك، وربما سلط الله عليك من يغلبك على الطعام، فمد اليد إلى الطعام لا ينافي التوكل.

الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست متيقنة، لكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها. مثاله من يفارق الأمصار، ويخرج مسافراً إلى البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادراً، ولا يستصحب معه شيئاً من الزاد، فهذا كالمجرب على الله تعالى، وفعله منهي عنه، وحمله للزاد مأمور به، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما سافر تزود واستأجر دليلاً إلى المدينة.

الدرجة الثالثة: ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه،

فمتى كان قصده صحيحاً وفعله لا يخرج عن الشرع، لم يخرج عن التوكل، لكنه ربما دخل في أهل الحرص إذا طلب فضول العيش.

وترك التكسب ليس من التوكل في شيء، إنما هو من فعل البطالين الذين آثروا الراحة، وتعللوا بالتوكل.

قال عمر رضي الله عنه: المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله.

الفن الثاني: في التعرض للأسباب بالإدخار، ومن وجد قوتاً حلالاً يشغله كسب مثله عن جمع همه، فادخاره إياه لا يخرجه عن التوكل، خصوصاً إذا كان له عائلة.

وفي «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم.

فإن قيل: فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلالاً أن يدخر[1]، فالجواب: أن الفقراء كانوا عنده كالضيف، فما كان ينبغي أن يدخر فيجوعون، بل الجواب: أن حال بلال وأمثاله من أهل الصُفَّة كان مقتضاها عدم الإدخار، فإن خالفوا كان التوبيخ على الكذب في دعوى الحال لا على الإدخار الحلال.

الفن الثالث: مباشرة الأسباب الدافعة للضرر. ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر، فلا يجوز النوم في الأرض المسبعة، أو مجرى السيل، أو تحت الجدار الخراب، فكل ذلك منهي عنه.

وكذلك لا ينقض التوكل لبس الدرع، وإغلاق الباب، وشد البعير بالعقال. قال الله تعالى: ﴿ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٢].

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل»[2].

ويتوكل في ذلك كله على المسبب لا على السبب، ويكون راضياً بكل ما يقضي الله عليه. ومتى عرض له إذا سرق متاعه أنه لو احترز لم يسرق، أو أخذ يشكو ما جرى عليه، فقد بان بعده عن التوكل.

---

(١) الترمذي في الشمائل (٣٣٨).

(٢) الترمذي (٢٥١٧).

وليعلم أن القدر له كالطبيب، فإن قدم إليه الطعام فرح، وقال: لولا أنه علم أن الغذاء ينفعني ما قدمه، وإن منعه فرح، وقال: لولا أنه علم أن الغذاء يؤذيني لما منعني.

واعلم: أن كل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الطبيب الحاذق الشفيق، لم يصح توكله، فإن سرق متاعه رضي بالقضاء، وأحل الآخذ، شفقة على المسلمين. فقد شكا بعض الناس إلى بعض العلماء أنه قطع عليه الطريق، وأخذ ماله، فقال: إن لم يكن غمك كيف صار في المسلمين من يفعل هذا أكثر من غمك بمالك، فما نصحت المسلمين.

الفن الرابع: السعي في إزالة الضرر، كمداواة المريض ونحو ذلك.

اعلم: أن الأسباب المزيلة للضرر تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

إلى مقطوع به، كالماء المزيل لضرر العطش، والخبز المزيل لضرر الجوع، فهذا القسم ليس تركه من التوكل في شيء.

القسم الثاني: أن يكون مظنوناً، كالفصد، والحجامة، وشرب المسهل، ونحو ذلك. فهذا لا يناقض التوكل، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تداوى وأمر بالتداوي.

وقد تداوى خلق كثير من المسلمين، وامتنع عنه أقوام توكلاً، كما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قيل له: ألا ندعو لك طبيباً؟ فقال: رآني الطبيب. قيل: فما قال لك؟ قال: إني فعَّال لما أريد.

قال المصنف رحمه الله: والذي ننصره أن التداوي أفضل، وتحمل حال أبي بكر رضي الله عنه أنه قد تداوى ثم أمسك بعد انتفاعه بالدواء، أو يكون قد علم قرب أجله بأمارات.

واعلم: أن الأدوية أسباب مسخرة بإذن الله تعالى.

القسم الثالث: أن يكون السبب موهوماً، كالكي، فيخرج عن التوكل، لأن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وصف المتوكلين بأنهم لا يكتوون.

وقد حمل بعض العلماء الكي المذكور في قوله: «لا يكتوون» على ما كانوا يفعلونه في الجاهلية، فإنهم كانوا يكتوون ويسترقون في زمن العافية لئلا يمرضوا،

فإن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يرقي الرقية بعد نزول المرض، وقد كوى أسعد بن زرارة رضي الله عنه.

وأما شكوى المريض، فهي مخرجة عن التوكل، وقد كانوا يكرهون أنين المريض، لأنه يترجم عن الشكوى، فكان الفضيل يقول: أشتهي مرضاً بلا عوَّاد.

وقال رجل للإمام أحمد: كيف أنت؟ قال: بخير. قال حممت البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا بخير، فلا تخرجني إلى ما أكره.

فأما إذا وصف المريض للطبيب ما يجده، فإنه لا يضره. وقد كان بعض السلف يفعل ذلك، ويقول: إنما أصف قدرة الله فيَّ، ويتصور أن يصف ذلك لتلميذ يقويه على الضراء ويرى ذلك نعمة، فيصف ذلك كما يصف النعمة شكراً لها، ولا يكون ذلك شكوى.

وقد روينا أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «إني أوعك كما يوعك رجلان منكم»[1].

آخر التوكل.

(١) البخاري (٧/١٥٣)، ومسلم (٨/١٤).

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضى

اعلم: أن المحبة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضى، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو من مقدماتها، كالتوبة، والصبر، والزهد وغيرها.

واعلم: أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ولرسوله فرض، ومن شواهد المحبة قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لله﴾ [البقرة: ١٦٥] وهذا دليل على إثبات الحب لله، وإثبات التفاوت فيه.

وفي الحديث الصحيح: أن رجلاً سأل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن الساعة فقال: «ما أعددت لها؟» قال: يا رسول الله: ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت»[1]، فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها.

وروي أن ملك الموت جاء إلى الخليل عليه السلام ليقبض روحه، فقال له: هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحى الله إليه: هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت اقبض.

وقال الحسن البصري رحمه الله: من عرف ربه أحبه، ومن أحب غير الله تعالى، لا من حيث نسبته إلى الله، فذلك لجهله وقصوره عن معرفته، فأما حب الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، فذلك لا يكون إلا عن حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والاتقياء، لأن محبوب المحبوب محبوب، بل إن ما يفعل المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل، ولا

---

(١) البخاري (٨ / ٤٩)، ومسلم (٨ / ٤٢، ٤٣).

محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة سواه.

وإيضاح ذلك يرجع إلى أسباب:

أحدها: أن الإنسان يحب نفسه، وبقاءه، وكماله، ودوام وجوده، ويكره ضد ذلك من الهلاك والعدم والنقصان، وهذا جبلة كل حي لا يتصور أن ينفك عنها. وهذا يقتضي غاية المحبة لله عزّ وجلّ، فإن الإنسان إذا عرف ربه، عرف قطعاً أن وجوده ودوامه وكماله من الله، وأنه المخترع له، الموجد لذاته بعد أن كان عدماً محضاً لولا فضل الله عليه بإيجاده، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل، ولذلك قال الحسن البصري: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا، زهد فيها.

وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه، ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه.

السبب الثاني: أن الإنسان بالطبع يحب من أحسن إليه ولاطفه وواساه، وانتدب لنصرته وقمع أعدائه، وأعانه على جميع أغراضه، فإنه محبوب عنده لا محالة.

وإذا عرف الإنسان حق المعرفة علم أن المحسن إليه هو الله سبحانه وتعالى فقط. وأنواع إحسانه لا يحيط به حصر، كما قال تعالى: ﴿ **وإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم: ٣٤ والنحل: ١٨].

وقد أشرنا إلى طرف من ذلك في كتاب الشكر، ولكنا نبين أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز، وأن المحسن في الحقيقة هو الله تعالى.

بيان ذلك أنا نفرض أن شخصاً أنعم عليك بجميع خزائنه وما يملك، ومكنك فيها لتتصرف كيف شئت، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه، وهو غلط، فإنه إنما تم إحسانه بماله، وبقدرته على المال، وبداعيته الباعثة له على صرف المال. فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق إرادته وداعيته؟ ومن الذي حببك إليه، وصرف وجهه إليك، وألقى في نفسه أن صلاح دينه ودنياه في الإحسان إليك، ولولا ذلك ما أعطاك، فكأنه صار مقهوراً في التسليم لا يستطيع مخالفته. فالمحسن هو الذي اضطره وسخره لك، فهو جارٍ مجرى خازن أمير أمره أن يسلم إلى الإنسان خلعة خلعها عليه الأمير، فإن الخازن لا يرى محسناً بتسليم خلعة الأمير، لأنه مضطر إلى طاعته، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك. وكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه، لم يبذل حبة من ماله حتى يسلط الله عليه الدواعي، ويلقي في نفسه أن

حظه في بذل ذلك فيبذله. فينبغي للعارف أن لا يحب إلا الله، إذ الإحسان من غيره محال.

السبب الثالث: أن المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه محبوب في الطباع، فإنه إذا بلغك عن ملك من الملوك أنه عالم عادل عابد رفيق بالناس، متلطف بهم وهو في قطر بعيد، فإنك تحبه، وتجد في نفسك ميلاً كثيراً إليه. فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن، فضلاً عن أن يكون محسناً إليك. وهذا ما يقتضي حب الله تعالى، بل يقتضي أن لا يحب غيره، إلا بحيث أن يتعلق منه بسبب، فإنه سبحانه هو المحسن إلى الكل كافة، بإيجادهم وتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وترفيههم، إلى غير ذلك من النعم التي لا تحصى، كما قال تعالى: ﴿ وإنْ تَعُدُّوا نعْمَةَ الله لا تُحصُوها ﴾ [إبراهيم: ٣٤ والنحل: ١٨]. فكيف يكون غيره محسناً؟ وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته، فمن عرف هذا لم يحب إلا الله تعالى.

وكذلك نقول: كل من كان متصفاً بالعلم، أو بالقدرة أو كان متنزهاً عن الصفات الرذيلة، فإن ذلك يوجب له المحبة. فصفات الصِّديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً، ترجع إلى علمهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه، وإلى قدرتهم على إصلاح نفوسهم وإلى تنزيههم عن الرذائل والخبائث. ولمثل هذه الصفات تحب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإذا نسبت هذه الصفات إلى صفات الله تعالى، وجدتها مضمحلة بالنسبة إلى صفاته سبحانه وتعالى.

أمّا العلم، فإن علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض. وقد خاطب الخلق كلهم فقال: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم من العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولو اجتمع أهل السموات والأرض، على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة، أو بعوضة، لم يطلعوا على عشر عشر ذلك، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، والقدر اليسير الذي علمه الخلق كلهم، بتعليمه علموه. ففضل علم الله سبحانه على علم الخلائق كلهم خارج عن النهاية، إذ معلوماته لا نهاية لها.

وأما صفة القدرة، فهي أيضاً صفة كمال، فإذا نسبت قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى، وجدت أعظم الأشخاص قوة، وأوسعهم ملكاً، وأقواهم بطشاً،

وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره، غاية قدرته أن يقدر على بعض صفات نفسه، وعلى بعض امتحان الإنس في بعض الأمور، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى، ولا على حفظ لسانه من الخرس، ولا آذانه من الصمم، ولا بدنه من المرض، ولا يقدر على ذرة من ذرات المخلوقات. وما هو قادر عليه من نفسه وغيره، فليست قدرته من نفسه، بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك. ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص لأهلكته، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه.

قال الله تعالى في حق أعظم ملوك الأرض ذي القرنين: ﴿ **إِنَّا مَكَّنَّا لَه في الأَرْض** ﴾ [الكهف: ٨٤] فلم يكن جميع ملكه وسلطانه إلا بتمكين الله تعالى، فنواصي الخلق جميعهم في قبضته وقدرته، إن أهلكهم لم ينقص من ملكه وسلطانه ذرة، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعيأ بخلقه، فلا قادر إلا هو، فله الكمال والعظمة والبهاء والكبرياء والقهر والاستيلاء. فإن تُصُورَ أن تحب قادراً لكمال قدرته وعظمته وعلمه، فلا يستحق ذلك سواه، ولا يتصور كمال التقديس والتنزيه إلا له سبحانه، فهو الواحد الذي لا ند له، الفرد الذي لا ضد له، الصمد الذي لا منازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، العالم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وكمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته، وهو المستحق لكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً.

فصل [في بيان أن أجلّ اللذات وأعلاها معرفة الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن يؤثر على ذلك لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة]

اعلم: أن اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة غريزة لذة، ولم تخلق هذه الغرائز عبثاً، بل لأمر من الأمور، وهو مقتضاها بالطبع، فغريزة شهوة الطعام خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام، ولذة البصر والسمع في الإبصار والإسماع.

وكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلّهي، وقد تسمى العقل، وتسمى البصيـرة الباطنة، وتسمى نور الإيمان واليقين، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها بطبعها، فمقتضى طبعها العلم والمعرفة، وذاك لذتها.

وليس يخفى أن العلم والمعرفة، ولو في شيء خسيس يفرح به، وأن من ينسب إلى الجهل ولو في شيء خسيس يغتم به. وكل ذلك لفرط لذة العلم، وما يستشعره من كمال ذاته. فإن العلم من أحسن الصفات ومنتهى الكمال، ولذلك يرتاح الإنسان بطبعه إذا أثني عليه بالذكاء وغزارة العلم، ثم ليس لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق، ولا لذة العلم بالشعر والنحو، كلذة العلم بالله تعالى وملائكته وملكوت السموات والأرض، بل لذة العلم بقدر شرف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم، فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها.

وليت شعري، هل في الوجود شيء أجلّ وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها. ومزيّنها ومبديها ومعيدها ومدبرها ومرتبها؟! وهل يتصور أن يكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بجلالها وكمالها وعجائب أمورها وصف الواصفين؟!

فينبغي أن تعرف أن لذة المعرفة أقوى من جميع اللذات المدركة بالحواس الخمس، فإن المعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة. فلو خيّر الرجل بين لذة أكل الدجاج السمين واللوزينج، وبين لذة الرياسة، وقهر الأعداء، ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد الشهوة البهيمية اختار اللحم والحلواء، وإن كان عليّ الهمة، كامل العقل، فإنه يختار الرياسة، ويهون عليه الجوع والصبر على ضرورة القوت أياماً.

فاختياره للرياسة دليل على أنه ألذ عنده من المطعومات الطيبة، وكما أن لذة الرياسة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الناقص الهمة، فلذة معرفة الله سبحانه وتعالى والنظر إلى أسرار الأمور الإلّهية ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق، وهذا لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر، وينغمس في بحار المعرفة، ويترك الرياسة، ويحتقر الخلق، لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته، وكون ذلك مشوباً بالكدر، مقطوعاً بالموت. وتعظم عنده معرفة الله سبحانه وتعالى، ومطالعة صفاته وأفعاله،

ونظام مملكته، فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات، متسعة للمتواردين عليها، لا تضيق عنهم، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض، يرتع في رياضها، ويقطف من ثمارها، ويكرع من حياضها، وهو آمن من انقطاعها، إذ هي أبدية سرمدية، لا يقطعها الموت، لأن الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى، إذ محلها الروح، وإنما الموت يغير أحوالها، أما أن يعدمها فلا.

والعارفون درجات عند الله تعالى متفاوتون، لا يدخل تفاوت درجاتهم تحت الحصر، وهذه الأمور لا تدرك إلا بالذوق، والحكاية فيها قليلة الجدوى. فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله تعالى ألذ الأشياء، وأنه لا لذة فوقها، ولهذا قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله عزّ وجلّ خوف النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله تعالى؟!

وقال بعض أصحاب معروف: قلت له: أي شيء أهاجك على العبادة؟ فسكت. فقلت: ذكر الموت؟ فقال: وأي شيء الموت؟ قلت: ذكر القبر. وقال: وأي شيء القبر؟ قلت: خوف النار ورجاء الجنة؟ فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكاً هذا كله بيده، إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع ذلك.

وقال أحمد بن الفتح: رأيت بشر بن الحارث في منامي، فقلت له: ما فعل معروف الكرخي؟ فحرك رأسه ثم قال: هيهات، حالت بيننا وبينه الحجب، إن معروفاً لم يعبد الله شوقاً إلى جنته ولا خوفاً من ناره، وإنما عبده شوقاً إليه، فرفعه الله إلى الرفيق الأعلى، ورفع الحجب بينه وبينه.

فمتى حصلت محبة الله تعالى لشخص، صار قلبه مستغرقاً بها، ولا يلتفت إلى جنة، ولا يخاف من نار، فإنه قد بلغ النعيم الذي ليس فوقه نعيم. قال بعضهم:

وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وإنما أراد بهذا لذة القلب في معرفة الله تعالى. وأنها مفضلة على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإن الجنة معدن تمتع الحواس، وأما القلب فلذته في لقاء الله تعالى فقط.

واعلم: أن لذة النظر في الآخرة تزيد على المعرفة في الدنيا، وقد اقتضت سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن، ومقتضى الشهوات، وما

يغلب عليها من الصفات البشرية، لا تنتهي إلى المشاهدة، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة، كحجاب الأجفان عن رؤية الإبصار.

والقول في سبب كونه حجاباً يطول، فإذا ارتفع الحجاب بالموت، بقيت النفس وفيها نوع تلوث بالدنيا، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وقد صفوا عن الأكدار، تجلّى لهم الحق سبحانه وتعالى على قدر معرفتهم في الدنيا.

فكل من لا يعرف الله تعالى في الدنيا، لا يراه في الآخرة. وما يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا يموت المرء إلا على ما عاش عليه، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء، فتضاعف اللذة، والعيش عيش الآخرة. ﴿ وإنَّ الدَّارَ الآخرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وعيش الآخرة بقدر المعرفة، ولهذا جاء في الحديث: «خير الناس من طال عمره وحسن عمله» وذلك لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والذكر، والمواظبة على المجاهدة، والانقطاع عن علائق الدنيا، والتجرد للطلب، فقد عرفت بما ذكرنا معنى المحبة، ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية ولذتها، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند أهل الكمال.

فصل [في بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى وتفاوت الناس في الحب وبيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى]

واعلم: أن أسعد الناس وأحسنهم حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى، ودرك سعادة لقائه. وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، وتمكن من مشاهدته من غير منغص ولا مكدر، إلا أن هذا النعيم على قدر المحبة، فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة.

وأصل الحب لا ينفك عن مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوة الحب واستيلاؤه، فذلك ينفك عنه الأكثرون، وإنما يحصل ذلك بشيئين:

أحدهما: قطع علائق الدنيا، وإخراج حب غير الله من القلب، فأحد أسباب ضعف حبه، قوة حب الدنيا، وبقدْر ما يأنس القلب بالدنيا ينقص أنسه بالله، والدنيا والآخرة ضرتان، وسبيل قطع الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد، وملازمة اله

والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء، وما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والشكر والزهد والخوف وغير ذلك.

السبب الثاني لقوة المحبة: معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة تبعتها المحبة، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا الفكر الصافي، والذكر الدائم، والتشمير في الطلب، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه: وأقل أفعاله الأرض وما عليها، بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات.

والشمس على ما يرى من صغر حجمها مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذي هي مركوزة فيه وهي في السماء الرابعة والسماء الرابعة صغيرة بالنسبة إلى ما فوقها من السموات، ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة، والكرسي في العرش كذلك.

ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض، وإلى سائر الحيوانات، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض، وأصغر ما تعرفه من الحيوانات البعوض، فانظر فيه بعقل حاضر، كيف خلقه الله عزّ وجلّ على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات، وزاده الجناحين، وانظر كيف شق سمعه وبصره، وخلق في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته، ودبره في سائر أحواله، من القوى الجاذبة والدافعة والهاضمة، وانظر كيف خلق له الطيران، يطير إذا طُلب، وجعل له خرطوماً محدداً يمص به الدم.

وانظر إلى النحل في تناولها الأزهار من الأنوار، واحترازها عن الأقذار، وطاعتها إلى كبيرها، حتى إنه يقتل كل ما ورد عليه وقد أكل مستقذراً، وإلى اختيارها الشكل المسدس، فلا تبني بيتاً مربعاً، ولا مستديراً، ولا مخمساً، بل مسدساً لخاصيته في الشكل المسدس، فإن أوسع الأشكال وأحواها المستدير وما يقرب منه، فإن المربع تخرج منه الزوايا ضائعة، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فُرج ضائعة، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة، فلا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير، ثم تتراص الجملة منه، بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلى المسدس، فانظر كيف ألهمه الله تعالى ذلك على صغر حجمه وضعفه، فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات، فالنظر في هذا وأشباهه تزداد المعرفة به، فتزداد المحبة.

وأما السبب في تفاوت الناس في الحب.

فاعلم أن الناس مشتركون في أصل الحب، لكنهم يتفاوتون لتفاوت المعرفة، فكثير من الناس ليس لهم من معرفة الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت أسماعهم، والعالم البصير يطالع تفصيل صنع الله تعالى حتى يرى ما يبهر عقله، فتزداد عظمة الله في قلبه، فيزداد حباً له، وتجر هذه المعرفة التي هي معرفة عجائب صنع الله تعالى إلى بحر لا ساحل له.

وأما السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى، فاعلم أن كل من صنع شيئاً دل المصنوع على وجود صانعه، وعلى علمه وحياته وقدرته دلالة جلية ظاهرة، وإن كانت هذه الصفات لا تدرك بشيء من الحواس الخمس. فوجود الله سبحانه وتعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهد من حجر وشجر ومدر ونبات وحيوان وأرض وسماء وكوكب وبر وبحر، بل أول شاهد علينا أنفسنا وأجسامنا، وتقلب أحوالنا، وتغير قلوبنا، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا.

وجميع ما في العالم شواهد ناطقة، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها، ودالة على علمه وقدرته وحياته ولطفه وحكمته وعظمته وجلاله، إذ كل ذرة تنادي بلسان حالها: إنه ليس وجودها بنفسها، وإنها تحتاج إلى موجد لها، لكن عقولنا بالنسبة إلى إدراك الحضرة الإلٓهية، كالخفاش بالنسبة إلى النهار، فإنه لضعف بصره يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، وليس عدم إبصاره بالنهار لخفائه، بل لشدة ظهوره واستنارته وضعف أعين الخفاش، فكذلك عقولنا ضعيفة عن إدراك الحضرة الإلٓهية، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى به عن البصائر والأبصار، فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله سبحانه وتعالى، وانضم إلى ذلك أيضاً أن المدركات الشاهدة لله تعالى، إنما يدركها الإنسان في حال الصبا قبل حضور العقل عنده، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً، وهو مستغرق الهم، مشغول به، وقد أنس بمدركاته وألفها، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس.

وكذلك إذا رأى فجأة حيواناً غريباً، أو نباتاً، أو فعلاً من أفعال الله تعالى عجيباً خارقاً للعادة، انطلق لسانه بالتعجب، فقال: سبحان الله! سبحان الله! وهو يرى طول النهار نفسه، وجميع أعضائه، وجميع الحيوانات المألوفة، وكلها شواهد قاطعة، فلا يحس بشهادتها لطول الأنس بها.

ولو فرض أن أعمى بلغ عاقلاً، ثم انقشعت غشاوة عينه، فامتد بصره إلى السماء والأرض، والأشجار، والنبات، والحيوان دفعة واحدة، لخيف على عقله أن ينبهر، لعظم تعجبه من مشاهدة هذه العجائب، وشهادتها لخالقها، فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات، وهو الذي سد على الخلق في سبيل الاستضاءة بنور المعرفة، والسباحة في بحارها الواسعة، والله أعلم وأحكم.

فصل [في بيان معنى الشوق إلى الله تعالى]

قد تقدم الكلام في المحبة وإثباتها بالأدلة، وأن الشوق ثمرة من ثمارها، فإن من أحب شيئاً اشتاق إليه.

واعلم: أن الشوق لا يتصور إلا لشيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه.

فأما ما لا يدرك أصلاً، فلا يشتاق إليه، وكمال الإدراك بالرؤية، وإنما يكون ذلك في الآخرة.

واعلم: أن الأمور الإلَهية لا نهاية لها، وإنما يكشف لكل عبد من العباد بعضها، ويبقى أمور لا نهاية لها، والعارف يعلم وجودها، وكونها معلومة لله تعالى، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال العبد متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة، وينتهي الشوق الأول في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ومشاهدة، ولا يتصور أن يسكن قلب المشتاق في الدنيا.

وكان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين، فقال يوماً: يا ربِّ! إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فاعطني، فقد أضر بي القلق. قال: فرأيته عزّ وجلّ في النوم، فقال: يا إبراهيم! أما استحييت مني؟! تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي، وهل يسكن قلب المشتاق قبل لقاء حبيبه؟ فقلت: يا رب: تُهْتُ في حبك فلم أدر ما أقول، فهذا الشوق يسكن في الآخرة. وأما غير ذلك مما هو معلوم لله فلا نهاية له، فلا يتضح للعبد ولا يحيط به، فهو مشغول بلذة ما ظهر له، ولا يزال النعيم واللذة متزايدين حتى يشتغل عن الإحساس بالشوق إلى ما وراء ذلك، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه.

ومن شواهد الأخبار، ما روي أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم علم رجلاً دعاء، وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم، فذكر فيه: «وأسألك اللهم الرضى بعد

القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، وشوقاً إلى لقائك»[1].

وفي التوراة: يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً.

وفي بعض ما أوحى الله عزّ وجلّ إلى بعض عباده: إن لي عباداً من عبادي، يحبوني وأحبهم، وأشتاق إليهم ويشتاقون إليَّ، ويذكروني وأذكرهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك. قال: يا رب! وما علامتهم؟ قال: يرعون الظلال بالنهار، كما يرعى الراعي الشفيق غنمه؟ ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا جنهم الليل، واختلط الظلام، وفرشت الفرش، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا أقدامهم وافترشوا وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملقوني بأنعامي، فبين صارخٍ وباكٍ، وبين متأوهٍ وشاكٍ، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبي.

فصل [في بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها وبيان علامات محبة العبد لله تعالى]

وأما محبة الله تعالى للعبد، فاعلم:

أن شواهد القرآن متظاهرة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾، الآيةَ [الصف: ٤]. ونبه على أنه لا يعذب من يحبه، لأنه رد على من ادعى أنه حبيبه بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨] وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وفي الحديث الصحيح، من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: إن الله تعالى يقول: «ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه»[2]، إلى آخره. وهو حديث مشهور.

---

(١) النسائي (٣ / ٥٤، ٥٥)، وابن حبان (٥٠٩، ٥١٠)، وأحمد (٤ / ٢٦٤)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) تقدم في ص ٢٣٢.

ومن علامة حب الله تعالى للعبد، قول النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه»[1].

ومن أقوى العلامات، حسن التدبير له، يربيه من الطفولة على أحسن نظام، ويكتب الإيمان في قلبه، وينور له عقله، فيتبع كل ما يقربه، وينفر عن كل ما يبعد عنه، ثم يتولاه بتيسير أموره، من غير ذل للخلق، ويسدد ظاهره وباطنه، ويجعل همه هماً واحداً، فإذا زادت المحبة، شغله به عن كل شيء.

وأما محبة العبد لله تعالى، فاعلم:

أن المحبة يدعيها كل أحد، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان، وخداع النفس إذا ادعت محبة الله تعالى، ما لم يمتحنها بالعلامات، ويطالبها بالبراهين، فمن العلامات حب لقاء الله تعالى في الجنة، فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته، وهذا لا ينافي كراهة الموت، فإن المؤمن يكره الموت، ولقاء الله بعد الموت.

ومن السلف من أحب الموت، ومنهم من كرهه، إما لضعف محبته، أو لكونها مشوبة بحب شيء من الدنيا، أو لأنه يرى ذنوبه فيحب أن يبقى ليتوب.

ومنهم من يرى نفسه في ابتداء مقام المحبة، فيكره عجلة الموت قبل أن يستعد للقاء الله تعالى، وهذا كمحب يصله الخبر بقدوم حبيبه عليه، فيحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيىء له داره، ويعدل له أسبابه، فيلقاه كما يهواه، فارغ القلب عن الشواغل، خفيف الظهر عن العوائق، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال المحبة، وعلامة هذا: الدؤوب في العمل، واستغراق الهم في الاستعداد.

ومنها أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله تعالى متقرباً إليه بالنوافل.

ومن أحب الله فلا يعصيه، إلا أن العصيان لا ينافي أصل المحبة، إنما يضاد كمالها، فكم من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره، وسببه أن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب، فيعجز عن القيام بحق المحبة، ويدل على ذلك حديث نعيمان أنه كان يؤتى به إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيحده إلى أن أتى به يوماً، فحده، فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله صلّى الله عليه

---

(١) الترمذي (٢٣٩٨) بمعناه.

وآله وسلّم: «لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله»[1] فلم تخرجه المعصية عن المحبة، وإنما تخرجه عن كمال المحبة.

ومن العلامات أن يكون مُسْتَهْتراً بذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة، ومن ذكر ما يتعلق به.

فعلامة حب الله تعالى حب ذكره، وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إن كُنْتُم تُحبُّون الله فَاتَّبِعُوني يُحْبِبكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال بعض السلف: كنت قد وجدت حلاوة المناجاة، فكنت أدمن قراءة القرآن، ثم لحقتني فترة فانقطعت، فرأيت في المنام قائلاً يقول:

إن كنت تزعمُ حبي فَلِمْ هجرتَ كتابي
أما تدبرت ما فيـه من لطيف عتابي

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة، ومناجاة الله تعالى، وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فإن أقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب، والتنعم بمناجاته.

روي أن عابداً عبد الله في غيضة دهراً، فنظر إلى طائر قد عشش في شجرة يأوي إليها، ويصفر عندها. فقال: لو حولت مسجدي إلى تلك الشجرة كنت آنس بصوت هذا الطائر، ففعل، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل لفلان العابد: استأنست بمخلوق، لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً.

فإذن علامة المحبة، كمال الأنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعم بالخلوة، وكمال الاستيحاش من كل ما ينقض عليه الخلوة.

ومتى غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحب والأنس قلبه، حتى لا يفهم أمور الدنيا، ما لم تتكرر على سمعه مراراً، مثل العاشق الولهان.

ومنها أن يتأسف على ما يفوته من ذكر الله تعالى، ويتنعم بالطاعة، لا

---

(١) البخاري (٨ / ١٩٧).

يستثقلها، ويسقط عنه تعبها.

قال ثابت البناني رحمه الله: كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة.

وقال الجنيد: علامة المحبة دوام النشاط، والدؤوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه، وكل هذا موجود المثال في المشاهدات، فإن المحب لا يستثقل السعي في مراد محبوبه، ويستلذ خدمته بقلبه، وإن كان شاقاً على بدنه، وكل حب قاهر لا محالة، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل، ترك الكسل في خدمته، وإن كان أحب إليه من المال، ترك المال في حبه.

ومنها أن يكون شفيقاً على جميع عباد الله، رحيماً بهم، شديداً على أعدائه، كما قال تعالى: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم ﴾ [الفتح: ٢٩] ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب له صارف، فهذه علامآت المحبة، فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته، وصفا في الآخرة شرابه. ومن امتزج بحبه حب غير الله، تنعم في الآخرة بقدر حبه، فيمزج شرابه بشيء من شراب المقربين، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ إنَّ الأبرَارَ لَفِي نَعيم ﴾ إلى قوله: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَحِيقٍ مَخْتُوم * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفي ذَلكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ من تَسْنيم * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٨] فقوبل الخالص بالصرف، والمشوب بالمشوب. ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شراً يَرَهُ ﴾ [الزلزال: ٧ ـ ٨].

ومنها أن يكون في حبه خائفاً بين الهيبة والتعظيم، فإن الخوف لا يضاد المحبة، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعضها أشد من بعض، فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب، وأشد منه خوف الإبعاد.

ومنها كتمان الحب، واجتناب الدعوى، والتوقي من إظهار الوجد والمحبة، تعظيماً للمحبوب، وإجلالاً له، وهيبة وغيرة على سره، فإن الحب سر من أسرار الحبيب. وقد يقع المحب في دهش وسكر، فيظهر عليه الحب من غير قصد، فهو في ذلك معذور، كما قال بعضهم:

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ... ومن سره في جفنه كيف يكتم

فصل [في بيان معنى الأنس بالله والرضى بقضاء الله عزّ وجلّ]

اعلم: أن من غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غيره، ويكون أثقل الأشياء على القلب كل ما يعوق عن الخلوة.

قال عبد الواحد بن زيد: قلت لراهب: لقد أعجبتك الخلوة، فقال: لو ذقتَ حلاوة الخلوة لاستوحشت إليها من نفسك، قلت: متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟ قال: إذا صفا الود، خلصت المعاملة. قلت: متى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع الهم، فصار هماً واحداً في الطاعة.

فإن قيل: ما علامة الأنس؟ قيل: علامته الخاصة ضيق الصدر عن معاشرة الخلق، والتبرم بهم، وإن خالط، فهو كمنفرد غائب مخالط بالبدن، منفرد بالقلب.

واعلم: أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم، قد يثمر نوعاً من الانبساط والإدلال، وقد يكون ذلك منكراً في الصورة، لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة، وإن كان محتملاً ممن أقيم مقام الأنس. وأما إذا صدر ممن لا يفهم ذلك المقام، أشرف به على صاحبه على الكفر، وذلك كما يروى عن أبي حفص أنه كان يمشي يوماً، فاستقبله رجل مدهوش، فقال: ما لك؟ قال: ضل حماري، ولا أملك غيره، فوقف أبو حفص وقال: وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره، فظهر الحمار.

وروي عن برخ العابد أنه خرج يستسقي فقال: يا رب: أنت بالبخل لا ترمى، أنفذ ما عندك، اسقنا الساعة.

ولا يستبعد أن يحتمل من شخص ما لم يحتمل من غيره. وأما الرضى بقضاء الله تعالى، فهو من أعلى مقامات المقربين، وهو من ثمار المحبة، وحقيقته غامضة، ولا ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله تعالى.

ومن فضائل الرضى ما ورد في الحديث أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً أرضاه بما قسم له».

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود: إنك لن تلقاني بعمل هو أرضى لي عنك، ولا أحط لوزرك، من الرضى بقضائي.

ونظر علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى عدي بن حاتم كئيباً، فقال: يا عدي: ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ فقال: وما يمنعني فقد قتل ابناي، وفقئت عيني فقال: يا عدي! من رضي بقضاء الله حرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله.

ودخل أبو الدرداء رضي الله عنه علي رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالى، فقال أبو الدرداء: أصبت، إن الله عزّ وجلّ إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الله تعالى بقسطه وعمله جعل الرُّوح والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط.

وقال علقمة في قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١] قال: هي المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم لها ويرضى.

وقال أبو معاوية الأسود في قوله تعالى: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧] قال: الرضى والقناعة.

وفي الأخبار السالفة: أن نبياً من الأنبياء شكا إلى ربه عزّ وجلّ الجوع والفقر عشر سنين، فما أجيب إلى ما أراد، ثم أوحى الله إليه: كم تشكو؟ هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السمٰوات والأرض، وهكذا سبق لك مني، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد أن أبدل ما قدرت لك؟ فيكون ما تحب فوق ما أحب، ويكون ما تريد فوق ما أريد، وعزتي وجلالي، لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأمحونّك من ديوان النبوة.

وفي «زبور داود» عليه السلام: هل تدري من أسرع الناس مراً على الصراط؟ الذين يرضون بحكمي وألسنتهم رطبة من ذكري.

وقال داود عليه السلام: يا رب! أيُّ عبادك أبغض إليك؟ قال: عبد استخارني في أمر، فخرت له، فلم يرض.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر
وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله عزّ وجلّ.

وقال الحسن: من رضي بما قسم له وسعه وبارك الله فيه، ومن لم يرض لم يسعه ولم يبارك له فيه.

وقال عبد الواحد بن زيد: الرضى باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين.

وقال بعضهم: لن يرد الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله تعالى على كل حال، فمن وهب له الرضى، فقد بلغ أفضل الدرجات.

وأصبح أعرابي وقد مات له أباعر كثيرة، فقال:

لا والذي أنا عبد في عبادته لولا شماتة أعداء ذوي إحن
ما سرني أن إبلي في مباركها وأن شيئاً قضاه الله لم يكن

فصل [يتصور الرضى فيما يخالف الهوى]

ويتصور الرضى فيما يخالف الهوى. وبيان ذلك إذا جرى على الإنسان الألم، فتارة يحس به ويدرك ألمه، ولكنه يكون راضياً به، راغباً في زيادته بعقله، وإن كان كارهاً له بطبعه لما يوصله من الثواب. مثاله أن يلتمس من الحجام الحجامة والفصد، فإنه يدرك ألم ذلك، إلا أنه راضٍ به، وراغب فيه ومتقلد منة الحجام.

وكذلك كل من يسافر في طلب الربح، فإنه يدرك مشقة السفر، لكن حبه لثمرة سفره طيب عنده تلك المشقة، وجعله راضياً بها، وكل من أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين، فإنه يتوقع الأجر فوق ما فاته، فيرضى بما أصابه، ويشكر الله تعالى عليه، ويجوز أن يغلبه الحب، بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه، ويبطل الإحساس بالألم لفرط الحب، وليس ذلك بعجيب، فإن الرجل المحارب في حال غضبه أو خوفه، تصيبه الجراحات ولا يحس بها، ولا يشعر بها في تلك الحال، وذلك لأن قلبه مستغرق، وإذا كان القلب مستغرقاً بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه. وذلك موجود في المشاهدات.

قال الجنيد رحمه الله: سألت سرياً: هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا.

وقد روينا عن خلق كثير من أهل البلاء، أنهم كانوا يقولون: لو قطعنا إرباً إرباً، ما ازددنا له إلا حباً.

وقد تقدم أن فرط الحب يزيل إحساس الألم، وهو متصور في حب الخلق، كما حكى بعضهم. قال: كان في جيراننا رجل له جارية يحبها، فاعتلت، فجلس يصلح لها حَسَاءً، فبينما هو يحرك القدر، قالت: أوه، فدهش وسقطت الملعقة من يده، وجعل يحرك القدر بيده حتى تساقطت أصابعه وهو لا يعلم. ويؤيد هذا قصة

النسوة حين شاهدن يوسف عليه السلام، فإنهن قطعن الأيدي، وما أحسسن بألم، فقد بان بما ذكرنا أن الرضى بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً، وإذا كان ذلك ممكناً في حق الخلق وحظوظهم، كان ممكناً في حق الله سبحانه، وحظوظ الآخرة بطريق الأولى. وإمكان ذلك في ثلاثة أوجه:

أحدها: علم المؤمن بأن تدبير الله تعالى خير من تدبيره.

وقد قال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ما قضى الله لمؤمن من قضاء إلا كان خيراً لـه».

وعن مكحول قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنه يقول: إن الرجل يستخير الله فيختار له، فيسخط فلا يلبث أن ينظر في العاقبة، فإذا هو قد خير له.

وعن مسروق قال: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظ للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل خباءهم، والكلب يحرسهم. فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا، فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار، فحزنوا، فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم أصيب الكلب، فحزنوا، فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم أصبحوا ذات يوم، فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبَقُوا هُمْ، وإنما أخذ أولئك بما كان عندهم من الصوت والجلبة، ولم يكن عند أولئك شيء يجلب، قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم.

وعن سعيد بن المسيب قال: قال لقمان لابنه: يا بني: لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته، إلا جعلت في الضمير أن ذلك خير لك. قال: أما هذه فلا أقدر أن أعطيكها دون أن أعلم ما قلت أنه كما قلت. قال: يا بني: فإن الله قد بعث نبياً هلم حتى نأتيه، فعنده بيان ما قلت لك. قال: اذهب بنا إليه، فخرج على حمار وابنه على حمار، وتزودوا ما يصلحهما، ثم سارا أياماً وليالي، حتى تلقتهما مفازة، فأخذا أهبتهما ودخلاها، فسارا ما شاء الله أن يسيرا، حتى تعالى النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد، فاستبطآ حماريهما، فنزلا يمشيان، فبينما هما كذلك، إذ نظر لقمان أمامه، فإذا هو بسواد ودخان، فقال في نفسه: السواد شجر، والدخان عمران وناس، فبينما هما كذلك يشهدان، إذ وطىء ابن لقمان على عظم على الطريق، فدخل في باطن قدمه حتى ظهر من أعلاها، فخر مغشياً عليه، فحانت من لقمان التفاتة، فإذا هو بابنه صريع، فوثب إليه فضمه إلى صدره، واستخرج العظم

بأسنانه، وشق عمامة كانت عليه فعصب رجله، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه، فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام فانتبه لها، فنظر إلى أبيه يبكي، فقال: يا أبت، أنت تبكي وأنت تقول: هذا خير لي، فكيف ذلك وأنت تبكي؟! وقد نفد الطعام والشراب وبقيت أنا وأنت في هذا المكان. قال: أما بكائي يا بني، فوددت أني افتديتك بجميع حظي من الدنيا، ولكني والد ومني رقة الوالد. وأما قولك: كيف يكون هذا خيراً لي؟ فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك، فبينما هو يحاوره، إذ نظر لقمان أمامه، فلم ير الدخان والسواد، فقال في نفسه: لم أر شيئاً، ثم قال: قد رأيت، ولكن لعله أن يكون قد أحدث ربي بما رأيت شيئاً، فبينما هو يتفكر في ذلك، إذ نظر فإذا هو بشخص قد أقبل على فرس أبلق، عليه ثياب بيض، يمسح الهواء مسحاً. فلم يزل يرمقه بعينيه حتى كان منه قريباً، فتوارى عنه ثم صاح به فقال: أنت لقمان؟ قال: نعم. قال: ما قال لك ابنك هذا السفيه؟ قال: يا عبد الله من أنت؟ ما أسمع كلامك ولا أرى وجهك؟ قال: أنا جبريل، لا يراني إلا ملك مقرَّب، أو نبي مرسل، لولا ذلك لرأيتني، فما قال لك ابنك هذا السفيه؟ قال: أما علمت ذلك؟ فقال جبريل: ما لي بشيء من أمركما علم، إلا أن حفظتكما أتوني، وقد أمرني ربي تعالى بخسف هذه المدينة وما فيها ومن يليها، فأخبروني أنكما تريدان هذه المدينة، فدعوت ربي أن يحبسكما عني بما شاء، فحبسكما عني بما ابتلى به ابنك، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسف به، ثم مسح جبريل عليه السلام بيده على قدم الغلام، فاستوى قائماً، ومسح يده على الذي كان فيه الطعام فامتلأ طعاماً، ومسح على الذي كان فيه ماء فامتلأ ماء، ثم حملهما وحماريهما فرحل بهما كما يرحل الطير، فإذا هما في الدار التي خرجا منها بعد أيام وليالي.

الوجه الثاني: الرضى بالألم، لما يتوقع من الثواب المدخر، كما تقدم من الرضى بالفصد والحجامة وشرب الأدوية انتظاراً للشفاء.

الوجه الثالث: الرضى به لا لحظ وراءه، بل لكونه مراد المحبوب، فيكون ألذ الأشياء عنده ما فيه رضى محبوبه، ولو كان في ذلك هلاك نفسه، كما قال بعضهم: فما لجرح إذا أرضاكم ألم.

وقد سبق أن الحب يستولي بحيث يدهش عن إدراك الألم، ولا ينبغي أن ينكر ذلك من فقده من نفسه، لأنه إنما فقده لفقد سببه، وهو فرط حبه، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه، ولعمري إن من فقد السمع أنكر لذة الألحان

والنغمات، فمن فقد القلب، فلا بد أن يُنكر هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى لقلب.

فصل [في أن الدعاء لا يناقض الرضى]

واعلم: أن الدعاء لا يناقض الرضى، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها وأسبابها، والسعي في إزالتها.

أما الدعاء، فقد تعبدنا الله تعالى به، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ودعاء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وغيره من الأنبياء والصالحين معلوم.

وأما إنكار المعاصي وعدم الرضى بها، فقد تعبدنا الله تعالى به، وذم الراضي به، وكذلك بغض الكفار والفجار، والإنكار عليهم، وشواهد ذلك في القرآن والأخبار كثيرة جداً.

فإن قيل: فقد وردت الأخبار بالرضى بقضاء الله تعالى، فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى، فهو محال، وإن كانت بقضائه، فكراهتها كراهة لقضائه، فكيف الجمع بين هذين الحالين؟

فاعلم أن هذا ممّا يلتبس على القاصرين على الوقوف على أسرار العلم، حتى التبس على قوم، فرأوا السكوت عن الإنكار مقاماً من مقامات الرضى، وسموه حسن الخلق، وهو جهل محض، بل نقول: الرضى والكراهة يتضادان، إذا تواردا على شيء واحد، من جهة واحدة، على وجه واحد. فأما إذا رضيت بشيء من وجه، وكرهته من وجه آخر، فليس ذلك بمتضاد، نحو أن يموت عدوك الذي هو أيضاً عدو لبعض أعدائك، وساع في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك، وترضاه من حيث إنه عدوك، وكذلك للمعصية وجهان: وجه إلى الله تعالى، من حيث إنها اختياره وإرادته، فترضى بها من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة لكونه ممقوتاً عند الله تعالى وبغيضاً عنده، حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم، ولا ينكشف هذا إلا بمثال، فلنفرض محبوباً من الخلق قال بين يدي محبه: إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني، وأنصب لذلك معياراً صادقاً، وهو أني أقصد إلى فلان فأضربه ضرباً شديداً يضطره ذلك إلى الشتم لي، حتى إذا

شتمني أبغضته واتخذته عدواً، فكل من أحبه علمت أنه أيضاً عدو لي، وكل من أبغضه علمت أنه محبي وصديقي، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض، وحصل البغض الذي هو سبب العداوة، فحق على كل من هو صادق في محبته أن يقول: أما تدبيرك في ضرب هذا الشخص وأذاه، فأنا محب له، فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك، وأما شتمه إياك من حيث نسبته إلى هذا الشخص، فإنه عدوان منه وتهجم عليك، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم، فكذلك تسليط الله سبحانه وتعالى دواعي الشهوة والمعاصي على العبد، وبغضه على عصيانه.

فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله عزّ وجلّ، ويعادي من عاداه وأبعده عن حضرته، وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته، فإنه بعيد مطرود، والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون بغيضاً إلى جميع المحبين، موافقة لمحبوبهم، بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده.

وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله، والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم، والمبالغة في مقتهم، مع الرضى بقضاء الله تعالى، من حيث إنه قضاؤه، وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في إفشائه، وهو أن الخير والشر كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة، ولكن الشر مراد مكروه، والخير مراد مرضي به.

والأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع، والوقوف مع ما تعبد به الخلق، من الجمع بين الرضى بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي، والله تعالى أعلم.

ومما يتعلق بالمحبة.

قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقاً إليَّ، وتقطعت أوصالهم من محبتي.

يا داود: هذه إرادتي في المدبرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين عليَّ؟

يا داود أحوج ما يكون العبد إلي إذا استغنى عني، وأجل ما يكون عندي إذا رجع إليَّ.

وكانت امرأة متعبدة تقول: والله لقد سئمت الحياة، حتى لو وجدت المو

يباع لاشتريته شوقاً إلى الله تعالى، وحباً للقائه. فقيل لها: فعلى ثقة أنت من عملك؟ قالت: لا، ولكني لحبي إياه وحسن ظني به، أفتراه يعذبني وأنا أحبه؟

* * *

باب في النية والإخلاص والصدق

اعلم: أنه قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة.

فالناس كلهم هلكى، إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير تحقيق هباء. قال الله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا من عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ [الفرقان: ٢٣]. وليت شعري، كيف تصلح نية من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟! أو كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟

فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى، أن يعلم النية أولاً، لتحصل له المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللّذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة. ونحن نذكر ذلك في ثلاثة فصول:

الفصـل الأول

في النية وحقيقتها وفضلها وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالغَدَاة والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام: ٥٢] والمراد بالإرادة: النية.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: «إنما الأعمال بـالنيـة، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

وعن أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال:

---

(١) البخاري (١ / ٢)، ومسلم (٦ / ٤٨)، وأبو داود (٢٢٠١)، والترمذي (١٦٤٧).

يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميّةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». أخرجاهما في «الصحيحين»[1].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لقد خلفتم بالمدينة رجالاً، ما قطعتم وادياً، ولا سلكتم طريقاً، إلا شركوكم في الأجر، حبسهم المرض»[2] أخرجه مسلم، وأخرجه البخاري من حديث أنس

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عباس، عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة»[3]

وعن أبي كبشة الأنصاري قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالاً وعلماً، فهو يعمل به في ماله ينفقه في حقه. ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً، وهو يقول: لو كان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: فهما في الأجر سواء. ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً، فهو يخبط فيه، ينفقه في غير حقه. ورجل لم يؤته مالاً ولا علماً، فيقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل. قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: فهما في الوزر سواء»[4].

وعن أبي عمران الجوني قال: تصعد الملائكة بالأعمال، فينادي الملك: ألق تلك الصحيفة، قال: فتقول الملائكة: ربنا قال خيراً وحفظناه عليه. فيقول تبارك وتعالى: إنه لم يرد به وجهي. قال: وينادي الملك: اكتب لفلان كذا وكذا، مرتين. فيقول: يا رب: إنه لم يعمله، فيقول عزّ وجلّ: إنه قد نواه.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى

وكان بعضهم يقول: دلوني على عمل لا أزال به عاملاً لله تعالى، فقيل له: انوِ الخير، فإنك لا تزال عاملاً وإن لم تعمل، فالنية تعمل وإن عدم العمل، فإنه مَن نوى أن يصلي بالليل فنام، كتب له ثواب ما نوى أن يفعله.

(١) تقدم ص ٢١٠.

(٢) مسلم (٦ / ٤٩)، والبخاري (٤ / ٣١) من حديث أنس.

(٣) البخاري (٨ / ١٢٨)، ومسلم (١ / ٨٣).

(٤) أحمد (٤ / ٢٣٠)، وابن ماجة (٤٢٢٨).

وقد جاء في الحديث: «ما من رجل يكون له ساعة من الليل يقومها، فينام عنها إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه صدقة تصدق بها عليه»[1].

وقد جاء في الحديث: «نية المؤمن خير من عمله»[2].

والنية، والإرادة، والقصد، عبارات متواردة على معنى واحد.

واعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المعاصي، فلا تتغير عن موضعها بالنية، مثل من يبني مسجداً بمال حرام يقصد بذلك الخير، فإن النية لا تؤثر فيه، فإن قصد الخير بالشر شر آخر، فإن الخيرات إنما تعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً، هيهات!.

واعلم: أن من تقرب من السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام، كان كتقرب علماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، يتكالبون على الدنيا، ويتبعون الهوى، ووبال ذلك راجع إلى معلمهم، إذ علم فساد نياتهم ومقاصدهم.

ومن هذا القبيل تعلم القصاص القصص، فإن مقاصد أكثرهم معروفة، وقصدهم اجتلاب الدنيا، وأخذ الأموال كيف اتفق، فتعليمهم إعانة على الفساد، فقد علمت أن الطاعة تنقلب معصية بالقصد.

وأما المعصية، فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً بل إذا انضاف إليها قصد خبيث تضاعف وزرها وعظم وبالها.

القسم الثاني: الطاعات، وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها، أما الأصل، فهو أن ينوي عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل، فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

مثال ذلك القعود في المسجد، فإنه طاعة، ويمكن أن ينوي بها نيات كثيرة: منها أن ينوي بدخوله انتظار الصلاة، ومنها الاعتكاف وكف الجوارح، فإن

---

(١) أبو داود (١٣١٤)، والنسائي (٣ / ٢٥٧)، وأحمد (٦ / ٧٢، ١٨٠).

(٢) الطبراني في الكبير، وإسناده ضعيف.

الاعتكاف كف، ومنها دفع الشواغل الصارفة عن الله تعالى بالانقطاع إلى المسجد، وإلى ذكر الله تعالى فيه، ونحو ذلك، فهذا طريق تكثير النيات، فقس على ذلك سائر الطاعات، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة.

القسم الثالث: المباحات، فما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات، تصير بها قربات، وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة.

ولا ينبغي أن يحتقر العبد الخطرات واللحظات، فكل دلك يسأل عنه في القيامة، لم فعله؟ وما الذي قصد به؟

مثال ما ينوي به القربة من المباحات أن يتطيب، وينوي بالطيب اتباع السنة، واحترام المسجد، ودفع الروائح الكريهة التي تؤذي مخالطيه.

وقال الشافعي رحمه الله: من طاب ريحه زاد عقله.

وكذلك معالجة رأسه تزيد فطنته وذكاءه، فيسهل عليه إدراك مهمات دينه.

وقال بعض السلف: إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين، فمن قصد من الأكل التقوي على العبادة، ومن النكاح تحصين دينه، وتطييب قلب أهله، والتوصل إلى ولد يعبد الله بعده، أثيب على ذلك كله، ولا تحتقر شيئاً من حركاتك وكلماتك، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، وصحح قبل أن تفعل ما تفعله، وانظر في نيتك فيما تتركه أيضاً.

واعلم: أن النية هي انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها أنه مصلحة لها، إما في الحال أو المآل، وربما سمع بعض الجهال ما أوصينا به من تحسين النية، فقال عند أكله: نويت أن آكل لله، أو عند قراءته: نويت أن أقرأ لله، وظن أن ذلك نية، وليس كذلك، إنما النية انبعاث القلب، وتجري مجرى الفتوح من الله تعالى، وليست النية داخلة تحت الاختيار، فقد تتيسر في بعض الأوقات، وقد تتعذر، وإنما تتيسر له في الغالب لمن قلبه يميل إلى الدين دون الدنيا.

والناس في النيات على أقسام:

منهم من يكون عمله للطاعة إجابة لباعث الخوف.

ومنهم من يكون عمله إجابة لباعث الرجاء. وثمة مقام أرفع من هذين، وهو

أن يعمل الطاعة على نية جلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية، وهذه لا تتيسر لراغب في الدنيا، وهي أعز النيات وأعلاها، وقليل من يفهمها، فضلاً عن أن يتعاطاها، وصاحب هذا المقام لا يجاوز ذكر الله تعالى والفكر في جلاله حباً له.

وقد حكى أحمد بن خضرويه أنه رأى رب العزة في منامه، فقال له: كل الناس يطلبون مني، وأبو يزيد يطلبني.

وغرضنا من هذه النيات متفاوتة في الدرجات ومن غلب على قلبه منها، فربما لم يتيسر له العدول إلى غيرها، ومن حضرت له نية في المباح، ولم تحضر في فضيلة، فالمباح أولى، وانتقلت الفضيلة إليه.

مثال ذلك أن تحضره نية في الأكل والنوم ليتقوى بذلك على العبادة ويريح بدنه ولم تنبعث نيته في الحال إلى الصلاة والصوم، فالأكل والنوم أفضل، بل لو ملَّ العبادة لكثرة مواظبته عليها، وعلم أنه لو ترفه ساعة بمباح عاد نشاطه، فذلك أفضل من التعبد حينئذ.

قال علي عليه السلام: روحوا القلوب، واطلبوا له طُرَف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان.

وقال بعضهم: روحوا القلوب تعي الذكر.

وهذه دقائق لا تدركها إلا بممارسة العلماء، فإن الحاذق في الطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته، ويستبعد ذلك القاصر في الطب، وإنما يبتغي به أن تعود قوته ليحتمل المعالجة، وكذلك الخبير بالقتال، قد يفر من بين يدي قرنه حيلة منه، ليستجره إلى مضيق. فسلوك طريق الله تعالى كله حرب مع الشيطان، ومعالجة للقلب، والمبصر الموفق يقف في تلك الطريق على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء، فلا ينبغي لهم استبعاد ما خفي عليهم، بل يسلمون لأصحاب الأحوال إلى أن ينكشف لهم أسرار ذلك، أو ينالوا ذلك المقام.

الفصل الثاني

في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣] وغير ذلك من الآيات.

وقال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «أخلص دينك يكفك القليل من العمل»[1].

وفي حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: «إذا كان يوم القيامة جاءت الملائكة بصحف مختمة، فيقول الله عز وجل: القوا هذا، واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: وعزتك ما كتبنا إلاّ ما كان. فيقول: إن هذا كان لغيري، ولا أقبل اليوم إلاّ ما كان لي».

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الملائكة يرفعون عمل العبد فيكثرونه ويزكونه، فيوحي الله تعالى إليهم: أنتم حفظة على عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبدي لم يخلص في عمله، فاجعلوه في سجّين، ويصعدون بعمل العبد يستقلونه، فيوحي الله إليهم: إنكم حفظة على عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه فضاعفوه واجعلوه في عليين»[2].

ويروى عن الحسن قال: كانت شجرة تعبد من دون الله، فجاء إليها رجل فقال: لأقطعن هذه الشجرة، فجاء إليها ليقطعها غضباً لله، فلقيه الشيطان في صورة إنسان فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله. قال: إذا أنت لم تعبدها، فما يضرك من عبدها؟ قال: لأقطعنها. فقال له الشيطان: هل لك فيما هو خير لك من ذلك، لا تقطعها ولك ديناران إذا أصبحت عند وسادتك. قال: فمن لي بذلك؟ قال: أنا لك. فرجع فأصبح فوجد عند وسادته دينارين، ثم أصبح بعد فلم يجد شيئاً، فقام غضبان ليقطعها، فتمثل له الشيطان في صورته، فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله. قال: كذبت، ما لك إلى قطعها سبيل. فذهب ليقطعها، فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله، ثم قال له: أتدري من أنا؟ فأخبره أنه الشيطان، وقال: جئت أول مرة غضباً لله، فلم يكن لي عليك سبيل، فخدعتك بالدينارين فتركتها، فلما فقدتهما جئت غضباً للدينارين، فسلطت عليك.

وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول: يا نفس اخلصي وتخلصي.

وقال أبو سليمان: طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلاّ الله تعالى.

وحكي أن رجلاً كان يخرج في زي النساء، فيحضر حيث يحضرن من

---

(١) الحاكم في «المستدرك» وابن أبي الدنيا في (الإخلاص) وفيه انقطاع وضعف.
(٢) ابن المبارك في الزهد (٤٥٢) مرسلاً.

عرس، أو مأتم، فاتفق أنه حضر يوماً موضعاً فيه مجمع النساء، فسرقت درة، فصاحوا: أغلقوا الباب حتى نفتش، ففتشوا واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه، فدعا الله بالإخلاص وقال: إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا، فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا: أطلقوا الحرة، فقد وجدنا الدرة.

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم: أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه، سمي إخلاصاً.

والإخلاص يضاده الإشراك، فمن ليس مخلصاً، فهو مشرك، إلاَّ أن الشرك درجات.

فالإخلاص في التوحيد يضاده الشرك في الإلٓهية.

والشرك منه جلي، ومنه خفي، وكذلك الإخلاص، وقد ذكرنا درجات الرياء فيما تقدم في بابه، وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر، إما من الرياء، أو من غيره من حظوظ النفس.

ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤونته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو للتخلص من شر يعرض له، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابها، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب رحله أو أهله، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال، أو يشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام، ونحو ذلك. فمتى كان باعثه التقرب إلى الله تعالى، ولكن انضاف إليه خاطر من هذه الخواطر، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص.

والإنسان قلما ينفك فعل من أفعاله، وعبادة من عباداته عن شيء من هذه الأمور، فلذلك قيل: من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى، نجا، وذلك لعزة الإخلاص، وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب، لأن الخالص هو الذي لا باعث عليه إلاَّ طلب التقرب من الله تعالى.

قيل لسهل: أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب.

واعلم: أنَّ الشوائب المكدرة للإخلاص متفاوتة، بعضها جلي، وبعضها خفي، وقد ذكرنا درجات الرياء في بابه.

ومن الرياء ما هو أخفى من دبيب النمل، فليطلب هناك، وحاصله أن ما دام العامل يفرق بين مشاهدة الإنسان والبهيمة في حالة من العمل، فهو خارج عن صفو الإخلاص، ولا يسلم من الشيطان إلاَّ من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه.

وقد قيل: ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل، وأريد به العالم بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، والجاهل ينظر إلى ظاهر العبادة، وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبي.

فصل [في حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به]

أما العمل الذي لا يريد به إلاَّ الرياء، فهو على صاحبه لا له، وهو سبب للعقاب، كما أن العمل الخالص لوجه الله تعالى سبب للثواب. ولا إشكال في هذين القسمين، وإنما النظر في العمل المشوب الممتزج بشوب الرياء وحظوظ النفس.

وقد اختلف الناس في ذلك، هل يقتضي ثواباً أو عقاباً، أو لا يقتضي شيئاً أصلًا؟ وليس تخلو الأخبار عن تعارض في ذلك.

والذي يتضح لنا فيه ـ والعلم عند الله تعالى ـ أن ننظر إلى قدر قوة البواعث، فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفساني تقاوما وتساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أقوى ضر، وأوجب العقاب، لكن عقابه دون عقاب من تجرد للرياء، وإن كان الباعث الديني أقوى من الآخر، فله ثواب بقدر ما فضل من قوته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠].

ويشهد لما ذكرنا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة، صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس، إلاَّ أنه متى كان الحج هو المحرك الأصلي، لم ينفك السفر عن ثواب. وكذلك الغازي إذا قصد الغزو والغنيمة وكون قصد الغنيمة على سبيل التبع، حصل له الثواب، ولكنه لا يساوي ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلاً، والله تعالى أعلم.

الفصل الثالث
في الصدق وحقيقته وفضله

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»[1]. رواه البخاري ومسلم.

وقال بشر الحافي: من عامل الله بالصدق، استوحش من الناس.

واعلم أن لفظ الصدق قد يستعمل في معان:

أحدها: الصدق في القول، فحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه، ولا يتكلم إلاَّ بالصدق، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها.

وينبغي أن يحترز عن المعاريض، فإنها تجانس الكذب إلاَّ أن تمس الحاجة إليها، وتقتضيها المصلحة في بعض الأحوال، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها لئلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيتهيؤوا لقتاله، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس بكاذب من أصلح بين اثنين فقال خيراً، أو نمى خيراً»[2].

وينبغي أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه، كقوله: وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض. فإن كان قلبه منصرفاً عن الله مشغولاً بالدنيا فهو كاذب.

الثاني: الصدق في النية والإرادة، وذلك يرجع إلى الإخلاص، فإن مازج عمله شوب من حظوظ النفس، بطل صدق النية، وصاحبه يجوز أن يكون كاذباً كما في حديث الثلاثة: العالم، والقارىء، والمجاهد. لما قال القارىء: قرأت القرآن إلى آخره، إنما كذبه في إرادته ونيته، لا في نفس القراءة، وكذلك صاحباه.

الثالث: الصدق في العزم والوفاء به.

أما الأول: فنحو أن يقول: إن آتاني الله مالاً تصدقت بجميعه، فهذه العزيمة قد تكون صادقة، وقد يكون فيها تردد.

(١) البخاري (٨ / ٣٠)، ومسلم (٨ / ٢٩).

(٢) البخاري (٣ / ٢٤٠)، ومسلم (٨ / ٢٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٥).

وأما الثاني: فنحو أن يصدق في العزم وتسخو النفس بالوعد، لأنه لا مشقة فيه إلاّ إذا تحققت الحقائق، وانجلت العزيمة، وغلبت الشهوة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿منَ المُؤْمنينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقال في آية أخرى: ﴿وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ الله لَئِنْ آتَانا من فَضْلِهِ لنصَّدَّقَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٧].

الرابع: الصدق في الأعمال، وهو أن تستوي سريرته وعلانيته، حتى لا تدل أعماله الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمر في باطنه، ويكون الباطن بخلاف ذلك. قال مطرف: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله عزّ وجلّ: هذا عبدي حقاً.

الخامس: الصدق في مقامات الدين، وهو أعلى الدرجات، كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضى والحب والتوكل، فإن هذه الأمور لها مبادىء ينطلق عليها الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، فالصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقاً. قال الله تعالى: ﴿وَلَكنَّ البرَّ مَن آمَنَ بالله وَالْيَوْمِ الآخر..﴾ إلى قوله: ﴿أولَئكَ الذينَ صَدَقُوا وأولَئكَ هُمُ المُتقُون﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال تعالى: ﴿إنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذينَ آمَنُوا بالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم وَأنفُسهم في سَبيلِ الله أولَئكَ هُمُ الصَّادقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

ولنضرب للخوف مثلاً فنقول: ما من عبد يؤمن بالله إلاّ وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم وهو غير بالغ إلى درجة الحقيقة، ألا تراه إذا خاف سلطاناً كيف يصفر ويرتعد خوفاً من وقوع المحذور، ثم إنّه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند فعل المعصية. ولذلك قال عامر بن عبد قيس: عجبت للجنة نام طالبها، وعجبت للنار نام هاربها.

والتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً، فلا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل حظ بحسب حاله، إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سمي صادقاً، وإذا علم الله من عبد صدقاً صغا له، والصادق في جميع هذه المقامات عزيز، وقد يكون للعبد صدق في بعضها دون بعض. ومن علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً، وكراهة اطلاع الخلق على ذلك.

باب في المحاسبة والمراقبة

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ من خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ

من سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعيداً وَيُحذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال: ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ أتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال: ﴿وَوُضِعَ الكتابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ممَّا فيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَـذا الكتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضراً ولاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحداً﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزال: ٦ ـ ٨]. فاقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب في الآخرة.

وتحقق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلاَّ لزوم المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة. فمن حاسب نفسه في الدنيا، خف في القيامة حسابه، وحسن منقلبه. ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته. فلما علموا أنهم لا ينجيهم إلاَّ الطاعة وقد أمرهم الله تعالى بالصبر والمرابطة فقال: ﴿يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة. فكانت لهم في المرابطة ست مقامات، وأصلها المحاسبة، ولكن كل حساب يكون بعد مشارطة ومراقبة، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة، ولا بد من شرح ذلك المقام.

المقام الأول ـ المشارطة:

اعلم: أن التاجر كما يستعين بشريكه في التجارة طلباً للربح، ويشارطه ويحاسبه، كذلك العقلُ يحتاج إلى مشاركة النفس، ويوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ثم لا يغفل عن مراقبتها، فإنه لا يأمن خيانتها وتضييعها رأس المال، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه التجارة ربحها الفردوس الأعلى. فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير من أرباح الدنيا. فحتم على كل ذي عزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها، فإن كل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفسية لا عوض لها.

فإذا فرغ العبد من فريضة الصبح، ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة نفسه فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلاَّ العمر، فإذا فني مني رأس المال وقع اليأس من التجارة، وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه، وأخّر أجلي، وأنعم عليَّ به. ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا حتى أعمل فيه صالحاً،

فاحسبي يا نفس أنك قد توفيت ثم رددت، فإياك أن تضيعي هذا اليوم، واعلمي أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وأن العبد ينشر له بكل يوم أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة، فيراها مملوءة نوراً من حسنلته التي عملها في تلك الساعة، فيحصل له من السرور بمشاهدة تلك الأنوار ما إلو وزع على أهل النار لأدهشتهم عن الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح ريحها ويغشاه ظلامها، وهي الساعة التي عصى الله تعالى فيها، فيحصل له من الفزع والخزي ما لو قسم على أهل الجنة لنغص عليهم نعيمهم، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسوؤه ولا يسره، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من المباح، ويتحسر على خلوها، ويناله، ما نال القادر على الربح الكثير إذا أهمله حتى فاته، وعلى هذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره .فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك، ولا تدعيها فارغة، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك.

قال بعضهم: هب أن المسيء قد عفي عنه، أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ فهذه وصيته في نفسه في أوقاته. ثم يستأنف لها وصية أخرى في أعضائه السبعة، وهي: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وتسليمها إلى النفس، فإنها رعايا خادمة لها في هذه التجارة المخلدة، بها يتم أعمالها، ويعلمها أن أبواب جهنم سبعة على عدد هذه الأعضاء. فتعيين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العين فيحفظها عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، أو إلى مسلم بعين الاحتقار وعن كل فضول مستغنىً عنه، ويشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو النظر إلى ما خلقت له من عجائب صنع الله تعالى بعين الاعتبار، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومطالعة كتب الحكم للاتعاظ والاستفادة.

وهكذا ينبغي أن يتقدم إلى كل عضو بالوصية بما يليق به، ولا سيما اللسان والبطن، وقد ذكرنا آفات اللسان فيما تقدم، فيشغله بما خلق له، من الذكر والتذكير، وتكرار العلم والتعليم، وإرشاد عباد الله تعالى إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين، إلى غير ذلك من الخير.

وأما البطن، فيكلفه ترك الشره، واجتناب الشبهات والشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة، ويشترط على نفسه إن خالفت شيئاً من ذلك أن يعاقبها بالمنع

من شهوات البطن، ليفوتها أكثر مما نالت بشهوتها. وهكذا في جميع الأعضاء، واستقصاء ذلك يطول، وكذلك ما تخفي طاعات الأعضاء ومعاصيها.

ثم يستأنف وصيتها في وظائف العبادات التي تتكرر في اليوم والليلة، في النوافل التي يقدر عليها، وعلى الاستكثار منها. وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم إلى أن تتعود النفس ذلك، فيستغني عن المشارطة، ولكن لا يخلو كل يوم من حادثة لها حكم جديد لله تعالى عليه في ذلك حق. ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا، من ولاية أو تجارة أو نحو ذلك، إذ قلَّ أن يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها. فعليه أن يشرط على نفسه الاستقامة فيها، والانقياد للحق.

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله [الأماني]»[1].

وقال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتهيؤوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

المقام الثاني: المراقبة:

إذا أوصى الإنسان نفسه، وشرط عليها ما ذكرناه، لم يبق إلا المراقبة لها وملاحظتها. وفي الحديث الصحيح في تفسير الإحسان، لما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، أراد بذلك استحضار عظمة الله ومراقبته في حال العبادة.

قيل: دخل الشبلي على ابن أبي الحسين النوري وهو قاعد ساكن، لا يتحرك من ظاهره شيء، فقال له: ممن أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سنور كانت لنا، إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر حتى لا يتحرك لها شعرة.

وينبغي أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل، هل حركه عليه هوى النفس أو المحرك له هو الله تعالى خاصة؟ فإن كان الله تعالى أمضاه، وإلاَّ ترك وهذا هو الإخلاص

قال الحسن: رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

(١) تقدم ص ٢٨٤.

فهذه مراقبة العبد في الطاعة، وهو أن يكون مخلصاً فيها، ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب، والشكر على النعم، فإنه لا يخلو من نعمة لا بد له من الشكر عليها، ولا يخلو من بلية لا بد من الصبر عليها، وكل ذلك من المراقبة.

وقال وهب بن منبه في حكمة آل داود: حق على العاقل أن لا يشغل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات، وإجمام للقوة. وهذه الساعة التي هو مشغول فيها بالمطعم والمشرب، لا ينبغي أن تخلو عن عمل هو أفضل الأعمال، وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذي يتناوله، فيه من العجائب ما لو تفكر فيه كان أفضل من كثير من أعمال الجوارح.

المقام الثالث: المحاسبة بعد العمل:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله، وَلْتَنْظُرْ نَفْس مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] وهذه إشارة إلى المحاسبة بعد مضي العمل، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا.

وقال الحسن: المؤمن قوّام على نفسه، يحاسب نفسه. وقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك. ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا، ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله.

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم، إنَّ المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عز وجل، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله.

واعلم: أن العبد كما ينبغي أن يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه، كذلك ينبغي أن يكون له ساعة يطالب فيها نفسه في آخر النهار، ويحاسبها على جميع ما كان منها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم.

ومعنى المحاسبة أن ينظر في رأس المال، وفي الربح، وفي الخسران لتتبين

له الزيادة من النقصان، فرأس المال في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وليحاسبها أولاً على الفرائض، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ومعاقبتها ليستوفي منها ما فرط.

قيل: كان توبة بن الصمة بالرقة، وكان محاسباً لنفسه، فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي إحدى وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتا! ألقى الملك بإحدى وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب؟! كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب!! ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لها ركضة إلى الفردوس الأعلى!

فهكذا ينبغي للعبد أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصية القلب والجوارح في كل ساعة، فإن الإنسان لو رمى بكل معصية يفعلها حجراً في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي وهي مثبتة ﴿أحصاه الله ونسوه﴾.

المقام الرابع: معاقبة النفس على تقصيرها:

اعلم: أن المريد إذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيراً، أو فعلت شيئاً من المعاصي فلا ينبغي أن يهملها، فإنه يسهل عليه حينئذ مقارفة الذنوب ويعسر عليه فطامها، بل ينبغي أن يعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب أهله وولده.

وكما روي عن عمر رضي الله عنه: أنه خرج إلى حائط له، ثم رجع وقد صلى الناس العصر. فقال: إنما خرجت إلى حائطي، ورجعت وقد صلى الناس العصر، فجعلت حائطي صدقة على المساكين. قال الليث: إنما فاتته الجماعة، وروينا عنه أنه شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجمان، فلما صلاها أعتق رقبتين.

وحكي أن تميم الداري رضي الله عنه نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى أصبح، فقام سنة لم ينم فبها عقوبة للذي صنع.

ومرَّ حسان بن سنان بغرفة فقال: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك! لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها.

فأما العقوبات بغير ذلك مما لا يحل، فيحرم عليه فعله. مثال ذلك: ما حكي أن رجلاً من بني إسرائيل، وضع يده على فخذ امرأة، فوضعها في النار حتى شلت، وأن آخر حوَّل رجله لينزل إلى امرأة، ففكر وقال: ماذا أردت أن أصنع؟

فلما أراد أن يعيد رجله قال: هيهات رجل خرجت إلى معصية الله لا ترجع معي. فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح، وأن آخر نظر إلى امرأة فقلع عينيه، فهذا كله محرم، وإنما كان جائزاً في شريعتهم. وقد سلك نحو ذلك خلق من أهل ملتنا، حملهم على ذلك الجهل بالعلم، كما حكي عن غزوان الزاهد: أنه نظر إلى امرأة، فلطم عينه حتى نفرت.

وروينا عن بعضهم: أنه أصابته جنابة وكان البرد شديداً، وأنه وجد في نفسه توقفاً عن الغسل، فآلى ألاّ يغتسل إلاّ في مرقعته، ألا ينزعها ولا يعصرها، فكانت شديدة الكثافة تزيد على عشرين رطلاً. وهذا من الجهل بالعلم، فإنه ليس للإنسان أن يتصرف في نفسه بمثل هذا. وقد ذكرت كثيراً من هذا الفن الصادر عن المتعبدين على الجهل في كتابي المسمى بـ «تلبيس إبليس».

المقام الخامس: المجاهدة:

وهو أنه إذا حاسب نفسه، فينبغي إذا رآها قد قارفت معصية أن يعاقبها كما سبق، فإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل، أو ورد من الأوراد، فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها، كما ورد عن ابن عمر رضي الله عنه أنه فاتته صلاة في جماعة، فأحيا الليل كله تلك الليلة. وإذا لم تطاوعه نفسه على الأوراد، فإنه يجاهدها ويكرهها ما استطاع.

وقال ابن المبارك: إنَّ الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً، وإنَّ أنفسنا لا تواتينا إلاّ كرهاً.

ومما يستعان به عليها أن يسمعها أخبار المجتهدين، وما ورد في فضلهم، ويصحب من يقدر عليه منهم، فيقتدي بأفعاله.

قال بعضهم: كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى وجه محمد بن واسع وإلى اجتهاده، فعملت على ذلك أسبوعاً. وقد كان عامر بن عبد قيس يصلي كل يوم ألف ركعة. وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضرَّ ويصفرَّ، وحج مسروق فما نام إلا ساجداً. وكان داود الطائي يشرب الفتيت مكان الخبز، ويقرأ بينهما خمسين آية. وكان كرز بن وبرة يختم كل يوم ثلاث ختمات، وكان عمر بن عبد العزيز، وفتح الموصلي يبكيان الدم، وصلى أربعون نفساً من القدماء الفجر بوضوء العتمة، وجاور أبو محمد الحريري سنة فلم ينم ولم يتكلم، ولم يستند إلى حائط، ولم يمد رجله، فقال له أبو بكر الكتاني: بم قدرت على هذا؟ قال: علم

صدق باطني فأعانني على ظاهري. ودخلوا على زحلة العابدة فكلموها بالرفق بنفسها فقالت: إنما هي أيام مبادرة، فمن فاته اليوم شيء لم يدركه غداً والله يا إخوتاه! لأصلين لله ما أقلتني جوارحي، ولأصومن له في أيام حياتي، ولأبكين ما حملت الماء عيناي.

ومن أراد أن ينظر في سير القوم، ويتفرج في بساتين مجاهداتهم، فلينظر في كتابي المسمى بـ «صفة الصفوة» فإنه يرى من أخبار القوم ما يعد نفسه بالإضافة إليهم من الموتى، بل من أخبار المتعبدات من النسوة ما يحتقر نفسه عن سماعه.

المقام السادس: في معاتبة النفس وتوبيخها:

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من مقت نفسه في ذات الله آمنه الله من مقته.

وقال أنس رضي الله عنه: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ودخل حائطاً فسمعته يقول وبيني وبينه جدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، بخ بخ، والله لتتقين الله يا ابن الخطاب أو ليعذبنك.

وقال البختري بن حارثة: دخلت على عابد فإذا بين يديه نار قد أججها وهو يعاتب نفسه، فلم يزل يعاتبها حتى مات.

وكان بعضهم يقول إذا ذكر الصالحون: فأف لي وتف.

واعلم: أن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خُلقت أمّارة بالسوء، ميّالة إلى الشر، وقد أمرت بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لزمتها بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة، فلا تغفلن عن تذكيرها. وسبيلك أن تقبل عليها، فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول: يا نفس، ما أعظم جهلك، تدّعين الذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أو النار؟ فكيف يلهو من لا يدري إلى أيتهما يصير؟! وربما اختطف في يومه أو في غده! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن الموت يأتي بغتة من غير موعد، ولا يتوقف على سن دون سن، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة، ثم يفضي إلى الموت. فما لك لا تستعدين للموت وهو قريب منك؟! يا نفس، إن كانت جرأتك على معصية الله تعالى لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك! وإن كانت

مع علمك باطلاعه عليك، فما اشد رقاعتك، وأقل حياءك! ألك طاقة على عذابه؟ جربي ذلك بالقعود ساعة في الحمام، أو قربي أصبعك من النار. يا نفس! إن كان المانع لك من الاستقامة حب الشهوات، فاطلبي الشهوات الباقية الصافية عن الكدر، ورب أكلة منعت أكلات.

وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء ثلاثة أيام ليصح ويتهيأ لشربه طول العمر؟! فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر؟ أم يقضي شهوته في الحال ثم يلزمه الألم أبداً؟ فجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر، بل أقل من لحظة بالإضافة إلى عمر الدنيا. وليت شعري! ألم الصبر عن الشهوات أشد وأطول، أم النار في الدركات؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة، كيف يطيق ألم العذاب في الآخرة؟ أشغلك حب الجاه؟ أما بعد ستين سنة أو نحوها، لا تبقين أنت ولا من كان لك عنده جاه. هلا تركت الدنيا لخسة شركائها، وكثرة عنائها وخوفاً من سرعة فنائها؟ أتستبدلين بجوار رب العالمين صف النعال في صحبة الحمقى؟ قد ضاع أكثر البضاعة، وقد بقيت من العمر صُبابة، ولو استدركت ندمت على ما ضاع، فكيف إذا أضفت الأخير إلى الأول؟ اعملي في أيام قصار لأيام طوال، وأعدي الجواب للسؤال. اخرجي من الدنيا خروج الأحرار قبل أن يكون خروج اضطرار. إنه من كانت مطيته الليل والنهار سير به وإن لم يسر. تفكري في هذه الموعظة، فإن عدمت تأثيرها، فابكي على ما أصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة.

* * *

باب التفكر

قد أمر الله سبحانه بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز، وأثنى على المتفكرين بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطلاً﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال: ﴿إنَّ في ذٰلِكَ لآياتٍ لِقوْمٍ يَتَفَكَّرون﴾ [الرعد: ٣].

وعن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله»[1].

---

(١) الطبراني في الأوسط (٦٤٥٦)، والبيهقي في (الشعب) وابن عدي (٢٥٥٦) وفيه الوازع بن نافع: متروك الحديث.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال وهب بن منبه: ما طالتِ فكرة امرىء قط إلاّ فهم، وما فهم إلاّ علم، وما علم إلاّ عمل.

وقال بشر الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه.

وقال الفريابي في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قال: أمنع قلوبهم من التفكر في أمري.

وكان داود الطائي على سطح في ليلة قمراء، فتفكر في ملكوت السمٰوات والأرض، فوقع في دار جار له، فوثب عرياناً وبيده السيف، فلما رآه قال: يا داود، ما الذي ألقاك؟ قال: ما شعرت بذلك.

وقال يوسف بن أسباط: إن الدنيا لم تخلق لينظر إليها، بل لينظر بها إلى الآخرة.

وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم.

وقال أبو بكر الكتاني: روعة عند انتباهة من غفلة، وانقطاع عن حظ نفساني، وارتعاد من خوف قطيعة، أفضل من عبادة الثقلين.

بيان مجاري الفكر وثمراته

واعلم: أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين، وقد يجري في أمر يتعلق بغيره، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين، وشرح ذلك يطول. فلينظر الإنسان في أربعة أنواع: الطاعات، والمعاصي، والصفات المهلكات، والصفات المنجيات. فلا تغفل عن نفسك، ولا عن صفاتك المباعدة عن الله، والمقربة إليه.

وينبغي لكل مريد أن تكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات، وجملة الصفات المنجيات، وجملة المعاصي والطلعات، ويعرض ذلك على نفسه كل يوم.

ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة، فإنّه إن سلم منها سلم من غيرها، وهي: البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه.

ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضى

بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحسن الخُلقِ مع الخَلْقِ، وحب الله تعالى، والخشوع.

فهذه عشرون خصلة: عشرة مذمومة، وعشرة محمودة، فمتى كفي من المذمومات واحدة خط عليها في جريدته، وترك الفكر فيها، وشكر الله تعالى على كفايته إياها. وليعلم أن ذلك لم يتم إلّا بتوفيق الله تعالى وعونه، ثم يقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع. وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالصفات المنجيات، فإذا اتصف بواحدة منها، كالتوبة والندم مثلاً، خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المريد المشمِّر.

فأما أكثر الناس من المعدودين في الصالحين، فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة، كأكل الشبهات، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة، والمراء، والثناء على النفس، والإفراط في موالاة الأولياء، ومعاداة الأعداء، والمداهنة في ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم تطهر الجوارح من الآثام، لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره.

وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الأمور، فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكيرهم فيها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم، وطلب الشهرة، وانتشار الصيت، إما بالتدريس، أو بالوعظ. ومن فعل ذلك، فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون. وربما ينتهي العلم بأهل العلم إلى أن يتغايروا كما يتغاير النساء، وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات في سر القلب التي يظن العالم النجاة منها، وهو مغرور فيها.

ومن أحس من نفسه هذه الصفات، فالواجب عليه الانفراد والعزلة، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه. وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس، فإنهم قد يقولون: هذا سبب لاندراس العلم، فليقل لهم: دين الإسلام مستغن عني، ولو مت لم ينهدم الإسلام، وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبي، فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه، نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا.

فصل [في أن التفكر في ذات الله ممنوع منه]

قد تقدم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تفكروا في آلاء الله ولا

تفكروا في الله»[1] فالتفكر في ذاته سبحانه ممنوع منه، وذلك أن العقول تتحيّر في ذلك، فإنه أعظم من أن تمثله العقول بالتفكر، أو تتوهمه القلوب بالتصوير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فأما التفكر في مخلوقات الله تعالى، فقد ورد القرآن بالحث على ذلك كقوله تعالى: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّمٰوٰاتِ والأَرْضِ واخْتلاف اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الأَلْبَابِ﴾... الآيات [آل عمران: ١٩٠]. وقوله ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا في السَّمٰوٰاتِ والأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

ومن آيات الله تعالى الإنسان المخلوق من نطفة، فيتفكر الإنسان في نفسه، فإن في خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى، ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشره وهو غافل عن ذلك. وقد أمره الله تعالى بالتدبر في نفسه، فقال: ﴿وَفي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. وقد تقدم في كتاب الشكر الكلام على بعض خلق الإنسان فليطلب هناك.

ومن آياته الجواهر المودعة في الجبال، والمعادن من الذهب والفضة والفيروزج ونحوها، وكذلك النفط والكبريت والقار وغيرها. ومن آياته البحار العظيمة العميقة المكتنفة لأقطار الأرض، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض. ولو جمع المكشوف من الأرض، من البراري، والجبال، لكان بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وفي البحر عجائب أضعاف ما نشاهده في البر.

وانظر كيف خلق اللؤلؤ، ودوَّره في صدفة تحت الماء، وانظر كيف أنبت المرجان في صم الصخور تحت الماء، وكذلك ما عداه من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر، وانظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء، وسيرها في البحار تسوقها الرياح وأعجب من ذلك الماء، فإنه حياة كل ما على الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء، ومنع منها لبذل جميع خزائن الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك، ثم إذا شربها ومنع خروجها، لبذل جميع خزائن الأرض في إخراجها، فلا يغفل العبد عن هذه النعمة.

ومن آياته الهواء وهو جسم لطيف لا يرى بالعين، ثم انظر إلى شدته وقوته، وانظر إلى عجائب الجو، وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبرد

(١) تقدم في ص ٣٦٠.

والشهب والصواعق، وغير ذلك من العجائب. وانظر إلى الطير تسبح بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر في الماء، ثم انظر إلى السماء وعظمها وكواكبها وشمسها وقمرها، وما فيها كوكب إلاَّ ولله فيه حكمة في لونه وشكله وموضعه، وانظر إلى إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وانظر مسير الشمس، كيف اختلف في الصيف والشتاء والربيع والخريف.

وقد قيل: إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، وإن أصغر كوكب في السماء مثل الأرض ثمان مرات، فإذا كان هذا قدر كوكب واحد، فانظر إلى كثرة الكواكب، وإلى السماء التي فيها الكواكب، وإلى إحاطة عينك بذلك مع صغرها، والعجب منك أنك تدخل بيت غني مزخرف مموه بالذهب، فلا ينقطع تعجبك منه، ولا تزال تذكره وأنت تنظر إلى هذا البيت العظيم، وإلى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه، ثم لا تلتفت إلى نحوه بقلبك، ولا تتفكر في بناء خالقك، فلقد نسيت نفسك وربك، واشتغلت ببطنك وفرجك، فما مثلك في غفلتك إلاَّ كمثل نملة تخرج من بيتها الذي حفرته في حائط قصر الملك، فتلقى أختها فتتحدث معها في حديث بيتها، وكيف بنته وما جمعت فيه، ولا تذكر قصر الملك ولا من فيه، فهكذا أنت في غفلتك، فما تعرف من السماء إلاَّ ما تعرفه النملة من سقف بيتك.

فهذا بيان معاقد الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين، والأعمار تقصر، والعلوم تقل عن الإحاطة ببعض المخلوقات، إلاَّ أنك كلما استكثرت معرفة عجائب المصنوعات، كانت معرفتك بجلال الصانع أتم. فتفكر فيما أشرنا إليه ها هنا مع ما قدمناه من الإشارة في كتاب الشكر. فمن نظر في هذه الأشياء من حيث إنها فعل الله وصنعه، استفاد المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته، ومن قصر النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض، لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب، شقي. نعوذ بالله من مزلة أقدام الجهال، ومن الركون إلى أسباب الضلال، ولا وجه للتفكر فيما لا نراه من الملائكة والجن، فلذلك عدلنا عنه إلى ما نراه والله أعلم.

* * *

باب في ذكر الموت وما بعده وما يتعلق به

اعلم: أن المنهمك في الدنيا المكبّ في غرورها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإن ذكره كرهه ونفر منه، ثم الناس إما منهمك، أو تائب مبتدىء، أو عارف منتبه.

فأما المنهمك فلا يذكره، وإن ذكره فيذكره لتأسف على دنياه، ويشتغل بذمه، وهذا لا يزيده ذكر الموت من الله تعالى إلاّ بعداً

وأما التائب، فإنّه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشيه، فيفي بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمامها أو قبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت. ولا يدخل بهذا تحت قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه»[1] فإنّه إنما يخاف لقاء الله لقصوره وتقصيره، فهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه، فلا يعد كارهاً للقائه، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له، لا شغل له سواه، وإلاّ التحق بالمنهمك في الدنيا

وأما العارف، فإنه يذكر الموت دائماً، لأنه موعد لقاء الحبيب، وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه. وهذا في غالب الأمر يستبطىء مجيء الموت، ويحبه ليتخلص من دار العاصين، وينتقل إلى جوار رب العالمين، كما قال بعضهم: حبيب جاء على فاقة.

فإذن التائب معذور في كراهة الموت، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه، وأعلى منهما من فوض أمره إلى الله تعالى، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة، بل تكون الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضى، وهو الغاية والمنتهى.

وعلى كل حال، ففي ذكر الموت ثواب وفضل، فإن المنهمك في الدنيا قد يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا، لأن ذكره ينغص عليه نعيمه ويكدره.

باب ما جاء في فضل ذكر الموت

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت»[2].

وعن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً ذكر عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأحسنوا عليه الثناء، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف كان ذكر

(١) البخاري (٨ / ١٣٢)، ومسلم (٨ / ٦٥).

(٢) الترمذي (٢٣٠٧)، والنسائي (٤ / ٤)، وابن ماجة (٤٢٥٨)، وأحمد (٢ / ٢٩٣)، وابن حبان (٢٥٥٩).

صاحبكم للموت؟» قالوا: ما كنا نسمعه يذكر الموت. قال: «فإن صاحبكم ليس هناك»[1]

وعن ابن عمر رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل: أي المؤمنين أكيس، قال: «أكثرهم للموت ذكراً وأشدهم استعداداً له أولئك هم الأكياس»[2].

وقال الحسن البصري: فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لب فيها فرحاً، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلاَّ صغرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها.

وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة ثم يبكون، حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وكان حامد القيصري يقول: كلنا قد ايقن الموت، وما نرى له مستعداً، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً، فعلام تفرحون؟! وما عسيتم تنتظرون؟! الموت، فهو أول وارد عليكم من أمر الله بخير، أو بشر، فيا إخوتاه! سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً.

وقال • ميط بن عجلان: من جعل الموت نصب عينيه، لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها.

واعلم: أن خطر الموت عظيم، وإنما غفل الناس عنه لقلة فكرهم وذكرهم له، ومن يذكره منهم إنما يذكره بقلب غافل، فلهذا لا ينجع فيه ذكر الموت، والطريق في ذلك أن يفرغ العبد قلبه لذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة، أو يركب البحر، فإنه لا يتفكر إلاَّ في ذلك. وأنفع طريق في ذلك ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله، فيذكر موتهم ومصارعهم تحت الثرى.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذكر الموتى، فعد نفسك كأحدهم.

وينبغي أن يكثر دخول المقابر، ومتى سكنت نفسه إلى شيء في الدنيا، فليتفكر في الحال أنه لا بد من مفارقته، ويقصر أمله.

---

(١) أورده ابن عدي (٢٦١٠)، وسنده ضعيف.

(٢) ابن ماجة (٤٢٥٩) وفي سنده مجهولان.

وقد روي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[1] وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.

وفي حديث آخر: «إن أخوف ما أخاف على أمتي: الهوى وطول الأمل، فأما الهوى فيضل عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة»[2].

وعن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه: «أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟» قالوا: نعم يا رسول الله؟ قال: «قصروا الأمل، وأثبتوا آجالكم بين أبصاركم، واستحيوا من الله عز وجل حق حيائه»[3].

وعن أبي زكريا التيمي قال: بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام، إذ أتي بحجر منقوش، فطلب من يقرأه، فإذا فيه: ابن آدم! لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، فبان منك الولد والنسب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة.

واعلم: أن السبب في طول الأمل شيئان:

أحدهما: حب الدنيا، والثاني: الجهل.

أما حب الدنيا فإنَّ الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة، فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر، فيلهو عن ذكر الموت، ولا يقدر قربه. فإن خطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له، سوَّف بذلك ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب. وإذا كبر قال: إلى أن يصير شيخاً، وإن صار شيخاً، قال: إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار،

---

(1) البخاري (٨ / ١١٠)، وأحمد (٢ / ١٣٢).

(2) ابن عدي (١٨٣١)، وسنده ضعيف.

(3) ابن أبي الدنيا في (قصر الأمل) مرسلاً.

وعمارة هذه الضيعة، أو يرجع من هذه السفرة. فلا يزال يسوف ويؤخر، ولا يحرص في إتمام شغل إلاّ ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم، ويشتغل بشغل بعد شغل، إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته.

وأكثر صياح أهل النار من «سوف» يقولون: واحسرتاه! من «سوف». وأصل هذه الأماني كلها، حبُّ الدنيا والأنس بها، والغفلة عن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أحبب ما شئت فإنك مفارقه»[1].

السبب الثاني: الجهل، وهو أن الإنسان يعول على شبابه، ويستبعد قرب الموت مع الشباب، أو ليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من العشر؟ وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشاب، وقد يغتر بصحته، ولا يدري أن الموت يأتي فجأة، وإن استبعد ذلك، فإن المرض يأتي فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار، ولا هو مقيد بسن مخصوص، من شاب وشيخ أو كهل أو غيره، لعظم ذلك عنده واستعد للموت.

فصل [في تفاوت الناس في طول الأمل]

والناس متفاوتون في طول الأمل تفاوتاً كثيراً، منهم من يأمل البقاء إلى زمان الهرم، ومنهم من لا ينقطع أمله بحال، ومنهم من هو قصير الأمل، فروي عن أبي عثمان النهدي أنه قال: بلغت ثلاثين ومائة سنة، وما من شيء إلا قد عرفت فيه النقصان إلا أملي فإنه كما هو.

وحكي في قصر الأمل أن امرأة حبيب أبي محمد قالت: كان يقول لي ـ يعني أبا محمد ـ إن مت اليوم فأرسلي إلى فلان يغسلني ويفعل كذا وكذا، واصنعي كذا وكذا، فقيل لها: أري رؤيا؟ قالت: هكذا يقول كل يوم.

وعن إبراهيم بن سبط قال: قال لي أبو زرعة: لأقولن لك قولاً ما قلته لأحد سواك: ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة، فحدثتني نفسي أن أرجع إليه وقيل لبعضهم: ألا تغسل قميصك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك.

---

(١) الحاكم (٤ / ٣٢٤)، وأبو نعيم في الحلية (٣ / ٢٥٣).

وعن محمد بن أبي توبة قال: أقام معروف الصلاة ثم قال لي: تقدم، فقلت: إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها، فقال معروف: أنت تحدث نفسك أنك تصلي صلاة أخرى؟ نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل.

فهذه أحوال الزهاد في قصر الأمل، وكلما قصر الأمل جاد العمل، لأنه يقدر أن يموت اليوم، فيستعد استعداد ميت، فإذا أمسى شكر الله تعالى على السلامة، وقدر أنه يموت تلك الليلة فيبادر إلى العمل.

وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه ففي «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ»[1].

وعنه: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[2].

وقال عمر رضي الله عنه: التؤدة في كل شيء خير، إلا ما كان من أمر الآخرة.

وكان الحسن يقول: عجباً لقوم أمروا بالزاد، ونودي فيهم بالرحيل، وحبس أولهم على آخرهم، وهم قعود يلعبون.

وقال سحيم مولى بني تميم: جلست إلى عبدالله بن عبدالله، فأوجز في صلاته، ثم أقبل عليَّ وقال: أرحني بحاجتك، فإني أبادر. فقلت: وما تبادر؟ قال: ملك الموت. وكان يصلي كل يوم ألف ركعة.

وكانوا يبادرون بالأعمال غاية ما يمكن، فكان ابن عمر يقوم في الليل فيتوضأ ويصلي، ثم يغفي إغفاء الطير، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي، ثم يغفي إغفاء الطير، ثم يقوم يصلي، يفعل ذلك مراراً. وكان عمير بن هانىء يسبح كل يوم مائة ألف تسبيحة، وقال أبو بكر بن عياش: ختمت القرآن في هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة.

---

(١) تقدم ص ٢٦٩.

(٢) البغوي (٤٠٢١)، وأبو نعيم في الحلية (٤ / ١٤٨)، وابن المبارك في الزهد (٢)، والخطيب في اقتضاء العلم (١٧٠) مرسلاً.

فصل [في ذكر شدة الموت وما يستحب من الأحوال عنده]

اعلم: أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب، ولا هول سوى الموت، لكان جديراً أن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، وتطول فيه فكرته. والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات، فانتظر أن يدخل عليه جندي يضربه خمس ضربات، لكدرت عليه عيشه ولذته، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع، وهو غافل عن ذكر ذلك، وليس لهذا سبب إلّا الجهل والغرور.

اعلم: أن الموت أشد من ضرب السيف، وإنما يصيح المضروب، ويستغيث لبقاء قوته، وأما الميت عند موته، فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه، لأن الكرب قد بالغ فيه، وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه، وضعفت كل جارحة فيه، فلم يبق فيه قوة لاستغاثة، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة. وتجذب الروح من جميع العروق، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجاً، فتبرد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، حتى تبلغ الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره إلى الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله يقبل التوبة من العبد ما لم يغرغر»[1].

وقد روي أن الملكين الموكلين بالعبد يتراءيان له عند الموت، فإن كان صالحاً أثنيا عليه، وقالا: جزاك الله خيراً، وإن كان صحبهما بشرّ، قالا: لا جزاك الله خيراً[2].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله عز وجل وكّل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله، فإذا مات قالا: قد مات، أتأذن لنا أن نصعد إلى السماء؟ قال: فيقول الله تعالى: إن سمائي مملوءة من ملائكتي يسبحوني. فيقولان: فتأذن لنا فنقيم في الأرض؟ فيقول الله تعالى: إن أرضي مملوءة من خلقي، يسبحوني. فيقولان: فأين نقيم؟ فيقول: قوما على قبر عبدي، فسبّحاني واحمداني وكبراني وهللاني، واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة».

وفي «الصحيحين» من حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى

(١) تقدم ص ٢٣٩.

(٢) الخطيب في التاريخ، وأبو الشيخ في (العظمة) وفيه عثمان بن مطر وهو ضعيف.

الله عليه وآله وسلم: «إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامه، وأما صاحب النار الذي ختم له بسوء فهو يبشر بها وهو في تلك الأهوال»[1].

وقد كان كثير من السلف يخافون سوء الخاتمة، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الخوف، وهو لائق بهذا المكان، نسأل الله أن يرحمنا برحمته التي وسعت كل شيء، وأن يلطف بنا، وأن يختم لنا بخير إنه جواد كريم.

وأما ما يستحب من الأحوال عند المحتضر، فأن يكون قلبه يحسن الظن بالله تعالى، ولسانه ينطق بالشهادة، والسكون من علامات اللطف، وهو أمارة على أنه قد رأى الخير، وقد روي أن روح المؤمن تخرج رشحا. ويستحب تلقينه: لا إله إلاَّ الله، كما جاء في الحديث الصحيح من رواية مسلم: «لقنوا موتاكم لا إله إلاَّ الله»[2].

وينبغي للملقن أن يرفق به، ولا يلح عليه. وقد جاء في حديث آخر: «احضروا موتاكم، ولقنوهم لا إله إلاَّ الله، وبشروهم بالجنة، فإنَّ الحليم العليم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع، وإن إبليس عدو الله أقرب ما يكون من العبد في ذلك الموطن»[3] وذكر الحديث إلى آخره.

وفي الحديث الصحيح: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»[4].

وروي أن النبي صَلّى الله عليه وآله وسلّم دخل على رجل وهو يموت فقال: «كيف تجدك؟» قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال: «ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو، وأمَّنه من الذي يخاف»[5].

والرجاء عند الموت أفضل، لأن الخوف سوط يساق به، وعند الموت يقف البصر، فينبغي أن يتلطف به، ولأن الشيطان يأتي حينئذ بسخط العبد على الله فيما يجري عليه، ويخوفه فيما بين يديه، فحسن الظن أقوى سلاح يدفع به العدو.

وقال سليمان التيمي لابنه عند الموت: يا بني! حدثني بالرخص، لعلي ألقى الله تعالى وأنا أحسن الظن به.

---

(١) البخاري (٨ / ١٣٢)، ومسلم (٨ / ٦٥) بمعناه.

(٢) مسلم (٣ / ٣٧)، وأبو داود (٣١١٧)، والترمذي (٩٧٦)، والنسائي (٤ / ٢٥)، وابن ماجة (١٤٤٥).

(٣) أبو نعيم في «الحلية»، وهو ضعيف.

(٤) تقدم ص ٢٨٥.

(٥) الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجة (٤٢٦١).

رضي الله عنه فقال: إني أوصيك بوصية، إن أنت قبلت عني: إن لله عزّ وجلّ حقاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإن لله حقاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه في الآخرة باتباعهم الحق في الدنيا، وثقلت ذلك عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه في الآخرة باتباعهم الباطل، وخفته عليهم في الدنيا، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً.

ألم تر أن الله أنزل آية الرجاء عند آية الشدة، وآية الشدة عند آية الرجاء، ليكون العبد راغباً راهباً لا يلقي بيديه إلى التهلكة، ولا يتمنى على الله غير الحق. فإن أنت حفظت وصيتي هذه، فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت، ولا بد لك منه، وإن أنت ضيعت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت، ولا بد لك منه ولست تعجزه.

وقيل: لما احتضر جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لَعَمْرُك ما يُغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقِّ ذلك ما كُنتَ منْهُ تحيدُ ﴾ [قّ: ١٩]. انظروا ثوبيَّ هذين، فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت.

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وعن ابن عمر قال: كان رأس عمر في حجري بعد ما طعن، وكان مرضه الذي توفي فيه، فقال: ضع خدي على الأرض، فقلت: وما عليك إن كان في حجري أم على الأرض؟ وظننت أن ذلك تبرم به، فلم أفعل، فقال: ضع خدي على الأرض لا أم لك، ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي.

وروي أنه لما طعن وحمل إلى بيته، وجاء الناس يثنون عليه، جاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله لك، صحبة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم ولّيت فعدلت، ثم شهادة، فقال: وددت أن ذلك كان كفافاً، لا ليَّ ولا عليَّ، ثم قال: يا عبد الله بن عمر، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: عمر يقرأ عليك السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن عند صاحبيه. فمضى وسلم واستأذن عليها، ثم دخل فوجدها قاعدة تبكي،

فقال: عمر يقرأ عليك السلام، ويستأذن أن يدفن عند صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه اليوم على نفسي. فلما أقبل، قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال: ما وراءك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنيـن، أذنت. قال: الحمد لله، ما كان شيء أحب إلي من ذلك. فإذا أنا مت فاحملوني، ثم سلم، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت، فأدخلوني، وإن ردتني، فردوني إلى مقابر المسلمين.

وفي أفراد مسلم من حديث المسور بن مخرمة، أن عمر قال: والله لو أن لي طلاعَ الأرض ذهباً، لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه.

وفي خبر آخر: والله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس أو غربت، لافتديت به من هول المطلع.

وفاة عثمان بن عفان رضي الله عنه

عن نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان رضي الله عنه، قالت: لما كان اليوم الذي قتل فيه عثمان، ظل في اليوم الذي قبله صائماً، فلما كان عند إفطاره، سألهم الماء العذب فلم يعطوه، فنام ولم يفطر، فلما كان وقت السحر أتيتُ جاراتٍ لي على أجاجير متصلة، فسألتهم الماء العذب، فأعطوني كوزاً من ماء، فأتيته فحركته فاستيقظ، فقلت: هذا ماء عذب، فرفع رأسه فنظر إلى الفجر، فقال: إني قد أصبحت صائماً، وإن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم اطلع عليَّ من هذا السقف ومعه ماء عذب، فقال: «اشرب يا عثمان»! فشربت حتى رويت، ثم قال: «ازدد»، فشربت حتى نهلت، ثم قال: «إن القوم سينكرون عليك، فإن قاتلتهم ظفرت، وإن تركتهم أفطرت عندنا». قالت: فدخلوا عليه من يومه فقتلوه.

وعن العلاء بن الفضيل، عن أبيه، قال: لما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه فتشوا خزانته، فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ففتحوه، فوجدوا فيه حقة فيها ورقة مكتوب فيها: هذه وصية عثمان، بسم الله الرحمن الرحيم، عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الله يبعث من في القبور ليوم لا ريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد، عليها نحيا، وعليها نموت، وعليها نبعث إن شاء الله تعالى.

وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

عن الشعبي، قال: لما ضرب عليٌّ رضي الله عنه تلك الضربة، قال: ما فعل

بضاربي؟ قالوا: أخذناه، قال: أطعموه من طعامي، واسقوه من شرابي، فإن أنا عشت رأيت فيه رأيي، وإن أنا مت فاضربوه ضربة واحدة لا تزيدوه عليها، ثم أوصى الحسن أن يغسله وقال: لا تغالي في الكفن، فإني سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: «لا تغالوا في الكفن فإنه يسلب سلباً سريعاً»[1]، امشوا بي المشيتين لا تسرعوا بي، ولا تبطئوا، فإن كان خيراً عجلتموني إليه، وإن كان شراً ألقيتموني عن أكتافكم.

وروي أنه لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي رضي الله عنه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل، فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة فقام يمشي وهو يقول:

أشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيك
ولا تجزع من الموت ... وإن حل بناديك

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه عبد الرحمن بن ملجم فضربه.

ذكر كلمات نقلت عن جماعة عند موتهم من الصحابة وغيرهم وذكر زيارة القبور ونحو ذلك

لما نزل الموت بالحسن بن علي رضي الله عنهما قال: أخرجوا فراشي إلى صحن الدار، فأخرج فقال: اللهم إني أحتسب نفسي عندك، فإني لم أصب بمثلها.

وقد ذكرنا ما تقدم من كلام الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم.

وروي أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قال: انظروا هل أصبحنا؟ فأتي فقيل: لم تصبح، حتى أتي في بعض ذلك، فقيل له: لقد أصبحنا، فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، ثم قال: مرحباً بالموت زائر مغيب، وحبيب جاء على فاقة، اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لطول ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر.

وقال أبو مسلم: جئت أبا الدرداء وهو يجود بنفسه ويقول: ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتي

(١) أبو داود (٣١٥٤).

هذه؟ ثم قبض رحمه الله.

وبكى سلمان الفارسي عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: عهد إلينا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب[1]، وحولي هذه الأزواد. وقيل: إنما كان حوله إجانة وجفنة ومطهرة.

وروى المزني قال: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلا، وللإخوان مفارقاً، ولسوء عملي ملاقياً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله وارداً، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنئها، أم إلى النار فأعزيها، ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي	جعلت الرجا مني بعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته	بعفوك ربي كان عفوُك أعظما
وما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل	تجود وتعفو منة وتكرما

قيل: كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقعد إلى القبور، فقيل له في ذلك، فقال: أجلس إلى قوم يذكروني معادي، وإن غبت لم يغتابوني.

وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى، ثم أقبل عليَّ فقال: يا ميمون، هذه قبور آبائي بني أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات، واستحكم فيهم البلاء، وأصاب الهوام مقيلاً في أبدانهم؟ ثم بكى وقال: والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عذاب الله تعالى.

وتُستحب زيارة القبور، فإن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»[2] ومن زار قبراً فليستقبل وجه الميت، وليقرأ شيئاً من القرآن ويهديه له، ولتكن الزيارة يوم الجمعة.

وقد روي أنه لما مات عاصم الجحدري رآه رجل من أهله في المنام بعد موته بسنتين فقال له: ألست قد مُتَّ؟ قال: بلى. قال: وأين أنت؟ قال عاصم: أنا والله في روضة من رياض الجنة، أنا ونفر من أصحابي، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله المزني نتلاقى أخباركم، قال: قلت له: أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات! بليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح.

---

(١) ابن ماجة (٤١٠٤)، وأحمد (٥ / ٤٣٨) وابن المبارك في الزهد (٩٦٦).

(٢) مسلم (٣ / ٦٥)، والترمذي (١٠٥٤)، والنسائي (٤ / ٩٠).

قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إيَّاكم؟ قال: نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله، ويوم السبت إلى طلوع الشمس. قلت: وكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لشرف يوم الجمعة وعظمه.

وحكى عثمان بن سواد الطفاوي وكانت أمه من العابدات، وكان يقال لها: راهبة، قال: لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء وقالت: يا ذخري ويا ذخيرتي ومن عليه اعتمادي في حياتي وبعد مماتي، لا تخذلني عند الموت، ولا توحشني في قبري. قال: فماتت، فكنت آتيها كل جمعة وأدعو لها، وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ليلة في منامي فقلت لها: يا أماه! كيف أنت؟ قالت: يا بني! إن الموت لكرب شديد، وأنا بحمد الله في برزخ محمود، يفترش فيه الريحان، ويتوسد فيه السندس والإستبرق إلى يوم النشور. فقلت: ألك حاجة؟ قالت: نعم، لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا فإني لأسر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك، فيقال لي: يا راهبة! هذا ابنك قد أقبل، فأسر ويسر بذلك من حولي من الأموات.

وعن أنس بن منصور قال: كان رجل يختلف إلى الجنائز فيشهد الصلاة عليها، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال: آنس الله وحشتكم، ورحم غربتكم، وتجاوز عن سيئاتكم، وقبل حسناتكم، لا يزيد على هؤلاء الكلمات، قال ذلك الرجل: فأمسيت ذات ليلة، ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو، فبينا أنا نائم إذا أنا بخلق كثير قد جاؤوني فقلت: من أنتم؟ وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، إنك كنت عودتنا منك هدية. فقلت: وما هي؟ قالوا: الدعوات التي كنت تدعو بها. قلت: فإني أعود لذلك، فما تركتها بعد.

وقال بشار بن غالب: رأيت رابعة في منامي، وكنت كثير الدعاء لها، فقالت لي: يا بشار! هداياك تأتينا على أطباق من نور، مخمرة بمناديل الحرير. قلت: وكيف ذلك؟ قالت: هكذا دعاء الأحياء إذا دعوا للموتى واستجيب لهم، جعل ذلك الدعاء على أطباق النور، وخمر بمناديل الحرير، ثم أتي به إلى الذي دعي له من الموتى، فقيل له: هذه هدية فلان إليك.

فصل [في حقيقة الموت]

والذي تدل عليه الآيات والأخبار أن حقيقة الموت، هو مفارقة الروح للجسد، وأن الروح تكون بعد ذلك باقية. إما معذبة أو منعمة، فإن الروح قد تتألم

بنفسها بأنواع الحزن والغم، وتتنعم بأنواع الفرح والسرور من غير تعلق لها بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها، يبقى معها بعد مفارقة الجسد، كل ما هو لها بواسطة الأعضاء يتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد. ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث، والله سبحانه أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده.

فمعنى الموت انقطاع تصرف الروح عن البدن، وخروج البدن عن أن يكون آلة لها، وسلب الإنسان عن أمواله وأهله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم. فإن كان له بالدنيا شيء يفرح به، ويستريح إليه، عظم حسرته عليه بعد الموت، وإن كان لا يفرح إلا بذكر الله تعالى والأنس به، عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلي بينه وبين محبوبه، وقطعت عنه العوائق والشواغل، لأن جميع شواغل الدنيا شاغلة عن ذكر الله تعالى.

وينكشف للميت بالموت ما لم يكن مكشوفاً في حال الحياة، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له عند النوم، الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا. وأول ما ينكشف له ما يضره وما ينفعه من حسناته وسيئاته، وقد كان ذاك مسطوراً في كتاب مطوي في سر قلبه، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا، فلما انقطعت انكشفت له جميع أعماله، فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة، وكل ذلك ينكشف له عند الموت، وهذه آلام تهجم على العاصي قبل الدفن، نسأل الله العافية.

ومما يدل على أن الروح لا تنعدم بالموت، قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِم يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. قال مسروق: سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، وذكر تمام الحديث. وجاء في قوله تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]. أخبر أنهم يعذبون بعد الموت.

وفي «الصحيحين» عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إن أحدكم إذا مات، عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال:

هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»[1].

وقد تقدم أن الإنسان إذا انكشفت له سيئاته تحسر لها وتألم تألماً عظيماً، فأما المؤمن، فقال عبد الله بن عمر: مثل المؤمن حين تخرج نفسه مثل رجل كان في سجن فأخرج منه، فهو يتفسح في الأرض، ويتقلب فيها. وهو صحيح، فإن المؤمن ينكشف عليه عقيب الموت من فضل الله وكرامته ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن، فيكون كمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف، فيه أنواع الأشجار، فلا يسره الرجوع إلى الدنيا كما لا يسره العود إلى بطن أمه.

وقال مجاهد: إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعد لتقر بذلك عينه.

فصل [في ذكر القبر]

روي عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: «القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار»[2].

وروي أيضاً عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: «يقول القبر للميت حين يوضع فيه: ويحك يا ابن آدم! ما غرك؟! ألم تعلم أني بيت الظلمة، وبيت الوحدة، وبيت الدود؟».

وروى الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: دخل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مصلاه، فرأى ناساً كأنهم يكثرون، فقال: «أما إنكم لو أكثرتم من ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى، فأكثروا ذكر هاذم اللذات الموت، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا يتكلم فيقول: أنا بيت الغربة، أنا بيت الوحدة، أنا بيت التراب، أنا بيت الدود. فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر: مرحباً وأهلاً، أما إن كنت لأحب من يمشي على ظهري إليَّ، فإذا وليتك اليوم وصرت إليَّ، فسترى صنيعي بك، فيتسع له مد بصره، ويفتح له باب إلى الجنة، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر: لا مرحبا ولا أهلا، أما إن كنت لأبغض من يمشي على ظهري إليَّ، فإذا وليتك اليوم، وصرت إليَّ، فسترى صنيعي بك، قال: فيلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه»، وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بأصابعه، فأدخل بعضها في بعض قال: «ويقيض له سبعون تنيناً، لو أن واحدا منها نفخ في الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا، فينهشنه ويخدشنه، حتى يقضى به إلى الحساب» قال

---

(١) البخاري (٢ / ١٢٤)، ومسلم (٨ / ١٦٠).

(٢) الطبراني في الكبير، وسنده ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم.

رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار»[1].

وقال كعب: إذا وضع الرجل الصالح في قبره، احتوشته أعماله الصالحة: الصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، والصدقة. وقال: وتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه، فقد أطال بي القيام لله عزّ وجلّ، قال: فيأتونه من قبل رأسه، فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه فقد أطال بي الصيام. قال: فيأتونه من قبل جسده، فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه، فقد أنصب نفسه، وأتعب بدنه، وحج وجاهد لله عزّ وجلّ، لا سبيل لكم عليه. فيأتونه من قبل يديه، فتقول الصدقة: كم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وضعت في يد الله ابتغاء وجهه، فلا سبيل لكم عليه. قال: فيقال له: هنيئاً طبت حياً، وطبت ميتاً. قال: وتأتيه ملائكة الرحمة، فتفرشه فراشاً في الجنة ودثاراً من الجنة، فيفسح له في قوة مد بصره، ويؤتى بقنديل من الجنة يستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره.

وعن أنس بن مالك أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبدالله ورسوله. فيقولان: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله عزّ وجلّ به مقعداً في الجنة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فيراهما جميعاً. وأما الفاجر أو المنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين» أخرجاه في «الصحيحين»[2].

وفيهما من حديث أسماء بنت أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أوحي إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم مثل ـ أو قال قريباً من ـ فتنة المسيح الدجال، يقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبدالله ورسوله. . .»[3] وذكر باقي الحديث.

---

(1) الترمذي (٢٤٦٠) وفي سنده عبيد الله بن الوليد الوصافي، وهو ضعيف.

(2) البخاري (٢ / ١٢٣)، ومسلم (٨ / ١٦١ ـ ١٦٢).

(3) البخاري (٢ / ٤٧)، ومسلم (٣ / ٣٢).

وعن ابن عباس قال: لما أخرجت جنازة سعد بن معاذ وسوينا عليها، التفت إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ما من أحد من الناس إلا وله ضغطة في قبره، ولو كان منفلتاً منها أحد لانفلت سعد بن معاذ»[1]. وذكر باقي الحديث.

وعن عبدالله الصنعاني قال: رأيت يزيد بن هارون في المنام بعد موته بأربع ليال، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: تقبل مني الحسنات، وتجاوز عني السيئات. قلت: وما كان بعد ذلك؟ قال: وهل يكون من الكريم إلا الكرم، غفر لي ذنوبي وأدخلني الجنة، قلت: بم نلت الذي نلت؟ قال: بمجالس الذكر، وقولي الحق، وصدقي في الحديث، وطول قيامي في الصلاة، وصبري على الفقر، قلت: منكر ونكير حق؟ قال: أي والله الذي لا إله إلا هو، لقد أقعداني وسألاني: من ربك؟ وما دينك، ومن نبيك؟ فجعلت أنفض لحيتي البيضاء من التراب، وقلت: مثلي يسأل؟! أنا يزيد بن هارون الواسطي، كنت في دار الدنيا ستين سنة أعلم الناس؟ فقال أحدهما: صدق، هو يزيد بن هارون، نم نومة العروس، فلا روعة عليك بعد اليوم.

وقال المروزي: رأيت أحمد بن حنبل في النوم في روضة، وعليه حلتان خضروان، وعلى رأسه تاج من النور، وإذا هو يمشي مشية لم أكن أعرفها له، فقلت: يا أحمد! ما هذه المشية التي لم أكن أعهدها لك؟ فقال: هذه مشية الخدام في دار السلام. فقلت: وما هذا التاج الذي أراه على رأسك؟ فقال: إن ربي عزّ وجلّ أوقفني وحاسبني حساباً يسيراً، وكساني وحباني وقربني، وأنا أنظر إليه، وتوجني بهذا التاج وقال لي: يا أحمد! هذا تاج الوقار توجتك به، كما قلت: القرآن كلامي غير مخلوق.

فصل [في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين الاستقرار في الجنة أو النار]

قد أشرنا إلى أهوال القبر، وأشد من ذلك نفخ الصور والبعث والحساب ونصب الميزان والصراط، وهذه أهوال يجب الإيمان بها، وينبغي تطويل الفكر فيها، وجمهور الناس لم يتمكن من قلوبهم الإيمان بالآخرة، ولو أن الإنسان لم يشاهد توالد الحيوانات، ثم قيل له: إن صانعاً يصنع من هذه النطفة القذرة مثل

(١) أحمد (٦ / ٥٥، ٩٨).

هذا الآدمي المتصور العاقل المتكلم، لاشتد نفور طبعه عن التصديق بذلك، فخلقه على ما فيه من الأعاجيب، يزيد على بعثه وإعادته. وكيف ينكر ذلك ـ من قدرة الله تعالى وحكمته ـ من يشاهد البداية؟ فإن كان في إيمانك ضعف، فقوّ الإيمان بالنظر في النشأة الأولى، فإن الثانية مثلها وأسهل منها، وإن كنت قوي الإيمان بها، فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار، وأكثر فيها التفكر والاعتبار، وليحثك ذلك على الجد والتشمير. وأول ما يقرع أسماع الموتى صوت إسرافيل حين ينفخ ذلك في الصور. فصور نفسك وقد قمت ذاهلاً مبهوتاً شاخصاً نحو النداء. قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف أنعم وصاحب الصور قد حنى جبهته، وأصغى بسمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ في الصور فينفخ؟!» قال المسلمون: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، وتوكلنا على الله»[1]. ثم انظر كيف يحشر الناس يوم القيامة. فيساقون بعد البعث حفاةً عراةً إلى أرض المحشر، وهي قاع ليس فيها ربوة يختفي الإنسان بفنائها.

وفي «الصحيحين» قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «يحشر الناس يوم القيمة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي»[2].

ثم تفكر في ازدحام الناس، وقرب الشمس من رؤوسهم، وشدة العرق، مع ما في القلوب من القلق.

وفي الحديث: «إن العرق يأخذ الناس على قدر أعمالهم»[3].

وتفكر يا مسكين في سؤال ربك لك عن أعمالك بغير واسطة، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان، فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»[4].

وعن أبي برزة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل: عن عمره فيما أفناه، وعن عمله فيما عمل فيه،

(١) ابن حبان (٢٥٦٩)، والحاكم (٤ / ٥٥٩).
(٢) البخاري (٨ / ١٣٥)، ومسلم (٨ / ١٢٧).
(٣) مسلم (٨ / ١٥٨)، والترمذي (٢٤٢١)، والبغوي (٤٣١٧).
(٤) الترمذي (٢٤٢٥)، أحمد (٤ / ٤١٦)، وابن ماجة (٤٢٧٧).

وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»[1].

وعن صفوان بن محرز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر رضي الله عنه، إذ عرض له رجل فقال: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في النجوى يوم القيامة؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الله عزّ وجلّ يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. قال: ثم يعطى كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون، فيقول الأشهاد: ﴿ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ١٨] أخرجاه في «الصحيحين»[2].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يضرب جسر على جهنم فأكون أول من يجوز؟»[3].

وفيهما أيضاً، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم، قالوا: يا رسول الله! ما الجسر؟ قال: مدحضة مزلة، عليها خطاطيف وكلاليب وحسك، يمر المؤمنون عليه كالطرف، وكالبرق الخاطف، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، وناج مخدوش، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً»[4].

ذكر جهنم أعاذنا الله منها

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً، فسمعنا وجبة، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفاً، فالآن انتهى إلى قعرها»[5] رواه مسلم.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من نار

(١) الترمذي (٢٤١٧)، والدارمي (١ / ١٣١).
(٢) البخاري (٨ / ٢٤، ٩ / ١٨١)، مسلم (٨ / ١٠٥)، وأحمد (٢ / ٧٤).
(٣) البخاري (١٤٧/٨، ١٥٦/٩)، ومسلم (١١٣/١).
(٤) البخاري (٩ / ١٥٩)، ومسلم (١ / ١١٦).
(٥) مسلم (٨ / ١٥٠).

جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلها مثل حرها»[1].

وفي افراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»[2].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: يلقى على أهل النار الجوع، فيعدل عندهم ما فيه من العذاب، فيستغيثون بالطعام، فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصة بالشراب، فيستغيثون بالشراب، فيغاثون بالحميم، ينالونه بكلاليب من حديد، فإذا دنا منهم شوى وجوههم، وإذا دخل بطونهم قطع ما في بطونهم، فيطلبون إلى خزنة جهنم أن ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ العَذَابِ ﴾ فيجيبونهم: ﴿ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ [غافر: ٤٩] فيقولون: سلوا مالكاً، فيقولون: ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ فيقول: ﴿ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧] فيقولون: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ فيقول عزّ وجلّ: ﴿ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُون ﴾ [المؤمنون: ١٠٧ - ١٠٨]. فعند ذلك ييأسون من كل خير، ويأخذون في الشهيق والويل والثبور.

وتفكر في حيَّاتها وعقاربها، ففي الحديث: «إن حيَّاتها أمثال أعناق البخت، وعقاربها كالبغال الموكفة»[3].

وعن الحسن: أن النار تأكلهم كل يوم سبعين ألف مرة ثم يعودون كما كانوا.

واعلم: أن صفة جهنم تطول، وأيسر اليسير من ذلك ينبغي أن يكفي في التخويف، فإن كنت مؤمناً بهذا فانتبه لنفسك، وخف ما بين يديك، فإن الله لا يجمع على عبد خوفين، ولسنا نعني بالخوف رقة النساء فتبكي ساعة ثم تترك العمل، وإنما نريد خوفاً يمنع عن المعاصي، ويحث على الطاعة. فأما خوف الحمقى الذين اقتصروا على سماع الأهوال، وأن يقولوا: استعنا بالله، نعوذ بالله، يا رب سلم، وهم مع ذلك مصرون على القبائح، والشيطان يسخر بهم كما يسخر

(١) البخاري (٤ / ١٤٧)، ومسلم (٨ / ١٤٩).
(٢) مسلم (٨ / ١٤٩)، والترمذي (٢٥٧٣).
(٣) أحمد (٤ / ١٩١).

ممن قصده سبع ضارٍ وهو إلى جانب حصن، فيقول: أعوذ بالله من هذا، وهو لا يدخل الحصن ولا يبرح مكانه.

فصل [في محبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم]

وكن في الدنيا محباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حريصاً على تعظيم سنته، لعله يشفع فيك في الآخرة، فإن له شفاعة يتقدم فيها على الأنبياء كلهم، ويسأل اللّهَ في أهل الكبائر من أمته فينجيهم. واستكثر من الإخوان الصالحين، فلكل مؤمنٍ شفاعة، ولا تحملنك الغرة على التواني وتسمي ذلك رجاءً، فإن من رجا شيئاً طلبه، واحترز من المظالم، فإن من كانت عليه مظالم ومات قبل ردها، فإن غرماءه يحيطون به في القيامة، فهذا يقول: ظلمني، وهذا يقول: استهزأ بي، وهذا يقول: أساء جواري، وهذا يقول: غشني، فلا خلاص لك من أيديهم. فإذا توهمت الخلاص قيل: لا ظلم اليوم.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أتدرون ما المفلس»؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لتؤدُّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[3].

---

(١) البخاري (٣ / ١٦٧ - ١٦٨، ٨ / ١٣٨)، وفي الأدب المفرد (٤٨٦)، وأحمد (٣ / ١٣، ٦٣، ٧٤)، والبغوي (٤٣٦٤).

(٢) مسلم (٨ / ١٨)، والترمذي (٢٤١٨)، وأحمد (٢ / ٣٠٣، ٣٣٤).

(٣) مسلم (٨ / ١٨ - ١٩)، والبخاري في الأدب المفرد (١٨٣) والترمذي (٢٤٢٠)، وأحمد (٢ / ٢٣٥، ٣٠١، ٣٢٣).

وهذه الأحاديث كلها في الصحاح. فانظر وفقك الله إلى بُعْدِ سلامة حسناتك لدخول ما يبطلها من الرياء والغيبة، فإن سلمت أخذها الخصوم، فتيقظ لنفسك، ولا تفرط في أوقاتك، فإن المسكين من آثر لذة متقطعة، واشترى بها عذاباً شديداً دائماً. نسأل الله السلامة والتوفيق.

ذكر صفة الجنة
نسأل الله العظيم من فضله

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله! حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»[1].

وفي حديث أسامة بن زيد، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال يوماً وذكر الجنة: «ألا مشمر لها؟ هي ورب الكعبة ريحانة تهتز، ونور يتلألأ، ونهر مطرد، وزوجة لا تموت، في حبور ونعيم، ومقام في أبد»، فقالوا: نحن المشمِّرون لها يا رسول الله، قال: «قولوا: إن شاء الله»[2].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «إن الله عزّ وجلّ قال: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[3].

وفيهما أيضاً من حديثه عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، وريحهم المسك، ومجامرهم الألوَّة الألنجوج، أزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً في السماء»[4]. وفي

---

(١) الترمذي (٢٥٢٦)، وأحمد (٢ / ٣٠٥، ٤٤٥)، وابن حبان (٢٦٢١)، والدارمي (٢ / ٣٣٣)، وابن المبارك (١٠٧٥).

(٢) ابن ماجة (٤٣٣٢)، وابن حبان (٢٦٢٠)، وسنده فيه ضعيف.

(٣) البخاري (٤ / ١٤٣، ٦ / ١٤٥)، ومسلم (٨ / ١٤٣).

(٤) البخاري (٤ / ١٦٠)، ومسلم (٨ / ١٤٦، ١٤٧).

رواية أخرى: «لكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً»[1].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». أخرجاه في «الصحيحين»[2].

وفيهما من حديث أبي موسى أيضاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن في الجنة لخيمة من درة مجوفة، عرضها ستون ميلا، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن»[3].

واعلم: أن الله تعالى ذكر نعيم الجنة مبسوطاً في مواضع القرآن، ثم جمعه في آيات. منها قوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقوله: ﴿ لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف: ١٠٨] ثم زاد على ذلك بقوله: ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِي لهم من قُرَّةِ أعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧].

صفات الجنة كثيرة اقتصرنا منها على هذا.

وأفضل ما ينال في الجنة رؤية الله تعالى. وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قيل: يا رسول الله! هل نرى ربنا؟ فقال: «فهل تضامون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك»[4].

باب في ذكر سعة رحمة الله تعالى

نختم الكتاب بذكر سعة رحمة الله عزّ وجلّ، نرجو بذلك فضله، إذ ليس لنا أعمال نرجو بها العفو، لكن نرجو ذلك من رحمته وكرمه. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِم لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) البخاري (٤ / ١٤٣)، ومسلم (٨ / ١٤٧).

(٢) البخاري (٦ / ١٨١، ٩ / ١٦٢)، ومسلم (١ / ١١٢).

(٣) البخاري (٤ / ١٤٣، ٦ / ١٨٢)، ومسلم (٨ / ١٤٨، ١٤٩).

(٤) البخاري (٩ / ١٥٦)، ومسلم (١ / ١١٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما قضى الله عزّ وجلّ الخلق، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي» أخرجاه في «الصحيحين»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن لِلّه عزَّ وجلَّ مائة رَحْمة، أنزَل منها رَحْمة واحدة بين الإنْس والجنِّ والهَوَامّ والبهائم، فَبِها يَتعاطَفُونَ، وبها يَتراحَمُونَ، وبها تَعطِفُ الوحْشُ عَلَى أولادِها. وأخَّر تِسْعاً وتِسعِين رحمة يَرْحَمُ بِها عبادَهُ يومَ القيامَة»[2].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم: «إن ربكم تبارك وتعالى رحيم، من همَّ بحسنة فلم يَعْمَلها كُتِبَتْ له حَسَنة، فإن عَمِلَها كُتِبَت لَهُ عَشر حَسَنات إلى سبعمائة ضِعْفٍ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حَسَنة، فإن عملها كُتبت له سَيئة واحدة أو يَمْحُوها الله، ولا يَهْلِكُ عَلى الله تَعالى إلا هَالِك».

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقُول الله عزَّ وجلَّ: مَنْ عَمِل حَسَنة فَلَهُ عَشر أمثالها وأَزِيد، وَمَنْ عمِلَ سَيئَة فجزاءُ سَيِّئة مثلُها أو أغفِر، وَمَنْ اقترب إليَّ شبراً اقتربْتُ إليه ذراعاً، ومن اقترب إليَّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتَيْتُه هَرْوَلَةً»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن رجلاً أذنب ذنباً فقال: أي رب! أذنبت ذنباً فاغفر لي، فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: أي رب! عملت ذنباً فاغفره لي، فقال عزَّ وجلَّ: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: أي رب! عملت ذنباً فاغفره لي، فقال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء»[4]. هذه الأحاديث كلها صحاح.

---

(١) البخاري (٩ / ١٥٣)، ومسلم (٨ / ١٩٦).

(٢) البخاري (٨ / ٩، ١٢٣)، ومسلم (٨ / ٩٦).

(٣) مسلم (٨ / ٦٧)، وابن ماجه (٣٨٢١)، وأحمد (٥ / ١٥٣).

(٤) البخاري (٩ / ١٧٨)، ومسلم (٨ / ٩٩).

وفي «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسبي، وإذا امرأة من السبي تسعى، إذ وجدت صبياً في السبي فأخذته، فألصقته ببطنها، فأرضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أترون هذا المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا والله. قال: «لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها»[1].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَا مِنْ عَبدٍ قَالَ: لَا إله إلا الله، ثُم مَاتَ عَلى ذلِك إلا دَخَل الجَنَّة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق، وإن زنى وإن سرق! وإن زنى وإن سرق! ثم قال في الرابعة: «على رغم أنف أبي ذر»[2].

وفيهما من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الله حرم النار على من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»[3].

وفيهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير وزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرَّة»[4].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كَانَ يَوم القيامة لم يَبْق مُؤْمِن إلا أُتِيَ بيَهُودِي أَوْ نَصْراني حَتى يدفَع إليه فَيُقَال له: هَذا فِكَاكُك مِن النار»[5].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله عزّ وجلّ يَسْتَخْلصُ رَجُلاً من أُمتي على رُؤوس الخَلائِق يَوم القيامة، فينشُر عليه تسعة وتسعين سِجِلاً، كل سجِلٍ منها مدّ البَصر، ثم يقول:

---

(١) البخاري (٨ / ١٩)، ومسلم (٨ / ٩٧).

(٢) البخاري (١١٧/٨)، ومسلم (٧٥/٣، ٧٦).

(٣) البخاري (١ / ١١٦، ٢ / ٧٥)، ومسلم (١ / ٤٥، ٢ / ١٢٦).

(٤) البخاري (١ / ١٧، ١٨)، ومسلم (١ / ١٢٥).

(٥) مسلم (٨ / ١٠٤، ١٠٥)، وأحمد (٤ / ٤٠٢) والبغوي (٤٣٢٤).

أتُنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كَتَبَتي الحافِظُون؟ قال: لا يارب، فيقول: ألك عُذْر أو حَسَنة؟ فيبهت الرَّجُل، فيقول: لا يا رب فيقول: بلى، إن لك عندنا حَسَنةً واحدة، لا ظُلمَ عليك اليَوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهْد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدهُ ورسولهُ، فيقول احضروه، فيقول: ما هذه البطاقة مع هذه السِّجلات، فَيُقال: إنك لا تُظْلَم، فتوضَع السِّجلات في كفةٍ والبطَاقة في كفة. قال: فَطَاشَت السِّجلات وثَقُلَت البِطَاقة، وَلا يَثْقُل شيء مع اسم الله عزَّ وَجَلَّ»[1].

ونظر الفضيل بن عياض إلى تسبيح الناس وبكائهم يوم عرفة فقال: أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل يسألونه دانقاً، أكان يردهم؟ فقيل: لا، فقال: والله المغفرة عند الله عزَّ وجلَّ أهون من إجابة رجل لهم بدانق!.

وعن إبراهيم بن أدهم قال: حلا لي الطواف في ليلة مظلمة شديدة المطر، فلم أزل أطوف إلى السحر، ثم رفعت يدي إلى السماء. فقلت: اللهم إني أسألك أن تعصمني عن جميع ما تكره. فإذا قائل يقول في الهواء: أنت تسألني العصمة، وكل خلقي يسألني العصمة، فإذا عصمتك فعلى من أتفضل؟.

فهذه الأحاديث مع ما ذكرناه في كتاب الرجاء، تبشرنا بكرم الله تعالى وسعة رحمته وجوده. ونحن نرجو من الله سبحانه أن لا يعاملنا بما نستحقه، وأن يتفضل علينا بما هو أهله. ونحن نستغفر الله عزَّ وجلَّ من أقوالنا التي تخالف أعمالنا، ومن كل تصنع تزيَّنا به للناسَ، وكل علم وعمل قصدناه، ثم خالطه ما يكدره، فبكرمه نستشفع إلى كرمه، وبجوده نسأل من جوده، إنه قريب مجيب.

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكريم وجهه عزَّ وجلَّ.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجة (٤٣٠٠)، وأحمد (٢ / ٢١٣)، والحاكم (١ / ٦، ٥٢٩)، وابن حبان (٢٥٢٤)، والبغوي (٤٣٢١)، وابن المبارك في الزهد (٣٧١).

فهـــرس أطراف الحديـث

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

الفهرس